رواية

لم يُصلِّ عليهم أحد

خالد خليفة

مكتبة
Telegram
Network
2020

نوفل

رواية

لم يُصلِّ عليهم أحد

خالد خليفة

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2019
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: Oleksii Nazarenko / Alamy Stock Photo ©
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-469-436-7
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-437-4

الفصل الأول
الطوفان

حوش حنّا – حلب – كانون الثاني 1907

كانت قرية حوش حنّا صامتة تماماً حين هبّت العاصفة، وحدث الطوفان العظيم.

خلال ساعات قليلة دُمّرت بيوت القرية الصغيرة، وغرق سكّانها مع أسمالهم، لم ينجُ من الطوفان سوى ماريانا نصّار وشاها شيخ موسى زوجة زكريّا البيازيدي، تشبّثت الاثنتان بجذع شجرة جوز عالقة بين أعمدة حديد المنارة التي ترشد القوارب إلى عمق النهر. أنقذهما صيّادون فقراء، ونقلوهما إلى أحد منازل قرية قريبة بعدما هدأ كلّ شيء فجراً.

قبل أن تغيب ماريانا نصّار عن الوعي رأت جثث أمّها وأبيها وإخوتها الأربعة، طافية على صفحة النهر مع جثث أشخاص تعرفهم، جارتها وأولادها الستة وباقي جاراتها الفقيرات، رأت جثة خطيب إيفون، التي كانت في حلب تخيط ثياب عرسها، غير مكترثة بشائعات افتضاض خطيبها لبكارتها في مطحنة أبيه. خوري كنيسة القرية كان مبتسماً كعادته، قربه ابن حنّا الذي لم يكمل عامه الرابع مع أمّه جوزفين اللحّام الممسكة به بقوّة، كانت جثثهم تعلو وتهبط مع الأمواج كأنّهم يرقصون.

كانت ماريانا تعرف أغلب الغرقى، تلاميذها وجيرانها وأصدقاء أهلها من القرى المجاورة، وصديقاتها، كلّ الجثث مرّت بقربها، دُفنت في النهر حياة كاملة، لم تكن متأكدة من نجاتها، أغمضت عينيها مستسلمة، تستجدي يسوع، وهي ممسكة بجذع شجرة الجوز القويّة التي علقت في المنارة، لاحظت شاها قربها تضمّ جثة ابنها إلى صدرها، نجح الصيّادون في انتزاعه من بين ذراعيها بصعوبة.

رأت ماريانا الطناجر والبسط والفرش، خوابي الماء المحطمة مختلطة مع أخشاب سقوف البيوت، المرايا، صناديق الأعراس، وأشياء أخرى لم تستطع تمييزها، بقيت في ذاكرتها صورة شاها متشبّثة بابنها الميت حين قذفته الأمواج قريباً منها، وابتسامة الخوري الذي خصّص آخر عظة في الكنيسة للدفاع عن شرف إيفون وخطيبها، عاشقَي الأبد كما كان فلّاحو قرية حوش حنّا يسمّونهما.

وصل زكريّا البيازيدي مع صديقه حنّا كريكورس عصراً بعد سماعهما خبر الكارثة، وحين تراءت لهما القرية المدمّرة من بعيد، انتابهما الفزع. لم يصدّق زكريّا أنّ شاها الغائبة عن الوعي ما زالت تتنفّس، وجثّة ابنهما الميت متكوّرة في حضنها، كانا ملتصقين. أصيب حنّا بذهول تامّ، ظنّ للحظة أنّه فقد النطق. قاده أحد الصيّادين عبر طريق ضيّق مليء بالحطام، ليدلّه إلى جثّة زوجته جوزفين، كانت أكثر بياضاً ممّا كانت عليه في الحقيقة، أطبقت شفتيها كالموتى، وكان ابنه قربها متخشّباً وبطنه منفوخاً كقربة.

جرجر حنّا قدميه بتثاقل، عاد من طريق النهر الذي يعرفه جيّداً، قفز فوق جثث الأبقار والأغنام والموتى، صعد الدرج الطويل إلى غرفته البعيدة. من نافذتها العريضة رأى قريته التي تحوّلت إلى طمي، وبقايا أشياء، لم يعد هناك ما يحجب الرؤية لمسافات بعيدة، كان النهر الذي يعرفه جيّداً يجري كما هو منذ الأزل، وديعاً، هادئاً، كأنّه لم يفعل شيئاً، تلتمع الشمس على صفحته كليرات ذهبية.

فكّر بأنّه أصبح مرّة أخرى وحيداً دون عائلة، اللهو أنقذه هو وصديقه زكريّا. لو تأخرا عن موعدهما في القلعة مع أصدقائهما، لكانا الآن جثتين منتفختين، تفوح منهما رائحة الموت الجماعي النتنة، التي حاول إعادة توصيفها لكنّه لم يستطع. لم ينسَ جواب ماريانا حين أخبرته بأنّ جوزفين كانت فزعة أثناء صعود روحها إلى السماء، ترفع يدها وتلتقط الهواء، وفي اليد الأخرى أمسكت ابنها بقوّة، غطست وعادت إلى سطح النهر أكثر من مرّة قبل أن تغرق وتتحوّل إلى جثة، وديعة ومبتسمة، كما كانت حين وصلت للمرة الأولى إلى حوش حنّا، ورآها جميع فلّاحي القرية تنزل من العربة. وحين ألحّ حنّا في سؤال ماريانا عن لحظاتهما الأخيرة، اكتفت بالقول إنّ الغرقى تختفي ملامحهم ولا يشبهون الموتى الآخرين.

شعر حنّا بأنّه عالق في نفق مظلم، يسمع صوت تحطّم عظام كائنات منقرضة تحت قدميه. لم يحتمل زكريّا رؤيته خائفاً إلى هذه الدرجة، تصرّف بقوّة. رتّب مقبرة القرية من جديد، بمساعدة فلّاحي القرى المجاورة، ودفن أغلب الجثث التي لفظها النهر إلى ضفّتيه. كان يعرفهم حتى بعد تشوّه ملامحهم، يعرف ندوبهم، ولون عيونهم، كان يدفن جزءاً حميماً من حياته الشخصيّة في قبورهم.

بدت المقبرة لزكريّا وحنّا في غاية الروعة، وهما ينظران إليها من نافذة الغرفة، قبور المسيحيّين مصفوفة بعناية جانب قبور المسلمين، وقبور المجهولين والغرباء في صفّ ثالث منتظم، وتُركت قبور أخرى مفتوحة لاستقبال أيّ جثث يجرفها النهر من القرى البعيدة. منذ ثلاثة أيّام يحفر الفلّاحون القبور، ويستمعون إلى تعليمات زكريّا الذي لم يفكّر في تلك اللحظة سوى بدفن الأموات، كان يردّد أنّ الموتى سرعان ما يتحولون إلى وباء، دفن أكثر من مئة وخمسين جثة، ولم ينجُ من ملمسها البارد ورائحتها التي رافقته إلى الأبد. لم يكن يعرف أنّ رائحة الموت تعلق في الثياب، والدفن ليس أمراً أقلّ مشقّة كما تراءى له حين أعطى أوامره للفلّاحين بحفر القبور، وأرسل من يستدعي شيخاً وكاهناً لتكتمل المراسم. حضر الكاهن والشيخ ورفضا الصلاة على الجثث غير المعروفة، أو الضائعة الملامح، قال الشيخ لا يجوز الدفن على الطريقة الإسلامية والصلاة على جثّة لشخص قد يكون مسيحيّاً، وافقه الكاهن مؤكّداً أنّهم يجب أن يتأكّدوا من ديانة الجثة، لكنّ زكريّا تابع دفن الجميع على طريقته دون اكتراث بصلاتهما، مردّداً أنّ الموتى يخسرون صفاتهم الدنيويّة، ويتحوّلون إلى كائنات أخرى لا تعنيهم أمور الجنّة.

بعد عشرة أيّام أنهى زكريّا دفن الجثث، جلس على درج الغرفة، سمع صوت نشيج حنّا. شعر بإعياء شديد، فكّر بحياته وحياة صديقه المقبلة، لم يبهجه منظر أحصنته الستين التي ضاعت أنسابها مع غرق «حجّتها»، وقد عادت للاجتماع في مكان إصطبلها الذي بقي منه حطام أخشاب ومعالف حجريّة فارغة.

جهّز زكريّا عربة يجرّها حصانان، ولم يسافر مع مارلين نصّار وشاها إلّا حين انتزع من حنّا وعداً باللحاق بهم بعد عدّة أيّام إلى حلب، لم ينظر إلى الخلف حين غادرت العربة ما كان يُسمّى قرية حوش حنّا، أراد نسيان المكان الذي تحوّل إلى مقبرة، سارت أحصنته وراءه منكّسة الرؤوس، حزينة لمغادرة ضفّة النهر وإصطبلاتها المندثرة.

لم يصدّق فقد طفله الوحيد، غرق طوال الطريق في صمت ثقيل، ولم يردّ على شاها التي أخبرته بأنّ الصوت أصبح يجرحها. قبل الطوفان كانت تطلب منه إغلاق الستارة حين ينسلّ ضوء الفجر من نافذة غرفتهما، وتخبره بأنّ الضوء يجرحها حين تكون ممدّدة قربه عارية في السرير. عاشا قبل الطوفان بيقين أنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام، سينجبان أطفالاً يرثون حبّ الأحصنة، وتجرحهم أشياء غير مرئيّة كالضوء والهواء والصوت. لكنّهما الآن بعد الطوفان يدخلان منزل عائلة زكريّا في حيّ الجديدة كيتيمين، لا يستطيعان شرح ما حدث لأبيه أحمد البيازيدي وأخته سعاد التي عرفت أنّ الطوفان لم يأخذ ابنهما فقط، بل دمّر ما بقي من شغفهما وحبّهما، قالت لأبيها يجب أن نعتاد عليهما كطيفين وشخصين غير مرئيّين. لم يفهم الأب مفردات ابنته، شجّعها على إقناع أخيها بضرورة فتح عزاء، والذهاب إلى حوش حنّا لإحضار حنّا، تركه وحيداً قرب الموتى يعني تلاشيه كأوراق وردة ذابلة.

ترك زكريّا أمر العناية بالأحصنة لسائسه يعقوب المسؤول عن إصطبله الثاني في قرية العنابية، ولم يجب عن سؤاله إن كان بإمكانهما استعادة «حجّة» هذه الأحصنة. ولم يكترث ليعقوب الذي ردّد: «ما قيمة الأحصنة دون سجلّ أنسابها؟»، حين عاد زكريّا إلى غرفته في منزل أهله ليلاً كانت شاها نائمة، جلس قربها على الكنبة، نظر إليها مليّاً، تغيّرت كثيراً، لا يمكن لرؤية الموت أن تحوّل شخصاً في ساعات قليلة إلى كائن آخر، عيناها الضاحكتان غارتا، تحوّلتا إلى حفرتين من دم متخثّر، صدرها يعلو ويهبط في تنفّس مضطرب، شفتاها مزمومتان كأنّها خائفة من تسرّب ماء النهر إلى أعماقها، حلمتها الغامقة الكبيرة صغرت، وأصبح الوادي الرائع بين ثدييها حفرة دون ظلال. لم يرها من قبل نائمة، لن تعاتبه بعد الآن على سفره الدائم مع حنّا بحثاً عن اللهو والنساء وموائد القمار، لن تضحك بغنج حين يردّ عليها بهدوء أنّ الخيول تحبّ النساء وموائد القمار واللهو، مضيفاً: «لن تجدي خيولاً أصيلة في بيوت الخائفين والبخلاء والمرابين»، كانت تكمل غنجها وتطلب منه وصف النساء اللواتي يشبهن الخيول، لكنّها الآن مستسلمة لصورة الموت.

لم تفهم شاها العلاقة بين الخيول والمرابين في الأيّام الأولى لزواجهما، لكنّ الفكرة أعجبتها، فكّرت بأنّ اللهو هو الذي عرّفها إليه. حين رآها في منزل أخيها عارف خطفت قلبه بقامتها الممشوقة، وعينيها الواسعتين. أحبّها زكريّا وتبادل معها نظرات طويلة، همس لحنّا المخمور بأن يطلب له يدها. ضحك عارف حين أخبره حنّا بكلمات جدّية أنّه يطلب يد شاها لزكريّا، خرج عارف من المضافة وأحضر أخته، سألها: هل تقبلين الزواج بزكريّا الآبق؟ قالت مبتسمة: نعم. أكمل يجب أن تعرفي أنّه رجل ماجن، ولا يحترم الحياة الزوجية، سيخونك مع أول امرأة يصادفها على طريق عفرين. أعادت جوابها: نعم أقبل الزواج به. لم يعرف عارف ماذا عليه أن يفعل في

مثل هذه اللحظات، سار نحو الخزانة، أخرج بندقيّته وأطلق الرصاص في الهواء، أرسل في طلب الملا منان ليكتب الكتاب، ولم يناقشا أيّة تفاصيل.

شعر حنّا بأنّ شيئاً جديداً حدث في حياتهما يستحق أن يقف مخموراً لأجله وسط الحفلة ويخرج من زنّاره الجلدي ليرات ذهبيّة ليقدّمها لشاها هديّةً لزفافها. كان كلّ شيء سهلاً، مرحاً، رائعاً كما بقيت تصفه شاها. لم يكترث عارف باعتراضات عائلته التي كانت تفضّل عريساً كردياً لابنة شيخ موسى آغا. لم يبخل عارف على أخته، أقام لها عرساً كبيراً، رقص فيه، جامل أحمد البيازيدي وسعاد التي يصفها بالمتعجرفة. لم تكن سعاد معجبة بارتجال عرس أخيها، كما لم يعجبها زواجه بفتاة قرويّة حتى لو كانت ابنة آغا، لكنّ سعادة العروسين كانت كافية لتؤجّل انتقاداتها. تعرف في أعماقها أنّ هذا الزواج إعلان لانفصال زكريّا عن العائلة إلى الأبد، لن يكترث بما سيقوله الأقرباء، ترك هذه المهمّة لأبيه الذي كان في قرارة نفسه سعيداً، شاها تنتمي لعائلة كبيرة وقويّة، وزواج ابنه بها وضع حدّاً لخوفه الدائم من تورّطه في الزواج بإحدى عاهرات القلعة اللواتي تروي المدينة حكايات خرافيّة عن مجونهنّ وشبقهنّ.

بعد العرس الذي استمرّ ثلاثة أيّام غادرا شران محمّلين بهدايا غصّت بها ستّ عربات كبيرة، بسط من الصوف الخالص، أغطية وسائد مطرّزة، وسجاجيد كردية مصنوعة خصّيصاً لجهاز شاها منذ سنوات طويلة، وطناجر نحاس كبيرة، بالإضافة إلى جرار من جبن الماعز، وزيت الزيتون، لحوم مقدّدة، وأشياء صغيرة لم يرها زكريّا كخلاخيل شاها، وقلادة كبيرة من الذهب الخالص، بالإضافة إلى عربة خاصّة للعروسين يجرّها حصان أسود أصيل، أهداه عارف لصديقه وصهره.

قالت شاها لزكريّا في طريقهما إلى حوش حنّا إنّها أحبّته مذ رأته للمرّة الأولى قبل ثلاث سنوات، بحثت عنه بين ضيوف أخيها الدائمين، روت قصصاً كثيرة عنه في لحظات تجليه، قالت له إنّها وضعت له الكمادات على جبينه يوم أصابته الحمّى قبل سنتين. في ليلة ماجنة جمع فيها عارف آغا أصدقاءه الكثر بمناسبة انتهاء قطاف الزيتون. في الحقيقة كان يحتفل بأشياء كثيرة حدثت في تلك السنة، أهمّها عودة مكتبة والده إلى مكانها، والمصالحة التي تمّت أخيراً بينه وبين عمّه، الذي ضربه بحذائه أمام خادمه مبروك الحبشي ووصفه بالجاهل، حين عرف أنّه باع المكتبة لشخص إنكليزي دائم التجوال في المنطقة الممتدّة من كلس إلى قلعة سمعان بصحبة مترجم، مهتمّ بمسرح النبي هوري، وبقايا المعابد والكنائس المدمّرة في براد وقرى جبل ليلون. استعاد عارف المكتبة بصعوبة، سافر إلى حلب حيث يقيم الشخص الإنكليزي في منزل تعود ملكيّته للقنصليّة الإنكليزيّة، دفع أموالاً زيادة عن الثمن الذي قبضه، توسّط له زعماء عشائر عربيّة وآغوات أكراد، نجحوا في عقد صفقة استعادة المكتبة التي ما زالت في الصناديق استعداداً لإرسالها إلى لندن، رغم نقصانها ثلاث مخطوطات قديمة مكتوبة باللغة الكردية، أهمّها مخطوطة ممو زين المنسوخة بخطّ عبد اللطيف بهزاد أحد مريدي الشاعر المتصوّف أحمد الخاني.

استُقبلت المكتبة العائدة باحتفال صاخب، أنشد فيه منشدون من قصائد أحمد الخاني والملا الجزيري لثلاثة أيّام، تفحّص عمّه مع الملا منان الكتب التي أعاد الخادم مبروك الحبشي ترتيبها وتبويبها كما كانت، رغم حزنهما لضياع المخطوطات الثلاث الفريدة شعرا بالرضى لعودتها مرة أخرى إلى مكانها في المنزل المبنيّ على تلة ضمن مزرعة عارف والذي كان يسمّى بيت الجدّ، منزل منفصل يتربّع على تلة، مؤلف من غرفتين كبيرتين تطلان على حقول الزيتون الواسعة.

في تلك الحفلة شرب زكريّا الكثير من العرق، شعر آخر الليل بالإنهاك، وبآلام شديدة في بطنه، تعرّق جبينه وجسده لم يتوقف عن الخلجان، استدعى عارف الطبيب من أعزاز، لم يحتج إلى جهد كبير لتشخيص حالته، قال إنّ زكريّا شرب العرق كبغل، وإنّها مجرّد حمّى يحتاج للشفاء منها إلى راحة تامّة وكمادات مع أعشاب مغليّة. نقله عارف إلى الغرفة الكبيرة في منزل الجدّ، وأوصى شاها بتغيير الكمادات له. كانت سعيدة بهذه المهمّة، وجدت نفسها قريبة منه إلى حدّ اختلاط أنفاسهما، انتهزت فرصة ذهاب الخادم مبروك لإحضار الحطب للمدفأة، تأمّلته مليّاً، تشمّمته ببطء، أمسكت بأصابعه، فركتها، مسحت جبينه بكفّها، وحين فتح عينيه رآها كملاك يحوم حوله. دخل الخادم مبروك ووضع الحطب في المدفأة، ارتبكت شاها، نهضت من مكانها، خرجت متمهّلة من الغرفة وهي تنظر إليه مبتسمة.

كان الطريق إلى منزلهما في حوش حنّا، مليئاً بحكايات أعادت شاها سردها ببراعة، قبل وصولهما إلى القرية بمسافة نصف ساعة قرصها من صدرها، مالت عليه وقالت له إنّ رائحته كانت سبباً في غرامها به، سألها وهو ينظر إليها بفحش وماذا غير الرائحة، أجابت ضاحكة وهي تمدّ يدها إلى عضوه بخجل: «ألا تعرف أنّ الرائحة تجرح قلبي؟». كانت المرّة الأولى التي تخبره فيها عن الأشياء غير المرئيّة التي تجرح قلبها.

بعد سنة من زواجهما فاضت سعادتها، شاركته رواية الحكايات وأحلام اليقظة، أحبّ زكريّا خيالها في الحبّ وكرمها، كان يفاجئها دوماً، وهي تستجيب بشغف لخياله وحكاياته الغريبة عن الخيول والنساء، يروي لها تفاصيل رحلاته مع حنّا وأخيها عارف آغا ورفاقهم المولعين بالحفلات الصاخبة إلى القلعة. كان عارف الأكثر بهجة بين زوّار القلعة، يخسر طواعية في القمار كلّ ما ربحه في أيّام إقامته، ويقول المقامر خلق للخسارة الأبدية، تعجبه الجملة ويعيد صياغتها، ويردّد «القمار خسارة أبديّة». يضحك بصوت عالٍ كعادته، ثمّ يضيف «الرابح مقامر جبان وعليه أن يشعر بالعار».

عاش زكريّا وشاها حياة بهيجة في سنواتهما القليلة قبل الطوفان. حين كان يسافر مع حنّا يشتاق إليها، فتنته، لم تعادِ القلعة أو تطلب منه المكوث قربها، لكنّه بعد زواجه لم يطل تسكّعه، يترك حنّا مخموراً في أحد المنازل الكثيرة التي يعرفانها معاً في كلّ المدن ويغادره فجراً، يعود إليها مثقلاً بالأشواق والهدايا. تحبّ تسميته لها بأسماء خيوله التي بدأت تجارتها تتوسّع كثيراً بعدما أضاف تسعة أحصنة عربيّة أصيلة إلى إصطبله، عرضها عليه دلّال جوّال، قال إنّه يبيعها لحساب شيخ قبيلة كبيرة لا يريد الإفصاح عن اسمه. زكريّا الذي يعرف كلّ شيء عن خيول هذه الأرض، أرسل سائسه إلى شيخ القبيلة الذي كان يقيم في خان الوزير أثناء زيارته لحلب، سأله دون مواربة إن كان حقاً يريد بيع خيوله التسعة، وعده بالمحافظة على سرّه، تلقى جواباً إيجابياً، واتفقا على السعر ونسبة الدلّال، وسلّمه حجّة الأحصنة. لم ينس زكريّا لحظة الدخول الباذخ لأحصنة حلم ذات يوم أن تكون في إصطبلاته ليكتمل نقصانها وتصبح أهمّ إصطبلات في ولاية حلب. يقصدها تجّار خيل، وشيوخ عشائر يحبّون الخيل، أمراء مناطق بعيدة، وأجانب هواة لا يصدّقون وجود هذه المجموعة المنتقاة في مكان واحد معتنى بها إلى هذه الدرجة، معالفها نظيفة، سروجها معلقة في أماكن مخصّصة كثياب العيد، المهاميز تفوح برائحة جلد الغزلان، المكان نظيف دوماً، كان سائسون أربعة غرقوا أيضاً في الطوفان يتناوبون على خلط الروث بتبن أبيض وترحيله كلّ ست ساعات، تشرب الأحصنة الماء من قدور نحاسيّة ضخمة مطليّة بالقصدير، تشبه أواني مطابخ أغنياء المدينة. ممرّ طويل يفصل الإصطبلات ومكان مبيت الأحصنة عن المكتب الكبير المؤلف

من عدّة غرف، جدرانها مليئة بخزائن من خشب الجوز، تصطفّ على رفوفها ملفّات كاملة مؤرشفة في سجلّ منفرد سيرة كلّ حصان يتلذّذ زكريّا بكتابتها بخطّه البديع، بالإضافة إلى خزانة خاصّة، تصطفّ فيها حجّة كلّ حصان، مكتوبة على جلد غزال وموقّعة من سبعة أشخاص عاقلين ومشهود لهم بالصدق، كما هو متعارف عليه في حفظ أنساب الخيول. بالإضافة إلى منزل خاصّ بالضيوف ملحق بالإصطبل الذي توسّع مرّات عديدة خلال السنوات العشر الماضية، وفي إصطبل العنابية يحتفظ بالأحصنة النادرة المعدّة للتكاثر وتهجين السلالات، يشرف عليه يعقوب السائس الأكثر خبرة في الولاية.

بعد العودة، وفي ليلتهما الأولى في منزل عائلته، بقي زكريّا جالساً على الكنبة طوال الليل يراقب شاها الغارقة في كوابيس لم تنقطع، فقدت سحرها، هرمت فجأة. كان يعتقد أنّ العودة إلى منزل العائلة نذير شؤم، يفقد المرء الحلم، خاصّة إن كان المكان تداعى، يرشح بأمراض سكّانه العجائز المزمنة، وتفوح رائحة العفونة من غرفه المليئة بالأثاث القديم، وملفّات أبيه التي يكرهها.

بعد رحيل زكريّا الذي اعتبر حديث صديقه عن الندم فألاً سيّئاً، استيقظ حنّا فجراً، فكّر بأنّه لا يريد التفكير في حياته الجديدة، تركها تتساب مع النهر الذي بدأ يراه في كلّ لحظة كنهر جديد، أسعدته فكرة أنّ القليل يكفيه، ثوبان من القطن وبضع قطع ثياب يمكن جمعها في صرّة واحدة إن أراد الرحيل فجأة، ذهبت خزانة ملابسه التي تضمّ بدلات إنكليزيّة فاخرة وقبّعات أوروبيّة، وأحذية مصنّعة خصيصاً له وعطوراً وأشياء غالية تفصح عن ولعه بالحياة المترفة، غرق كلّ شيء. فكّر بأنّ الربّ يريد له حياة جديدة تلمسها بيديه وقلبه، قرّر أنّه لن يندم على شيء سيفعله. ولن يعود أيّ شيء إلى سابق عهده كما كان يردّد زكريّا الذي راهن على أنّ حنّا لن يحتمل العيش قرب الوديعين، الخائفين من الحماقة.

لم يستمع حنّا إلى أصدقائه الذين أتوا من القرى والمدن القريبة والبعيدة لمواساته، ترافقهم عربات محمّلة بمؤن تكفي مئات الأشخاص، ألبسة ولحوم مقدّدة وخواريف وأقفاص مليئة بالديوك، زجاجات نبيذ وكونياك وتبغ فاخر ونقود. بقي صامتاً، لا يجيب عن الأسئلة، لا يستمع إلى عبارات المواساة، بعد عدّة أسابيع لم يعد يستقبل أحداً منهم، فكّر بمعنى الموت غرقاً، لم يسمح بدخول أيّ شيء إلى غرفته، طلب من خادمه إيصال كلّ هذه الأشياء إلى راعي كنيسة القرية القريبة، لتوزيعها على من بقي من عائلات تقطن قرب النهر. رجا زكريّا إخبار أصدقائهما عدم حمل أيّ شيء معهم، يكفيه ما لديه، قليل من البرغل وزيت الزيتون وخضار مجففة، لكنّ أصدقاءهما لن يسمحوا له بالتحوّل إلى مشرّد أو مخبول على حدّ وصفهم، زاهداً بالملكيّة والحياة الصاخبة، كلّ شيء يمكن تعويضه ما دامت آلاف الدونمات من أخصب أراضيه موجودة، وحقول زيتونه تمتدّ على مساحات كبيرة من أراضي العنابية، بالإضافة إلى قلعته العظيمة وحدائقها الممتدّة على مئة وعشرين دونماً مزروعة بكافة أنواع الأشجار، وخانات في سوق المدينة، وأربعة منازل فاخرة في حلب التي لا تبعد أكثر من سفر نصف يوم عن هذه الغرفة التي قال للجميع إنّها تكفيه.

شعر حنّا بأنّ الطوفان لم يغرق زوجته وابنه فقط، لكنّه أغرق ماضيه المتهتّك، الصاخب، حياته الكاملة، انبثقت في داخله رغبة قديمة في حياة جديدة، عادت إليه صورة الأب إبراهيم الحوراني الرحّالة، الذي كان يصل إلى حلب كلّ فترة ويقيم في غرفة كبيرة، ملحقة بكنيسة السريان الكاثوليك، كان حنّا يحيّيه بصمت حين يلتقيه في قدّاس يوم الأحد الذي واظب على حضوره مجبراً ليثبت للجميع أنّه ما زال مسيحيّاً ولم يتحوّل إلى مسلم كما أشاع الكثيرون. ذات مرّة اعترض الأب إبراهيم طريق حنّا وقال له: «لن تشعر بقوّة الضعف إلّا حين تهوي إلى الحضيض». لم يفهم وقتها

لماذا يعترضه ذلك الرجل الذي يبجّله المصلّون. لم يغادر الكنيسة بعد انتهاء الصلاة، قرع باب غرفة الأب إبراهيم الذي أمسك بذراعه، وخرجا إلى شوارع المدينة. جلسا في مقهى قريب، قال له إنّه يعرف أباه كابرييل كريكورس جيّداً، عاش طوال عمره خائفاً من المذبحة، وأن يُجبر على ترك دينه والتحوّل إلى الإسلام، لذلك كان يحتاط ويخفي أموال الجزية في مكان لا يعرفه أحد سوى أحمد البيازيدي، رغم إصدار السلطان عبد المجيد الأول عام 1856 قانون «الخط الهمايوني» الذي يعفي مواطني الإمبراطوريّة العثمانيّة من غير المسلمين من دفع الجزية، لم يصدّق أنّه لن يدفع الجزية مرّة أخرى، عاش عمره مستسلماً لفكرة موته، وحين حدثت المجزرة كان ينتظرها.

أضاف الأب إبراهيم مخاطباً حنّا المستسلم على غير عادته: أنت لا تشبه أباك، لكنّك ستتحوّل رويداً رويداً لتصبح نسخة طبق الأصل منه، ولن ينقذ روحك الآثمة إلّا غرقك في الحضيض واكتشافك أنّ كلّ ما فعلته في حياتك مجرّد سفالة لا معنى لها. سأله عن عنوانه، فأجابه الأب إبراهيم بهدوء: تستطيع اعتباري شخصاً دون عنوان، أسير في هذه الأرض منتظراً موتي. لم يسمح له بأن يسأله أكثر. نهض مبتسماً، تركه وحيداً، وانعطف في الشارع المؤدّي إلى الكنيسة.

«هذا هو الحضيض الذي تحدّث عنه الأب إبراهيم» قال حنّا لنفسه وهو يشعر بأنّ الحياة تمرّ من أمامه بطيئة، عذبة، متخفّفة من الأشياء، يسير الموت قربها بخفّة غير مرئيّة، يمدّ يده لمساعدتها إن تعثرت، يخرج حنّا من الغرفة فجراً، يسير بخطوات بطيئة على الأرض المنبسطة التي كانت قرية أسّسها أبوه قبل أكثر من ثلاثين سنة، أطلق عليها اسم ابنه الأصغر. أراد لها حنّا الاندثار نهائيّاً، لا يريد لأحد تذكّرها، يريد العودة إلى صورة العالم الأولى. شعر بنفسه طفلاً، وُلد من جديد في حياة أخرى دون ماضٍ. صفحة بيضاء تطرد ذاكرة مثقلة بصخب ومسرّات وآلام حياة كاملة انتهت الآن. شعر بالذنب والحنين لابنه ووجه زوجته اللطيفة التي احتملت حياتها معه. منذ اليوم الأول لزواجهما لم تعتمد جوزفين على وجوده في حياة العائلة، وهبته للبراري البعيدة، وقلعة شمس الصباح التي لا تنقطع عنها قوافل نساء يبعن اللذة، مع فرق موسيقيّة تعزف لأيّام دون توقف، بأمر من مجموعة مالكين يقضون أيّام الشتاء غارقين في موائد القمار، وأطعمة فاخرة يعدّها طبّاخون حلبيّون محترفون لتلبية أذواق هذه الثلة من الرجال التي كان حنّا وصديقه زكريّا يتزعّمانها، ويستدعيان من حلب ودمشق وبيروت نساءً تنتقيهنّ مجموعة قوّادات محترفات طوال أيّام السنة، يصلن منتصف شهر كانون الأول إلى القلعة المتربّعة على تلة صغيرة تشرف على خرائب قرية براد. يرافق النساء صناديق ملابس فاخرة يدفع الرجال ثمنها الباهظ، يتقاسمن غرف القلعة، يجلن شبه عاريات في الممرّات والصالون الكبير والغرف والأقبية التي تغصّ بصناديق نبيذ فاخر، ومشروبات غريبة، يحضرها الرجال معهم أثناء سفرهم إلى بيروت وبغداد ودمشق والبندقيّة وباريس وإستنبول. يشترون من يهود حلب أفضل أنواع الخمور، يرسلونها إلى قبو القلعة الذي اختارت شمس الصباح كلّ تفاصيلها بأناة، وسائد النوم مصنوعة من الريش، الشراشف حريريّة مطرّزة، الأسرّة العالية النحاسيّة مفروشة بفرشات صوف منجّدة، اعتنت بألوان أغطيتها المتمايزة في كلّ غرفة من الغرف التسع، وطاولة القمار التي استوردها من لندن تاجر أقطان يهودي حلبي، فكر بافتتاح أول كازينو في حلب، لكنّ مشروعه فشل قبل أن يبدأ حين هاجمه رجال الدين في خطبة الجمعة وطلب منه صديقه راؤول الصائغ الإقلاع عن المشروع، نسي التاجر اليهودي الفكرة وباع هذه الطاولة المصنوعة من خشب الأبنوس لعارف آغا الذي أهداها للقلعة، مع طقم صحون وطناجر وملاعق وشوك مصنوعة من الفضّة الخالصة.

لم يغب عن شمس الصباح أيّ تفصيل، فهمت أنّها هنا من أجل راحة نخبة رجال لا يعنيهم ما يحدث في أراضيهم الشاسعة، تاركين الاتصال والدفاع عن مصالحهم مع الولاة لمجموعة محامين وسياسيين، ومن هؤلاء الرجال أحمد البيازيدي، محاسب الولاة العثمانيين، ومدير البنك العثماني في حلب، الصديق المقرّب لكابرييل كريكورس والد حنّا الذي عاش حياة طبيعية كرجل عائلة متديّن لم يبق منها أحد سوى حنّا بعد مجزرة ماردين عام 1876، التي ذُبح فيها كلّ أفراد عائلة كريكورس عقاباً لقتلهم ضابطاً عثمانياً حاول خطف عمّة حنّا في وضح النهار، هجموا عليه في السوق وأنزلوه عن حصانه، قتلوه، رموا جثته المشوّهة أمام السرايا، متوعّدين من يعتدي على نسائهم بمصير مماثل.

مرّت سنوات طويلة على تلك المجزرة لكن حقد حنّا على الضبّاط الثلاثة الذين نفذوا المجزرة وقتلوا عائلته لم ينته، تدبّر مقتل اثنين منهم وبقي الثالث على قيد الحياة، قائد حامية ماردين الذي لا يختلط بالعوام، ويرتدي قفازاً في كفّه كي لا تلامس أصابعه كفّ مصافحه، لا يقبل هدايا من أحد، ولا يخون زوجته التي يصفها من يعرفها بملكة جمال، بقيت المعركة مفتوحة بصمت بين حنّا وبينه، وبعد مرور سنوات طويلة على المجزرة، فكّر بأنّ قتل ضابطين شفى غليله، ونسي الانتقام من قائد الحامية حين رآه رجلاً عجوزاً ينزل من عربته أمام باب دار الوالي في حلب.

تجريص والده القتيل بقي الصورة الأقسى في حياته، لم ينسها أبداً. أرّقته ليالي طويلة. يغصّ فجأة في منتصف بهجته، ويشعر بالاختناق، ينزوي بعيداً عن رفاقه، تعود إليه فكرة الانتقام قويّة، يتخيّل ميتات عجيبة لهذا الضابط المتعجرف، يفكّر بأنّه سيأمره بأكل شوال من الملح، أو سيغرقه في بحيرة من بول أحصنة زكريّا، كان يريد له موتاً بطيئاً يتلذذ به، ويمسح العار الذي رافقه طوال عمره.

كان الضابط عصيّاً على الاستدراج عكس الضابطين السابقين اللذين كانا يحبّان الحفلات، جرى اصطيادهما بسهولة عن طريق قوّاد شهير، دفع له حنّا مبلغاً كبيراً مقابل استدراجهما من ماردين إلى حلب، وقتلهما والاختفاء تماماً عن كلّ أراضي الإمبراطوريّة العثمانيّة.

مات الضابطان في ليلة واحدة في منزل نهاوند أشهر عاهرات حلب في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. دسّت لهما السمّ وتأكّدت من موتهما، انسلّت فجراً مع قوّادها إلى عربة تجرّها أربعة أحصنة قويّة يعرف سائقها كلّ الطرق الفرعية إلى قرية حوش حنّا، كان زكريّا ينتظرهما في غرفة حنّا، دفع لهما ألف ليرة ذهبيّة، ورتّب أمر سفرهما بهدوء إلى مدينة أصفهان.

في اليوم التالي جلس حنّا على تراس منزله في باب الفرج، يراقب بسعادة مرور جنازة الضابطين، آلمه وجود أحمد البيازيدي وسط كبار الموظفين في موكب التشييع الذي أكمل طريقه نحو الجامع الأموي. بعد أيّام استأجر زكريّا مجموعة رواة أشاعوا قصصاً عن بطولة نهاوند، التي لم تقبل التجسّس على بني قومها لمصلحة الباب العالي، ووضاعة الضابطين اللذين استقرّت روايتهما على أنّهما مثليّان كانا يلجآن إلى منزلها لممارسة الفاحشة سرّاً.

بعد التشييع بقيت حلب أسابيع عديدة تغلق أبوابها باكراً خوفاً من الانتقام، أحرق الجنود منزل نهاوند الذي باعته لتاجر حرير يهودي، بحثوا عن أقربائها، لم يجدوا أحداً منهم في المدينة، أكّد الجميع للمحقق أنّ نهاوند يهودية مغربية، قدمت إلى حلب قبل سنوات قليلة مع زوجها الحلبي الذي لم يحتمل أهله فرط جمالها، فطلقها مجبراً على الزواج بقريبته، خالفت اتّفاقهما وبقيت في المدينة التي أحبّتها، وعاشت في منزل قوّادها في بحسيتا، واشتهرت بين شباب الطبقة الغنيّة من اليهود بالفتاة المغناج التي تتأوّه بثلاث لغات.

أراد حنّا الاستمتاع بانتقامه، خرج مع زكريّا ليلاً وسارا في الطرقات، خطرت لهما زيارة بيت دعارة كأيّ زبونين، كانا يعرفان أغلب البيوت السرّية في حلب، اقترح زكريّا بيت أمّ وحيد المنزوي في أحد شوارع حيّ النيال الفرعيّة. اشتاقا إلى قهوة هذه العجوز اللطيفة التي رعتهما حين كانا مراهقين. استقبلتهما أمّ وحيد بقبلات حارّة وأخبرتهما حكاية الضابطين المثليّين، ساخرة منهما لتركهما بنات البلد، والوثوق بفتاة يهوديّة مغربيّة. شعر حنّا بسعادتها لرحيل نهاوند عن المدينة، سألته إن كان سينام الليلة في غرفته، شكرته على المؤن التي لم تنقطع رغم انقطاعه عن زيارتها، غمزت بعينها وهي تنظر إلى زكريّا، تطمئنه إلى وجود صاحبته في غرفتها. ضحك زكريّا مبتهجاً بشيوع رواية مثليّة الضابطين. رغب حنّا بعشاء خفيف وكأس نبيذ، لكنّها صمّمت على أن تقدّم لهما ما لديها من فتيات، أخبرتهما عن صباح، وصفتها بفتاة فاتنة وقليلة الحظ، أضافت أنّها تحتاج إلى من يرعاها مشتكية من سنواتها التي اقتربت من الستين، قالت إنّ صباح تتقن الكتابة والقراءة بالتركية والعربية. لم يكن حنّا مستعداً للدهشة، كان منتشياً بالنصر بعد وصول روايته إلى قصر السلطان عبد الحميد في إستنبول، الذي أمر بإغلاق التحقيق وتعقب نهاوند، واعتبار قتل الضابطين حادثة غير موجودة في سجلات الإمبراطوريّة.

أمّ وحيد تعرف أنّ زكريّا في منزلها من أجل فتاة واحدة، تنتظره في غرفتها، دخلت صباح تحمل صينيّة العشاء، كانت مثيرة جداً ولم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، لكنّ مزاج حنّا تلك الليلة كان عكراً، تناول عشاءه مع زكريّا الذي التحق بفتاته الأثيرة. حنّا وعد أم وحيد بزيارة قريبة، والنوم ليلة في منزلها، وقبل أن يخرج من الباب قالت له إنّها لن تسمح لأحد بالاقتراب من صباح. قبّلها على عجل، ترك رسالة قصيرة لزكريّا ومضى.

لم يعد حنّا يشعر بالشغف نحو فتيات البيوت السرّية، لحق به زكريّا إلى منزله في باب الفرج، كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً، أخبره حنّا أنّه شعر بانقباض في صدره حين خرج من منزل أم وحيد، لم يحدث من قبل أن داهمته صورة فتاة لم يرها سوى لحظات بهذه الكثافة. لن يتركه وجه صباح البريء وصدرها الناهد، وبشرتها البيضاء، وفمها الصغير، فكّر بالعودة إلى قريته حوش حنّا، لم يغفُ قبل بزوغ الفجر، فكّر دوماً في الهرب من الحبّ والقيود، مردّداً قوله الأثير إنّ أفضل النساء هنّ اللواتي تستطيع نسيانهنّ بعد المضاجعة.

في اليوم التالي تركه زكريّا ومضى لتفقّد إصطبله في العنابية، يعرفه حين يغرق في وهم الحبّ، أرسل حنّا مع خادم منزله صالح العزيزي رسالة إلى أمّ وحيد بأنّه يريد قضاء الليلة في منزلها. لم يتأخّر عن موعده، صعد إلى الغرفة العلوية، النساء في الطابق الأرضي انتظرنه، طلب صباح التي عرفت أنّه سيعود من أجلها. جلست على الكنبة مقابله، لم ترفع نظرها إليه إلّا حين لمس يدها بأصابعه. حين سألها عن حياتها السابقة، أخبرته بأنّها لا تعرف عائلتها، وجدوها قرب باب جامع العثمانية، عاشت طفولتها في ميتم، رأتها زوجة رئيس ديوان الوالي واصطحبتها إلى منزلها لتخدم فيه عشر سنوات، لكنّها غادرته مجبرة بعد تحرّش صاحب البيت بها. لم تسهب في شرح تفاصيل حياتها، كانت من النوع الذي يحبّه حنّا، تتقن الصمت، لم يطلب منها المزيد، كلّ قصص العاهرات متشابهة، فكّر بأنّ لديهما وقتاً طويلاً للحديث، أخبرته بأنّها ما زالت عذراء، تمانع زبائن بيت أمّ وحيد، أضافت لن أمنح عذريتي إلّا لرجل أحبّه.

كان صوتها هادئاً، لا يوحي بأنوثة فائضة، بل بفتاة صغيرة مذعورة، في طريقها لتصبح امرأة بلهاء تبحث عن زوج في مدينة تقدّس لون البشرة الأبيض والورك العريض، تشبه الكثيرات من

بنات عائلات الأغنياء الحلبيّين اللواتي لا يغادرن منزل العائلة إلّا إلى منزل الزوج، كانت جملها قصيرة، واضحة، تريد إنقاذ نفسها من الوقوع في هاوية سحيقة لن تستطيع الخروج منها.

اكتفى بتقبيل يدها وتلمّس بشرتها، طلب منها تغيير اسمها من صباح إلى شمس الصباح، ترك لها نقوداً تكفيها للعيش عدّة أشهر، تفاهم بشأنها مع أمّ وحيد بسهولة، منذ تلك الليلة غيّرت اسمها إلى شمس الصباح الذي أحبّته واحتجبت، لم تجالس الرجال كالفتيات الأخريات، لقد وصلت إلى غايتها، لن تكون مباحة للزبائن.

في طريقهما إلى قرية حوش حنّا كانت تفاصيل القلعة تتضح في ذهنهما، قال زكريّا: سنبني مملكة اللذة التي حلمنا بها. هزّ حنّا برأسه مضيفاً: وسنبني منصّة خاصّة للمنتحرين. تحدّثا طويلاً عن حلمهما، لكنهما في ذلك اليوم أسهبا في الحديث عن تفاصيله، كانا قبل سنة قد طلبا من صديقهما المقرّب عازار إستنبولي إعادة التفكير في حلمهما القديم الذي كان يعرفه جيداً، وتصميم قلعة كاملة كمكان خاصّ لممارسة اللذة.

أمل حنّا أن تكون القلعة نهاية لقلقه وانقطاعاً للسيل المتدفق من أحلام يقظته، أكمل زكريّا استرساله بلهجة مرحة، وقال سنصكّ نقود دولتنا الصغيرة، سنخلّد لحظاتنا بصفائح فضّة مرصوصة في صناديق من فولاذ، لن تندثر لحظات مجوننا، لن نعيش كرجلين بائسين يكنزان الذهب ليرثه أبناؤنا من بعدنا، سنترك لهم كلّ شيء، وستكون القلعة المكان الوحيد الذي يخصّنا. كانا يتحدّثان بكلّ جدّية بأنّه بعد مئات السنين سيأتي أناس من بلدان بعيدة، يدخلون متاهة القلعة، ويحاولون فك شفرة حياتهما الغامضة، كانا يفكّران في الخلود، لا يريدان أن يكونا في كتب التاريخ كقوّاد فرق عسكرية، أو محرّرين أو مفكّرين بل كصاحبي قلعة اللذة، يكتبان تفاصيلها في سجلّ خاصّ يكتشفه الآخرون بعد موتهما.

كان صديقهما عازار ابن حاييم إستنبولي قد أنهى دراسة هندسة العمارة في مدرسة روما، وعاد إلى حلب قبل سنتين. يتذكر أحاديث أصدقائه حنّا وزكريّا ووليم ميشيل عيسى عن بحار اللذة. كان الثلاثة يهزرون في الفرص بين الدروس حين كانوا طلاباً في المدرسة. كان يظنّ أنّهم يمزحون ويردّدون حكايات غريبة كما هي عادتهم عن النساء والعاهرات، لكنّه فوجئ بهم يدخلون إلى مكتبه في الجميلية، ويطلبون منه تصميم القلعة على الفور.

استمع عازار إلى حنّا يملي عليه أحلامه ببطء وهدوء، يحوّل كلماته وإشاراته إلى مخططات كان يطلب تغييرها دائماً حسب أحلام يقظته التي لم تنته طيلة سنتين. كان البنّاؤون يعملون طوال النهار في نحت الأقواس والأحجار الضخمة، مكتفين بالصمت جواباً عن أسئلة العابرين، مئات العمّال وعشرات العربات نقلوا صخوراً ثقيلة وكبيرة من جبل الأكراد إلى رأس التل. صمّم حنّا على عدم زيارة المكان قبل انتهاء أعمال البناء كاملة.

شعر زكريّا بشغف صديقه الشديد بالقلعة، تركها له لكنّه طلب من عازار العناية بإصطبل الخيول الذي سيكون ملحقاً بها، قريباً من التلّ ومن الإصطبل الكبير. يتعامل زكريّا مع حنّا كأخ صغير، يداري نزواته، وحنّا لا يكرّر طلباً يتجاهله زكريّا. لقد اعتادا منذ طفولتهما الحفاظ على أسرارهما المشتركة، وتبادل الأدوار والوجوه وقت الضرورة، أتقنا المراوغة حين كانا يواجهان تأنيب أحمد البيازيدي الذي يتابع فضائحهما التي لم تتوقف منذ سنوات مراهقتهما.

طلب عازار من حنّا بجدّية عدم الشطط في أفكاره، الحجارة ليست قطع مرنة يمكن تشكيلها كما نريد، لا يمكن تغيير التصاميم بعد بنائها، لأنّ المكان كتلة واحدة كالجسد، والمكان صُمّم كمتاهة، يمكن دخولها لكن الخروج منها صعب. شرح له ببساطة أنّ العمارة لا تشبه سكب زجاجات النبيذ

بين نهود عشيقاته. قضى أيّاماً طويلة في مكتبه يستمع إليه وإلى زكريّا عن اللذّة والقمار والموت وتوابيت الفضّة، كانا يقضيان وقتاً طويلاً من الليل، يجولان في المكتب الكبير، يتحدّثان بحرّية، يسجّل عازار الذي يعرف ولعهما بالأشياء الغريبة أفكارهما.

ذات ليلة حضر حنّا بمفرده، جلس على الكنبة، أصبحت المخططات شبه جاهزة، لم يعد عازار يشرح أفكاره لصديقيه، يعرف شططهما جيّداً، قال له حنّا تلك الليلة إنّه وافق على فكرة الدرج الطويل الذي يتوسّط أربعة تماثيل لرجال ونساء ممدّدين في وضعيّات غرام من كلّ جانب. لكنّه يطلب تمثالاً لامرأة في قمّة الدرج، لم يفهم عازار قصده، استرسل في وصف المرأة بحرّية، صبّ كأس نبيذ واسترخى في كنبته العريضة، فاجأه عازار بقوله: لا يمكن لتمثال سعاد أن يكون في هذا المكان لأنّه يخرب المنظور. صمت حنّا حين سمع اسم سعاد، خشي أن ينزلق الاثنان في حديث لن يكون في مصلحة حنّا الذي يعرف قوّة تعاطف عازار مع صديقته سعاد، التي ترعاه كأخت رغم أنّها أصغر منهما، تهدي له قمصاناً حريريّة مطرّزة في عيد ميلاده، تستمع إلى همومه حين يكون بحاجة لمؤازرة أحد. غضب من تجاهل حنّا لها، رغم معرفته أنّه أحبّها إلى درجة الجنون، وكان وليم عيسى يشاركه الغضب، ويحرّض حنّا على الذهاب إلى آخر الحبّ.

كان عازار شخصاً مهذباً وخجولاً، لا يحبّ صخب أصدقائه الثلاثة، لكنّه يحفظ أسرارهم. بعد عودته من روما، افتتح مكتبه الذي أسّسه له والده بمساعدة يهود المدينة، منذ اليوم الأول لالتحاقه بمدرسة العمارة في روما بوساطة من أحمد البيازيدي والبرنسيسة هدى شمعون التي تربطها علاقات جيّدة مع رجال ذوي نفوذ، أقنعت القنصل الإيطالي بضرورة تقديم منحة دراسة كاملة لشخص موهوب وشديد الذكاء كعازار. كانت عائلة عازار فقيرة، والده موظف في الميتم اليهودي. كان أحد الناجين القلائل من زلزال حلب عام 1822 الذي قُتل فيه أكثر من خمسة وعشرين ألف شخص تحت أنقاض أكثر من نصف منازل المدينة المدمّرة، ما زال حاييم إستنبولي يروي بكلّ جدّية حكاية الزلزال ولقائه مع نجيب البيازيدي جدّ زكريّا.

كان حاييم إستنبولي طفلاً في السابعة من عمره أصيب بالخبل حين رأى جثث أبيه وأمه وإخوته الثلاثة قربه تحت ركام منزلهم الذي يتقاسمونه مع عائلة مسلمة قدمت من بيروت قبل وقت قصير، واستأجروا فيه غرفة، ريثما يجدون سكناً أفضل. وفي الغرف الثلاث الأخرى تعيش عائلات فقيرة مستقرّة منذ زمن طويل. الزلزال لم يترك لهم فرصة للنجاة، تكوّموا جميعهم تحت الركام، بقي حاييم وحده يتنفس، لا يعرف كيف أطبقت السقوف، وغارت جدران المنازل في الأرض. مرّ وقت طويل والطفل العالق لا يعرف كيف حدث هذا، حاول التمدّد في المكان الضيّق، منتظراً نهوض أمّه وإيقاظه ليذهب في مشواره اليومي إلى مخزن السيّد إبراهيم في سويقة علي، حيث يعمل خادماً. مرّ الليل ثقيلاً، لم يتوقف صوت الهزات وانهيار المنازل. اكتشف كوّة صغيرة تسلّل منها ضوء الفجر، زحف نحوها، كانت كافية لينسلّ بجسده الصغير، خرج من ركام المنزل، أدهشه صمت المدينة، سار طوال النهار، رأى أناساً مستعجلين، يخرجون أشياء من منازلهم ويهربون نحو البساتين. وصل إلى ساحة باب الحديد، نام ليلته الأولى قرب الباب، سمع أصوات عويل نساء وأطفال من بعيد. كان الجوّ صيفياً، والسماء حمراء، غفا رغم جوعه.

أغلب منازل المدينة تهدّمت، غارت في الأرض واحترقت، قوافل البشر تنتقل إلى البساتين البعيدة. بحث حاييم بين أنقاض البيوت عن طعام، وجد قليلاً من جبن وزيتون و قطع خبز يابس. كان البشر يتجاوزونه ولا يكترثون به. وجد نفسه يسير معهم إلى خارج المدينة، وصلوا إلى البساتين المحيطة التي هرب الناجون من الزلزال إليها، فهم أنّ المدينة انتقلت إلى هذا المكان، ظنّ

أنّهم يلعبون، بالتأكيد سينهض أهله الموتى بعد انتهاء اللعبة. سار بين البشر باحثاً عن أيّ أحد يعرفه، لكنّه كان يشبه الكثير من الأطفال المشرّدين، لم يعجبه المكان، نام تحت شجرة توت كبيرة، نهض صباحاً وعاد من الطريق الذي حفظه جيداً، وجد نفسه مرة أخرى قرب الجامع الأموي الكبير.

كان يسير وراءه طفل معتنى بهندامه، جلس قربه، سأله عن أهله، حاول حاييم تحريك لسانه إلّا أنّه لم يستطع الإجابة. كان نجيب البيازيدي جدّ زكريّا ابن العائلة الشهيرة في العاشرة من عمره، ضاع من عائلته التي نزحت مع آلاف النازحين عن منازلهم بعد أول هزّة ضربت المدينة. أصبح نجيب البيازيدي وحاييم إستنبولي صديقين بعد أيّام قليلة. قاده نجيب إلى منزل عائلته، كان يعرف الطريق وسط الركام، سار الطفلان وسط البيوت التي تحوّلت إلى خرائب، الطرقات مقطوعة، تاها في الشوارع المهدمة، احتمى كلّ منهما بالآخر، كانت تشعّ أضواء برق شديدة تعمي العيون، تليها حرائق كبيرة. فتح نجيب يديه وقرأ سوراً من القرآن يحفظها، قال لحاييم إنّ القيامة قد قامت، ضحك حاييم وأخبره لأول مرّة بأنّ اسمه حاييم إستنبولي وهو يهودي، وأضاع طريق العودة إلى منزلهم، لكنّه يعرف دكان السيّد إبراهيم بائع الفاتورة في سويقة علي، كرّر نجيب وهو يرى الشهب تتساقط والأرض تهتز مرّة أخرى أن القيامة قد قامت، سأله حاييم هل القيامة لعبة يلعبها الكبار مع الصغار، فوجئ نجيب بعدم خوف حاييم وعدم اكتراثه بيوم القيامة، شرح له أنّهما في الطريق إلى يوم الحساب، هناك سيريان الله، ويسألهما عن أعمالهما، لكزه قائلاً: اطمئنّ، سنذهب إلى الجنّة، أضاف أنّه لا يعرف إن كان اليهود يدخلون الجنّة، ثمّ خطرت له فكرة وقال له: يجب أن تصبح مسلماً إن كنت ترغب في مرافقتي إلى الجنّة. سأله: كيف أصبح مسلماً؟ أمسك بسبّابته ورفعها في الفضاء وقال له: كرّر ما سأقوله، طلب منه إغماض عينيه، وترديد: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله. ردّد حاييم بخشوع الشهادة ثلاث مرّات، فتح عينيه وكان نجيب البيازيدي ينظر إليه فرحاً، قال له: الآن تستطيع مرافقتي إلى الجنّة، لكنّ حاييم سأله بكلّ براءة: هل يذهب البشر إلى الجنّة عن طريق السماء أم عن طريق الأرض؟ فكّر نجيب البيازيدي قليلاً وهو يرى المنازل الغائرة في أعماق الأرض، أشار بيده إلى مكان وقال: هذه أنفاق خاصّة توصل العربات من باطن الأرض إلى السماء، مضيفاً: عربات مذهّبة كعربة أبو راؤول اليهودي بائع الذهب، ثمّ سأله أليس قريبك؟ هزّ حاييم برأسه نفياً، مضيفاً أنّه يشاهده حين يترجّل من عربته أمام الكنيس اليهودي، يخرج الحاخام بنفسه ليسلّم عليه، أضاف أنّ عائلته كانت تتحدّث عنه باحترام كبير، الكثيرون من رجال الطائفة يذهبون إلى محالّه في خان الوزير ويطلبون مساعدته، هز نجيب برأسه دلالة الفهم، وقال: نعم، أبي يقول إنّه محسن كبير يرعى أبناء طائفته، ويدفع جزية كبيرة ليبقوا يهوداً.

شعر الطفلان بالتعب، عادا مرّة أخرى إلى الجامع الأموي، تمدّدا في فنائه وناما، استيقظا فجراً على صوت مؤذن يتلو أدعية، ومجموعة رجال يكبّرون ويبكون بوجد عميق. لقد دُمّرت مدينتهم وانتشر الطاعون، كان الرجال يتحدّثون عن العقاب الإلهي، يمرّون قرب الطفلين المختبئين في زاوية الجامع، يشعران بورطتهما، أصبحا مشرّدين، يبحثان بين الأنقاض عمّا يسدّ رمقهما، لم يعودا يعرفان طريق العودة إلى بساتين خان طومان حيث عائلة البيازيدي التي بنت غرفة من ألواح الخشب في بستانهم، وتركت المنزل الكبير فارغاً. كانا غير مكترثين بهجرة سكّان المدينة، أعجبتهما اللعبة والسير طوال النهار في الشوارع المهدّمة، والهزات لم تتوقف. شاهدا برج القلعة مدمّراً، والكثير من الأبنية المحيطة بها تحوّلت إلى ركام. لم يعودا يعرفان كم يوماً استغرقا في

تشرّدهما، لم يهتمّا إلّا حين رأيا قوافل العائدين إلى المدينة، كما لو كان سكّان المدينة مسافرين وقد عادوا الآن. العويل المتواصل أشعرهما بمأساة كبيرة، الوجوه الحزينة للرجال، المشايخ والخوارنة والحاخامات يطلبون الرحمة، ويتحدّثون عن البلاء العظيم، وضرورة حرق الجثث كي لا ينتشر الطاعون أكثر، بقي نجيب وصديقه حاييم يجولان في الأزقّة الضيّقة التي فاحت منها رائحة الكلس والجثث المحروقة. استطاع نجيب البيازيدي الوصول إلى منزل عائلته، انخرط في بكاء حارّ حين رأى أمّه تبكي بحرقة، وجد شباباً من أقربائه يساعدون أباه في إزالة الركام، كان الضرر كبيراً، لكنّ العيش ممكن في بقايا الدار. بعد يومين أمسك أبو نجيب يد حاييم وأوصله إلى الميتم اليهودي، هناك عاش بقيّة عمره، لم يعد لديه أحد في المدينة، وحين كبر تحوّل من أحد النزلاء إلى موظف فيه، مسؤولاً عن المطبخ وتسجيل صدقات المحسنين في سجلّ خاصّ.

بقي الاثنان صديقين حميمين، يتذكّران تشرّدهما في أزقة المدينة المدمّرة بمرح، وحكاياتهما المشوّقة في بحثهما عن طعام بين الأنقاض. ولم يصدّق حاييم خبر موت صديقه نجيب بجلطة قلبيّة قبل أن يتجاوز الخامسة والستين من عمره، كانا يحسَبان أنّهما سيعيشان طويلاً مثل كلّ الناجين من الزلزال. لكنّ علاقته استمرّت قويّة مع أبنائه، خاصّة أحمد البيازيدي الذي لم ينس القيام بواجب زيارة العم حاييم صديق والده والاطمئنان عليه دائماً، ورعايته لعازار صديق ابنه زكريّا، ورفيقه في المدرسة. ما يؤلمه أنّ العمّ حاييم مات قبل أن يرى ابنه مهندساً معماريّاً كبيراً، طوال عمره كان مهووساً بتجنيبه الفقر ورائحة الميتم الذي ساعده عمله فيه على التسلل إلى حياة المحسنين الكبار، قدّم لهم خدمات شخصيّة وتجاريّة صغيرة، ربح منها مبالغ قليلة واستطاع شراء منزل واسع بالتقسيط ليكون مكتباً لابنه.

لم يكن عازار سعيداً بتورّطه في أمر بناء القلعة، اكتفى بممارسة دوره بصرامة معماري مولع بتصميم أمكنة عامّة ضخمة. فكّر طويلاً بتصميم دار أوبرا، ومكتبة عامة، كان يفكّر بأنّ جبل «الجوشن» المطلّ على المدينة مكان رائع لهذا المشروع. لكنّه كان في أعماقه يشعر بلذة غريبة حين يتحدّث صديقاه عن منصّة الانتحار، وصناديق الفضّة المصبوبة. أفكارهما الغريبة أصابته بالأرق، فكّر طويلاً في فكرة المتاهة، رسمها مرّات عديدة، أعجبته فكرة الدخول السهل إلى القلعة والخروج الصعب منها.

بعد سنوات طويلة سيحدّث عازار صديقته سعاد طوال ساعات عن أرق تلك الأيّام، خاف على صديقيه، حين تخيّلهما منتحرين. عازار لا تعنيه أحاديث فروسية الخاسرين والمفلسين، التي كان حنّا يردّدها بإعجاب شديد، روى له بشغف قصّة آغا ورث عن أبيه قرية كبيرة قرب معبطلي، غيّر اسمها إلى مدينة الجوري، كان يرغب في زراعة مئات الدونمات بورد الجوري، وإقامة مصنع للعطور على طريق راجو، لكنّه خسر في القمار نصف أملاكه في ليلة واحدة، وحين عاد إلى قريته منهكاً انتابته رغبة العودة إلى طاولة القمار مرّة أخرى، بعد ثلاث ليالٍ خسر كلّ شيء، منزله، وأراضيه، وقريته، وزوجته. لم يتحرّك من أمام الطاولة، أخرج مسدّسه وأطلق النار على صدغه، أضاف حنّا: كان رجلاً شجاعاً.

يتداول المُلّاك الأغنياء في مجالسهم قصصاً كثيرة عن الفروسيّة، والخسارة، وانقلاب الأحوال، يشعر حنّا بالأسى لأنّ هؤلاء الشجعان كما كان يسمّيهم، ليس لديهم وكيل وأب كأحمد البيازيدي يحميهم من الحماقات، وحمى الإفلاس، بتوزيع الثروة على أماكن متنوّعة، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه بسهولة، كسندات وأسهم بنك مانشستر كومباني التي اشتراها لحنّا من ريع أراضيه، ولزكريّا من حصّته من إرث العائلة التي وزّعها قبل موته بسنوات طويلة، وسجّل منزل العائلة

باسم سعاد، محتفظاً بحق الانتفاع، كان يفكّر دوماً بالأسوأ، ويحتاط كأيّ رجل قضى عمره بين الدفاتر والأرقام.

في زياراته القليلة لحلب كان حنّا ينام في منزل أمّ وحيد، لم يعد يرغب في الذهاب إلى منزله في باب الفرج، تحاصره سعاد بنظراتها حين يزور منزل العائلة. تتمدّد شمس الصباح قربه وتستمع إليه يروي لها صوراً متخيّلة عن القلعة المقبلة، تحتضنه كطفل صغير ويغفوان. تسلّل قلقه إلى قلبها، تحاشت الأسئلة الغبيّة، ولم تطلب شيئاً. حذرته من معاملتها كفتاة مسكينة، قالت له مراراً إنّها فتاة قويّة وليست مسكينة، حتى لو كانت مجهولة النسب وفقيرة وتعيش في منزل دعارة تديره امرأة متقاعدة، طيّبة القلب، لم يبق لها الكثير من النفوذ، لا يحميها ماضيها الآبق من بصاق سكّان المدينة حين تخرج من منزلها.

حلمت معه بأنّ القلعة ستتحوّل إلى مملكة اللذة، سيكتب العشاق قصصهم على جدرانها، ويخسر المقامرون كلّ ما يملكون، ثمّ يعلّقون مشانقهم كالفرسان بأيديهم دون ندم، ولعه بفكرة الرجال المنتحرين جعلها تخبره عن حلمها ببناء منصّة خاصّة بأولئك الرجال الذين سيشرّفون القلعة بقبورهم، وسيصبّ الصاغة توابيتهم من الفضّة الخالصة.

أعجبته فكرة تبجيل المنتحرين، لكن لم يعجبه دفنهم في القلعة، اللذة ضدّ الموت، سيكون للطعوم في القلعة مكانة خاصّة، يخبرها ويخاف في قرارة نفسه أن يخيب رجاؤه فيها، يفكّر في لحظات ماذا لو كانت شمس الصباح تشبه أيّ امرأة، يفقد الرجل اهتمامه بها بعد ممارسة الجنس معها، لا يتوقف بحثه عن فرادتها، خطرت له فكرة بقائها عذراء كي لا يفقد شغفه بنعومة أصابعها ورائحة صدرها التي تشبه رائحة أمّ ذابلة، بعد ليالٍ عديدة اعترف بينه وبين نفسه بأنّ رائحتها تشبه رائحة أمّه، وبأنّ بقاءها عذراء سيطيل أمد احتفاظه بها. لكن يوماً بعد آخر بدأت شمس الصباح تتحوّل من فتاة لذّة إلى أمّ، يشتاق إليها حنّا، ويغفو في حضنها كطفل صغير، ويحدّثها لساعات طويلة عن سعاد.

كانت الأمطار تتساقط بغزارة، حين وصل حنّا وحيداً لتسلّم مفتاح القلعة من كبير البنّائين، لم يكن يرغب في مرافقة عازار الإستنبولي الذي سجّل مجموعة ملاحظات يجب على البنّائين تنفيذها لإنهاء مقاولتهم، ولم يرغب زكريّا في مقاسمته فرادة هذه اللحظة. طاف حنّا في المكان ساعات طويلة، صمّ أذنيه عن شرح كبير البنّائين الفخور بانتهاء عمله بعد سنتين، طلب منه الانتظار خارج القلعة، رأى أحلامه عن المكان مجسّدة أمامه، مكان متشابك لن يفصح عن أسراره لأحد، خطر له وهو يرى غرفة المنتحرين الكبيرة أنّ تصميمها كدائرة كما اقترح وليم ميشيل عيسى سيبهج شمس الصباح، كانت غرفة مفتوحة على الحديقة الكبيرة من الطرف الغربي، حيث تمتدّ حقول جوز وكرز وزيتون لمسافات بعيدة، جلس طويلاً في قاعة صكّ نقود الفضّة، تابع طريقه إلى غرف النوم والطعام، وغرفة اللعب التي تطلّ على حقول الزيتون والكرمة البعيدة من الجهة الشرقيّة، كانت فكرته أنّ الجميع يجب أن يروا الفجر من مكان جلوسهم. لم ينس تفقّد الإصطبل القريب الذي سيبهج صديقه زكريّا، بعد ساعات طويلة من تجواله خرج من القلعة سعيداً، قام بعمل فريد لم يخطر على بال أصدقائه الملاكين والآغوات العابثين.

حين خرج حنّا من القلعة شعر كبير البنّائين برضاه، لم يناقش الحسابات، كان كريماً مع جميع من عمل في القلعة، دعا جميع البنّائين إلى مطعم شواء في باب الفرج، دفع لهم مبالغ مجزية إضافيّة، كانت عيناه لا تتوقفان وهو يتفرّس الوجوه السبعة التي كانت تعبّر عن رضى عميق، ودّعهم بحرارة رغم وجهه الشاحب من تأثير الأرق الذي استبدّ به منذ ثلاثة أيّام.

أوائل الخريف وصل حنّا إلى القلعة، قرأ اللوحة الكبيرة المنقوش عليها عام 1897، وتحتها نحت أسماء الأصدقاء الأربعة، وليم عيسى وزكريّا البيازيدي وحنّا كريكورس وعازار حاييم إستنبولي، كانت رسالة للجميع بأنّ أفضل أيّامهم كأصدقاء تلك التي قضوها في المدرسة.

أغلق حنّا باب القلعة وراءه، أنهت شمس الصباح ترتيبات الفرش، عطّرت المكان، وأشعلت مدفأة الجدار، سكبت كأسي نبيذ، كانت مستعدّة لحياتها الجديدة، توقعت أن تمنح في هذه الليلة غشاء بكارتها للرجل الذي سمح لها بمشاركته الحلم، اكتفى حنّا بملامسة أصابعها واحتضانها في السرير والنوم بعمق حتى الصباح.

حتى بعد زواجه ربيع عام 1900 بقي حنّا يقوم بالأفعال نفسها حين يرتاد القلعة، يتناول عشاءه صامتاً، يشير إليها أن تسبقه إلى السرير، يرتدي بيجامته ويحتضنها بين ذراعيه دون أن يلمسها، مكتفياً بقبلات خفيفة على خدّها، ويحدثها عن سعاد. في بداية علاقتهما لم تفهم غايته من ذلك، لم ينتظر تخمينها، قال لها ببرود يجب أن تبقى عذراء إذا رغبت في أن تصبح ملكة هذا المكان، حلّ صمت وتفاهم عميق بينهما، فكّرت في رغباتها التي يجب أن تموت، ثمّ في جنون هذا الرجل الذي سيصكّ نقود دولة غير مرئيّة، لا تملك جيشاً، ولا موظفين، سكّانها مجموعة رجال يمارسون العبث وصرف النقود، ويريد الآن تحويلها من عاهرة مبتدئة إلى أمّ لرجل يكبرها بأكثر من عشر سنوات، ثمّ أضافت، إلى أمّه، يروي لها حكاية حبّ سرّية لا يعرفها أحد. وحين انتقلت للعيش في القلعة، شعرت شمس الصباح براحة كبيرة حين فتحت باب قاعة المنتحرين، أعجبتها فكرة الاحتفاظ بعذريتها، فكّرت بأنّ المكان واسع وجميل يليق بالمنتحرين المقبلين، تنفست في عمق وقالت لنفسها إنّ المنتحرين لن يمانعوا أن تعشقهم فتاة عذراء مثلها لأنّهم لا يحتاجون إلى ثقل الأحياء، لكنّها فكّرت أيضاً بأنّ القاعة قد تبقى فكرة، ولا ينتحر أحد في هذا المكان.

بعد الطوفان تكرّرت الليالي التي يجلس فيها زكريّا قريباً من شاها، يتأمّلها، ويفكّر بأنّ سعادتهما غاصت في أعماق النهر، تغيّر إحساسه بالأشياء، لم يأت حنّا كما وعده، لم يطمئنّ زكريّا لبقاء صديق عمره وحيداً في ذلك المكان الموحش، قرّر السفر مرّة أخرى مصمّماً على أن لا يعود إلّا بصحبته. حين وصل إلى حوش حنّا ودخل إلى الغرفة، لم يعرفه، بدا كرجل متسوّل، غرفته قذرة على غير العادة، صحون الطعام عفنة، تفوح من سريره رائحة العرق. كان حنّا ينام على الأرض متكوّراً على نفسه في زاوية الغرفة. حين دخل زكريّا نظر إليه حنّا ولم ينهض من مكانه، تمدّد زكريّا على السرير دون أن يغيّر ثيابه، كان متعباً، غفا لساعات، وحين استيقظ كان الليل قد انتصف، سمع حنّا يقول له إنّ شغفاً جديداً ينمو في قلبه. عاد زكريّا إلى النوم، وجلس حنّا مكانه على كرسيّ خشبي طوال الليل، يراقب بزوغ الفجر، حركة الرياح ومياه النهر، يتجاهل الجثث التي ما زال النهر يقذف بها إلى ضفّتيه بين الحين والآخر، ما زال في بطنه الكثير من الأشياء. لم يعد أحد يبحث عن جثّة قريب له، ولم يعد في الإمكان التأكّد من هويّة الغرقى، لقد مضى أكثر من شهر وأصبح الطوفان جزءاً من الماضي.

التقاط الجثث التي يقذفها النهر أعطى زكريّا مبرّراً لبقائه قريباً من حنّا، يتحدّثان قليلاً. يخشى حنّا الأحاديث الطويلة، منذ طفولتهما لا يحب مناقشة مواضيع تضطرّه لقول أكثر من خمس كلمات، شعر بضرورة وجود زكريّا قربه، لكنّه لا يرغب في الكلام. كان يراقب نموّ شغفه الجديد كلّ يوم. يستيقظ زكريّا صباحاً، يترك صديقه في الغرفة وحيداً ويخرج، يسير بمحاذاة النهر، يلتقط الجثث التي قذفها النهر إلى ضفتيه، وبمساعدة الفلّاحين والصيادين يقوم بدفنهم، وتسجيل

مواصفاتهم إن كانت الجثث لا تزال تحتفظ بأيّ خصائص، يرقّم القبور، ويمنع تطفّل الناس على الحياة الجديدة لصديقه حنّا، كما يقوم بتسيير شؤون ماليّة عاجلة تخصّهما.

أجبر حنّا على الخروج من الغرفة، أمر الخادم بتنظيفها، وتغيير ملاءات السرير، كانت لهجة زكريّا حازمة، لا يريد لأحد استغلال لحظات ضعف حنّا، لكنّ الخادم أخبره بأنّ سيّده منذ عشرين يوماً لم يسمح لأحد بدخول غرفته، وسرد قائمة بأسماء أصدقائهما الذين حضروا لتقديم واجب العزاء، لكنّه لم يستقبل أحداً سوى عارف شيخ موسى الذي وصل باكياً كطفل صغير كما فعل في المرّة الأولى بعد تلقيه خبر الطوفان، يردّد اسم أحمد وجوزفين وكابرييل. كان عارف عاطفيّاً ورقيقاً، تعلق في زياراته الأخيرة بالطفلين، علّمهما الكثير من المفردات الكردية، واصطحبهما الصيف الماضي إلى منزله في شران، ليلعبا في الحقول الواسعة مع ابنه يوسف، عاد الطفلان بعد ثلاثة أسابيع يتحدّثان بضع جمل كرديّة، يتبادلان الشتائم ويضحكان ببراءة أسعدت جوزفين وشاها التي بدأت بتعليمهما اللغة الكرديّة.

كان زكريّا يعرف أن لا أحد يستطيع الهرب من عارف، ببساطة يفتح الباب برصاص بندقيّته، مبرّرات الخادم لم تقنع زكريّا لكنّه فكّر بأنّ حنّا يريد الغرق في النتانة. في طفولتهما كان يعاقب نفسه على ما يراه فعلاً شنيعاً ارتكبه، كان يختفي في قبو المؤونة، ينام قرب خراء الفئران، ويتحدّث بصوت منخفض كمواء قطّة، يطلب تركه لوحدته، ويردّد لازمته الشهيرة بأن لا أحد يحبّه في هذا العالم، كانت سعاد ببراءة تقول لكنّي أحبّك كثيراً، ينظر إليها حنّا ويقول فقط أنت تحبّينني، تسرق له صحون الطعام، ولا تخبر أحداً عن مكانه، تعتبر نفسها في مهمّة خطيرة، تردّد دوماً أن الاحتفاظ بالأسرار صعب، لكنّ التمرّن عليه يجعل منّا أشخاصاً فريدين، نكره الثرثرة وأكثر إخلاصاً.

مضت تسعة أشهر على الطوفان، لم يعد حنّا إلى حلب، طلبت شمس الصباح من زكريّا السماح لها برؤيته، تجاهل رغبتها، حاول ثنيها عن رؤيته، فكّر بأنّه لا بدّ من أن يعود إلى حياته، لكنّها صمّمت ووافقت على شرط زكريّا أن تراه مرّة واحدة من بعيد. فكّر زكريّا بأنه يريد مساعدة الآخرين في استعادة حنّا.

حين وصلا رأته ينظر من نافذة الغرفة الكبيرة إلى بقايا القرية، كان شخصاً مختلفاً لا تعرفه، أصبح رجلاً جميلاً جداً، لا يشبه الرجل القلق، أكثر نحولاً وطولاً، فقد الكثير من وزنه، بدا لها كملاك في إطار النافذة، جلست على حجر وراقبته، قرّرت للحظة أنّها ستراه وتلامسه مهما كان الثمن.

استغلت غياب زكريّا، وسارت بخطى ثابتة نحو غرفته، كان حنّا يتأمّل ظلّ شجيرات صغيرة عادت للنموّ مرّة أخرى، واكتست أغصانها خضرة فاتنة. أحضرت شمس الصباح معها مجموعة قليلة من ملابس يحبّها، بيجامته الحرير الزرقاء، وقميصه الأزرق المطرّز بالدانتيل، ثوبه القطني الطويل الذي نسجته له على نولها الصغير الذي نصبته في زاوية بهو غرفة الخدم، لتمضية وقت فراغها الهائل طوال فصلي الصيف والربيع، حيث يذهب حنّا وضيوفه لتفقد أملاكهم وينشغلون بحياتهم العائلية والحصاد والسفر إلى أوروبا.

بدأت شمس الصباح بصعود الدرج الموصل إلى باب غرفته، شعرت بثقل هائل، كأنّها تجرّ كتلة حديدية في قدميها، فكّرت بالعودة والتوقف عن التفكير في رؤيته، لكنّها صمّمت على السير بخطى بطيئة، عرفت في قرارة نفسها أنّها ستكون المرّة الأخيرة التي ستراه فيها. تابعت طريقها مصمّمة، ونظرت إلى التلّ، تذكّرت قصص شقاء المؤمنين الذين كانوا يرمون الضغينة من قلوبهم في

طريقهم للتخفّف من أثقال الدنيا، يفقدون قطعة من أجسادهم. طريق الإيمان طويل، حين يصلون إلى الخفة المطلوبة ويرون وجه الله مرتسماً في أعماقهم، يشعرون بذوبانهم في الملكوت الواسع، ويصبحون جزءاً من الأجرام السماويّة، ذرّة غبار من القمر، أو ورقة غصن زيتون لا يفقد اخضراره. شعرت في قرارة نفسها بقدر آخر يختبئ في قمّة ذلك التل، الذي أكملت صعوده ببطء وتصميم.

وصلت إلى باب الغرفة، قرعت الباب، انتظرت، لم يفتح أحد، أعادت قرع الباب، سمعت صوت خطواته المتثاقلة، فتح حنّا الباب، وقفت بعيداً لتتأمّله طويلاً، كانت مستعدّة لأن يطردها. قالت في قرارة نفسها إنّه في تلك اللحظة كان أجمل رجل رأته في حياتها، عيناه تبرقان برضى، جسده ممشوق، فقد زوائد الكتل الدهنيّة التي تراكمت في السنوات الأخيرة، وجعلته أقرب إلى السمنة. أفسح لها المجال للدخول، احتضنها بقوّة، غابت شمس الصباح عن الوعي، حاولت في سنواتها الباقية وصف تلك اللحظة لكنّها لم تستطع، مرّة تقول إنّها تشبه تفتّق البرق في سماء ممطرة، ومرّة أخرى تقول تشبه سكينة الميت في أول استرخاء للجفون بعد تسرّب الروح من الجسد، أقلعت في ما بعد عن توصيف حالتها، قالت: «ما عشته في تلك اللحظة لا يمكن وصفه».

رمت بنفسها على صدره مرّة أخرى، اشتاقت إلى احتضانه، بكت بصمت، أغلق وراءها الباب، وعاد لمراقبة الغروب، قالت إنّ زكريّا منعها من رؤيته، أجابها بأنّها رغبته، لكنّه الآن سعيد لأنّها هنا. عاد الصمت ثقيلاً بينهما، جلست على بساط، تراقب كلّ حركة، فكّرت بأنّها حياة جديدة فعلاً، لم يعد يكترث بالأشياء، لقد تحرّر منها.

غضب زكريّا من شمس الصباح، طمأنه حنّا بأنّه يرحّب بها، كان يريدها أن تزوره. لم يسألها عن حياتها، ولم يكترث بتعدادها أسماء أصدقائه الذين سألوا عنه، وعرضوا تجهيز القلعة لاستقباله، سألته: ألم تشتق للقلعة؟ بقي صامتاً، تمدّد على فراشه، وطلب منها احتضانه. كانت رائحته مختلفة، كأنّها خليط نباتات عطرة، غفا على صدرها، احتضنته كما كانت تفعل، فكّرت بأنّها لم تفقده، في أعماقها شعرت بأنّه لن يعود للعيش في القلعة، لقد تشرّدت روحه، لم تصدّق حين شرح لها زكريّا أنّ هذه الأرض المنبسطة المليئة بالطمي كانت قرية حوش حنّا، كما لم يصدّق زكريّا حين طلب حنّا من شمس الصباح البقاء قربه.

نهضت في الليل، نظرت من النافذة، كان المكان صامتاً والنهر فاتناً يجري بهدوء، تنبعث أضواء خافتة من قناديل صيّادين بعيدين يرمون شباكهم. اقترب الفجر، عادت إلى الفراش، تمدّدت قربه، لا تجرؤ على الاعتراف بعد هذه السنوات بأنّه بالنسبة لها رجل مختلف عن حنّا القديم، وهي لم تكن أمّه، تحسّس نهديها، عرّاها من ثيابها، وقبّلها لأول مرّة من حلمتيها، مدّت أصابعها إلى عضوه، كان ينتفض بقوّة، تحسّست عروقه بهدوء، استسلمت له، كانت تبكي بصمت حين ولجها، تأخّرت سعادتها أكثر من عشر سنوات، قرّرت في أعماقها أنّها لن تدع هذه الفرصة تمرّ، إنّه حبيبها الذي انتظرته طويلاً، وهو يلجها في هدأة هذا الفجر، يحرّر أقفالها، ويفتح أبواب حياة أخرى لا تعرف شكلها، لكنّها تريدها بكلّ شبقها. لم تشعر بألم فقدان العذريّة الذي كانت النساء يتحدّثن عنه، تساقطت نقاط دم قليلة على الشرشف، كانت غائبة عن الوعي من فرط اللذة المفاجئة.

استيقظت شمس الصباح بعد أقلّ من ساعة، نهضت من فراشه، اغتسلت، ثمّ غيّرت الشرشف، واضطجعت قربه. كان الفجر يتسلل من النافذة، ولجها مرّة أخرى وكانت تهذي باسمه، تتأوّه، تتلوّى تحته، تركته يقودها إلى حيث يريد، ويفعل بجسدها ما يشاء. كانت شهوته قويّة، قذف في داخلها منيّه أكثر من مرّة، شعرت براحة غريبة. اختلطت صور السنوات الماضية، مئات الليالي

نام على صدرها، كانت قد قتلت أحاسيسها ليصبح ابنها، والآن يتهدّم الجدار الصلد المحرّم الذي بناه حنّا طوال سنوات في ما بينهما، كان وجهه مشرقاً، كأنّه فكّر لسنوات في جسدها.

تكرّرت ليالي أسبوعهما الأول، كلّ ليلة يضاجعها، للمرّة الأولى تكتشف اللذة، وحنّا لا يتحدّث إليها، يفكّر بأنّه فعلاً لم يعد مهتمّاً بالجنس، شعر بملل شديد، لكنّه بقي طوال الأسبوع الثاني، يتذكّر أمه، يصف وجهها الأبيض وقامتها الطويلة، ونهديها الكبيرين، يصمت ويتذكّر رائحتها، لم يجد تعبيراً قريباً لمعنى رائحة أمّه، قال فجأة: «كرائحة هذا الفجر». نهض من الفراش، اغتسل، ارتدى ثوبه القطني الذي أحضرته شمس الصباح، فتح النافذة، عاد لمراقبة الفجر من مكان جلوسه، ما زالت الألوان تبهره، الأحمر المتداخل مع الضوء الأصفر، كان يفكّر بأنّه في كلّ لحظة يولد لون مختلف، وكلّ فجر جديد لا يشبه الفجر الذي مات أمس، وطعم شمس الصباح أيضاً بالنسبة إليه لم يكن يشبه طعم أيّ امرأة أخرى، صحيح أنّ قدّيسته انتهت، هتك عذريّتها، ولن تعود أمّه مرّة أخرى، لكنّها لا تشبه بقيّة النساء، كان جلدها ناعماً، وشعرها الأسود على كتفيها يتهدّل كثيفاً، رائعاً، يذكّره بأحلامه القديمة عن المرأة، فكّر للحظات بأنّه سينزل درج هذه الغرفة، ويذهب بقدميه إلى القلعة، يتزوّج شمس الصباح، وينجب عشرة أولاد، يردم القبو المخصّص للمنتحرين الذين لم ينتحر منهم أحد على منصّته، بقي فكرة فقط.

كانت صور أطفاله المقبلين تغزو مخيّلته في الأسبوع الثالث، في الوقت ذاته شعر بتفاهة لا مثيل لها، تغزوه بقوّة، تمدّ لسانها له، تعيده إلى حقيقته التي وجدها في تأمّله الحياة الأخرى للنبات والكون الواسع والحيوانات. يقول في أعماقه إنّ الأطفال لا يشبهون الأزهار، والرجال والنساء براغيث مؤذية تطير على صفحة النهر العظيم.

فكّر بأنّ شمس الصباح تستطيع العيش كأيّ امرأة، حلّلها من وعدها بالمحافظة على عذريّتها، وهي كانت تفكّر بأنّها لن تبقى في القلعة إن لم يعد حنّا إليها، لديها ما يكفيها ويحميها من استجداء العمل عاهرةً في المنزول العمومي، كبرت قربه، تقترب من الثلاثين، وتشعر بالقوّة للوفاء بوعدها الذي قطعته على نفسها بالمحافظة على عذريّتها كلّ هذه السنوات. لن تغضبه، في الوقت نفسه كانت تعرف أنّه ليس سهلاً هجر ذكريات أكثر من عشر سنوات.

في الأسبوع الرابع لإقامتها في غرفته، امتنع عن النوم قربها في الفراش الذي تركه لها، نام على الأرض، بقيت طوال الليل تنظر إليه حتى يغفو، كان وجهه رائقاً، من الواضح أنّه يعاني من كوابيس متواصلة، يبتسم في نومه، ويعبس، ويشيح بيده كأنّه يطرد ذباباً، أو قراد خيل عالقاً على جلده، استرخى في نومه بتنفس منتظم، تحلّل من أعبائه، يستيقظ قبل الفجر، وهي ما زالت تنظر إليه بنفس الشغف الذي كانت تنظر إليه حين يكون مريضاً، ويندسّ قربها في سرير غرفة نومه الخاصّة في القلعة.

في ليلتها الأخيرة انتصف شهر تشرين الأول، بدأت زخات أول مطر، شعرت بأنّ كلّ شيء حولها منعش، رغم الصمت القاتل الذي فرضه عليها في الأسبوعين الأخيرين، لقد ذهب حنّا بعيداً في تحوّله، تحوّلت زخات المطر إلى عاصفة قويّة، نهض من مكان نومه على الأرض، واندسّ في جسدها، كان يرتجف خوفاً، أضاء البرق الغرفة الكبيرة، ولم يتوقف صوت الرعد، كانت ليلة تشبه ليلة الطوفان، السماء مظلمة، وصوت المطر الغزير أعاد إليه إحساسه بالفقد. لم تضيّع شمس الصباح فرصة اندساسه في جسدها، كانت تشتهيه، عرّته، وقبّلت جسده، وعضوه، ومارست معه الجنس كأنّه سينهض من سريرها ويعلّق بيديه مشنقته ويموت، أرادت وداعه للمرّة الأخيرة أو فتح الباب لحياتهما الجديدة، كانت منتشية طوال الليل، البرق والرعد زادا من شهوتها ومن خوفه،

كانت في أعماقها تريد تطهير جسده من روائح النساء اللواتي لا يمكن إحصاؤهنّ، تصاعدت همهمات لذتهما ونشوتهما، اختلطت مع أصوات العاصفة التي لم تتوقف حتى بزوغ الفجر.

استرخيا في فراشهما، استيقظ حنّا بعد الظهر، كان زكريّا قد وصل إلى الغرفة، لم يجد شمس الصباح قربه، لقد غادرت، تذكّر أنّه طلب منها العودة إلى القلعة. نهض وجال في الغرفة، طلب من الخادم تنظيف المكان جيّداً، سار على ضفة النهر، شعر بأنّه عبر البرزخ، لم تعد روحه تحتمل الدنس. في أعماقه شعر ببؤسه مرة أخرى، اغتسل، رمى بالثياب التي أتت بها شمس الصباح، ولم يعد للنوم على الفراش نفسه، شعر بسعادة كبيرة لنومه على حصيرة. احتاج إلى أيّام لنسيان ما حدث، عاد لاستنشاق رائحة النهر والأزهار التي تنمو في هذا الخريف، وحين بدأت رفوف الطيور تغادر نحو جهاتها الجديدة كان قلبه يشعر بأنّه وُلد من جديد، إنّه العالم الذي أراد العبور إليه، والاستقرار فيه، والمسافة بين الضفتين كدرب الآلام التي سار عليها يسوع ليصل إلى صليبه.

دهمته تلك الليلة ذكرى جوزفين، حين رآها لم يفكّر وقتاً طويلاً، ليتّخذ قراره بأنّ هذه الفتاة الطويلة التي تصلّي كلّ أحد في الكنيسة، وتتبرّع للعمل في كلّ مشاريعها الخيريّة، زوجة مناسبة. أعجبه تقشّفها، والحزن الصادق في عينيها، لم تكن ابنة رجل غني لكنّه صاحب سمعة جيدة.

اقترب منها حنّا وقال لها إنّها تعجبه، أضاف أنه يفكر في الزواج بها، صدمتها جرأته، كانت في أعماقها تحترمه، فكّرت بأنّ هذا الرجل صاحب السمعة السيّئة، الذي تتناقل قصصه كلّ عائلات المدينة، يتصرّف بكرم كبير مع المحتاجين، ولا يتذلّل للبطرك أو الوالي ورجاله، يجاهر برأيه، لا يكذب، ولا يهرب من تحمّل المسؤولية. في النهاية كان رجلاً شجاعاً، مستقيماً رغم فسقه وحكاياته الغريبة مع النساء، طلبت منه التحدّث إلى أهلها. شعرت بأنّها ستنهار بعد هذه الكلمات القليلة، لم تكمل الصلاة، وقبل أن تغادر نظرت إليه، وابتسمت بحزن زادها جمالاً، وانسحبت على غير عادتها مبكرة، كانت ركبتاها ترتجفان، ولا تصدّق ما حدث.

في الليلة ذاتها طلب حنّا من أحمد البيازيدي وزكريّا مرافقته لطلب يد الآنسة جوزفين اللحّام، وصلوا إلى منزل جوزيف اللحّام في السابعة تماماً، كعادة أحمد البيازيدي في التحدّث دوماً عن أهمّية الالتزام بالموعد المحدّد، ترك حنّا كعادته كلّ التفاصيل لأحمد البيازيدي الذي شعر بسعادة فائقة لاختيار حنّا مصاهرة هذا الرجل المحترم، الذي كان ينظر إلى حنّا كعريس لا يُردّ. في السنوات الأخيرة كشف حنّا عن جانب خفيّ في شخصيّته، كمساوم كبير يخطّط لمشاريع كبيرة، ويدير أملاكه بطريقة مختلفة عن أقرانه من المُلّاك البخلاء، مهتمّ بالتعرّف إلى مفكّري المدينة، ودعم مشاريعهم في إصدار الصحف، وخاصّة التي تغلقها السلطات العثمانية، وافتتاح النوادي. كان دوماً يُذكر اسمه إلى جانب الأثرياء رعاة أغلب المشاريع الليبراليّة في المدينة. صورته تلك جعلت منه رجلاً محبوباً، لا يختلف عليه المسيحيّون والمسلمون واليهود في المدينة، يردّدون كلماته التي تهاجم ضيق أفق رجال الدين حين يفكرون في مدينتهم، لم يفرّق في دعمه المادّي لمشاريع دور الأيتام بين المسلمين والمسيحيّين واليهود. وكراهيته للأتراك والعثمانيين التي لا يخفيها، جعلته مقرّباً من المفكّرين القوميّين الذين ينادون بضرورة الانفصال عن الإمبراطوريّة العثمانيّة، والمطالبة بالاستقلال للّحاق بأوروبا التي نهضت، ووصلت أفكارها إلى كلّ مكان في العالم.

كان جوزيف اللحّام المصحّح في جريدة «المدينة» ينتمي إلى فئة الموظفين الصغار، لكنّ شغفه بالقراءة ومراجعة المخطوطات، جعله مرجعاً مهمّاً لمفكّرين ومؤرّخين وهواة أجانب مهتمّين بتاريخ حلب. اتفق مع حنّا في الكثير من الأفكار، كان واثقاً بأنّه سيكون زوجاً محترماً لابنته، ولن

يحوّلها إلى مجرّد خادمة. لم يحتج أحمد البيازيدي إلى مقدّمات، دخل مباشرة في موضوع طلب يدها، ونقاش تفاصيل الجهاز والعقد. كان كلّ شيء سهلاً، كانت نظريّة جوزيف اللحّام بأنّه لا يجوز سؤال الرجال الكرماء عن تفاصيل تخص حياتهم الشخصيّة، دقائق معدودات وتعالت الزغاريد من منزل حوزيف اللحّام، أعلن خبر الخطوبة، الذي طاف في الليلة نفسها على كلّ بيوت المدينة.

بعد أسابيع قليلة تزوّج حنّا بجوزفين اللحّام في حفل بسيط، خرجا من الكنيسة بعد الإكليل إلى حفل غداء أعدّه زكريّا في منزل أبيه، أمضى العروسان ليلتهما الأولى في شقتهما في «باب الفرج»، مكثا أيّاماً قليلة تلقيا خلالها التهاني من الأصدقاء والعائلة، وتوجّها إلى منزلهما في قرية حوش حنّا. احتاج الخدم إلى عمل دؤوب لإخفاء آثار الليالي المتهتّكة في المنزل الكبير، أخفوا أحذية وملابس داخليّة نسائيّة، وبقايا سهرات عارمة، أشعلوا البخور في كلّ ركن لطرد روائح العاهرات، لم تشارك ماريانا في حفلة تجديد المنزل، انزوت في منزل أهلها، شعرت بغصّة، في أعماقها ارتضت بالهزيمة ما دامت سعاد البيازيدي تلك الفتاة المتكبّرة، كما كانت تصفها، خسرت حنّا أيضاً.

في الطريق إلى قرية حوش حنّا أجاب حنّا عن أسئلة جوزفين، لم يوارب أو يكذب، وحين وصلت في حديثها عن القلعة طلب منها نسيان هذا المكان إلى الأبد، وصمت. لم تفهم جوزفين قصده، صمتت وفي قرارة نفسها قرّرت اعتبار القلعة مكاناً غير موجود بالنسبة لها.

شعرت جوزفين في القرية الصغيرة بالانعتاق، أحبّت حياة الفلّاحين، تقرّبت من ماريانا رغم عدائيّتها، ساعدتها في تعليم الأطفال، رعت شؤون الكنيسة الصغيرة، تستمع إلى الخوري باهتمام، لا تنتظر طلب مساعدة لتلبّي حاجة أسرة فقيرة، كانت تعتقد بأنّ جرح الكبرياء شيء لا يمتّ للأخلاق المسيحيّة بصلة، فهمت ببساطة أنّ شاها زوجة زكريّا هي قدر لن تستطيع الفكاك منه، لكنّها حين اقتربت منها اكتشفت فيها امرأة رائعة، أصبحت صديقتها الحميمة. أعجبها مزاجها المتوحّش، وكرمها اللامحدود، وخبرتها الكبيرة في الأشياء الدنيويّة، تركت لها ترتيب حياتهما دون استئذان.

أعجبته الحياة الجديدة لشهور قليلة، عاد حنّا بعدها إلى أسفاره وبحثه عن حياته الماجنة، هجر المنزل. لم تكترث جوزفين، شعرت في أعماقها بأنّ زوجها آبق، إلّا أنّه رجل كريم، وهي خصلة يجب احترامها في الرجال، لا يدقق في التفاصيل التي تجعل الحياة الزوجية جحيماً لا يطاق، كانت تقول: «هنا مملكتي»، كلّ هذه الحقول، والنهر العظيم، والحياة بعيداً عن نميمة العائلات في المدينة، في أعماقها تشعر بأنّه سيعود في النهاية إلى منزله.

كانت جوزفين زاهدة في الأشياء، لم تناقش تفاصيل الجهاز، اكتفت بأثواب قليلة وفستان زفاف بسيط من مجموعة المدام حسنيّة، صمّمت سعاد أن تخيطه بنفسها، وساعدت جوزفين على انتقاء بقيّة أشياء الجهاز، اتفقت معها على عدم الاكتراث لما ستقوله العائلات حين يرون حقائب جهازها القليلة تخرج من منزل أهلها، قدّمت سعاد نفسها إلى جوزفين بصفتها فرداً من عائلة حنّا، تحمّست لأمر زواجه بهذه الفتاة التي كانت تراها بائسة وزاهدة، خسرت آخر أمل لديها بعودة حنّا إليها، صمّمت على طيّ صفحته، والاعتناء بحياتها، يجب أن يتذوّق طعم الحياة البائسة لتكون سعيدة، أصبحت تناقش عروض الخطبة التي يتلقاها أبوها، اشترطت استبعاد مساعده أورهان وأبناء العائلة، وافق أحمد البيازيدي الذي لم يكن يرغب في أورهان صهراً، ولا يريد لابنته العيش مع

عائلة محاسبين، حياتهم فاترة، منظمة كسطور في دفاتر مخطّطة، لكن إقناع سعاد بخطيب لم يكن سهلاً، تهشّمت روحها، ولن تهب جسدها لرجل لا يستطيع أن يطرد حنّا من أعماقها.

بعد الطوفان عاد زكريّا إلى منزل عائلته التي لم تعتد وجوده، كان المنزل مهملاً على غير عادته، الخادمة مارغو ماتت. فاوضت سعاد من بقي من أهل خادمتهم أم الخير لأخذها والعناية بها، أغرتهم بتعويض مجزٍ، قالت إنّها ستتزوّج ولن يبقى في المنزل سوى أبيها. نجحت مفاوضات سعاد، وانتقلت أمّ الخير للعيش مع ابن أخيها في قرية قريبة من حماه. لم تكترث سعاد لغضب أبيها حين اكتشف غياب خادمته، يكفيه خادمة مؤقتة، تنظف المنزل وتطبخ له مرّتين في الأسبوع. كانت سعاد تستعدّ للزواج بحسن المصابني بعد أسبوعين، تجاوزت الثالثة والثلاثين من عمرها قبل أيّام قليلة، يئس الجميع من إمكانيّة تقدّم أيّ رجل عاقل في هذه المدينة لطلب يدها، لقد فاتها قطار الزواج، لكنّها كانت موقنة بأنّها تستطيع اختيار لحظة زواجها. ما دام كلّ الرجال متشابهين بالنسبة لها يمكن إيجاد أيّ أحد للقيام بهذا الدور. يكفيها ما عانته من قصّتها مع حنّا الذي ظنّ أنّ زواجه سينهي شوقه إليها. لكنّ ما حدث جعله يفكّر مرّة أخرى في شقائهما، لقد جرّته من رقبته إلى تلك الحظيرة، تركت له جزءاً من لمستها في كل مكان. حين تأتي جوزفين إلى سريره، يعرف أنّ سعاد هي التي أرشدتها لارتداء هذه الجوارب المخرّمة، وقميص النوم هذا، وأشارت عليها بهذا العطر. لا يستطيع أيّ منهما الهرب من الآخر. تشتاق إليه، تنتظر مرور عربته من تحت نافذة مشغل الست حسنيّة، تراقبها تتهادى ببطء حين وصولها إلى الحيّ، تراه ينزل منها ويدخل إلى منزل أهلها، ينتظرها، لكنّها لا تأتي، اعتادت هذا الألم، في الحالات القليلة التي فاجأها في المنزل، تعاطت معه كرجل غريب، كانت قاسية، لم تسمح له بالتسلل إلى غرفتها، أصبحت براءة طفولتهما حكاية مملّة لا تضحك على استعادتها.

في آخر زيارة له قبل الطوفان بشهرين أعادت تذكيره بأن يتعاطى معها كامرأة وعاشقة مهزومة، لا تعنيها المبرّرات الأخلاقيّة، والخوف من الطائفة. كانت تحدّثه بلهجة قاسية، تخاف أن يمتلك الشجاعة ويتقدّم نحوها، يمسكها من شعرها بقوّة، ويطرحها على السرير، ويلجها دون استئذان، كانت تفكّر بأنّها لن تقاومه، ستستسلم لأصابعه الرقيقة التي تعشقها، لكنّه كان يقف أمامها رجلاً مسلوب الإرادة، يشعر بلذة حين ترفع صوتها في وجهه، وتوجّه له الإهانات، وتتحدّث عن جبنه، ينتشي حين تصل إلى الحديث عن شجاعة وليم عيسى الذي قام بالفعل الخارق، عكس حنّا وزكريّا وعازار الذي تزوّج بفتاة يهوديّة كانت سعاد تصفها بالقملة السخيفة جدّاً، متجاهلة أباها راؤول صائغ الذهب. تزوّجها عازار لأنّ الطائفة وأباها ساعداه في دراسته وتأثيث مكتبه، كانت غاضبة منه لزواجه بفتاة تشبه الفأرة، تتذكّرها سعاد جيّداً حين كانت تجلس معهنّ في دروس الفرنسيّة تفوح منها رائحة المجاري المكشوفة. يفكّر حنّا بعادة سعاد في التعبير، تحبّ وتكره إلى أقصى درجة، وتعاطفها مع صديقها المقرّب عازار لن يجعلها تقبل بأيّ عروس له، كانت تجد كلّ النساء أقلّ من شهامته، واحترامه لنفسه وموهبته التي تصفها بالعبقريّة، حافظ الاثنان على علاقة متميّزة منذ الطفولة، كان يحدّثها بأدق أسراره، قبل سفره إلى روما كان يقول لها إنّه رجل الصدقات المهينة، عاش طوال أيّام مدرسته يصرف عليه محسنون، والآن سيسافر إلى روما والمحسنون يدسّون نقوداً قليلة في جيبه، ثمناً للجبن والشاي والطعام القليل، كانت تتعاطف معه، تتفهّم مشاعره، وتبالغ في هداياها له، ترسل له القمصان والبناطيل والبدلات إلى روما، كانت تتحاشى أن تدسّ له نقوداً في جيبه. كانت سعاد بالنسبة لعازار أكبر من محسنة أو أخت، تكتب له

رسائل طويلة تشتم حنّا الذي لا يشعر بها، وزكريّا الذي يدفع صديقه للزواج بفتاة مسيحيّة، تصف له المدينة في غيابه وتكتب أنّها تنتظره، والمدينة دونه لا تساوي قشرة بصلة.

عرف حنّا أن قصّته مع سعاد لن تنتهي، وهي تستعدّ للزواج لم تنس إعطاء دروس وإرشادات مفصّلة لجوزفين التي تثق بها، وتزورها كلّ سنة ثلاث مرّات، تجدّد فيها ألبستها الداخلية، وقمصان نومها التي تختارها سعاد. تستمع جوزفين الخجولة بشغف كبير لتعليماتها، وهي ترشدها إلى الطريقة التي ستحافظ بها على زوجها، وتجعل من حياته مع النساء الأخريات جزءاً من الماضي. قبلت جوزفين تعلم السير كالعاهرات وهي في طريقها إلى السرير. كانت تردّد كلمات سعاد بأنّ الرجال الذين يشبهون حنّا يرغبن في نساء عاهرات في الفراش يتحوّلن إلى ملائكة وهنّ يجهّزن طعام الإفطار ويشرفن بصرامة الجنود على تفاصيل الحياة المنزلية، يطمئنّ الرجال إلى النساء اللواتي يتعاملن مع أشياء المنزل بصرامة لا متناهية.

تهزّ جوزفين رأسها موافقة لكنّ خجلها يمنعها من فعل أيّ شيء، تبقى قمصان النوم المثيرة كأكفان باردة في الخزانة. بعد ولادة طفلها الأول كابرييل، لم تعد جوزفين تكترث لمقولات سعاد عن الجنس والسعادة، تهمل ثيابها، كأيّ امرأة تفكر في المسيح والحياة الفاضلة طوال يومها، تعتني بزوجها وأشيائه الكثيرة والغالية، بدلاته التي يخيطها خيّاطه الخاصّ المسيو جورج الذي يستقبل عدداً قليلاً من زبائن النخبة، ينتقي لهم أنواع الأقمشة، ويبدي رأيه في صرعات الموضة التي كانت تصل مع الأجانب المقيمين في المدينة، وبداية وصول أعداد من مجلّات أوروبية متخصّصة في الموضة إلى المكتبات. يقول جورج، المدعوّ الدائم إلى حفلات القناصل الأوروبيين: «لماذا نسافر إن كان العالم يأتي إلى حلب عاصمة العالم؟»، كان شجاعاً في اختياره قصّات غريبة، لا يخشى الاقتراب من رجل يرتدي بذلة تعجبه، يسأله عن خيّاطه، يتفحّص قماشها جيّداً، ساعدته روحه المرحة على تقبّل الآخرين لتفحّص ثيابهم في الحفلات، وكانت أفكاره الحاضرة تثير الإعجاب، ينتقد خيّاطاً فرنسياً مشهوراً لأنّ جيب البدلة التي يرتديها القنصل الفرنسي لا يتناسب مع لون القماش، وحين يشعر بالإحراج ينتقل للحديث عن الطبخ، يمضي بين المدعوّين حاملاً كأسه ويعرض خدماته على الجميع دون مقابل، الكثير من الصفقات الكبيرة تمّت بين زبونين أدّى خدمة وعرّف كلّاً منهما إلى الآخر في حفل عشاء خاصّ في منزله المترف في الفرافرة الذي لم يفارقه رغم بدء انتقال المسيحيين من أحياء حلب الداخلية إلى حيّ العزيزية، وانتقال اليهود إلى حيّ الجميلية.

بعد زواج حنّا، لم يعد المنزل يعني لسعاد أيّ شيء، تقضي وقتها في مشغل جارتها المدام حسنيّة التي علّمتها كلّ شيء عن الخياطة وجنون التصميم، لم يعجبها مجموعة العرسان الذين تقاطروا لطلب يدها، رفضت حتى رؤيتهم، طلبت من أبيها وضع حدّ لأورهان مساعده التركي في البنك العثماني، الذي لاحقها في كلّ مكان، كتب لها الرسائل ودسّها من تحت باب غرفتها، حين كان يزور معلمه للعب الشطرنج صباح كلّ يوم جمعة، كما أرسل هدايا كثيرة للست حسنية لتأمين موعد له، وبعث بفتاة يهودية تودّدت لها ودعتها إلى منزلها، لكن سعاد فهمت الأمر، أمسكت بالفتاة من ياقة فستانها، وبصقت في وجهها، طلبت منها تبليغ أورهان رسالتها. كانت سعاد تصفه بصاحب الرائحة النتنة، تشبّهه بالتيس الهائج، لم تقرأ رسائله إلّا أنّها رمتها في صندوق مع رسائل معجبين كثر كان صبيانهم يعترضون طريقها ويدسّونها في يدها، كانت تمضي في طريقها غير آبهة، لم تعد تنتظر عودة حنّا، لا تريد لأحد أن يحتلّ مكانه، كانت تؤمن بأنّ الحبّ يأتي مرّة واحدة، وما عدا ذلك تكرار باهت.

حين تقدّم حسن المصابني لطلب يدها، لم يعترض طريقها أو يرسل وسطاء للست حسنية، خرج من معمله في العرقوب مساءً، كان يفكّر لأشهر في سعاد، قرع باب منزل أبيها، تحدّث مباشرة في موضوع زيارته، ثمّ طلب سؤال سعاد إن كانت ستوافق أو ترفض كعادتها، لم يمهل أباها إلى الغد، بل طلب منه جواباً سريعاً، وأكمل حديثه عن وقته الضيّق. وافقت سعاد دون تردّد، كانت تعرفه جيداً، يفاخر بكلّ ما يفعله، ويتحدّث بعنجهية، يترجم في بعض الأحيان مقالات عن اللغة الإنجليزية للتباهي بأنّه رجل مطّلع على أحدث ما يُكتب في العالم. مقرّب من الولاة المتعاقبين على حكم المدينة، وأسرته مقرّبة من الباب العالي، وصل بعض أفرادها إلى مناصب مرموقة في السلطنة. تعجبه الازدواجية والخليط الذي يشكّل مجموعة آرائه المتناقضة، يمتدح القوميّة العربيّة، ولا يترك فرصة إلّا ينتهزها للتحدّث عن ضرورة بعث أفكار الإمبراطوريّة العثمانيّة السامية من جديد، ممتدحاً السلطان عبد الحميد الثاني، وفي الوقت نفسه يتبرّع لرجال دين متشدّدين يهاجمون المسيحيّين واليهود علناً، ويطالبون بعودة قانون الجزية الذي يفرض ضريبة على رأس كلّ مسيحي أو يهودي في السلطنة ليستطيعوا المحافظة على دينهم، وفي الوقت نفسه يدفع الاشتراك لجرائد ليبرالية مستقلّة تهاجم سياسة الإمبراطوريّة وتطالب بفصل الدين عن الدولة.

موافقة سعاد صدمت أحمد البيازيدي، سعاد لا يعجبها الرجال المفلطحون، ولا تثق بهذا النوع من المدّعين، كانت تفكّر في أعماقها بأنّها لن تمنح حنّا فرصة للندم، كانت تفكّر بأنّ حسن المصابني، الرجل الأرمل الذي يقترب من الستين، ستثيره فكرة انتظار سعاد له.

وافقت سعاد على كلّ ما اقترحته عائلة المصابني، لم تناقش التفاصيل الدقيقة للجهاز، فقدت ولعها بالأشياء، كان الطوفان والعزاء وموت ابن أخيها وغرق جوزفين وابنها حجّة مقبولة لعائلة تعتبر العرس إعلان نفوذ لتتباهى بثرائها وقوّة علاقاتها مع رجال الدولة، كما كانت عائلة المصابني تقترح إقامة العرس في إستنبول وتطمح لحضور السلطان عبد الحميد الثاني شخصياً عرس ابنهم ومباركته.

رغم انشغالها بترتيب أمور زواجها حاولت سعاد التخفيف من مصيبة شاها التي ازداد قلقها، تدور في البيت الكبير كمجنونة، تعتقد أنّها إذا غرقت في النوم فستموت لا محالة، وجوه الموتى تسرّبت إلى ذاكرتها، لم تكن قادرة على تصديق ما حدث، تشتاق إلى جوزفين، تصفها بالصديقة الحميمة. تخرج من المنزل فجأة، تصل إلى باب كنيسة السريان الكاثوليك، تريد رؤية ماريانا لتسألها هل حقاً مات جميع جيرانها وأولادهم، تصمت وتعيد السؤال عن جوزفين وكابرييل الذي كانت مولعة بحركاته الخفيفة وهو يقلد لها طريقة ركض الحصان، وتعيد سؤالها عن إيفون التي فضّلت البقاء في منزل عمّتها في حلب. تبكي شاها بصمت، وتعتقد بأنّ الصيّادين الذين أنقذوها سرقوا ابنها الذي لم يمت غرقاً. تستقبل ماريانا ضيفتها بتعاطف كبير في فناء الكنيسة، آثار الخسارة انسلّت إلى روح شاها، ستفقد عقلها ولن تنفعها الكلمات الطيّبة. تستمع ماريانا إليها صامتة، تنهض شاها وتخرج من الكنيسة فجأة دون وداع ماريانا، تضيق أنفاسها، تدور في شوارع المدينة غير مكترثة بضياعها، ونظرات الرجال وتحرّشاتهم، لا تعرف طريق العودة إلى منزل أحمد البيازيدي، تذكر الاسم لأيّ سائق عربة، يوصلها ويوصي بها سعاد التي تفتح الباب دوماً وتحاسب سائقي العربات دون أن تحذّر زوجة أخيها من الضياع مرّة أخرى. كانت تعرف أنّه لا أحد يستطيع مواساة امرأة فقدت ابنها ومكانها وسريرها الذي تحبّ.

تبقى شاها في السرير أيّاماً طويلة، لا تلبّي دعوة عمّها أحمد البيازيدي لمشاركته الغداء، أو دعوة سعاد لمرافقتها إلى السوق، ولا تكترث بأخيها عارف شيخ موسى الذي يطلب منها مرافقته

للعيش في منزله، فقدت الكثير من وزنها، أصبح وجهها شاحباً كوجه بومة عجوز. لم يستطع زكريّا انتشالهم جميعاً من الكارثة. لقد تفكّكوا، طلب من حنّا النهوض من كبوته والعودة إلى حياته، الكثير من الأشياء تنتظره، استمع اليه حنّا وطلب منه تركه لوحدته، والعناية بشمس الصباح التي غادرته صباحاً، لم يسهب في شرح ما حدث، سأل حنّا لماذا لم تدعها قربك، أجابه حنّا: «أنا تفكّكت أيضاً».

بعد مغادرة شمس الصباح، استيقظ حنّا ظهراً، وجد زكريّا قربه، شعر بالذنب، لقد ضيّع رؤية ألوان الفجر من أجل البقاء مع امرأة، استعاد حرّيته ووحدته التي أحبّها، خرج من الغرفة عصراً، ورأى زكريّا حزيناً لا ينظر وراءه إلى صديقه، كان يبكي، وجسده يرتجف. نعم تفكّكنا جميعاً، ردّد حنّا وتابع سيره وحيداً على ضفّة النهر، التقط النباتات الغريبة، تحاشى البشر، جلس بين شاهدتي قبرين، قدّر أنّهما قبرا جوزفين وابنه كابرييل، شعر بسلام غريب في الساعات القليلة التي قضاها في المقبرة، عادت إليه لحظات حياته مع جوزفين وابنه كابرييل، اشتاق إلى اللحظات البليدة، المشبعة بعفن الرضى، تضحكه محاولات جوزفين إغراءه، في منتصف الطريق يعود إليها خجلها، وتهرب من نظراته، تعود تلك المرأة المؤمنة، التي أوصاها المسيح بطاعة زوجها، وبعد ولادة كابرييل تحوّلت إلى أمّ دفعة واحدة، ثدياها مليئان بالحليب، وجهها بريء، وجسدها يطفح مودّة، إنّها مملكة الرضى التي بحثت عنها طوال حياتها، تكفيها ملامسات حنّا حين ينام في سريرها، يحبّ القيام بواجبه الزوجي، وعدم إيذاء روحها الشفافة الهائمة.

أنهى ليلته الأولى بعد رحيل شمس الصباح، شعر بنعمة الصمت مرّة أخرى، عادت النسمات عليلة، انحسرت العاصفة، هواء رطب يحمله النهر القريب، عاد للجلوس في مكانه الأثير قرب نافذة الغرفة، يراقب هجرة الطيور، وينهض بتثاقل إلى سريره، لا يغلق الباب في وجه أحد، بالنسبة إليه هم بشر عابرون لا يعنيه وجودهم، أصبحوا من ماضيه الذي بدأ يموت، يمّحي ويتساقط من ذاكرته. دمّر الطوفان حياته القديمة بالكامل، انبثقت رغبات جديدة بين ضلوعه، يتحسّسها رغم أشكالها الغامضة، مفردات حياة مختلفة. أصبح جسده أكثر حيويّة، وقلبه أكثر رقة، يفكّر في أعماقه بأنّ الموت ليس سيّئاً، إن لم يكن غرقاً. لم يستطع نسيان وجوه الغرقى، لا يمكن للموت أن يكون خبيثاً إلى هذه الدرجة، تتغيّر أشكاله من طريقة لأخرى، لا يكفي توقف ضربات القلب، يفكّر حنّا كيف يموت البشر لأنهم يغصون في الماء، تمنّى لو أنّه لم ير جثّتي جوزفين وكابرييل. الغرقى يحافظون على حقيقتهم في الحياة، كانت جوزفين تشبه تلك الفتاة التي رآها واقفة في صفّ المصلّين واقترب منها وأخبرها بأنّه يفكّر في الزواج بها، نفس الوجه الطيّب، المؤمن، وكابرييل تحوم على وجهه قسوة جدّه الذي يحمل اسمه، كان ينمو كلّ يوم ليصبح نسخة صغيرة من جدّه الذي لم يعرفه حنّا جيّداً. خلط ابنه كابرييل ترتيب أوراق حياته مرّة أخرى، بدأ يقترب من أبيه، ويشعر بمودّة تجاهه، لم يعد بالنسبة إليه ذلك الرجل الجشع، القاسي، الذي قضى نصف عمره في الخوف من سرقة المحاسبين والصنايعية لأمواله، لذلك استعان بأحمد البيازيدي في مراجعة كلّ تفصيل من دفاتر محاسبيه، لم يفكّر يوماً بأنّه سيموت رغم أنه ينتظر المجزرة في أعماقه كما أخبره الأب إبراهيم، ما زال يخطط للمشاركة في مشاريع كثيرة، لم تكفه السيطرة على تجارة خط حلب – ماردين – أربيل، حلم أيضاً ببواخر تلفّ العالم تحمل رمز شركته.

عادت إلى حنّا تلك الذكريات السيئة التي التقطها من أحاديث الرجال وأوراق أبيه التي قضى حنّا ثلاثة أشهر يفكّ رموزها، شعر ببؤس العالم بعد مراجعة آخر دفتر، كلها أرقام، وتشكيك في ذمم الوكلاء، ومشاريع لم تكتمل، لا توجد جملة واحدة تخصّ حنّا وإخوته الأربعة وأمّه التي تقول

الخادمة مارغو عنها إنّها أخطأت الطريق؛ فبدل الذهاب إلى دير الزعفران والانضمام إلى راهباته تزوّجت كابرييل كريكورس.

ما زال حنّا يذكر أنّه اكتشف ذات يوم شبه أمّه بشمس الصباح، وفي الجانب الآخر كانت جوزفين وجهها الآخر، تحيط نفسها وأولادها بالتمائم، ترى المسيح الطفل يرفرف على هنائها، تشعر بسعادة فائقة، تخبر حنّا مبتسمة بأنّ الإيمان يطرد الخوف من الموت. كان ينظر بحسرة إلى تلك المرأة التي استسلمت لهناءة الموت وهي لم تبلغ الثلاثين، كان يفكر ببؤسها طوال الوقت.

إنّه يشبههم الآن حين يتحدّث عن الموت، يراه قريباً منه، لا يكرهه، يشعر بروعة تفتّح أزهار الزيتون في حقوله، تذكّر دهشته من جمال زهرة الرمّان الوحشي في حقل صديقه عارف شيخ موسى، حين كان يستيقظ مبكراً بعد ليلة مجون، يسير في الحقل المحيط بالبيت الكبير، يقترب ليشمّ رائحة زهر الرمّان، يشعر بسعادة كبيرة. في هذه اللحظة كان شريك تفتّقها وتحوّلها إلى ثمرة صغيرة، تكبر كل لحظة ولا يتوقف نموّها لحظة، كان يفكّر بأنّ الرمّان يكبر في الليل، يخطر في باله ترك طاولة القمار وأخذ كأسه ليلاً ليدقق النظر في ثمرة رمّان صغيرة تكبر، لكنّه لا يلبث أن يعود إلى شغفه والغرق في أجساد النساء، يدقق النظر في الحلمات التي تشبه زهر الرمّان، ويفكّر بأنّ النساء يتبادلن الأسرار مع النبات دوماً.

تعجبه اللحظات الروحيّة التي تمنحه إيّاها أجساد النساء الممشوقة، يفكر فيها حين ستهرم ويذبل جلدها، تماماً كزهرة الرمّان التي بقيت إلى آخر الموسم دون قطاف. عادت إليه الذاكرة المثقلة بالتوجّس من كلّ شيء، لا يصدّق أنّ داخله كلّ هذا الرضى الذي لم يجرؤ على التعبير عنه أمام جوزفين المؤمنة التي كانت تخبره دوماً بأنّهما يملكان أكثر من حاجتهما، ويجب التحلل من ثقل الملكية الزائد، كان يصدّقها ويتفهّم تبرّعاتها الكثيرة للكنائس ومشاريع الخوري وماريانا.

يتحسّس سعادتها حين ترى الأطفال صباحاً حاملين ألواحهم في طريقهم إلى المدرسة، تخجل حين يمتدحها الخوري أمام خوارنة عابرين. لم يفهم حنّا هذا النوع من السعادة، لا يصدّق أنّ فتاة مثلها كانت تفكر في الآخر أكثر من ذاتها، وتعتبر حياتها أمانة يجب تقديمها لخدمة يسوع الناصري، الذي ملأت حيطان المنزل أيقوناته، واللوحات التي رسمها تلاميذ مدرسة القرية، أو فنّانون عابرون يعرفون شغفها، قرعوا بابها وباعوها لوحات رديئة لكن بالنسبة لها كان يكفيها أنّ هذا الشخص فكّر في المسيح حتى لو لحظة في حياته.

من نافذة غرفته كان حنّا يرى تشكيلات الطيور في بحثها عن أمكنة دافئة، يقارن بين عودتها أول الربيع وهجرتها أول الشتاء، يفكّر بأنّ للطيور وطناً، تماماً مثل البشر، تحزن حين تغادره. فكّر بأنّ البشر لو تحوّلوا إلى طيور لكانوا أقلّ وحشيّة وأنانيّة، لو فقدوا اللغة لأصبحوا أكثر تسامحاً، وأقلّ خبثاً ولؤماً.

عاد إلى غرفته ليلاً، شعر بخطأ السماح لشمس الصباح بزيارته، أعادت إليه العالم الذي هرب منه خلال الأشهر الماضية، فكّكه قطعة قطعة ورماه عن كاهله، قذف به إلى النار المشتعلة في داخله التي التهمت آلاف الصور والأشخاص والأفكار والأحاسيس، وتحوّلت إلى رماد.

بعد رحيل شمس الصباح كانت ليلته الأولى صعبة، بكى بحرقة، انتابه القلق مرّة أخرى، تداخلت صورتها مع صور عشرات العاهرات والقوّادات اللواتي عبرن حياته. فكّر في الأيّام التالية بأنّه كان يحبّ ما يحيط بالعاهرات أكثر من العاهرات أنفسهنّ، المناخ الرطب في بيوتهنّ، العلامات ودلالاتهن، الروائح، الرفيقات اللواتي لا يخجلن، لم تفهم القوّادات والعاهرات مزاجه جيّداً، اعتقدن للحظات بأنهنّ وجدن ضالتهنّ فيه، تفهّم حنّا رغبتهن كنساء لديهنّ سيرة طويلة في

خدمة الرجال الأقوياء، لكنّه لم يكن مناسباً لهذا الدور، إنّه لا يريد البقاء في مكان واحد، ولا النوم في منزل واحد، ولا العيش في زمن واحد، كان مغرماً بالعيش في زمنين ومكانين، والتشرّد في بيوت أصدقائه، لم يغره يوماً إمتلاك عنوان ثابت.

قبل زواجه بجوزفين لم يعش وحده، منزله الكبير كان يعجّ بأصدقائه، تتوقف عرباتهم أمام البيت، ينزل الخدم أحمالها، ويتحوّل المكان الصامت إلى مهرجان أصوات متداخلة، فرق موسيقية تعزف لأيّام ثمّ تغادر، تأتي فرق أخرى، نساء يقضين أيّاماً ثمّ يرحلن لتأتي مجموعات أخرى من مدن أخرى، كان البيت بعيداً عن منازل الفلّاحين، ينفرد بغابة كبيرة من أشجار الصنوبر والحور وأكثر من خمسين شجرة جوز معمّرة تنحني على النهر، وتحجب الرؤية، ملحق به حديقة كبيرة تمتدّ على مساحة ثلاثين دونماً، مسوّرة بجدار طويل من الطوب المشويّ، ومنزل زكريّا قريب منه، وإصطبله يقع في المنطقة الفاصلة بين المنزلين، يشرف على النهر مباشرة، حيث من الممكن لعابري النهر في القوارب رؤية الخيول تمارس الكسل تحت الأشجار الكبيرة، وتشرب من ماء النهر مباشرة إن أرادت.

بعد وصول جوزفين دخل الفلّاحون للمرّة الأولى إلى المنزل، أصابتهم الدهشة من فخامته، وترتيب قطع أثاثه الغالية، كنبات مريحة، صوفايات ومرايا كبيرة، سجّاد عجمي في كلّ مكان، لم يعرفوا متى أتى حنّا بكلّ هذا الأثاث لكنّهم يتذكّرون أنّ عربات كثيرة توقفت وأفرغت حمولتها لأيّام، بقي النجّارون يعملون داخل المنزل ثلاثة أشهر، صنايعية كثيرون دخلوا إلى المنزل، ولم يخرجوا منه إلّا بعد انتهاء أعمالهم، يرحلون دون أن يتحدّثوا مع أحد. كان مغرماً بغموض أشيائه.

جالت جوزفين في المنزل، ولحقت بها عائلتها بعد عدّة أيّام في أول زيارة، تفحّصت الغرف الست، والصالونات الثلاثة الكبيرة، والمطبخ الكبير، وغرفة المؤونة، والأقبية الثلاثة. شعرت بأنّها ستعاني من الوحدة في هذا المكان، فتحت باب المنزل للفلّاحين يزورونها في أيّ وقت، تبرّعت بثمن بناء غرفتين لتصبح مدرسة القرية بدل استقبال ماريانا للتلاميذ في منزل أهلها، قالت لحنّا أريده منزلاً أقلّ وحشة. عاشت جوزفين ككلّ الفلّاحات، جلبت إلى المنزل أغناماً وخواريف ودجاجاً وإوزّاً وديوكاً رومية.

فقد المنزل غموضه، تحوّل من مكان تسير فيه أشباح إلى بيت منزل ثريّ، تخلّت عن الخدم، قالت لا يليق لمسيحيّة فاضلة استخدام البشر في خدمتها، لا ترفض مساعدة صديقاتها الفلّاحات، اعتنت بأولادهنّ في المقابل، وشاركتهنّ كلّ تفاصيل حياتهنّ.

شعر حنّا بالرضى، تخلّى لها عن منزله طواعية، فكّر بأنّ القلعة هي المكان الوحيد المعدّ لعيش رجال قلقين، لا تستطيع عائلة العيش في ذلك المكان، تصميمها كمتاهة تحترم خصوصيّة الفرد، كما كان عازار يردّد وهو يقنع كبير البنّائين بأنّ الفاصل بين الغرف مقصود، لا يمكن لغرفة أن تشترك مع أخرى حتى لو بجدار.

بعد ولادة كابرييل، شعر حنّا بأنّ من اللائق والرائع أن تلد جوزفين عشرة أطفال يملأون المكان، كان يعجبه سماع صوت جوزفين تناقش صديقاتها الفلّاحات وكابرييل يبكي ثمّ يضحك كأيّ طفل. يستيقظ حنّا متأخراً ويشرب قهوته، يلاعب كابرييل الذي يحاول أن يسير أولى خطواته، ثمّ ينظر إلى المنزل الذي تغيّر، أصبح حطاماً، يرمي كابرييل كلّ ما يصل إلى يده، حطّم المرآة الكبيرة، وبال على السجّادة الفاخرة، نشر السعادة في كلّ مكان. حين بلغ سنته الثالثة، كان يخرج من المنزل، ويسير حافياً، تُفتح له كلّ الأبواب، يطعمه الفلّاحون مع أولادهم، فكّرت جوزفين بأنّها الطريقة الصحيحة ليعيش طفلها مع البشر.

يتذكّر حنّا تلك الأيّام التي شعر فيها بأنّ جوزفين أمّ رائعة، كاد يفقد عقله من السعادة حين أخبرته قبل الطوفان بثلاثة أشهر بأنّها حاملاً للمرّة الثانية، قبّلها على خدّها واحتضنها. حدّث زكريّا بأنّهما يجب أن ينجبا عدداً كبيراً من الأولاد، لا شيء يجعل شيخوختهما مليئة بالحبّ سوى عدد كبير من الأبناء والبنات. يوافقه زكريّا ويفكّر بالأحصنة، يخبره بأنّه سيضطرّ للبقاء هنا طوال شهر لانتظار ولادة مهرته، لم يكن زكريّا متحمّساً لعدد كبير من الأولاد، لكنّه يفكّر بأنّه سيمتلك يوماً ما كلّ إصطبلات البلاد، يخطّط دوماً لشراء الإصطبلات التي تفلس، اشترى أحصنة ثمينة بأسعار بخسة من ورثة لا يعرفون قيمتها، بعد امتلاء إصطبله الثاني في العنابية، بدأ يعقوب يتشكّى من ضيق الأمكنة ويطلب منه التوقف عن الشراء، طمأن يعقوب بأنّه سيوسّع الإصطبل ثلاث مرّات بعد شرائه منزلاً وسط أرض مساحتها سبعون دونماً، في الطرف الغربي من العنابية.

الآن في وحدته يتمسّك حنّا بنافذته، يفكّر بأنّ نبتة صغيرة حين تُنتش تنمو حياة كاملة، خسر كلّ شيء لكنّه شعر بأنّه بدأ يتعافى. توقف عن البكاء، شعر بالتحسّن، كان يجب أن تأتي شمس الصباح، ليشعر بالندم، يعرف أنّه لم يعد يصلح لحياته القديمة، لكنه لا يعرف طعم حياته المقبلة. في النهاية يستطيع البقاء في هذا المكان الفقير، يقضي حياته يساعد الصيّادين والفلّاحين، ويكتب مشاهداته اليوميّة. الطبيعة لا تعرف التكرار، لا تقول المفردات نفسها، المطر في كلّ لحظة مختلف ولا يمكن تكراره، الصمت هو ما يحتاج إليه، كان يفكّر بأنّ الكلام يجعل الحياة مملة ومكرّرة.

نام تلك الليلة راضياً، انتهت شهواته، تذكّر الأب إبراهيم الحوراني الذي كان في ضيافة خوري القرية قبل سنتين من الطوفان، كانت جوزفين متحمّسة لاستضافته في منزلها، لم يفهم حنّا سرّ حماستها لاستضافة الرجل الذي حدّثه مرّة عن أبيه بطريقة قاسية، لكنّه حين جلس أمامه مرّة ثانية، كان في وجهه ذلك الرضى الذي يبحث عنه حنّا، لا يشبه رجال الدين الجشعين، القساة الذين يحبّون السلطة والدسائس.

رفض الأب إبراهيم الانتقال للعيش في منزل حنّا في الأسابيع القليلة التي سيقضيها في القرية، كان يكتفي بالغرفة الملحقة بالكنيسة لمبيت الضيوف، يركب بغلته كلّ يوم ويجول على الأديرة المندثرة، وصل إلى رأس العين، وتحدّث عن كنيسة دُمّرت قبل ألف وثلاثمئة عام، وما زالت بقاياها جزءاً من سور مطحنة القرية، لم يأبه أحد لما يقوله، إلّا جوزفين التي أحبّها وباركها، قال دون مواربة لحنّا إنّه لا يحب الرجال الأقوياء، الملّاكين والأغنياء ورجال السلطة، لم يشرح حنّا له أنّه شخص مختلف، اكتفى بالأسئلة وتجرّأ لأول مرّة في الحديث مع رجل مختلف، يعرف عن هواجسه في الإيمان والإلحاد، شتم أمامه رجال الدين، وكان إبراهيم يبتسم دوماً ويخبر حنّا عن قصص من التاريخ القديم كلها تدور حول شخص موجود دوماً يشبه المسيح، وقيامة المسيح ما هي إلا استنساخ لهذا الكائن الذي يعيش قربنا لكنّنا لا نراه. جوزفين أحبّته أكثر حين تلقى الاعتراف من إيفون التي بدت مرتاحة بعد خروجها من الكنيسة، وكان خطيبها ينتظرها على المفرق، نظرت إليه مبتسمة وتركته، لتكمل طريقها إلى منزل أهلها، وفي الليلة ذاتها طلب الأب إبراهيم من الخوري وجوزفين مرافقته لطلب يد إيفون لخطيبها، لقد وضع حدّاً للأقاويل وتكهّنات الفلاحين التي لم تتوقف بعد حكاية صبيّ قال إنّه رأى إيفون عارية بين ذراعي خطيبها في مطحنة أبيه.

ما زال حنّا يتذكّر الأب إبراهيم كلّ يوم، قبل مغادرته تحسّنت علاقتهما، صداقة مبتورة لكنّه لم يعد يتوجّس من كلماته الصارمة. كان حنّا في ذلك الوقت يفكّر بأنّ اللذّة هي ينبوع الحياة الذي يجب المحافظة عليه دائم الجريان، لكنّه الآن يفهم تماماً ما قاله في جلستهما الأخيرة حين نظر إليه

طويلاً وقال له: «لا تقتل قلقك، دعه ينسرب من ضلوعك وينسفح على الأرض، سينمو ويثمر، أو دعه يغرق في ذلك النهر العظيم»، وأشار بيده إلى نهر الفرات الذي كان في تلك اللحظة هادئاً، وديعاً، كرجل مسكين يبحث عن صدقة.

استيقظ فجراً كعادته لكنّه كان قلقاً، أخبره زكريّا بأنّ عرس سعاد يوم الخميس، تخيّلها عروساً ترتدي فستاناً أبيض، فوجئ بأنّها في هذه اللحظة تحولت إلى امرأة غريبة، فكّر بهموم زكريّا الذي انشغل بعرس سعاد المصابة بفرط خيال لازمها منذ طفولتها، فوجئ بخروج جهازها الهزيل من منزلهم، يعرف ولعها بالأشياء، لم يصدّق أنّ عربة صغيرة تكفي لحمل جهازها، تركت في منزل أهلها السجّاد العجمي وأغطية الأسرّة الحريريّة، وحقائب ثيابها السبع، بالإضافة إلى أطواق الذهب والخواتم التي كانت مولعة بتصميمها بنفسها، قلائدها الذهبية الثمينة، مشغولات الصائغ ذي القناع الذهبي بقيت مكانها في الخزانة، تلك القلائد كان يحضرها أبوها أحمد البيازيدي حين يسافر إلى إستنبول، أو يتلقاها هدايا من رجال متنفذين. خرجت كفتاة لاهية من منزل أهلها، اكتفت بدعوة عمّتها الحاجّة أمينة، وثلاث بنات عمّ فقط، تجاهلت باقي نساء العائلة، ولم تكترث لانتقاداتهنّ التي تصفها بامرأة عديمة الشرف تجالس الغرباء، وتفاخر بصداقتها مع المسيحيّين واليهود، والفتيات السافرات، وجدت عرسها فرصة مناسبة لقطع علاقاتها مع قريباتها الثرثارات.

فكّر زكريّا بأنّها ساعات قليلة، تغادر سعاد إلى منزل زوجها حسن المصابني صاحب معامل النسيج الشهيرة في العرقوب، ويعود إلى حياته، لديه الكثير من الهموم في الآونة الأخيرة، شعر بأنّ حنّا في طريقه للضياع، لم تعد وعكة سينهض منها، بل تحوُّل عميق يجب التعايش معه كمرض مزمن، وشيخوخة أبيه المهلكة، الرجل الذي يستيقظ صباحاً، يحاول جاهداً المحافظة على عاداته في شرب القهوة وقراءة الجريدة، وانتقاد ما يكتبه صحافيّون يجاهرون علناً بفصل الدين عن الدولة، وبين السطور يقرأ الدعوات للانفصال عن الدولة العثمانيّة، يغطّ في نوبة نسيان ويأمر سائق عربته بالذهاب إلى البريد لإحضار الرسائل التي أحضرها منذ قليل، وآخر هموم زكريّا كانت زوجته شاها التي رفضت العودة إلى منزل أهلها، ريثما تستقرّ أمورهما على المكان الذي سيعيشان فيه، كل هذه الأشياء كانت تقلقه. الطوفان دمّر حياتهم ولا أمل في النجاة، النخر العميق في أجساد وأرواح الناجين القلائل أصابه أيضاً.

ورث حسن المصابني منزله الكبير في حيّ الفرافرة عن أبيه، جدّده ليكون منزل الزوجيّة، استورد كلّ أشيائه، حنفيّات مطليّة بالذهب، وبانيو كبير صُنع خصّيصاً له في إيطاليا، ونقش على حافته أول حرف من اسمه. ثريّات بوهيميّة، وسجّاد عجمي من أصفهان، وستائر من إستنبول. كلّ شيء في المنزل كان ثميناً، يرضي إحساس حسن بمتعة الملكيّة والثروة. دخلت سعاد منزل زوجها بخفّة، لم تكترث بأشياء المنزل، شعرت منذ لحظاتها الأولى بأنّها دخلت إلى المكان الخطأ مع الرجل الخطأ، عاهدت نفسها على الصبر، لن تفرّط بأمر العائلة، تريد إنجاب أطفال، لكنّها بعد أيّام قليلة ضجرت من أحاديث زوجها التي لا تنتهي عن تاريخ أشيائه، كما ضجرت من ثرثرته الدائمة عن ولعه بالشطرنج، ومبارياته اليوميّة مع رفاقه في مقهى الجميليّة، شعرت بورطة الزواج برجل لديه أربع أخوات يراقبن كلّ شيء، ويتدخّلن في كلّ تفاصيل حياة أخيه وزوجته، استمعت إليهنّ واحدة واحدة، وقرّرت في أعماقها تحويلهنّ إلى صديقات، لكنّها لم تستطع احتمال تفاهتهنّ. يأتين بالتناوب ويقمن في المنزل طوال اليوم، يتدخّلن في أمور الطعام والشراب، ولا يتوقفن عن إبداء الملاحظات على طريقة تقديم الطعام وترتيب المائدة. بعد شهرين من زواجها أصيبت سعاد بنوبة صمت كامل، لم تعد تكترث باللياقة الاجتماعية، تفتح الباب لأحد أفراد أسرة زوجها المولع

باستقبالهم والحديث معهم لساعات عن أدق شؤون العائلة التي لا تنتهي، تترك ضيوفها وتعود إلى سريرها دون أن تستأذن بالمغادرة.

فكّرت بالتحوّل إلى حلزون، يقتات ذاته، تخرج دون إذن، وحين تعود لا يجرؤ حسن على محاسبتها، كان يعرف في قرارة نفسه بأنّه لم يمتلك سوى القشرة الخارجيّة من روحها، افتضّ بكارتها، وأصبحت زوجته في السجلّات، لكنّه لم يشعر بتلك الحرارة التي توقعها، راهن على ولعها بالأشياء، أغرقها بالهدايا، لكنّه كان يجد الصناديق مكانها غير مفتوحة. طلب من أخواته الانقطاع عن زيارته، ظنّ أنّها تعاني من واجبات العائلة التي لا تتوقف عن إقامة الولائم. شعرت براحة حين انقطعت أخواته عن زيارتها لكنّها بقيت تشعر بنفسها حلزوناً يقتات ذاته.

بعد مغادرة سعاد هدأ صخب منزل أبيها، لكنّ نظرتها الحزينة أثناء ركوبها العربة، وأنين شاها لم يتركا فرصة لزكريّا للتفكير في أحصنته التي نقلها إلى إصطبل العنابية. فكّر بأنّ شاها اشتاقت للأحصنة، عرض عليها مرافقته لزيارة العنابيّة، قدّر أنّ خروجها من المنزل قد يساعدها على استعادة حيويتها، هو أيضاً بحاجة لأحد يعترف له بأنّه خائف، وبأنّ ماضيه انتهى تماماً، هو الآن، ككلّ الناجين من الطوفان، طفل صغير بذاكرة ناصعة البياض، وافقت شاها بشرط زيارة القلعة. وافق زكريّا، وفي الطريق كانت شاردة تنظر إلى السهول التي تعرفها جيداً، لم يعد يعنيها أيّ شيء.

فتحت شمس الصباح باب القلعة لهما، حين رأت شاها انتابتها رعشة غريبة، تفاهمت المرأتان بصمت. بعد عودة شمس الصباح من زيارة حنّا، فهمت أنّ ماضيها انتهى مع الطوفان، ولن تطيل المكوث في القلعة، لن يستطيع أحد حمايتها إذا بقي حنّا يتحدّث لساعات عن لون طيور السنونو والحجل، ويسهب في وصف النسور، عرضت على شاها تناول الغداء معها، تفحّص زكريّا القلعة، كلّ شيء على حاله، رائحة الغرف توحي بالهجر، لم يدخل أحد إلى القلعة منذ ليلة الطوفان التي مضى عليها الآن سنة تقريباً. ورشة صبّ النقود متوقفة، ومنصّة المنتحرين يعلوها الغبار، كلّ شيء على حاله. أفصحت شاها عن رغبتها في البقاء داخل القلعة، قالت لزكريّا إنها ستشعر بالتحسّن هنا، ستكون قريبة من الأحصنة ومنه إذا أراد رؤيتها، لم يفوّت زكريّا فرصة التحلّل من أعبائها، سيتركها لشأنها، ويعود مرّة أخرى للبقاء قرب صديقه حنّا، منذ اللحظات الأولى رغب في الهرب من حلب، تذكّر أنّه حين غادر منزل عائلته أقسم ألّا يعود إليه مرّة أخرى. كره طوال حياته النظام الصارم الذي فرضه والده الذي يفاخر بروعة الحياة الدقيقة المنتظمة التي تخضع أيضاً للحسابات، شرف العائلة مرتبط بدفاتر مهترئة يخفيها أبناء العائلة في أمكنة غريبة ثمّ ينساها الجميع بمن فيهم الذين أخفوها. قبل مغادرته القلعة طلبت منه شمس الصباح أخذ صناديق الفضّة، لا تريد للقلعة أن تصبح هدفاً لهجوم اللصوص الذين يتداولون حكايات غريبة عن الثروات الخياليّة الموجودة في أقبيتها، أشار عليها بالتمهّل قبل اتخاذ قرارات خطيرة، يجب انتظار عودة حنّا، ببساطة أجابته بأنّ حنّا لم يعد نفسه، أكملت: الطوفان لم يأخذ البيوت والأحصنة والفلّاحين الفقراء فقط، بل أخذ في طريقه حنّا القديم وماضيه، وتابعت شمس الصباح مخاطبة زكريّا بقوّة: «وماضيك أيضاً».

لا تحتاج شمس الصباح إلى شيء، لديها ذهب قليل يضمن لها حياة كريمة. بعد ثلاثة أيّام ركّب زكريّا أبواباً حديديّة للقلعة، وحمل الفضّة المسكوكة في ثلاثة صناديق كبيرة ودفنها في غرفته في منزل أهله. غادر مرّة أخرى إلى قرية حوش حنّا، وصل ليلاً إلى غرفة حنّا، كان الباب مغلقاً ولا

صوت من داخل الغرفة، أخبره الخادم بأنّ حنّا حمل زوّادته في صرّة صغيرة وغادر المكان، ولم يعد حتى الآن.

من الواضح أن حنّا لم يترك الغرفة منذ وقت طويل، صحن البرغل المسلوق لم يتعفّن بعد، وفي الخزانة، وجد ثوب نوم عرف أنّه يخصّ شمس الصباح، وشرشفاً من القطن الأبيض مبقّعاً بنقط دم حمراء قليلة ناشفة، فكّر للحظة بأن من غير المعقول أن يكون افتضّ بكارة شمس الصباح بعد هذه السنوات، شعر في أعماقه بأمل كبير وفرح خفيّ، صديقه لم يهجر النساء إلى الأبد، طوى الشرشف الأبيض، ووضعه في كيسه، عاد في اليوم التالي، أكمل طريقه لزيارة عارف، يريد منه إقناع شاها بالعودة إلى منزل أهلها إلى حين ترتيب حياتهما من جديد، ونسيان الصور القاتلة التي كانت تنتابها في ليالي الأشهر الأخيرة، أمل زكريّا أن يكون وضع عارف تحسّن.

في الزيارة الأخيرة قبل شهرين كان صديقه حزيناً على غير عادته، أغار قطّاع الطرق على مزرعته، ونهبوها، كانت كلّ مدّخرات عارف محفوظة في صندوق حديدي مدفون في أرض غرفة النوم، قال عارف إنّهم لم يتركوا شيئاً في المكان إلّا خرّبوه.

لم يقل عارف كلّ الحقيقة، أخفى عن صديقه قصّة بيع قسم كبير من أراضيه قرب النهر، وشرائه أسهماً في شركة «أوثمانيان تراين كومباني ليمتد» التي كانت شركة وهميّة، جمعت أموالاً طائلة من عشّاق القطارات، اشترى عارف سندات وأسهماً في قطار إستنبول بغداد، حلم ليالي بأكملها بأنّه سيمتلك ذات يوم قطاراً خاصّاً به، لكن الشركة اختفت مكاتبها فجأة، تاركة وراءها كارثة لعارف وللمساهمين المغفّلين الذين لم يصدّقوا أول الأمر الحكاية، وبعد اكتشافهم حجم الكارثة صمتوا، ولم يجدوا وسيلة لاسترداد أموالهم من شركة وهميّة، كلّ أوراقها مزوّرة، عملت لشهرين على جمع أكثر من ثلاثمئة ألف ليرة ذهبيّة، كان نصيب عارف منها أكثر من عشرين ألف ليرة ذهبيّة.

كان عارف لا يحبّ العقارات ولا يثق بالبنوك، أصابته الدهشة حين رأى قطاراً للمرّة الأولى أثناء زيارته لإستنبول، لم يصدّق أنّ هذه الكتلة الحديدية الهائلة تسير على قضبان بكلّ هذه السرعة، كان يقول في قرارة نفسه إنّ فكرة القطار ستكون ضربته الكبرى، كان يحلم بعربة تُصمَّم خصّيصاً له، يصطحب أصدقاءه في رحلة من إستنبول إلى حلب ثم من حلب إلى بغداد، يعدّد لهم المدن التي سيقطعها القطار وهم يجولون في ملابس نومهم ويطبخون أطباقهم اللذيذة.

في زيارة زكريّا الأخيرة قبل شهرين اطمأنّ عارف وأهله على شاها، قال: سيكون كلّ شيء على ما يُرام، سيعيدون بناء حوش حنّا مرّة أخرى. قال عارف إنّهم يرتكبون خطأ العيش مرة أخرى في مكان يعجّ بكلّ هذه القبور، لكن زكريّا لم يكن يريد النقاش، شرح وجهة نظره بأنّ الأرض التي دفنت فيها أحبّتك ستلاحقك ولا يمكن مغادرتها بسهولة، كان زكريّا يفكّر بأنّ من يريد الابتعاد عن عائلته يجب أن يأخذ قبورهم معه حين يغادر.

لم يكمل ليلته الثانية، غادر صديقه الحزين اليائس، فكّر في الطريق بأنّ أحزانه تكفيه. بقي عارف بعد رحيل صديقه زكريّا يجلس على كرسيّ قشّ أمام باب مضافته، ينتظر ضيوفاً لا يأتون ويفكّر في الانتقام من عزوز الدرعوزي الذي ورّطه في صفقة أسهم القطارات، يقتات الهواء صامتاً ويفكّر في استعادة هيبة الآغا، إنّه مفلس تماماً، لم يعد لديه ما يكفيه لسدّ رمقه. يصعد الطريق الشمالي ويقف على الهضبة المطلّة على أراضيه السابقة، يبكي بحرقة ويعود إلى غرفته، ينزوي صامتاً ولا يردّ على أسئلة ابنه يوسف الذي كبر فجأة، ولم يعد لديه ما يفعله بعد خسارتهم ملكيّتهم الكبيرة، والأراضي القليلة الباقية لا تكفي للمحافظة على نفوذ العائلة القديم.

في طريق عودته مرّة أخرى لزيارته، أمل زكريّا أنّ عارف تجاوز محنته، فكّر بأنّ خسارته أكبر ممّا أفصح عنها، لا يُعقل أن يفلس بين ليلة وضحاها لسرقة لصوص بضع مئات من الليرات الذهبية. كان النسيم بارداً ومنعشاً، وشمس شباط الخجولة منحته أملاً بأنّ كلّ شيء سيكون أفضل، فكّر في حنّا، كان يخاف من فقدانه، في الفترة الأخيرة بدت عليه علامات يعرفها لرجال عبروا البرزخ، وزهدوا في كلّ شيء.

وصل زكريّا إلى «تلّ أرفاد» وأخبره دلّال خيول بأنّ حنّا مرّ من قريتهم أمس، لكنّه اتّجه في الطريق الشمالي الموحش، أضاف أنّه رفض الحديث مع الناس، كان حافياً وجسده أكثر نحولاً، أضاف الدلّال أنّه عرفه بصعوبة، كان يظنّه مخبولاً من أولئك الذين يهيمون في الأرض ويقولون كلاماً غريباً عن الروح والبرزخ. شعر بعبث البحث عن رجل في الفلاة، لكنّ زكريّا أكمل طريقه نحو الشمال، يسأل عن رجل يحمل كيساً من الخيش الأبيض، يسير حافياً كما وصفه دلّال الخيول، لم يشاهده أحد. وصل زكريّا إلى قرية شران، قرع باب منزل عارف، فتح له ابنه يوسف وأخبره بأنّ أباه مسافر، وعرض عليه قضاء الليل في ضيافتهم، فكّر لدقائق وقرّر إكمال طريقه إلى القلعة، قال يوسف إنّه رأى حنّا قرب أعزاز قبل يومين، كان يسير حافياً، ولم يقبل دعوته للمساعدة، لكنّه ما زال ذلك الرجل القويّ.

لم يقبل يوسف مغادرة زكريّا في هذا الليل، ذكّره بأنّ قطاع الطرق سيجدونه غنيمة ثمينة، أو سيُضطرّ لإرسال مرافقين معه، فكّر زكريّا بأنّ قضاء الليل يتحدّث مع يوسف الذي كبر خلال هاتين السنتين، أفضل من مرافقة حرّاس لا يعرف ماذا سيقول لهم.

قام يوسف بواجب ضيافة زكريّا، تصرّف كآغا صغير ومفلس، أحضر الخادم مبروك الحبشي العشاء، علف الأحصنة، نظف العربة، وجهّزها للرحيل صباحاً، طلب زكريّا النوم في منزل الجدّ على التلة الذي أصبح منزل يوسف ونقل إليه رسومه وكتبه.

حين كان يوسف طفلاً صغيراً كان عارف شيخ موسى يخاف عليه، طوّق عنقه بالتمائم، لاحظ ذات مرّة ابنه يرسم في الهواء ويتحدّث مع نفسه، استدعى الملا منان على عجل، وطلب منه حجاباً لابنه الذي لم يبلغ السادسة لكنّه يتصرّف كالمجانين، يعيش في عالم غير أرضي، يروي حكايات غريبة عن أقوام اندثرت بيوتهم وحيواناتهم ماتت وانقرضت. سمع الملا منان من يوسف، وبدا الاهتمام على وجهه، طلب من الصبيّ مرافقته إلى منزله، هناك أدخله إلى غرفة كبيرة مليئة بالكتب، تحدّث معه لساعات، بعدها شعر يوسف براحة كبيرة للتحدّث مع رجل يعرف الكثير عن الكتب، أخبره بأنّه يتمنّى أن يذهب إلى المدرسة، وفي مناماته يرى نفسه يعيش في مدن كبيرة. بعد أيّام وصل عارف شيخ موسى آغا برفقة صديقيه حنّا آغا وزكريّا بيك، محمّلين العربة بالمؤن والهدايا، لكنّ الملا منان طلب منهم توزيع هذه الأشياء على الفقراء، وهمس لعارف بأنّ يوسف سيكون له شأن كبير، طمأنه بأنّه لا يعاني من أيّ مرض، ويجب أن يرسله إلى المدرسة، تحمّس حنّا وسجّله في مدرسته نفسها، أوصى به المعلمين، بدأت سيرة يوسف الأخرى، لكن خوف عارف على ابنه الوحيد منعه من تركه بعيداً عنه، أرجعه إلى القرية بعد انتهاء دراسته الابتدائيّة، وأغرقه في هموم أراضي العائلة وفلّاحيها، لكن يوسف بقي مولعاً بأشياء غريبة، لم يعد يرسم في الهواء لكنّه لم يتوقف عن التفكير في حياته التي يريد أن يعيشها.

ما زال ممتنّاً لحنا وزكريّا لعنايتهما به أثناء وجوده في المدرسة، وجد في هذه الليلة فرصة ليردّ جميلهما، حدّث زكريّا بأنّه فوجئ حين رأى حنّا، أضاف متحمّساً: لقد وصل حنّا إلى الحقيقة، لم يكترث زكريّا لحديث يوسف الذي تركه لصمته وعاد للتفكير في حياته، لقد تجاوز الرابعة عشرة

من عمره، غفا زكريّا وخرج يوسف يستنشق الهواء البارد، فكّر بأنّه سيخبر أباه بعد عودته من زيارة خاله آغا قرية بلبل بأنّه لا يصدّق حكاية نهب مدّخراته، ويعرف قصّة القطار، كان يريد أن يشدّ من أزره، ويطمئنه بأنّ ما بقى يكفيهم.

قبل ثلاثة أيّام أخبر الفلّاحون يوسف بأنّهم وجدوا في أرضهم الواقعة في أعزاز هيكلاً عظمياً كبيراً لحيوان لا يعرفونه، لم ينتظر يوسف سماع باقي التفاصيل. ركب عربته مسرعاً، وحين وصل إلى حيث تجمّع أكثر من أربعين فلّاحاً خائفين حول هيكل غظمي لكائن غريب طوله أكثر من ثلاثة أمتار، تفحّصه يوسف جيداً، ما زالت عظامه جيّدة، لم يضع وقته، طلب من الفلّاحين التفكير في طريقة لرفعه إلى العربة للتخلّص منه وإغراقه في نهر عفرين، لكنّه خاف أن يتفكّك بين أيديهم، فكّروا لساعات في طريقة لنقله سليماً، وجدوا طريقة واحدة، وضعوه على لوح خشبي كبير، وجرّه يوسف بالأحصنة إلى شران. كان حنّا قد وصل إلى أعزاز قبل قليل وسمع اللغط عن الهيكل العظمي، وقف بعيداً عنهم يراقبهم، وحين رأى يوسف مشغولاً مع الفلاحين بوضع الألواح الخشبية تحت الهيكل العظمي ابتسم. كان وجود حنّا في هذا المكان معجزة أخرى تعطي إشارة غريبة ليوسف، تأمّل حنّا الهيكل العظمي ودار حوله عدّة مرّات، ثمّ قال ليوسف إنّهم أسلافنا الذين أهملناهم، لم يسأله يوسف ماذا يفعل في هذا المكان، سمع عن تحوّلاته من أحاديث والده وأصدقائه الآغوات الذين طلبوا من عارف شيخ موسى التدخّل ومساعدة زكريّا في إعادة حنّا ومواساته في مصابه.

شعر يوسف بقرابة روحيّة كبيرة مع هذا الرجل الذي دفع من ماله كلّ مصاريف تعليمه في المدرسة، تلك التي لم يحتمل يوسف نظامها الصارم. تعلم القراءة والكتابة ووجد في خوف والده عليه فرصة ليعود مرة أخرى إلى قريته، يجول في حقولها ويقضي وقتاً طويلاً في مكتبة الملا منان، وينقل إلى مكتبة جدّه كتباً أخرى يشتريها من مكتبات حلب. حنّا لم يمهله لحديث طويل، تابع طريقه، لحق به يوسف، فوجئ به يلتفت إليه مبتسماً ويطلب منه تركه لوحدته، مضيفاً أنّ في كيسه بضع قطع خبز جافة وحبّات زبيب، وقلبه سيرشده إلى الطريق. غاب عن ناظره، رآه ينحدر في الطريق إلى حلب، كان يوسف يراقب بصمت من مكانه حنّا يسير حافياً إلى اللامكان.

وصل الهيكل العظمي بعد رحلة طويلة، استمرّت أكثر من عشر ساعات، لم يجد يوسف مكاناً سوى الغرفة الكبيرة في منزل الجدّ على التلة الصغيرة، حيث يقضي أغلب وقته، أفرغ الغرفة من قطرميزات المؤونة. ما زالت كلمات حنّا ترنّ في أذنيه عن الأسلاف، اعتاد عارف هوايات ابنه الغريبة، لم يناقش الأمر، لديه ما يشغله، يفكّر في أصوات القطارات التي لا تفارقه.

في الليلة الأولى خاف يوسف من فكرة الهيكل العظمي الذي يعيش معه في البيت نفسه، الأشياء الغريبة تثير البشر لتأليف الحكايات، الشيء الوحيد الذي استطاع فعله هو إقناع الفلاحين بوقف الحفريات في المكان نفسه، بعدما قلبت الفؤوس الأرض الكبيرة، لكنّه فجر ذلك اليوم غادر فراشه، فتح باب الغرفة الكبيرة، الضوء المنسكب على الهيكل العظمي زاده فتنة، تلمّسه، وشعر في تلك اللحظة بقرابة كبيرة مع هذه الخرافة، قرّر في أعماقه أنّه لن يفرّط في هيكل أسلافه مهما حدث، بدأ بترتيب المكان بطريقة مختلفة، نقل ما بقي من أكياس المؤن إلى مستودع الحبوب الذي لم يعد يحتاج إليه أحد، أصلح النافذة الوحيدة الواسعة، نظف المكان، كان يفكّر في البقاء قريباً من الهيكل العظمي طوال الوقت. شعر براحة كبيرة واختفت مشاعر خوف الليلة الأولى التي شعر بها ونغّصت عليه روعة امتلاكه هيكلاً عظمياً لديناصور كما سمّاه رغم أنّه لم يكن متأكداً.

عرض يوسف على زكريّا رؤية الهيكل العظمي، وعده أن يفعل في زيارة أخرى، لكنّه كان مهتمّاً بسماع تفاصيل عن حنّا، لم يجد غايته عند يوسف الذي كان يمارس دور آغا حقيقي، وكانت أوامره صارمة للخادم الوحيد الباقي موسى الحبشي. بقي زكريّا مشغولاً بعد العشاء الدسم بانتظار الفجر، غادر مع أول خيوطه، خمّن أنّ حنّا عاد مرّة أخرى إلى القلعة التي وصل إليها بعد ثلاث ساعات، أخبره الحارس بأنّ حنّا لم يره أحد في هذا المكان، تابع طريقه إلى حلب التي وصل إليها قبل الظهر، سمع نشيج بكاء ينبعث من منزل عائلته، وصوت مقرئ يرتّل آيات من القرآن، عرف أنّ أباه أحمد البيازيدي قد مات.

أنّب نفسه لغيابه في الأيّام الخمسة الماضية، كان يعرف أنّه مريض جداً، وقد لا ينجو كعادته، دخل إلى البيت، وجد حنّا يتصدّر مجلس العزاء قرب صهره حسن المصابني وأبناء عمومته الذين نهضوا جميعاً، قبّلوه وقدّموا له العزاء، من الواضح أنّ الدفن قد تمّ قبل يوم على الأقل، وعرف أنّ حنّا رافق أحمد البيازيدي في ليلته الأخيرة، قضاها صامتاً قرب سرير الرجل العجوز الذي بدأ يتململ من تأخّر ملاك الموت، لا يريد لجسده المتعب أن يتقرّح من الانتظار، قال كلمات قليلة لحنّا الذي اكتفى بالصمت، ومراقبة الروح التي كانت تصعد وتتسرّب من شقوق النوافذ المحكمة الإغلاق.

وصل زكريّا إلى حنّا الذي نهض عن كرسيّه، احتضنه بقوة، بكى الاثنان بحرقة لم يفهمها الرجال الآخرون الذين كانوا يختلسون النظرات مستهجنين في أعماقهم بكاء الرجلين على رجل عجوز.

الفصل الثاني
الآثام

«مصنّف حنّا رقم 1»

«بعد دفن جوزفين وكابرييل كان دمي يجري قربي، لا يغادر عتبة الغرفة التي أحببتها أكثر من كلّ الأمكنة، كانت بسيطة، فيها سرير كبير، وسجّادة أهداها لي صديقي عارف شيخ موسى آغا حين عاد من زيارته لديار بكر، كنت أحبّ رسم الطواويس الملوّنة المتداخلة مع طيور ذات مناقير طويلة. بدت لي متعجرفة، تعاني من وحدة مزمنة. وعلى أرض الغرفة طراحات قليلة مرميّة بفوضى، تكفي لاستراحة رجل هارب من البشر، كانت نوافذها الأربع كبيرة ومفتوحة على كلّ الجهات، أرى من خلالها بيوت حوش حنّا المندثرة، أرى النهر البعيد، وبقايا الكنيسة والحقول المزروعة قطناً.

قبل الطوفان لم أنم في هذه الغرفة سوى ليالٍ معدودات، لم أكن بحاجة للهرب من الناس، كنت مولعاً بضجيج أصدقائي المحيطين بي وطيش كابرييل وابتسامة جوزفين.

لحظة وصولي مع زكريّا إلى القرية المدمّرة، لم أتوقع معنى الطوفان، وحين رأيت آثاره لم أصدّق. ما زلت غير مصدّق. سرت دون تفكير إلى الغرفة، اكتشفت وجود ثلاث مرايا كبيرة، كانت تعكس ضوءاً ما لا أعرفه، القمر، أم صفحة النهر، أم وجوه الموتى؟ وقفت أمام المرآة الكبيرة، كان وجهي يشبه سحلية بقرون طويلة، قبيحة. كنت بشعاً إلى درجة لا توصف. بصقت على نفسي. في الصباح رميت المرايا الثلاث على صخرة كبيرة، سمعت صوت تحطّمها. لا أريد النظر إلى وجهي أبداً، لماذا ننظر إلى وجوهنا إن كنّا نشبه السحالي القبيحة؟

شعرت براحة كبيرة، اتّسعت الغرفة، غفوت للمرة الأولى بعد ثلاثة أيّام. رأيت في منامي وجهي القبيح مرّة أخرى، كان جسدي منهكاً، تغلغلت فيه رائحة الموتى. الدفن لا يعني نهاية الموت، شعرت لأوّل مرّة بطعم الموت يسري تحت جلدي، يجول في أرجاء جسدي. كنت مطمئنّاً إلى أنّني سأموت، وزكريّا سيدفنني كما فعل مع كل الجثث التي تحاشيت النظر إليها، لكنّ وجه جوزفين علق في ذاكرتي، كانت وادعة تشبه حياتها، التي مرّت دون ضجيج من قربي، ولم

ألحظها. كانت تسير على قدميها إلى قبرها، كنت جباناً ولم ألتقطها. جوزفين وسعاد لا تشبه إحداهما الأخرى، لكنّهما اندمجتا فجأة في وجه ثالث لامرأة تشبه شمس الصباح، وأمّي.

تحوّلت ساعات نومي القليلة إلى كوابيس رهيبة، أنهض كلّ ليلة من فراشي كميت، أسير في الغرفة، أشعر بخوف من الخارج، وتربّص النهر بي. كلّ شيء كارثي من حولي، لا أستطيع شرح أيّ شيء لزكريّا كي لا أزيد من همومه، خسر ابنه أيضاً، وعلى كتفيه الصلبتين سيحمل آلامنا المقبلة، أراه يسير في الأرض بخطى ثابتة، قوياً كبغل، يلملم ذاكرتنا كي يدفنها.

تمدّدت على الأرض، غفوت للمرّة الأولى لوقت طويل، كانت الوجوه تنساب في ذاكرتي. كانوا أحياءً هذه المرّة، تشمّمت عطر سعاد الذي لا يمكن نسيانه، رائحة جوزفين القريبة من رائحة شجر الكينا، لا أعرف سرّ رائحتها هذه، كانت تخاف الأشياء الفاضحة، رغبت في العيش كامرأة زاهدة، فعلت ما رغبت فيه، لم تعنها يوماً الخزائن المليئة بالثياب، تخنقها الأشياء، لذلك توزّعها دوماً. لم أفهم معنى رسالتها إلّا متأخراً، ماذا تفعل الأشياء فينا؟ تطمرنا وتحيلنا إلى موتى أو إلى أشياء مثلها.

شعرت بالراحة، فكّرت بأنّ الكوابيس لن تعود مرّة أخرى، لكنّ الدم الذي يجري في عروقي كان لرجل ميت، ما زلت متأكداً من أنّ وجهي هو وجه سحلية بقرون عاشت منذ عهود غابرة. نهضت، للمرّة الأولى صنعت قهوتي، جلست قرب النافذة، كانت الشمس تغرب، كم هو فاتن وساحر مشهد الشمس حين تغرب، لون الليل يتغيّر كلّ لحظة، شعرت بخفة لامتناهية، كما يشعر كلّ الأموات حين يتورّطون في العيش مع البشر.

لقد مرّ وقت طويل منذ لحظة الطوفان الذي جرفتني مياهه الصاخبة، وتركتني في أعماق النهر، أكتشف روعة العيش في الماء، رقيقا ككلّ شيء هنا، لا شيء صلباً من حولك، ملمس النباتات التي تحوطني، جلد الأسماك الناعم، سرير الماء الذي أنام عليه، التراب، الضفاف، رقيقاً، لا يشبه صلابة ما كان يحيط بي على اليابسة. أجول في ذلك العالم منتشياً بحياتي الجديدة، أتلمّس قرنيّ، أكتشف أنّهما قد ذابا، ونبت بدلاً منهما تاج أزهاره رائعة، تفوح برائحة غريبة، تشبه الليمون، القطن حين يتفتح جوزه فجراً، تحيط بي رائحة متحوّلة، كم أنا محظوظ، رجل يعيش في أعماق النهر.

أنهض كلّ صباح قبل الفجر، يوقظني خرير دمي، أنتظر أن ينسحب اللون الأحمر، ليتحوّل إلى أصفر، يختلط مع الأزرق، تصعد الشمس في موعدها تماماً، غير مكترثة بالكائنات التي تقاتل على الجبهات من أجل إمبراطور، أو لنصرة دين أو زعيم سياسي أو أفكار، تكمل طريقها إلى قبّة السماء ولا تكرّر لوناً، أشعر بغبطة أنني هنا في هذه اللحظة. كلّ يوم أكتشف أنّ غرقي في النهر كان فعلاً عظيماً، إلى درجة أنّه حين نزلت للمرة الأولى من غرفتي وسرت على ضفته، رأيت قطعاً من جسدي تتساقط منّي. لم أكترث، أنا نبات عاد مرّة أخرى للنموّ. ينبت عضو جديد بدل أصابعي التي التقطها الكلب الباحث عن سمكة ميتة قذفها النهر إلى ضفته. إننا نعتاش على بقايا الأموات، رغبت في أن يعتاش ذلك الكلب على أصابعي، كنت أعرفه جيّداً، حارس إصطبل زكريّا. رميت له بأصابعي، وأكملت طريقي. وجدت نفسي جالساً قرب النافذة، أراقب نموّ أصابعي مرّة أخرى، كما أراقب النبتة التي كانت أمس صغيرة لا يتجاوز طولها سنتمترات قليلة، أعرف أنّها بعد عدّة أيّام سيتضاعف طولها، وتتحوّل إلى لون آخر، قد تثمر، حينها سأرى وردة تتحوّل إلى ثمرة قطن أو باذنجان. لم أفكر يوماً في سرّ هذا الموت العظيم، لكنّني الآن أشعر بمتعة هائلة كلما تساقط منّي عضو جديد، أفكر ببؤس أصدقائي وأنا أرى من بعيد عربة عارف شيخ موسى

آغا يقودها ابنه يوسف، قادمة نحو غرفتي، محمّلة بأشياء كثيرة، بدلات جوخ أعرف أنّها إنكليزيّة مصنوعة في مصانع مانشستر من لونها، أرسلها جورج مرّة أخرى، قطرميزات مؤونة، وخراف جاهزة للذبح، كما أرى خادمي يخبره بأنني أقيم في أعماق النهر، أرى يوسف وصديقي عارف الذي أحبّه يغادر حزيناً، من الطبيعي أن يكون حزيناً، ما زال مثقلاً بجسده، يحلم بالقطارات، يسير على أرض صلبة، يحبّ النظر إلى وجهه في المرايا. يخاف من الهرم، وذبول عضوه. كان يقول لي ساخراً إنّ حياة العجائز أكل خراء، لا يمكن أن يصيبنا نحن عشّاق القلعة الخالدة. كنت أضحك، تعجبني كلماته المباشرة حين يمجّد اللذة، كما كان يعجبني صديقي الذي تطفر الدموع من عينيه حين تؤدّي امرأة رقصة خاصّة تذهب فيها إلى وجد عميق. كان يشعر بجسدها يهز الأرض، كان يقول للنساء: لا ترقصن كي يعجبنا الرقص، ارقصن لتخلعن أرواحنا من مكانها الثابت. يكمل بحماسة: كنّ كقطاري، يقتحم القلوب والسهول الواسعة دون اكتراث. كانت شمس الصباح تشرح لهنّ معاني هذه الكلمات وترتبك في شرح علاقة القطارات بالنساء، وفي النهاية تخبرهنّ بأنهنّ هنا لأنهنّ نساء عاهرات، وتوصيهنّ قائلة: بعد عبوركنّ الباب يجب أن تعدن نساءً يهبن أجسادهنّ للحبّ.

كلّ أصدقائي لا يعرفون صعوبة العيش على الأرض الصلبة، الطريق مليء بالأشواك. يوماً بعد آخر أنسى المرايا. قرناي تحوّلا إلى تاج من أزهار تذبل كلّ ليلة وتولد من جديد كلّ صباح. تغمرني الروائح القادمة مع الهواء، أتنشقها بعمق، أخزنها في داخلي، وكما أطرد أصابعي وكفي، وقدمي، أطرد من داخلي النتن الطافح الذي يجب تقيّؤه أيضاً. تقيّأت الروائح لكن ما زال الكثير منها يختلط مع مسامّي، أشعر باليأس لأنّني عشت كلّ هذه السنوات أنظف جلدي بالعطور، وأغطّيه بالألبسة الفاخرة ككل الأحياء الذين يريدون لحياتهم النموّ قرب الأشياء الصلبة.

في الأشهر الأولى، لم تفارقني الكوابيس، تغيّرت الصور بالنسبة إليّ، تحوّلت سعاد إلى طائر سنونو، وجوزفين كانت أنثى أرنب لطيف، وأمّي ذئبة تقتات من جسدها وتطعمني. المنازل الكبيرة والفاخرة التي عشت فيها، تحوّلت إلى ركام تتناسل أشيائي منه جراداً، ونملاً بنّياً كبيراً بأجنحة صفراء. عالم اختلط في داخلي، لم يبق لي شيء أعيش من أجله. أنا الغافي في عمق النهر لن يلامسني أحد، جسدي يمحو أعضاءه كلّ يوم، ويعيد رسمها من جديد. كعيون الهيكل العظمي للديناصور الذي تجمّع الفلاحون حوله خائفين، إلّا يوسف، الفتى الذي أحببته من كلّ قلبي، كان يفكّر بنقله ليعيش قريباً منه. كنت أعرف أنّه لن يغرقه في نهر عفرين، شعرت بسعادة لأنّ يوسف كان يفكّر بأنّ هذا الهيكل العظمي العملاق سيُبعث من جديد. كان يومي السادس في طريقي إلى حلب، الذي أكملته بخفّة، لم أعد أشعر بآلام الطريق، أشواكه، صلابته تحوّلت تحت قدمي إلى رخاوة رائعة، وبرودة منعشة، كنت أشعر بأنّه نبت في ظهري جناحان يحملانني إلى حيث أريد.

بعد مغادرة شمس الصباح غرفتي شعرت براحة كبيرة، لقد انتهت شهوتي، تحوّلت هي الأخرى إلى ما يشبه ذلك السائل الذي تتركه وراءها البزاقات حين تمرّ على التراب الناعم، كائن لم نتأمّله من قبل، بقيت ساعات أطاردها حين فاجأتني، كان جسمها المالس يتمرّغ في التراب، يترك وراءه سائلاً لزجاً، قلت في نفسي إنّها السعادة التي طمحت إليها، الالتصاق بالأرض، التراب الناعم، الروائح الميتة للنبات الذي كان هنا قبل برهة. في شهر آذار، كانت قد مرّت خمسة فصول، الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء الآن مرّة أخرى، يليق به أن أخرج من قوقعتي، وأهيم في الأرض. أعجبتني الفكرة، سأقضي عمري كلّه أسير حافياً، أقتات هذه الطعوم الرائعة للخضار والفواكه المجفّفة، معترفاً بيني وبين نفسي بأنّ الذي كنته لا يكفيه الكثير الذي يمتلكه، تثيره رغبة

الانتقام، ويخيفه الفقر، كنت أغصّ بالأشياء التي ما زالت تجرحني، تطوّقني وتخنقني، الآن يكفيني القليل، بل اللاشيء، ما دام هناك نهر ورياح وتراب لن أخاف من أيّ شيء، لست هدفاً لقطّاع الطرق والقتلة، أنا ميت، لا يفيد القتلة قتل رجل ميت، والنساء اللواتي كنت أطردهنّ من سريري بعد الجنس وأشعر بملل فظيع لمجرّد النظر إليهنّ، اللواتي كنّ يشبهن جوارب قديمة بالنسبة إليّ، أغصّ الآن بهنّ، أشعر بندم لأنّني لم أكن أقلّ فظاظة، ماذا يعني أن تبني قلعة، وتصكّ نقود دولة غير موجودة، وتعد المقامرين بصبّ توابيت فضّة خالصة إذا انتحروا بعد خسارتهم كلّ شيء؟ ماذا يعني أن تدفع رفاقك للانتحار؟ يعني أنّك مجرّد قذارة يجب أن تنتهي، تتحوّل إلى قطعة جماد. كنت أفكر في نفسي، تنظر شمس الصباح إليّ غير مصدّقة، لا تستطيع الاعتراف بأنّني لست الشخص الذي كنته، لكنّها تبقى المرأة الأكثر قرباً منّي، منحتني في لحظات احتضانها تلك الرائحة المفقودة لأمّي، بعد تصديق أنّها أمّي. كلّ يوم كانت تفقد صورتها القديمة، وتتحوّل إلى أمي. في ليلتنا الأخيرة عادت إلى يوم تعارفنا الأول، امرأة تجهّزها أمّ وحيد لتبيع المتعة للرجال الأقوياء، أصحاب الثروات الكبيرة، حزنت لأنّها تعرّت وتركتني أفتضّ بكارتها، كنت أتمنّى لو قطعت الشوط الأخير وتساقط من روحها رائحة الصديد الكريهة، حاولت استعادتي، قالت كم أحبّتني، كم انتظرت هذه اللحظة، ولم أقل لها كم أنا فاسد، أفسدت حياتها للأبد، حوّلتها من أمّ إلى عاهرة. قد لا تكون عاهرة ولكنّها ليست قدّيسة كما كانت ولم تعد أمّي. قتلت أمّي. ما أصعب أن تقتل أمّك. كنت أبحث للمرّة الأخيرة عمّا بقي من ذلك الرجل الذي كنته، بقي الكثير. بكيت بعد رحيلها، لم أفقد سوى القشور، ما زلت أشعر بلذة القذف، وروعة نهدها في ضوء الفجر، ما زلت كائناً يشبه الذي كنته، لكنّي أغصّ بالكوابيس، وفمي مليء بجثث الأسماك النافقة.

حين مضت شمس الصباح، لم أرها تبتعد، كنت أشعر بأنّها آخر جرائمي، لكنّني لم أكن متأكداً، سمعت زكريّا يتحدّث عن أحصنته، ومواسم أراضيّ، كدت أسأله عن أرباح أسهمنا في بنك باركليز الإنكليزي ومدّخراتنا في البنك العثماني، صمت في الوقت المناسب. لم أخبره بأنّ مناماً يتحوّل إلى رؤيا في داخلي، يأتيني كلّ يوم بالصورة نفسها، في تلّنا المشرف على قرية براد هناك مكان مدفون في التراب، يشبه كنيسة قديمة، أو منزلاً عاش فيه رهبان يقتاتون اللاشيء. حلمت بهذا المكان، هناك أستطيع عيش حياتي كما يحلو لي، أراقب السماء والمطر، والنهر القريب. نعم، إنّ نهر الفرات ليس بعيداً ونهر عفرين مسيرة أقلّ من ساعة، لقد أدمنت العيش قرب النهر، لم أخبره، ظننت أنّها رؤيا زائلة، لكنّها لم تتركني، تذكّرت حكايات أمّي، أحاديث الأب إبراهيم عن الأديرة المندثرة، التي عاش فيها رهبان وهبوا أنفسهم للتأمل، والكسل، والعيش على الكفاف، إنها طريقة عبقرية للخلاص من ورطة الحياة، ما داموا لا يستطيعون العيش كأموات كما أفعل أنا، نعم لم أمت لكنّني أعيش بامتياز الأموات، لغتي الصمت، والريح التي تحملني كريشة.

فكّرت بأنّ بقائي هنا سيحوّلني إلى كائن محنّط، لم أفكر كثيراً، ما دمت أستطيع العودة إلى هنا، الطريق إلى حلب ليس بعيداً لكنّه كافٍ لتساقط ما بقي من أعضائي، سأرمي بروحي القذرة التي أفسدت شمس الصباح ومئات النساء على حافة الطريق، لن تستطيع شهوتي للقوّة اللحاق بي، ستموت وتندثر، نعم ستندثر، فرحاً كطفل صغير باكتشافي أنّها ستندثر هذه الشهوات القاتلة، وضعت في خرجي ما يكفيني، القليل من المشمش المجفف، والبندورة والتين، وقطع من الخبز اليابس. خرجت من الغرفة فجراً، رميت بحذائي، وفكّرت لمَ لا أسير حافياً؟ لم ألامس الأرض من قبل، لامست التراب، كان شعوراً فاتناً.

في اليوم الأول تقرّحت قدماي، كان الألم يصعد إلى روحي، يغسلها، يرمي بالمياه القذرة ويدفنها في أعماق الأرض. سرت على صفة النهر ساعات، ونمت ليلتي الأولى، كان التيّار دليلي، كنت أسير عكسه، أعرف الأماكن جميعها، لن أتوه، لن أحصل على متعة الضياع في الأرض الواسعة. ما زلت مثقلاً بخطاياي، كانت مشاعر جديدة تغمرني، أتحاشى الناس على ضفاف النهر، أغطّي وجهي، لا أريد لأحد أن يعرفني، مررت قرب بيت المرابي الذي أعرفه، تذكّرته جيداً يوم اشترط لفكّ رهن منزل أبي وليم صديقنا العمّ ميشيل عيسى، أن يدفعوا فائدة سنة زائدة، وكانوا فقراء، ذهبنا إليه وعرضنا عليه إعادة السند وأخذ حقه لكنّه طردنا، كنّا صغاراً وحمقى، عدنا إليه في اليوم التالي، وضع زكريّا سكيناً في خاصرته، وأجبره على إعادة السند إلى ميشيل عيسى الذي لم يصدّق أنّنا قد نقتل الرجل من أجله. تمّ كلّ شيء كما رغبنا، حين خرجنا بصقنا عليه، وبقينا نبصق عليه في أيّ مكان نراه فيه، كنّا أقوياء جداً، والآن أنا ضعيف جداً، أسير كمشرّد على ضفة النهر العظيم، الذي قتل بجبروته كلّ هؤلاء البشر، يتربّص بعضنا ببعض، لا تغشّني وداعته، كما لا تغشّه وداعتي. التخلص من تلك النفس الآسنة سيحتاج إلى وقت طويل، لا يمكن أن تنقر بإزميل جبلاً تكوّن عبر مئات السنين وتهدمه، تحتاج إلى نقر يومي، بهدوء وأناة وصبر. كنت أمرّن نفسي على هذا الصبر الذي سأحتاج إليه في طريقي لدفن ذاتي الآثمة».

حنّا كريكورس

دير زهر الرمّان – شباط 1918

– هذا النص هو أحد المصنّفات السبعة التي كتبها حنّا كريكورس بين عام 1918 وعام 1951 في دير زهر الرمّان كما هو موقّع في الأوراق الأصليّة، بالإضافة إلى قصّة بفصلين بعنوان «الحب المستحيل» موقّعة باسم جنيد خليفة، وأوراق كثيرة وصور فوتوغرافية بعدسة المصوّر الشهير وليم زكريّا البيازيدي.

– وجد الكاتب خالد خليفة هذه المصنّفات في منزل عائلته في العنابية، ضمن أوراق كثيرة كانت تخصّ جنيد خليفة أحد إخوة جدّه. أعاد خالد كتابة المصنّفات بأسلوبه، كما أعاد كتابة رواية «الحبّ المستحيل» بتصرّف..

– في المقابل، أُهمِلت ثلاثة مصنّفات كتبها حنّا، تضمّ شروحاً طويلة عن نباتات وحيوانات شمال حلب ونهر الفرات، وأُهمِل مصنّف خاصّ عن الأحصنة وطريقة توليدها مرفقة برسوم توضيحية كاملة، موقّع باسم يعقوب الشغري سائس خيول إصطبل العنابية.

الفصل الثالث
أمّي حبّة فاصولياء مفلطحة

ماردين – حلب 1881

كان حنّا في الثامنة من عمره يتلصّص من نافذة منزل خادمتهم مارغو على الموكب الذي تجمّع سكّان ماردين لرؤيته، صُدم حين رأى جثّة والده كابرييل كريكورس مرميّة على حمار، وهو يعضّ بفمه المرتخي الشفتين على عضوه المقطوع، بينما اصطفّ سكّان ماردين على جانبي الطريق الرئيسي يبصقون عليه شامتين، يحيط الجنود بموكبه الذي دار كلّ الأزقة في حفلة تجريص لم تشهدها ماردين من قبل.

وصل خوري مرسل من دير الزعفران إلى مكتب القائمقام، تسلّم الجثمان، ليدفنه على مسؤوليته في مقبرة المسيحيّين، كما دفن قبل يوم بقيّة أفراد عائلة كريكورس التي وصفها القائمقام بالمجرمة لأنّهم قتلوا ضابطاً عثمانياً، وهجموا على دار القائمقام وأحرقوها.

هذه الصورة لازمت حنّا طوال حياته، لم يفهم لماذا يبصق الناس على رجل ميت، ولم يكن لدى خادمته مارغو الخائفة وقت كافٍ لتشرح له أنّ أهالي ماردين يكرهون أباه منذ زمن بعيد.

كانت مارغو خائفة، لم تتوقف حملات البحث عن حنّا وعن عمّه وأبنائه، فتشوا بيوت البلدة، بما فيها بيت مارغو التي أخفت حنّا في قنّ الدجاج الكبير، وفي الليل مدّت له فراشاً صغيراً بين أكياس العدس والبرغل، أغلقت بابها وطلبت منه عدم مغادرة قبو المنزل الفقير، كانت مارغو مرتبكة لا تملك وقتاً للإجابة عن أسئلة الطفل المذعور، تستنجد بالصلاة ليسوع وأمّه العذراء.

في اليوم الثالث هدأت شوارع ماردين، انسحب الجنود إلى ثكنتهم، الضبّاط الثلاثة الذين نفذوا العقاب دون انتظار تعليمات القائمقام، تأكّدوا من حرق محالّ كابرييل كريكورس، هدّدوا سكّان المدينة بأنّ من يخفي أيّ مطلوب سيُعدم دون محاكمة، مشدّدين على اسم حنّا الذي وضعته مارغو في سلّة كبيرة، وحملته ليلاً إلى عربة محمّلة بأكياس شعير، توقفت للحظات أمام باب منزلها، صعدا إليها وانطلقت فوراً في الطريق الفرعي المؤدّي إلى «عامودا». كان سائق العربة يعرف طريقه جيداً. بعد خروجه من المدينة، كانت الإشارة واضحة، وقف في الجانب الآخر ابن الملا عفيف الحسيني يلوّح بقنديل، وإخوته يشعلون ناراً يستطيع السائق رؤيتها من بعيد. خرجت العربة

من أراضي ماردين، وتنفّست مارغو الصعداء. احتضنت حنّا وبكت بمرارة. رفع حنّا رأسه، اعتدل في جلسته، أنعشته نسمات الليل وحقول القمح التي عبروها. بقيت هذه الصورة في ذاكرته، مدّ يده ببراءة، شعر بطراوة السنابل التي لامسها طوال الطريق. كتمت مارغو دموعها وتابعت بكاءها صامتة. كانت المسافة قصيرة، يمكن قطعها بأقلّ من ساعة في العربة، لكنّ حفيف السنابل الخضراء المحيطة بالأحصنة، وحمولة العربة من أكياس الشعير ضاعفت مسافة الطريق.

كان أحمد البيازيدي في انتظار العربة، نزعت مارغو الصليب من رقبتها، وانتبهت إلى الصليب في رقبة حنّا الذي وضعته أمّه يوم ولادته، كان كبيراً من الذهب الخالص مدقوقاً عليه الحرف الأول من اسمه، أنّبت نفسها على عدم احترازها، ألبسته ثوباً أبيض وقبّعة مطرّزة بخيوط الصوف كالتي يرتديها أطفال المسلمين حين يرافقون آباءهم إلى الصلاة في الجامع. قبل الفجر بقليل أكملوا سفرهم إلى حلب في عربة أحمد البيازيدي الفخمة، المخصّصة لكبار الموظفين. كان أحمد البيازيدي قلقاً، يفكّر في أشياء متضاربة، يشوّش عليه صوت مارغو التي لم تتوقف عن رواية تفاصيل ما حدث، طلب منها الصمت، كان غاضباً، لم يستطع منع المجزرة، في أعماقه كان خائفاً، قد تنتهي حياته المهنية، سيستغلّ أعداؤه صداقته الحميمة مع كابرييل كريكورس، وشتمه لقائمقام ماردين في فورة غضب بعد دفاع والي حلب عن الضبّاط الثلاثة، وضرورة الانتقام من قتلة الضابط العثماني. اعتقلوا جميع أفراد العائلة وأعدموهم دون محاكمة، مهدّدين المسيحيّين بأنّ أيّ ردّة فعل ستجعلهم يكملون المذبحة ويهدمون المدينة على رؤوسهم.

كان رأي أحمد البيازيدي أنّ قائمقام ماردين يجب أن يوقف المجزرة، ويقبض على قتلة الضابط ويحاكمهم، وكابرييل ليس منهم، إنّهم مجموعة بلطجيّة انتماؤهم إلى عائلة كريكورس لا يبرّر المجزرة، حذره من ثورة مسيحيّي ماردين التي ستتبعها هبّة شعبيّة في كلّ الأقضية، وقد تصل إلى المدن، عدّد له تجاوزات الولاة والضبّاط العثمانيّين خلال السنوات العشر الأخيرة، ذكّره بالمجازر التي دبّرها الولاة في جبل لبنان ودمشق وحلب. لم يكترث الوالي برأي صديقه وكبير محاسبيه، نصحه بنسيان الأمر، مضيفاً أنّ قناصل الدول الأوروبيّة مشغولون في هذه الفترة بالحصول على امتيازات مدّ خط السكك الحديدية، ولن يدافعوا عن المسيحيين إذا أبيدوا عن بكرة أبيهم.

الطريق إلى حلب طويل، وحنّا قد يفسد بطيشه كلّ شيء، إنّه طفل لا يمكن الوثوق به، بقيت مارغو متوتّرة وخائفة، حتى بعد وصولها إلى منزل أحمد البيازيدي في حلب، لم تطمئنّ إلى أنّ حنّا سيكون في أمان، رأت بأمّ عينها غضب الجنود الذين كانوا يشتمون المسيح والعائلة، ويهدّدون بحرق كلّ من له علاقة بالمجرمين، لكنّ مشكلة مارغو التي لا يعرفها الكثيرون هي ذاكرتها التي ما زالت مثقلة بمجزرة الموصل التي أقدم فيها الإنكشاريون على ذبح خمسين عائلة سريانيّة وتهجيرهم من منازلهم، رموا جثثهم في مقبرة جماعيّة مجهولة. شعرت بأنّ تاريخها يتكرّر بحذافيره، هي أيضاً كانت فتاة صغيرة في عام 1834 ونجت بأعجوبة من المجزرة، لم يبق أحد من عائلتها سوى أخيها إسكندر الذي وصل إلى بغداد، ولم يغادرها طيلة حياته، بينما مارغو بقيت مع العائلات الناجية من سكّان الحارة الشرقيّة، التي قرّرت السير شرقاً دون هدف، وصلت إلى ماردين طفلة ضائعة دون أيّ حماية، عاشت سنواتها العشر في منزل عائلة ميسورة، يتيمة على مائدتهم، قبل أن يأخذها كابرييل كريكورس لتخدم في منزله.

كانت فتاة صغيرة لم تتجاوز العاشرة من عمرها، بجدائل شقراء، تتذكّر وجه أبيها وشاربيه الكثين، لم تستطع نسيان جثث أفراد عائلتها، وبطن أبيها المبقور. لا يعني عدم الحديث عن المجزرة نسيانها. لم تأت مرّة على ذكر ما حدث إلّا في حالات قليلة، كانت استعادتها للمجزرة

تزعج سيّدها كابرييل كريكورس، لكنّها بقيت تحدّث حنّا عن مسيحيّين سريان ذبحهم جنود عثمانيّون إنكشاريّون قساة، ورموا جثثهم في مقابر جماعيّة، كانت تقول لحنا دوماً إنّ الجثة تزعج القاتل الذي يعتقد بأنّها من الممكن أن تنهض ذات يوم وتقتصّ لذاتها، وإلّا فما معنى قيامة المسيح إن لم تكن قيامة لجميع الضحايا؟ رغم عدم فهمه المعاني كان حنّا يشعر بأنّ هذه الحكايات رهيبة ولا يمكن نسيانها.

لم يضع أحمد البيازيدي وقته، خيّر مارغو بين الانضمام إلى خادمته أمّ الخير، أو العودة إلى ماردين. قال ببرود إنّ حنّا سيعيش هنا بقيّة حياته، مضيفاً: لم يبق أحد يعود إليه. شعرت مارغو بالضيق من لهجة أحمد البيازيدي الجافة، رغم أنّ سيّدها كابرييل كان أشدّ قسوة ويحتقر الخدم والضعفاء في أعماقه. لم تحتج إلى وقت طويل للتفكير، قرّرت عدم ترك حنّا بمفرده مع عائلة مسلمة، اعتبرت في قرارة نفسها أنّ المحافظة على مسيحيّة حنّا أمر عظيم يستحق التضحية، لم تعنها علاقة العائلتين التاريخيّة، ومصالحهما المتداخلة التي تمتدّ إلى أكثر من جيلين، كانت يائسة، لن تستطيع تخليص حنّا من أحمد البيازيدي الذي تعرفه جيّداً، رجل قويّ لا يمكن خداعه، عكس ما يوحي مظهره المتقشّف، ووجهه الهادئ، وكلماته البطيئة حين يتحدّث.

فكّرت مارغو بأنّ الكنيسة لن تترك الوريث الوحيد لرجل مسيحي غنيّ لتربيه عائلة مسلمة، رغم مصادرة كلّ الأملاك. كانت واثقة بأنّ الكثير من الذهب ما زال موجوداً في مكان ما. شعرت بالسخط لتضييعها فرصتها الوحيدة ليكون حنّا ابنها، لو هربت به إلى الموصل حيث بقايا عائلتها تعيش لانتهت القصة، سيظنّونه قتل، لم يبق أحد من العائلة. تصرّف أحمد البيازيدي بقوّة، وصل إلى ماردين في اليوم نفسه لقتل الضابط، حاول إيجاد أيّ وسيلة لعقد مصالحة بين عائلة كريكورس وأسرة الضابط، لكنّه لم يفلح، لم يستطع منع المجزرة، لا يمكن التساهل في قتل ضابط تركي عثماني ينتمي لعائلة متنفذة في ماردين في وضح النهار، حتى لو كان دفاعاً عن الشرف.

كادت المدينة تشتعل بفتنة طائفيّة بين المسلمين والمسيحيّين، لكنّ الحقيقة أنّ ضبّاطاً من رفاق القتيل وجدوها فرصة لاستعادة هيبتهم في منطقة لم يهدأ العصيان فيها، وعائلة الضابط التي كانت تتاجر بالأخشاب وجدتها فرصة للانتقام من نفوذ عائلة كريكورس التي احتكرت خطّ التجارة مع أربيل والموصل، بعد شراء كابرييل كريكورس خانات السوق القديم كلها، مضيفاً إليها محالّ التجّار اليهود في خان العروس. خلال سنوات قليلة حوّل ماردين إلى عقدة لعبور البضائع، لا تتوقف العربات المحمّلة بالبضائع عن الوصول من حلب، تفرغ حمولتها من النسيج والزجاج والحنّاء والثمار المجففة والأخشاب، بالإضافة إلى الأسلحة والخيوط والأصباغ، ثمّ تغادر قوافل أخرى محمّلة بالبضائع إلى أربيل والموصل، وقوافل أخرى تغادر إلى الأناضول. لا تتوقف الحركة في خانات كابرييل كريكورس.

هدأت العاصفة، مات تسعة عشر شخصاً من عائلة كريكورس ومنهم عمّة حنّا وإخوته الأربعة وأمّه وأخته الصغرى ذات الجدائل الذهبيّة. كانت العائلة تدللها بالشقراء، باقي أفراد العائلة من الفقراء هربوا في الحقول وتشرّدوا في البلاد، تاركين كلّ شيء وراءهم.

لم يخف زكريّا سعادته لوصول حنّا للعيش معهم في المنزل الكبير. منذ اللحظات الأولى قاسمه كلّ أشيائه، ثيابه وأحذيته الجديدة المركونة في خزانته بعناية، في انتظار عيد الأضحى، توسّل إليه أن لا يقبل العيش في ميتم الكنيسة، أو الذهاب مع أيّ فرد من عائلته يريد استعادته. كان زكريّا يشعر بالوحدة قبل وصول حنّا، أصبح في التاسعة من عمره دون أخ، لا تسمح له أمّه بزيارة أبناء عمومته، أو أصدقائه في المدرسة، كانت تخاف عليه، وأخته سعاد التي لم تكمل عامها السادس ما

زالت طفلة صغيرة لا تستطيع مشاركته أفكاره عن الطائرات الورقيّة المهووس بألوانها، ومساعدته على الهرب من رقابة والده وأمّه التي لم تصدّق أنّه لن يموت، لقد مات أخواه وأخته قبل أن يكمل أحد منهم سنته الثانية.

تفهّم حنّا أمر صديقه زكريّا، هز رأسه كما يفعل الرجال الكبار، وعده بأنّه لن يتركه. أخرج دبّوساً وثقب إصبعه، مدّها لزكريّا الذي فعل مثله، ودمجا دمهما متعاهدين على الأخوّة الأبديّة. كانت سعاد تراقبهما وتقول لهما إنّ دمهما الآن سافر إلى الشمس، لم يفهما معنى جملتها، وهي كعادتها لم تكن تعرف معاني كلماتها التي تفاجئ الجميع. ضمّتهما إلى صدرها، وقالت إنّها شاهدة على اتّفاقهما، إنّهما أخوان الآن، سيقتسمان السكاكر والنقود، نهض زكريّا وفتح خزانته، أخرج كيساً من السكاكر أعطاه لسعاد التي قسمته بينهما بالتساوي، مضيفة أنّهما الآن يشبهان دواليب عربة أبيها.

هزّا برأسيهما موافقين، ذكّرت حنّا بأنّها تركت له سريرها في غرفة زكريّا التي أصبحت غرفتهما، وذهبت إلى غرفتها الجديدة، لكنّها عادت بعد قليل تحمل صحناً كبيراً مليئاً بمربّى الورد، قالت إنّ هذا المربّى سيساعد قامتيهما على النموّ، غمزت لهما بأنّهما قصيران ولا يشبهان عازار اليهودي، أوصت حنّا بالعناية بسريرها، ومضت إلى غرفتها.

لم يعد حنّا يفكّر في الرحيل عن هذا المنزل الجميل، بعد أشهر قليلة شعر بالسعادة، تعاملت معه رضيّة خانم بحنان زائد، اعتنت بشؤونه، شعرت بالرضى، سيكون لزكريّا وسعاد أخ جميل ومهذب، ترحّمت على أمّه، وصفتها بالمرأة الصابرة، احتملت مزاج أبيه الصعب. حاولت نسيان طريقة موتها القاسية. كانت رضيّة تهرب من تداول قصص الأموات، يكفيها ما خسرت في حياتها.

في الأيّام الأولى لإقامة حنّا بينهم شعرت رضيّة خانم بأنّ سعاد تفلت منها كلمات غريبة، فوجئت حين نهضت من مائدة الطعام، وقالت إنّها رأت فيلاً صغيراً يتدحرج بين حبّات عدس الشوربة. تبادلت رضيّة نظرات متفاهمة مع زوجها، لم تكتم مخاوفها من أن ترث عن عمّتها أمينة قراءة الطالع، لم يردّ أحمد البيازيدي، كان في أعماقه يخاف من تكرار سيرة أخته التي تجاوزت الثلاثين ولم يجرؤ أحد على طلب يدها، اعتاد تحاشي سيرتها، وعدم التعليق على أيّ شيء يخصّها.

في اليوم التالي اصطحبت رضيّة سعاد إلى الشيخ الذي كتب لها «حجاباً»، كانت سعاد تضحك، وهو يقرأ على رأسها ويده تهتز خوفاً من سيرة العمّة أمينة التي تحبّها سعاد وتنتظر زيارتها لتخبرها عن زكريّا وحنّا اللذين لا يستطيعان النوم بعيون مفتوحة كما تفعل هي. تحتضنها العمّة أمينة خائفة، لا تريد لهذه الفتاة البريئة والحلوة أن ترث سيرة ألمها وعذابها. ترى نعشها يقترب منها، لا تعرف متى سترحل، لكنّها ترى الموت يحوم حول عائلتها.

دخلت سعاد إلى غرفة حنّا وزكريّا، قالت لهما إنّ ملابس الشيخ لم تعجبها، لا تشبه الملابس الأنيقة لمسيو جان الذي كان يزور عمّتها أمينة صباح كلّ يوم جمعة. طلبت منهما مرافقتها إلى النهر، لم يستطيعا مخالفة أوامرها، خرج ثلاثتهم من المنزل خلسة، كان وليم ميشيل عيسى وعازار حاييم إستنبولي وأخته سارة في انتظارهم، مشوا وراء سعاد التي وصلت إلى النهر، نزعت الحجاب من رقبتها، قصّت الخيط بسكّين صغيرة، وأخرجت الورقة التي رسم عليها الشيخ مثلثات ورموزاً غير مفهومة، وكتب كلمات غامضة لأسماء غريبة، فردت الورقة وصنعت قارباً، اقتربت من النهر، وضعته بهدوء شديد، طلبت منهم التلويح للقارب الصغير الذي ابتعد عنهم.

لم يفهموا لماذا فعلت ذلك، لكنها قالت إنّها لن تحتاج إلى حجاب، أخرجت مجموعة أوراق وزعتها عليهم، طلبت منهم صنع قوارب ورقيّة، تحمّس حنّا وكتب على قاربه اسم أمّه، وقبّله، تأثّرت سعاد وطلبت من الجميع كتابة رسالة على الورقة التي ستتحوّل إلى قارب ورقيّ، تحمّسوا جميعاً، تأثّر حنّا بفيض المشاعر الذي أثارته سعاد بكلماتها العاطفيّة التي طلبت من زكريّا كتابتها، وقفت قبل طيّ الورقة وطلبت من زكريّا قراءة ما أملته عليه، وقف زكريّا وقرأ كلمات سعاد «إلى خالتي الجميلة أمّ حنّا، اشتقنا لك، لا تقلقي حنّا يعيش بيننا» بينما زكريّا كتب بخطه الجميل «نحن نحبّ حنّا وهو أخونا» ضحكت سارة وردّدت ماكتبته بأنّ حنّا يسرق من زكريّا طائراته الورقيّة، أمسك زكريّا بقارب سارة الورقي ومزقه، قال بكلّ جدّية إنّ حنّا لا يسرق، ويعطيه مصروفه ليشتري ورقاً مقوّى يصنع منه طائراته. طلبت سعاد من الجميع النزول إلى ضفة النهر وإرسال القوارب، كان حنّا متأثراً وهو يرى القوارب الستّة تمخر النهر، الذي يحملها إلى الجنّة حيث ستلتقطها أمّه هذه الليلة وتقرأ الرسائل كما أقنعته سعاد.

عادوا إلى المنزل، كان الجميع يراقبون بصمت غضب الجدّ نجيب البيازيدي، كان يشتم بكلمات بذيئة العمّة أمينة، التي دخلت صباح اليوم إلى غرفته، جلست على فراشه، وقالت له لديك ثلاثة أيّام، يجب أن تنهي كلّ شيء. لم تنتظر ردّه، أوصت صانع التوابيت بأن يصنع تابوتاً من خشب الجوز، لرجل ضخم الجثة، وإرساله بعد ثلاثة أيّام إلى منزل أهلها، قالت له إنّ التابوت بعد الدفن سيُهدى للجامع، ومضت إلى غرفتها تنتظر موت أبيها.

كان أحمد البيازيدي خائفاً، يحاول الاستماع إلى أبيه الذي لم يبلغ السبعين من عمره، يتمتّع ببنية جسدية وذاكرة خارقة، ما زال يروي مع صديقه حاييم إستنبولي تفاصيل الزلزال الذي مضت عليه ستّون سنة، كانت استقالته من العمل في المحاسبة مفاجأة للجميع، طلب من ابنه أحمد أن يرث كلّ أعماله ومناصبه، قرّر التقاعد فجأة، ليمضي وقته في منزله الريفي، يرعى الإوز، يربّي الحمام، ويقرأ للأحفاد في كتب السير للأبطال الشعبيّين، كأبي زيد الهلالي بطله المفضّل، يستقبل أصدقاءه ويقضي أيّاماً معهم في رحلات صيد، ينامون في العراء كالمراهقين، ويتحدّثون عن الغزلان التي سيصطادونها بسهامهم في البادية.

نهض الجدّ خائفاً، طلب من زكريّا وحنّا وسعاد مرافقته إلى منزله، هناك سيعلمهم طريقة الحفاظ على بيض الحمام، سيريهم الحمامات التي ستفقس صباح اليوم التالي، تحمّست سعاد وخرجت معه، لحق بهما حنّا وزكريّا، بقي أحمد البيازيدي ورضيّة صامتين، كانا يعرفان أنّ أمينة تنبّأت بكلّ ما حدث، ولا يمكنها أن تفعل شيئاً لا تراه، لكنّهما في الوقت نفسه أملا أن تخيب هذه المرّة كما خابت في مرّات قليلة سابقة.

صباح اليوم الثالث، خرجت أمينة من غرفتها، وجدت أباها يرفل بصحّة ممتازة، يضحك ويمازح حفيديه سعاد وزكريّا ورفيقهما حنّا، سخر منها، ومن التابوت الذي أحضره النجّار، قالت له قبل أن تلقي عليه النظرة الأخيرة: تستطيع تحويل التابوت الذي دفعت ثمنه إلى معلف لحصانيك، قبّلته وغادرت صامتة، سمعته يردّد أنّه سيعيش خمسين سنة أخرى، لكنّه في الليلة ذاتها نام ولم يستيقظ، لقد مات.

لم تخرج أمينة في جنازته، كانت تتابع صعود روحه في كلّ لحظة، تبكي بصمت موت أبيها الرائع رغم قسوته معها في سنواته الأخيرة. قالت سعاد ببساطة «لقد تلاشى جدّي»، رأت جسده يتفكّك ويغور في أعماق الأرض، والتابوت المسجّى في أرض الدار الكبيرة كان يضمّ روحه

الكثيفة، حين سألها حنّا ما هو شكل الروح، قالت إنّها شيء يشبه حبّة الفاصولياء الضخمة، تخرج من ثقوب الكائن، تتكثّف، وتُدفن في الأرض.

لم يفهم حنّا المعنى، نظر إلى زكريّا الذي أشار بأنّه لم يفهم أيضاً. سعاد أعجبها ما قالته، ثمّ طلبت من زكريّا أن يعيرها طائرته الورقيّة، قدّمها لها عن طيب خاطر، صعد معها إلى سطح منزلهما، أمسكت بالخيط بكلتا يديها، ارتفعت الطائرة الورقيّة، ولم يفهم زكريّا لماذا تركت سعاد الطائرة الورقيّة تفلت من يدها، لكنّها قالت ببساطة إنّ يد جدّها نجيب انتزعتها منها، صدّق زكريّا الحكاية، شعر بتقدير كبير لأخته الصغيرة التي تخلط في جملها الحقائق بالخيال، وينظر إليها أفراد العائلة بخوف أن ترث عمّتها.

كانت عمّتها أمينة، رغم لطفها اللامتناهي، مخيفة، لا تبشّر إلّا بالأخبار السيّئة، يتحاشاها سكّان المدينة، عاشت وحيدة في منزل والدها بعد موته، رفضت الانتقال للعيش مع إخوتها الأربعة، لا ترغب في أن تفسد حياتهم، في كلّ الأحوال كان منزلها جزءاً مقتطعاً من المنزل الكبير الذي قسّمه الأب بين الإخوة منذ سنوات طويلة، باع أحمد البيازيدي حصّته وانتقل للعيش في منزل لعائلته في حيّ الجديدة. منزل كبير يليق بمدير بنك، وموظف كبير ومسؤول عن حسابات الوالي، المنصب الذي ورثه عن أبيه قبل تقاعده.

كان المسيو جان الجزراوي صديقاً للجدّ، يعتقد بقراءة أمينة للطالع، ساعدته على تخطيط حياته، صباح كلّ يوم جمعة، يقرع باب منزل أبيها، يسير إلى غرفة أمينة قرب إصطبل الحصانين، يشرب قهوته، ينتظر أيّ إشارة منها، وهي تبحث عن سجلّه وسط زحمة ذاكرتها الرهيبة، تخبره بأنّه لن يموت قريباً، يخرج من منزل أبيها سعيداً، يبحث عن أفعال طائشة، كان يسمّيها رسولة السعادة، لم يحتمل الجدّ نجيب البيازيدي تهتّك صديقه وخرافات ابنته، طرده وطلب منه عدم الحضور ثانية إلى منزله، لكنّ الرجل بقي يتابع معها سجلّه عبر فتاة يهوديّة يرسلها خصيصاً لتأتيه بنبوءات أمينة. ذات مرّة طلبت من رسولته إخباره بعدم الخروج من المنزل، وإلغاء رحلته مع أصدقائه إلى اللاذقية، لم يصدّق حين أتته أخبار انزلاق عربة صديقه في الوادي بعد جسر الشغور إلى أدغال غابة الصنوبر في مكان سحيق لا يمكن الوصول إليه، لم يُعثر على أيّ أثر له. بعدها بأيّام قليلة، أهدى لها جان الجزراوي زنّاراً ذهبياً، وهاجر إلى أميركا. لقد تعب من ارتباط حياته بتنبّؤات أمينة، كان يخشى أن تقرع باب منزله وتخبره بأنّه سيموت بعد ساعتين، أعادت أمينة زنّار الذهب إليه، أغلقت بابها، ولم تعد تستقبل أحداً بعد موت أبيها، اعتكفت في ركن الحاجّة نبيهة، تقرأ القرآن طوال اليوم وتبكي وجداً، تحوّلت العمّة بعد سنوات إلى داعية متحمّسة لأفكار الشيخ أبو الهدى الصيّادي الذي صعد نجمه في الولاية وبدأ تلاميذه يروّجون لأفكاره في كلّ مكان، لكنّ سمعتها السابقة ما زالت تسبقها أينما ذهبت.

انشغلت العائلة بعزاء الجدّ، وسط وجوم الجميع الذين لم يعرفوا طريقة للردّ على نبوءة أمينة، انشغل زكريّا بصناعة طائرة ورقيّة جديدة، كانت رائعة، وهي ترتفع في السماء، خطر لسعاد أنّها لو تركت خيطها فقد تعود مثل حمامات جدّها التي كان يفاخر بها، يذهب مع رفاقه إلى إدلب، يفتح الأقفاص لحماماته التي ترفرف كرفّ واحد، وحين يعودون يجدونها قد سبقتهم. قالت سعاد أيضاً إنّ طائرة زكريّا ستعود، لكنّها حين شعرت بأنّها قد لا تعود، سألته: هل تعود الطائرة الورقيّة كحمامات جدي؟ قال لها: لا أعرف، لكنّها قد تعود، فكّر قليلاً وأضاف: لم تعد طائرة وليم عيسى حين أفلتت منه على طرف النهر. كانت سعاد تشعر بالإثارة وهي تمسك بخيط الطائرة الورقية الكبيرة وهي ترتفع في السماء، أفلتتها، وحين جرفتها الريح نحو الشرق، لم تجد سوى يد جدّها

الذي مات قبل يومين وما زال الجميع مشغولين بعزائه. شعرت سعاد بالامتنان تجاه زكريّا الذي سمح لها بإفلات خيط طائرة صناعتها عمل مكلف وصعب. في صباح اليوم التالي أخبرت زكريّا بأنّ الطائرة الورقيّة ستعود كحمامات جدّها، شعر زكريّا بسعادة فائقة، وانتظرها، لكنّها لم تعد، شرحت له أمّه أنّ الطائرات الورقيّة لا تعود، ويد جدّه لا يمكنها الخروج من القبر المحكم الإغلاق لتلتقط الخيط، غضب زكريّا وتوجّه نحو سعاد غاضباً، صفعها على خدّها وركلها وقال إنّها أضاعت طائرته، وسخرت منه، اندفع حنّا نحوه وضربه بقبضته القويّة، أدمى وجهه. كلّ شيء حدث خلال دقائق قليلة، هجم زكريّا على حنّا وضربه، وقفت سعاد بينهما، وكانت تبكي بحرقة، توقف الاثنان عن الشجار، تقدّم حنّا من زكريّا المذهول، ضمّه إلى صدره، مردّداً أنّه يطلب السماح منه، لكنّه لم يحتمل أن يضرب سعاد.

ما زالت عينا سعاد تدمعان وهي تتذكّر تلك الحادثة. في اليوم التالي، بقي الثلاثة صامتين لأول مرّة، أخرج زكريّا حصّته من السكاكر التي وزّعتها أمّه على روح جدّه، وقدّمها لسعاد، راجياً أن تقبلها منه، قال لها إنّ الطائرة ستعود لو كنّا أطعمناها حبّات القنبز، وسقيناها، كالحمامات التي فتحت لها العمّة أمينة باب الخم، وأطلقتها في الفضاء، كانت تريد التخلّص من فضلاتها، لكنّ الحمامات كانت تطير وتعود ليلاً للمبيت على السطح، وحين لم تجد الجدّ يرشّ لها الحبوب والقنبز، وينظّف صحون الماء، غادرت ولم تعد مرّة أخرى.

سامحت سعاد أخاها زكريّا، وشهد على ذلك الصلح وليم عيسى وحنّا وعازار وأخته سارة، انشغلت سعاد وحنّا مع زكريّا في صناعة طائرة جديدة، كانت أكبر، وملوّنة، شعرت بالملل بعد أيّام قليلة، عمل زكريّا بمفرده، وساعده حنّا، عمّته أمينة أوصت له على ورق سميك وقويّ وملوّن. بعد انتهاء الطائرة الورقية شعر زكريّا بالفخر حين حملها حنّا وسعاد من الطرفين، كانت كبيرة وجديدة ذات خيط متين من القنّب.

يوم الجمعة صباحاً سار مع رفاقه إلى جبل «الجوشن»، ليطلق أكبر طائرة عرفتها مدينته، كان حنّا وسعاد يدافعان عنه باستماتة ضدّ هزء وليم عيسى الذي كان ينافسه في صنع الطائرات الورقيّة، ردّت على سخرية رفاقهم الصغار الذين ردّدوا أنّها لن تطير، لكنّها طارت، كان زكريّا يشعر بالتحدّي، حين ارتفعت الطائرة الورقية شعر بأنّ قلبه يخفق بشدّة، ألوانها في السماء رائعة، تعكسها أشعّة الشمس، شعرت سعاد بالفخر، صفّق له رفاقه حين أعاد الطائرة إلى الأرض بهدوء كبير، ودون أيّة أخطاء، اقترب منه وليم عيسى وقبّله بحرارة، همس عازار لوليم عيسى: يجب أن تصنع طائرة أكبر منها، تحمّس زكريّا والتفت إلى جميع رفاقه المنفعلين، وقال لهم: سأصنع طائرة جديدة أكبر من هذه الطائرة بثلاث مرّات، ثمّ أعطى الخيط لسعاد، همس لها: يجب أن تتعلمي كيف تطير الطائرة الورقيّة، تحمّست سعاد وتركت الخيط، كان حنّا يسندها، والطائرة الثقيلة تؤلم أصابعها، استطاعت أن ترفع الطائرة الورقيّة إلى مسافة كبيرة، فوجئت بزكريّا يهمس لها بأن تفلتها، مضيفاً أنّ جدّهما قد يحتاج إليها، أضاف أنّ عمّته أمينة أخبرته بأنّ روح جدّه صعدت إلى السماء، نظرت سعاد إليه، كان جادّاً يريد لطائرته أن تطير في سماء المدينة الكبيرة، ستعبر الحارات، ضفة النهر، البساتين، وحين تصل إلى المقبرة ستلتقطها يد جدّه، سيقرأ اسم زكريّا ويعرف أنّهم يتذكّرونه، سيرسل له المزيد من الطائرات الورقيّة. حسمت سعاد أمرها، نظرت إلى حنّا، ابتسمت لوليم عيسى وعازار وسارة وأفلتت الخيط بهدوء، وسط استغراب رفاقهم الذين لم يصدّقوا أنّ سعاد قادرة على فعل هذا، لكنّها في لحظة قالت للطائرة الملوّنة سلّمي على جدّي وأمّ حنّا، أفلتت الخيط وكانت الطائرة الورقية تغيب، وسط دهشة الجميع وابتسامة زكريّا الذي كان

يحتضن حنّا والأخير يبكي بصمت، قال: سأصنع طائرة ورقيّة أكبر بثلاث مرّات من هذه الطائرة التي أرسلتها سعاد إلى روحَي جدّنا وأمّ حنّا في السماء، همست سعاد لزكريّا بجدية أن لا يخبر رفاقهما بأنّ روح الجدّ تسرّبت من القبر لتصعد إلى السماء، كان يهزّ برأسه متفهّماً ويلفّ ذراعه حول كتفها وسط هرج الأطفال العائدين إلى بيوتهم مساءً.

ما زال حنّا وزكريّا يتذكّران طعم تلك الأيّام العذبة وبراءة سعاد، خيالها المفرط وحياتها المنقسمة بين عدّة شخصيّات، كانت تعيشها ببساطة، تخلط عوالمها، وتفاصيل حياتها، تهرب في أعماقها من سيرة عمّتها، لا تريد أن تشبهها. تحوّلت العمّة أمينة إلى شبح مخيف لسكّان مدينتها حلب، يوقفها رجال لا تعرفهم ويسألونها عن مصيرهم، يطلب ضبّاط كبار مواعيد معها لسؤالها عن طالعهم، وعائلتها لا تعرف كيف ستنتهي هذه المأساة، كانوا يحبّونها، ويخافون عليها من المصير الأسود للساحرات، اللواتي اقترنت صورتهنّ في أذهان الجميع بالبشاعة.

بعد موت أبيها واعتزالها الحياة بالقرب من الحاجّة نبيهة شعرت براحة كبيرة، أقامت رفيقاتها حفلة زار كبيرة لإخراج الشياطين من جسدها، وروحها الممسوسة، ضربنها، دققن المزاهر، وصلن إلى قمّة التجلي. كانت أمينة بينهنّ تبكي بحرقة، تستنجد بأسيادها الأولياء، تناديهم فرداً فرداً، اهتزت لساعات على وقع الدفوف حتى غابت عن الوعي، وحين استيقظت صباحاً بكت حين رأت رضيّة زوجة أخيها تستعدّ لصعود درج الموت، بكت بحرقة ومنعت نفسها من الخروج من غرفتها.

قبل شهور عديدة، طلبت رضيّة من أمينة مرافقتها لتفي بنذرها، لقد تجاوز زكريّا العاشرة، يتمتّع بصحّة جيّدة، وجسد قويّ، خرجت حافية من منزلها إلى الجامع الأموي الكبير، قربها سعاد مبتهجة بأمّها وعمّتها أمينة تردّد طوال الطريق آيات من القرآن تحفظها عن ظهر قلب، أمامهنّ يسير حنّا وزكريّا، يتأكّدان من خلوّ الطريق من الحصى الكبيرة، والأشواك، يمنعان الناس حتى من النظر إلى هذه المرأة المؤمنة التي تسير حافية، بقربها امرأة أخفت وجهها ببرقع أسود وطفلة جميلة تضع غطاءً أسود على شعرها، تحدّثهما عن بطّات كانت تسبح في النهر الشهر الماضي وتحوّلت إلى أميرات. وصلت رضيّة وركعت أمام مقام سيّدنا زكريّا، قالت باكية: لقد وفيت بنذري، وأريد أن أنذر مرّة أخرى. لكنّ أمينة قاطعتها، وأغلقت فمها، طلبت منها الصمت والصلاة. قالت: النذور فأل سيّئ، سيعيش زكريّا طويلاً. تفاءلت رضيّة بنبوءة أمينة، كانت المرة الأولى التي تبشّر فيها العمّة بأخبار سارّة.

عادوا جميعاً إلى المنزل، كانت سعاد منفعلة، تتحدّث بسرعة، سألها حنّا بكلّ جدّية كيف تؤلّف القصص. كانوا معاً على ضفة النهر، لكنّهم لم يروا البطّات تتحوّل إلى أميرات. قالت سعاد بجدّية أيضاً: أمس حين كنتما تسيران أمامنا وتفسحان الطريق لأمّي كنت أنت قنفذاً، لكن حين رجعنا أصبحت أرنباً، لم يفهم حنّا، لكنّه فكّر مع زكريّا بأنّ سعاد حين تكبر ستنجب حصاناً.

في المدرسة المتوسّطة، أصابهما شغف غريب بالذهاب إلى حارات باب الفرج الخلفيّة مع وليم عيسى وعازار وابن خالته ديفيد الذي كان يعرف كلّ منعطفاتها وبيوت اليهود القريبة في بحسيتا. تحرّشوا بالباعة الصغار محاولين جرّهم إلى أيّ مشاجرة، كانت وصيّة ديفيد لهم واضحة بأنّهم إذا أرادوا العيش في حارات حلب الخلفيّة يجب عليهم إثبات قوّتهم. في الأيّام اللاحقة علّمهم ديفيد أصول الضرب بالسكاكين. كان يكبرهم بثلاث سنوات، يعمل مع أمّه في حمّام حارتهم في باب النصر، كان ديفيد شهيراً بين أصدقائه بإتقانه استعمال الأسلحة، خاصّة السكاكين. وقف حنّا أمامه، ضربه بالسكّين، مزق قنبازه فقط ولم يصبه بأذى، علّمهم هذه المهارة التي اكتسبوها. أصبحوا

يحتفظون بسكاكين حادّة في حقائبهم المدرسية، ولدى أول مشكلة مع التلاميذ يتوزع الأصدقاء الأربعة الزوايا كعصابة، يخرجون سكاكينهم التي تلتمع نصالها تحت أشعّة الشمس، وسط رعب التلاميذ الذين يهربون مذعورين.

أصبحوا وجوهاً معروفة في حارات باب الفرج الخلفية بعد أشهر معدودة، كانت تلك الحارات تعجّ بالخارجين عن القانون، وقوّادي العاهرات الذين كانوا يبحثون عن زبائن لنسائهم في الأسواق المزدحمة، يدفعهم المارّة من طريقهم، ما زالوا صغاراً على العيش في الشوارع، وملابسهم تدلّ على أنّهم أولاد أغنياء يبحثون عن مغامرة. أعطوا ديفيد نقوداً مقابل السماح لهم بالتسلل إلى الحمّام ومراقبة النساء العاريات. لم تعجبهم كتل الدهون الثقيلة لنساء سمينات ملفوفات بالبرانس، عرض عليهم ديفيد أن يراقبوا زبونات المساء، اشترطوا عليه السماح لهم بالتلصّص على هدى شمعون اليهوديّة التي اشتهرت بجمالها، كانت تأتي إلى الحمّام مع موكب من المرافقات الجميلات، بنت عائلة غنيّة، تحبّ الاستعراض والفضائح، تسير في شوارع المدينة بموكب كامل، سائقها، وخادمتها، وثلاثة مرافقين أشدّاء، ينظر إليها الرجال حين تعبرهم عربتها بذهول، تترك وراءها رائحة عطر لا يفارق المكان بسهولة.

وافق ديفيد بعد تردّد، فتح لهم باب الممرّ المؤدّي إلى غرفة النار، طلب منهم الصمت، وصلت عربة هدى شمعون وترجّلت منها، أشار إليهم بالتناوب على ثقب صغير يكفي لعين واحدة، كادوا يمزقون بطون بعضهم بسكاكينهم لخلافهم على الدور، كانت الخادمة ورفيقات هدى شمعون قد خلعن ثيابهن، كانت رائحة الصابون المعطّر تملأ المكان، اتفقوا على القرعة لكنّ أصواتهم المتشابكة كشفت موقعهم. فوجئوا بحرّاس هدى شمعون الشخصيين يحيطون بهم، ويمسكون بهم من رقابهم، أخرجوهم من الحمّام، لكنّهم لم يستسلموا كما ظنّ الحرّاس الذين فوجئوا بهم يسحبون سكاكينهم ويرفعونها في وجوههم. لم يصدّق المارّة الذين وقفوا يتفرّجون في بداية الأمر أنّ هؤلاء الأطفال لديهم كلّ هذه المهارات، اضطرّوا للاشتباك مع الحرّاس، حين شاهدوا وليم عيسى ينزف دماً من أنفه، هاجوا دفعة واحدة وطعنوا أحد الحراس في بطنه. لم تنته المعركة بل انتقلت إلى شوارع باب الفرج الخلفيّة، تدخّلت دوريّة للشرطة واعتقلت الجميع، لم يصدّق اليازباشي أنّ هؤلاء الأشقياء تلاميذ في المدرسة، وأحدهم ابن أحمد بيك البيازيدي.

تدخلت عائلة هدى شمعون وأحمد البيازيدي لتخليصهم من مخفر الشرطة قبل تحويلهم إلى القاضي، رغبت هدى شمعون في رؤيتهم في منزلها بعد إطلاق سراحهم، دخلوا إلى الصالون الكبير، كانت ثيابهم ممزقة، ووضعهم مزرياً، سألتهم ماذا كانوا يفعلون في ذلك المكان، أجابها حنّا فوراً: كنّا نريد رؤيتك عارية.

تأمّلتهم بنظرات متفحّصة، ما زالت أعضاؤهم في طور النموّ، ولم تكتمل، فكّرت في وقاحتهم، وسألتهم: لماذا؟ أجابها زكريّا: أنت أجمل امرأة في حلب، أضاف وليم عيسى: بل في العالم. كان عازار خجلاً، يفكّر في العودة إلى منزل عائلته، لن يسامحه أبوه، سيضربه بحزام الجلد المهترئ، كثيراً ما كان يردّد أمامه أنّ منحته ليستطيع الذهاب إلى المدرسة يدفعها صندوق الطائفة اليهوديّة المخصّص لمساعدة الفقراء، وأصدقاؤه أبناء عائلات غنيّة لا يكترثون بالمال.

لأول مرّة تشعر هدى شمعون بهذه السعادة، سامحتهم، ثمّ قبّلتهم، وصافحتهم، وطلبت من عازار البقاء للتوسّط لدى أهله، أوصلهم سائق عربتها إلى منازلهم. كانت هدى شمعون تستعدّ للزواج بنائب القنصل الإيطالي سيمون جيوفاني، جرت الاتفاقات جميعها، وجهازها في لمساته الأخيرة، لا

وقت لديها للتفكير في مغامرات طائشة تمنّت عيشها مع هؤلاء الأشقياء، لم تنس شفتي حنّا الشهوانيّتين وهو يخبرها بأنّهم فعلوا كلّ هذا من أجل رؤيتها عارية في الحمّام.

وصلت العربة إلى منزل أحمد البيازيدي. لم يكن زكريّا خائفاً، همس لحنّا أن يسرع في الدخول إلى الغرفة وسيتصرّف مع أبيه، كان الوقت ليلاً، كان يوماً متعباً، ناما في النظارة، واحتملا بصاق الحرّاس طوال الليل، كان الباب مفتوحاً والبيت صامتاً تماماً، هرعت سعاد نحوهما باكية واحتضنتهما، قالت لهما إنّ أمّها ماتت وروحها الآن تصعد خارج المنزل، لن يطول الوقت حتى الفجر، ستخرج الروح من المدينة وتصبح حبّة فاصولياء مفلطحة وضخمة.

كانت رضيّة البيازيدي امرأة تقيّة، نحيفة، قصيرة، في عينيها ضوء غريب لم يخفت حتى لحظاتها الأخيرة، تفكّر أغلب وقتها في أبنائها الثلاثة الموتى، انتابها هوس بأنّها لن تُرزق بطفل قويّ يستطيع مقاومة الموت، حين ولدت زكريّا لم تصدّق أنّه أتمّ عامه الخامس، تصاب بالرعب من أيّ وعكة تصيبه، وفت بنذورها التي لم تتوقف إلّا حين أخبرتها أمينة بأنّ النذور فأل سيّئ، وزكريّا سيعيش. عاشت حياتها في الظلّ، ورثت عن أمّها نصيحتها بألّا تتدخّل في حياة آل البيازيدي، كانت تصفهم بمجموعة أشخاص يعيشون حياتهم في الدفاتر، والبشر بالنسبة للمحاسبين كائنات غير موجودة، لم يشذّ أبوها وزوجها عن إرث العائلة المولعة بالأرقام.

حين تجاوز زكريّا عامه الخامس عشر ببنية قويّة اطمأنّت، لم تصدّق حين بدأ صوته يتحوّل إلى البلوغ، وسعاد ستدخل الثانية عشرة من عمرها، شُفيت من فكرة وراثة عمّتها أمينة، لديها تعابير غريبة، لكنّها فتاة ضاحكة، تعاني من فرط خيال كما أخبرها الطبيب الذي فحصها بعد حديث رضيّة عن خلل في ملكاتها العقلية، سيكون من السهل علاجها، يكفيها العيش فترة قصيرة مع الأغبياء، ستنسى كلّ شيء وتصبح فتاة واقعيّة لا ترى النهر كقطيع فيلة تتدحرج من رأس تلّ مرتفع، في أيّامها الأخيرة كانت سعيدة حين ترى زكريّا وحنّا يسبّبان المتاعب لزوجها، لا تريد أن يشبه ابنها باقي أفراد عائلته المنضبطين منذ طفولتهم.

ترسل إدارة المدرسة في طلب أحمد البيازيدي، تتشكّى من التلميذين اللذين يحملان السكاكين في الصف، بينما مديرة مدرسة البنات تمتدح تهذيب سعاد وذكاءها، وخفّة دمها. كانت رضيّة تريد لابنها حياة مختلفة وبعيدة عن دفاتر المحاسبين الخانعين، تعتقد دوماً بأنّ المحاسبة أسوأ مهنة يمكن لشخص أن يمتهنها، تجعله مبالغاً في تقدير ذاته، كما إخوتها وأبوها وزوجها، كلهم يبالغون في امتداح الأرقام وثروات زبائنهم. لكنّ زكريّا لا يشبههم، يرمي بثيابه النظيفة في قعر الخزانة، ولا يكترث مع صديقه حنّا بكلّ الأشياء الجديدة، كانت تنظر إليه بفخر، تشعر بأنّ صحّتها جيدة ولا تحتاج للذهاب إلى أريحا لقضاء الصيف، هناك الهواء العليل يساعدها على احتمال نوبات الربو.

لم يسامح حنّا وزكريّا نفسيهما لتركها تموت وحيدة في المنزل، لم تنتبه الخادمتان أمّ الخير ومارغو إلى عدم استيقاظ سيّدتهما من قيلولة الظهيرة، إلّا حين سألت سعاد مارغو إن كانت أمّها نهضت، كانت سعاد تتحاشى أباها الغاضب بعد عودته من مكتبه، يشتم حنّا وزكريّا، لكنّ مارغو التي دخلت غرفة نوم رضيّة خرجت مذعورة، وقالت: كأنّها ميتة.

لم تصدّق سعاد أنّ أمّها ماتت، ظلّت تنتظرها كلّ يوم على درج غرفتها، يجلس حنّا قربها يخبرها بأنّها ذهبت إلى حيث أمّه، هناك ستسعد كل منهما بالأخرى. يروي لها ذكرى صورة أبيه، يضيف أنّه لا يعرف قبر أمّه، ولم يرها ميتة. بعد صمت طويل، سأل سعاد: هل الموت يجلب السعادة للبشر الأحياء، فكّرت سعاد بأنّها لا تعرف، لكن الموت بالتأكيد كذبة، يشبه لعبة «التخباية»، لا تجرؤ على القول إنّها رأت أمّها سعيدة لأنّها ستتحوّل إلى حبّة فاصولياء مفلطحة.

لم تستطع السيطرة على دموعها، رأت أمّها تعبر أرض الدار ليلة أمس. كانت تحمل كفنها الأبيض مبتسمة، احتضنها حنّا بتأثّر، وحاول زكريّا التخفيف عنها، قال لها «أنتِ أصبحت أمّنا»، هزّت رأسها موافقة، تذكّرت يوم موت جدّها قبل خمس سنوات، قالت في قرارة نفسها إنّه تحوّل الآن إلى حبّة فاصولياء كبيرة جداً، وقبل أن تنهض إلى غرفتها في تلك الليلة الحزينة، طلبت من زكريّا مساعدتها في صناعة أكبر طائرة ورقيّة، لأنّ روح أمّهما الطيّبة تستحق التحليق بألوان زاهية، يكفيها ما عاشته من بؤس مع ذكرى أبنائها الموتى.

دخل حنّا عامه الخامس عشر، وأتمّ عامه السابع من إقامته في منزل العائلة، ولم تنته معركة أحمد البيازيدي مع الكنيسة إلّا قبل أشهر قليلة، أتعبته هذه المعركة خاصّة مع وجود أقرباء غير مباشرين كانوا يأتون إلى مكتبه، يطالبون بثقة زائدة بالكشف عن الحسابات السرّية لكابرييل كريكورس وعائلته. يساومون على حصص وهميّة، ويقولون كلاماً مزعجاً، يحرّضون الكنيسة على استعادة حنّا، ووضعه تحت وصايتها في ميتم مسيحي. لكنّ أحمد البيازيدي كعادته في المعارك القاسية كان يستخدم صبره لربحها، يعتقد بأنّ الوقت يجعل أعداءك يراكمون المزيد من الأخطاء والثغرات التي يجب الانقضاض عليهم منها، وتوجيه ضربات قاتلة.

استخدم أحمد البيازيدي كلّ علاقاته للحصول على حق حضانة حنّا، الطفل الوحيد الباقي من عائلة كريكورس، لكن الأمر لم ينته إلّا مع تدخل العمّة أمينة، التي استخدمت سلطتها الخفيّة مرّة أخيرة، كتبت رسالة طويلة إلى أبي الهدى الصيّادي الذي تحوّل من درويش متصوّف يضرب على الدف ويتكسّب من صدقات الفقراء الذين يكتب لهم الحجابات، إلى رجل راغب في السلطة، بدأ ينشر نفوذه الكبير في كلّ مكان، يتقرّب من السلطان ويترقى في المناصب، حتى وصل إلى منصب شيخ الإسلام في الإمبراطوريّة العثمانيّة، وأقرب المقرّبين إلى السلطان عبد الحميد الثاني.

في رسالتها له، شرحت أمينة قصّة حنّا، وطلبت السعي في إصدار أمر من الباب العالي إلى الوالي بإنهاء إزعاج أخيها الذي فوجئ بخادم يدعوه للقاء المطران الذي طلب إنهاء مشكلة حضانة حنّا ودّياً، وإسقاط كلّ الدعاوى مقابل تعهّد يكتبه أحمد البيازيدي للكنيسة بعدم تغيير دين حنّا من المسيحيّة إلى الإسلام.

كان أحمد البيازيدي يفكّر بأنّه لن يعيش طويلاً، عمل بجدّ على تخليص أملاك حنّا من الطامعين، الجميع يريدون نهب إرثه، الأقرباء البعيدون طعنوا في حكم المحكمة الشرعيّة التي منحته صكّ الحضانة لأنّه لا يجوز منح الحضانة لمسلم في ما يخصّ المسيحيّين، حرّضوا الكنيسة على رفع القضيّة إلى الباب العالي، لكنّهم بعد ثلاث سنوات صمتوا، فهموا أنّ علاقة العائلتين متداخلة ومتشابكة، وليست علاقة ملّاك وتاجر بمحاسب ووكيل، ظنّوا في أعماقهم بأنّ أحمد البيازيدي ما زال محافظاً على مسيحيّته سرّاً رغم مضيّ أكثر من مئة سنة على تحوّل جدّه إلى الإسلام.

تفقّد أحمد البيازيدي جميع الغرف، كان الجميع نائمين، جلس إلى طاولته المفضّلة لشرب قهوة الصباح، شعر بنسمات نيسان المنعشة، عاد إلى غرفة مكتبة، لديه رسائل متراكمة من البنوك التي يستثمر فيها أموالاً ليست كثيرة لكنّها من الممكن أن تتضاعف إذا تخلّى عن حذره، يفكّر بأنّه لو كان صديقه كابرييل لا يزال على قيد الحياة، لأخبره بضرورة شراء سندات خزينة جديدة طرحتها حكومة بريطانيا، لن يتصرّف بمفرده في أمر كهذا، سيجمّد كلّ شيء لحين بلوغ حنّا العشرين من عمره، وتسليمه أمواله التي خلّص أكثر من نصفها بتهريبها، وأكثر من نصف أملاكه بمقاصّات مع الباب العالي، يكفيه ما لديه، لكنّه يجب أن يعرف مصير العشرة آلاف ليرة ذهبية التي حوّلها

كابرييل كريكورس إلى الاسترليني، وأودِعت في بنك إنكليزي منذ خمس سنوات، كانت آخر دفعة خلّصها من تصفية مستودعات صديقه في حلب، التي أنقذها كابرييل بتسجيل عقد ملكيتها باسم صديقه أحمد البيازيدي الذي كان يعاتبه في سرّه، لترك مجموعة زعران من أبناء العائلة تعبث في العلاقة مع الحكام.

موت رضيّة نخر عظمه، شعر بحزن شديد على فقدانها، كانت رفيقته الحميمة، الآن هو رجل وحيد، يتمتع بصحّة جيدة، سيقضي حياته مع الخدم، أقلقه منظر حنّا وزكريّا في النظارة وعدم اكتراثهما، إنّهما معروفان جيّداً في أحياء باب الفرج الخلفية، فكر بأنّه يجب وضع حدّ نهائيّ لهذا الفلتان، كان تفكيره مشوّشاً، وهو يسمع مشاجرات خادمته أمّ الخير مع مارغو، لا تتوقفان عن الجدال حول المسيح والنبي محمّد، تعيدان الكلام نفسه، طاقة ثرثرة هائلة تمتلكها الاثنتان، كأنّهما تعيشان في عالم منفصل عن البشر.

اقترح عليهما الانفصال والعيش كلّ واحدة في غرفة، من الممكن بناء غرفة جديدة في أرض الدار الكبيرة، لكنّهما لم توافقا، أصبحت مشاجراتهما جزءاً من حياتهما، تتدخل سعاد لحلّ مشاكلهما رغم صغر سنّها، تستمعان إليها، لكنّ أصواتهما تتعالى فجأة من جديد في جدال لا ينتهي عن الدينين. أمّ الخير لا تفوّت فرصة لتدعو مارغو إلى دخول الإسلام، تقول لها: أفكّر فيك، أريدك أن تذهبي إلى الجنّة. تستعيد مارغو ما تعرفه عن المسيح وتلاميذه، عن حياة القدّيسين، وتهمس لأمّ الخير بأنّ دخولها المسيحيّة سيجلب لها السعادة، ثمّ تكمل بصوت منخفض أنّ الأمر سيبقى سرّاً بينهما.

تصمتان لحظات قبل النوم، تتذكّر مارغو سيرة شبابها، تخبر أمّ الخير عن شباب كانوا ينتظرونها كي يحظوا بنظرة واحدة، كعادتها تختم الحديث بذكرى شابّ كردي كان يلاعب الفرس، ويطلب منها أن تهرب معه ليتزوّجا، لكنّها تقول له إن ذهبت معي إلى الخوري وأعلنت مسيحيّتك فسأهرب معك فوراً. مئات المرّات أعادت مارغو قصص شباب مسلمين، أكراد وعرب وأتراك، وقعوا في غرامها، لكنّهم لم يستطيعوا تخطّي حاجز ارتدادهم عن الإسلام وتحوّلهم إلى المسيحيّة من أجلها. تغفو الاثنتان في فراشين متجاورين، وتحدّثها أم الخير في الشتاء عن عشاقها أيضاً، تقول إنّهم كانوا ثلاثة شباب مسيحيّين، واحد منهم ابن عائلة مشهورة، تتكتّم على أسمائهم، كانوا يلاحقونها حين تخرج مع أمّها إلى السوق، ويسهرون تحت شبّاكها، تهز مارغو برأسها متفهّمة بقولها: كيف لمسيحي أن يترك دين يسوع ابن مريم، ويدخل الإسلام، تغضب أم الخير من ملاحظة مارغو التي تضحك، وتعيد قولها إنّها تمزح، تتفقان على أنّ حظّهما السيّئ جعلهما محبوبتين من شباب جميلين من دين آخر.

بعد موت رضيّة أصبحت مارغو أكثر صرامة، تنتابها الهواجس السيّئة دوماً، ما زالت تعتقد بأنّ الحفاظ على مسيحيّة حنّا شأن عظيم يستحق التضحية بحياتها. في الحقيقة كانت امرأة فقيرة لا تملك مكاناً تذهب إليه. تحلم بأنّ حنّا سيكبر ويأخذها معه ليرحلا إلى مكان آخر، تستطيع فيه تعليق صورة يسوع، وقدّيسيها الذين تجمع حكاياتهم، وفي الليل ترويها لأبناء حنّا، سيكونون عكس أبيهم الذي ربّاه مسلمون، يصيبه ملل فظيع من سيرها عن القدّيسين فيغطّ في نوم عميق، تفكّر بأنّها ستأخذ معها أمّ الخير، رغم كلّ شيء هذه المرأة قلبها طيّب، وطعامها لذيذ، تحبّ سعاد التي تنظر إليها بتعاطف، تعتني بغطاء حنّا في الليالي الشتائيّة الباردة، وفي الصباح وعلى طريق المدرسة تخبرهما بأنّ مارغو سعيدة جداً لأنّها أخبرتها بأنّها رأت يسوع يحوم في الغرفة ليلة أمس حول حنّا، ينظران إليها، يسألها زكريّا: حول حنّا فقط؟ تجيب نعم، يصمتان، يفكّران بأفكارها الغريبة

التي أدخلتهما سراديب غير متوقعة، لكنّهما يملكان الكثير من القصص الشرّيرة، لا يستطيعان إخبار سعاد عنها، اتفق الاثنان على كتمانها.

كبر الاثنان، يشعران بحيوية زائدة، يعجبهما اللهو، جمعهما حبّ الأذى، لا يصدّق أحد أنّ مراهقين لديهما كلّ هذه الأفكار الشرّيرة، يقضيان وقتاً طويلاً ينظران بشغف إلى رموش سعاد الطويلة، يفكّران برميها في المقلاة الكبيرة، ويتحدّثان عن تعليقها في حبل بئر المنزل، يخرجان ليلاً فقط للسير من حارتهما الجديدة إلى الفرافرة، يقرعان باب منزل أهل وليم عيسى، ويعرجان إلى حارة باب النصر حيث منزل عازار إستنبولي، ويخرجون كأربعة ذئاب جائعة، يفكّرون ما الذي يجعل من حياتهم في هذه المدينة حكاية من الصعب نسيانها.

لم يكن حنّا وزكريّا يكترثان بقصّة ديانتهما، إذا سئلا كان حنّا يجيب أحياناً بأنّهما مسيحيان، وأحياناً مسلمان وابنا عائلة البيازيدي، لا يعترض زكريّا ولا يصحّح المعلومة. في شوارع باب الفرج الخلفيّة وجدا ضالّتهما، كان عازار ووليم عيسى يخافان من أفكارهما الشرّيرة. حين طردهم صاحب مقهى الجميليّة ولم يقدّم لهم القهوة لأنّهم صغار توعّدوه بحرق المقهى، لكنّهم تناسوا الحادثة بعد أيّام، حين قادهم وليم عيسى إلى بيت دعارة في حيّ النيال، كانوا في السادسة عشرة، وليم يكبرهم بسنة، تصرّف كقائد لهم، وهمس لجميلة بأنّهم لأول مرّة سيجرّبان سحر الجنس. كانت نظرة جميلة الخبيرة تقول بأنّ شأناً كبيراً سيكون لهؤلاء الزعران الأربعة الذين انتشرت حكايتهم مع هدى شمعون اليهودية في المدينة.

قادتهم إلى فتيات جميلات، همست لهنّ بأن يعتنين بزبائنهنّ الدسمين، كانت جميلة تعرف هويّتهم، اعتنت الفتيات بزبائنهنّ الأربعة الذين لم يكن لديهم المال. وليم عيسى وعد جميلة بأنّ حسابها سيصل إليها أضعافاً مضاعفة، لكنّها لم تحتمل حين فتحت الباب، ووجدتهم للمرّة الرابعة واقفين يطلبون رؤية صاحباتهم، طردتهم وفي اليوم التالي دخلت إلى مكتب أحمد البيازيدي في البنك، قدّمت له فاتورة حساب عشاء ومبيت ثلاث ليالٍ كاملة مع أربع فتيات، دفع أحمد البيازيدي وترك بخشيشاً جيّداً لجميلة، وقبل أن تخرج هدّدها إذا استقبلتهم مرّة أخرى بحرق منزلها، مضيفاً أنّه يعرف أنّ ضابطاً تركيّاً كبيراً يرتاده دائماً. أكملت جميلة طريقها إلى منزل أهل عازار، تحدّثت مع أبيه حاييم إستنبولي، الذي انتظر عودته ليلاً، علّقه من رجليه في سقف الغرفة، بصق عليه وكانت كلماته ترنّ في أذنه، من يدرس بأموال المحسنين لا يحق له ارتياد بيوت الدعارة، ضربه بقوّة، وسجنه ثلاثة أيّام في غرفة مؤونة الميتم، حلق شعره وخيّره بين الابتعاد عن أصدقائه الآبقين أو هجر المدرسة.

لم تفهم سعاد أيضاً غضب أبيها في تلك الليلة. كلّ شيء انتهى كما الكثير من الورطات التي اضطرّ فيها للتدخّل شخصيّاً واستخدام نفوذه لحلّ المشكلة، لكنّه في تلك الليلة كان مختلفاً، صارماً، وهو يشير إلى تفاصيل فاتورة جميلة التي كتبت بند الخمر بالتفصيل، نظر زكريّا ببراءة إلى أبيه وقال إنّها مجرد زجاجة، وصمت. حين تهرّب عازار في الأيّام التالية من أسئلة سعاد، فهمت أنّهم يخفون عنها سرّاً كبيراً، لكنّها انشغلت بصديقها عازار ومواساته، كان يبكي وهو يودّع أصدقاءه الثلاثة لأنّه لن يستطيع رؤيتهم، إلّا أنّه كان يعود في اليوم التالي لمواعدتهم كعادته.

فوجئ الجميع بأنّ أحمد البيازيدي أحضر معماراً لبناء جدار، فصَلَ غرفة حنّا عن باقي البيت، لا يجوز لشابّ العيش في منزل تعيش فيه فتاة في طريقها لتصبح مراهقة، لكنّ الحقيقة أنّها كانت خطوة استباقية من أحمد البيازيدي للتخلّص من ثرثرة نساء عائلة البيازيدي، والمشايخ الذين كانوا يوقفونه ويسألونه إن كان فعلاً حنّا المسيحي أخاً لولديه. لم تعجبهما الفكرة في البداية، لكنّ زكريّا

وحنّا وجداها فرصة كبيرة للتحرّر من المنزل، وتمنّيا لو كان المنزل بعيداً عن منزل العائلة. لم تقتنع سعاد بهجرهما، تراهما يبتعدان عنها ويتكتّمان على أسرارهما، لكنّها تلاحقهما ولا تتركهما يغيبان عنها، كانت تذكّرهما بأنّها أمّهما الآن، يضحكان ويشعران في لحظات بأنّها فعلاً تعيش دور الأمّ كاملاً.

بعد سنتين اخترع زكريّا وحنّا قصّة لسعاد بأنّهما يفكّران في السفر إلى باريس، والعيش هناك. وأضاف حنّا أنّهما يعرفان التركيّة، وسينضمّان إليها في صفّ المدام كلود لتقوية لغتهما الفرنسيّة. سعاد انتظرتهما عصراً لمرافقتها إلى دروس المدام كلود التي كانت تجمع فتيات عائلات غنيّة في بيتها الواسع في العزيزية، الحيّ الجديد الذي بدأ بالنموّ سريعاً، تعلّمهن اللغة الفرنسيّة وأصول الإتيكيت الأوروبي الذي أصبح موضة بين فتيات العائلات الغنيّة. انتظرتهما طويلاً وغضبت لأنّهما كذبا عليها. الاثنان كانا يستعدّان لمغامرة جديدة بعد وصولهما إلى مفتاح صندوق قطع رضيّة الذهبية التي أوصت بها لسعاد قبل موتها، وحفظها أحمد البيازيدي في إحدى الخزائن مع دفاتره الثمينة، أخذا ثلاث قطع ذهبيّة كبيرة، وساعدهما وليم عيسى في إقناع عمّه الصائغ بشرائها بنصف الثمن.

طلب حنّا من وليم عيسى حجز منزل جميلة ليلة كاملة، اعتذر عازار منهم، كانت الكلمات عن العيش بأموال المحسنين تجرحه، اتفقوا على أنّهم ثلاثتهم سيتشاركون الفتيات الخمس اللواتي يعملن في منزلها. اتفقوا معه على عدم إفصاحه عن هويّة الزبائن. قرعوا باب منزل جميلة التي نظرت إلى وليم عيسى غاضبة. طردتهم لكنّ زكريّا لم يسمح لها بإغلاق الباب، دخلوا وكانت رائحة البخور والعطور تفوح من المنزل، طلبت منهم الدفع سلفاً والتكتّم، دفع زكريّا لها وترك لها بقشيشاً كبيراً مقابل الموسيقي الذي تكفّلت بدفع أجرته. كانت جميلة تفكّر بأنّهم زبائن دسمون، شباب طازجون وأبناء عائلات مرموقة وقعوا في هوى الشراميط، إنّهم ثروة لأيّ بيت دعارة سرّي في هذه المدينة، اعتذرت على ذهابها إلى مكتب أحمد البيازيدي، ولم تخبرهم بتهديده الذي لم تأخذه على محمل الجدّ.

اكتشف الثلاثة شغفهم بعيون العاهرات الوقحة، بروائح غرفهنّ المعطرة، رقصت الفتيات وغنّين مع زبائنهنّ كأصدقاء، اكتفى وليم عيسى بفتاة واحدة مارس معها الجنس على عجل واضطرّ للمغادرة. لم يكن يستطيع المبيت خارج المنزل الذي فرض عليه أبوه نظاماً صارماً. كان يخاف من الفوضى التي تسود أحياء المدينة ليلاً، بينما حنّا وزكريّا قرّرا قضاء ليلتهما كاملة في أحضان الفتيات اللواتي توقّعن لهما شأناً كبيراً مع النساء.

كانت المرّة الأولى التي يمارس فيها حنّا وزكريّا الجنس بتهتّك شديد، حرّرهما من الطفولة، نسيا أحمد البيازيدي الذي لم ينم ليلتها وهو ينتقل بين منزله وغرفة حنّا الذي تقاسمها مع زكريّا. تشمّم رائحة الخطر، فجراً خرج من منزله، وذهب إلى دار الولاية، عرفه الضابط التركي المناوب وتفهّم طلبه، أرسل معه عشرة جنود، حين وصلوا إلى منزل جميلة كان حنّا وزكريّا غارقين في سكر شديد، جرّبا الجنس مع كلّ فتيات البيت، لم تحتمل جميلة التعب ورغبتهما في المزيد، تركتهما ودخلت إلى غرفة نومها. هبّت بفزع حين سمعت قرع الباب بإلحاح، فتحت الباب، رأت أمامها أحمد البيازيدي، فتّش الجنود المنزل، اعتقلوا الفتيات وجميلة، ارتدى حنّا وزكريّا ملابسهما بصعوبة، ركبا العربة غير مكترثين. استيقظا متأخّرين، شعرا بأنّهما قد وُلدا من جديد ليلة أمس، لم يعودا طفلين صغيرين، ألّف حنّا حكاية لسعاد بأنّهما قضيا ليلة أمس في مزار باب النصر، تطهّرا روحياً، وأنشدا مع المنشدين قصائد تمتدح الرسول، أثنت عليهما، وقالت لهما إنّ صديقتها في

صفّ المدام كلود ابنة موسيقيّ كبير، يستطيع تعليمهما الموسيقى. كانا يستمتعان بتأليف الحكايات الغريبة لسعاد التي تصدّقها ببراءة.

جلس أحمد البيازيدي إلى طاولة الغداء كاتماً غضبه، حنّا وزكريّا يتناولان الغداء غير مكترثين، سأل أحمد البيازيدي ابنه زكريّا فجأة إن كان يريد أن يرث مهنة المحاسبة، ونظر بقسوة إلى حنّا، سأله إن كان يريد أن يصبح موظفاً في البنك، مضيفاً أنّها بداية ضروريّة لحياته، وإدارة أملاكه، أجاب الاثنان بكلمات قليلة بأنّهما يفكران في مستقبل مختلف.

وقف ونظر في عيونهما وقال إنّه لن يسمح لهما بهدم حياتهما، تصاعد غضبه وأكمل أنّهما سيلتحقان بالجيش، كرّر أنّه سيطلب من الوالي إرسالهما مخفورين إلى المدرسة الحربية في إستنبول. بعد أسبوع دخل أحمد البيازيدي إلى غرفتهما، طلب منهما تحضير حقائبهما ليسافرا بعد ثلاثة أيّام للانضمام إلى المدرسة الحربيّة، مكرّراً أن أمر الموافقة على انضمام حنّا لم يكن سهلاً، فالمدرسة الحربيّة لا تقبل المسيحيّين بين طلابها، ودخل لينام قليلاً. حين استيقظ من قيلولته لم يجدهما، كانت سعاد تبكي بحرقة وتردّد أنّهما ذهبا إلى باريس، ترجو أباها أن يرسلها إلى باريس لتكون قريبة منهما، كانت تردّد أنّهما لا يتحدّثان الفرنسيّة جيّداً، وبدونها سيضيعان في المدينة الكبيرة.

وهما يغادران حلب لم يفكر حنّا وزكريّا كثيراً أو يخطّطا لأيّ شيء، رتّبا كلّ شيء على عجل، شعرا بجدّية تهديد أحمد البيازيدي، الكثير من العائلات الغنيّة كانت ترسل أبناءها إلى هذه المدرسة الحربيّة لتحمي نفوذها وتعلّمهم القسوة. كان في جيب حنّا رسالة توصية، طلبها لهما عازار من هدى شمعون التي تزوّجت نائب القنصل الإيطالي سيمون جيوفاني، وتتابع أخبار عشّاقها الأربعة بكلّ شغف.

احتاط زكريّا للأمر، سرق ما بقي من ذهب في صندوق أمّه، لم يكن كثيراً لكنّه سيساعدهما على العيش في أيّ مكان لسنة على الأقل. فكّرا بأنّهما إذا بقيا في أراضي الإمبراطوريّة العثمانيّة فسيصل إليهما أحمد البيازيدي حتى لو عاشا تحت الأرض، أكملا طريقهما إلى بيروت، ركبا سفينة شحن متّجهة إلى البندقية، حصلا على تسهيلات كبيرة حين أبرزا توصية نائب القنصل الإيطالي لوكيل السفريّات، شك في أمرهما أول الأمر، لكنّ التوصية جعلت منهما زبونين محترمين كأنّهما في مهمّة غامضة تخصّ الحكومة الإيطاليّة. ولم يصدّقا حين أبحرت السفينة، أنّهما في عرض البحر، لا يعرفان ماذا سيفعلان في البندقيّة. دعاهما الكابتن إلى عشاء خاصّ مع نخبة من الركّاب، سألهما عن علاقتهما مع نائب القنصل الإيطالي، أجاب حنّا: «صديق عائلة» وصمت. الغموض الذي تعاملا به مع وكيل السفريّات أعجبهما، تناولا العشاء وشربا نبيذاً قال الكابتن بفخر إنّه من توسكانا. جاملا بقيّة المدعوّين ونهضا مستأذنين الجميع، الذين تحدثوا عن غموض هذين الشابّين طوال الرحلة. فكّرا بأنّهما الآن غريبان يجب أن يحترسا جيّداً، في الوقت نفسه كانا يشعران بسعادة غامرة وهما في طريقهما إلى المجهول.

كان زكريّا وحنّا يقتربان من الثامنة عشرة من عمرهما، زكريّا طويل القامة، عريض الكتفين، الذي يراه للمرة الأولى يظنّه مصارعاً، شارباه مفتولان، أسمر. وحنّا نظراته هادئة لكنّها ثاقبة، مربوع القامة، شعره ناعم، وبشرته بيضاء. زيادة في غموضهما، كانا يرتديان الطقم نفسه، ما يوحي بأنّهما أخوان ولو أنّ أيّاً منهما لا يشبه الآخر. منذ اللحظات الأولى لمغادرة الباخرة الميناء، عرفا أنّ البحّارة سيبحثون عنهما، ويجب أن يُفهماهم أنّهما ليسا طعماً سهلاً. اخترعا تاريخاً شخصيّاً جديداً، ساعدتهما لهجتهما الحلبيّة، تقاسما الذهب في ما بينهما احتياطاً، علّمتهما تجربتهما

في أحياء باب الفرج الخلفيّة عدم الثقة بالمسافرين. تقمّصا شخصيّة شابّين في مهمّة، وأدّيا أحياناً دور ساذجين فقيرين يعملان لمصلحة رجال آخرين. لم يغيّرا بذلتيهما طوال الرحلة، احتفظا بالذهب بزنّار جلدي ملفوف على خصريهما، شكرا الكابتن الذي كان يعتني بهما، وابتعدا عنه. مرّت الرحلة بسلام، رغم تعرّضهما مرّتين لمحاولة سرقة، تشاجرا مرّة مع أحد السكارى الذي اتّهم زكريّا بأنّه تحرّش بزوجته، أخرج من جيبه سكّيناً حادّة وهجم على زكريّا الذي تفاداه. لم يكن من الصعب السيطرة على السكّير، في اليوم التالي ذهب حنّا إليه وكان يجلس منكسراً في الزاوية، عرض عليه مشاركتهما الإفطار، وجدوه رجلاً طيّب القلب من بغداد، هارباً من ثأر عشائري، تفاهم الثلاثة وتبادلوا الاعتذار. قضى السكّير الأيّام القليلة الباقية للرحلة مخموراً يحدّثهما عن حياته في بغداد، يتحاشى الحديث عن زوجته التي كانت لا تخرج إلّا قليلاً من كابينها، يتحاشى زكريّا النظر إليها وحنّا يمازحها، كان الرجل غير راغب في هذه السفرة، كان الوداع ثقيلاً على حنّا وزكريّا، أحبّاه كثيراً وتمنّيا له رحلة سعيدة إلى أميركا.

وصلا إلى البندقيّة، كانت المدينة تعجّ بالبشر، لم يضيّعا وقتهما، استأجرا غرفتين في أحد فنادق ساحة «سان ماركو» قريباً من الكاتدرائية، وقضيا الأشهر الستة الأولى متنقلين بين غرف الفنادق والمنازل المؤقتة، قدّما نفسيهما كتاجري خيول، لا يفهمان شيئاً في أصولها وأنواعها، لا يعرفان الفرق بين البغل والحصان، لكنّها أقلّ وطأة من مهن أخرى. بقي زكريّا لسنوات يتذكر حكايتهما مع سارق خيول غجري عرض عليهما أحصنة أصيلة مسروقة من إصطبل مزارع غنيّ في توسكانا بنصف السعر بشرط شحنها إلى حلب، تفحّص زكريّا الخيول الخمسة، دار حولها كخبير، فتح شفتي الحصان ليتأكد من عمره، وتفاهما بنظرة واحدة أنّ الصفقة لا تناسبهما، متذرّعين بأنّ الأحصنة ليست أصيلة، أخرج الغجري إنجيلاً من جيبه وأقسم لهما بأنّها أصيلة لكن أوراق نسبها ضائعة، غادر الاثنان المستودع المليء بالمسروقات، متمنّيين مساءً سعيداً لعائلة لصّ الخيول.

حام السماسرة حولهما، كانا يقضيان وقتهما البطيء بمتعة، يتصرّفان كتجار خيول، غير مستعجلين على عقد صفقة كبيرة. تحدّثا إلى السماسرة، وذهبا لمعاينة خيول في إصطبلات عائلات كبيرة وأمراء من عصور غابرة على حافة الإفلاس، تناولا طعام الغداء إلى موائد دوقات المدينة، تحدّثا في السياسة بفرنسيّة ضعيفة لكنّها كانت مفهومة، وفي الليل كانا يضطجعان مع العاهرات اللواتي أحببن كرمهما، وكسلهما ومزاجهما المنفتح على الضحك وتذوّق المتعة.

كتب لهما عازار أنّه في الطريق إلى روما، وسيصل إلى البندقيّة بعد أسبوعين، فكّرا بأنّ بقاء وليم عيسى وحيداً في حلب سيقضي على حلمه بأن يصبح رسّاماً كبيراً، كتبا له رسالة يطلبان منه القدوم بأيّ وسيلة، هنا يستطيع العمل على مشروعه كرسّام، يستطيعان حجز تذكرة له، طلبا منه التجسّس على أحمد البيازيدي، وإبلاغهما أخباره، حدّثاه عن المدينة الساحرة، وأرسل له زكريّا رسماً لهما في ساحة سان ماركو بتوقيع رسّام جوّال، رسمهما مقابل وجبة في مطعم صقلي.

تسلّم وليم عيسى الرسالة ولم يصدّق، دمعت عيناه فرحاً، لكنّه فكّر بأنّهما في عالم آخر، لقد تسلّم وظيفة في معمل الحاج صبحي المفتي بواسطة أبيه ميشيل عيسى خبير الصباغة في المعمل نفسه، كتب لهما أنّه ينتظرهما، أوصى بعازار الذي غادر حلب وسيصل إليهما بعد أيّام قليلة، حدّثهما عن عمله في المعمل، عائلته تعتمد عليه في مصروف المنزل، لكنّه قد يذهب إلى إستنبول أو مانشستر مُكلفاً بمهمّة من معمله، لم يجد كلاماً كثيراً، تحدّث عن فتاة مسيحيّة يفكّر في خطبتها، لكنّه أضاف أنّها مؤمنة أكثر من اللازم.

لم يصدّقا عيونهما حين فتح حنّا الباب، كان عازار يحمل حقيبته واقفاً أمامهما، لم يصدّق زكريّا أنّ أحمد البيازيدي يعرف مكان وجودهما، وأنّه بثّ إشاعة تتداولها كلّ المدينة بأنّهما يدرسان الفنّ في البندقيّة.

لم يسألا أحمد البيازيدي يوماً عن حقيقة معرفته بمكانهما، لكنّهما صدّقا ما قاله عازار بأنّه مطمئنّ إلى وجودهما في البندقيّة، مضيفاً أنّ من الطبيعي لرجل مثله أن يعرف مكانهما. رحّب الاثنان بصديقهما الأثير، أقاما على شرفه حفلة صاخبة في أحد البيوت التي يرتادانها، قدّما له الفتاة البرازيلية التي كانت ستصبح من نصيب حنّا تلك الليلة، أعجب بقوامها، وثدييها، وقوّة نظراتها. عاش الثلاثة شهراً كاملاً معاً قبل التحاق عازار كطالب هندسة عمارة في مدرسة روما، وغرقه في عالمه الجديد الذي سحره. بقي زكريّا يخفي نموّ الشغف في قلبه بالأحصنة، امتلكت قلبه تلك المخلوقات الرائعة، تعلم الكثير من العمّ إدريس السائس الليبي الذي يقطن المدينة منذ ثلاثين سنة، يعمل في إصطبل الدوقة كاترين غيوماني التي أحبّت عبثهما، حدّثتهما ساعات طويلة عن شغفها بحلب، لكنّهما عرفا سرّ اهتمامها بهما حين أخرجت رسالة من مصنّف على مكتبها، كانت رسالة جوابيّة من هدى شمعون، تمتدحهما وتمتدح عائلتيهما، وتطلب من الدوقة العناية بهما.

كان الحاج إدريس كريماً مع زكريّا، شرح له بالتفصيل الفرق بين أنواع الأحصنة، طريقة معرفة أعمارها، وأنسابها. أخبره بأنّ العرب حين كانوا يخسرون خيولهم في الغزوات والمعارك كانوا يرسلون للمنتصر «الحجّة» كي لا تضيع أنساب الخيول. لم يكذب زكريّا وحدّث الحاج إدريس بكلّ شيء، اعترف له بشغفه الجديد، وفكرته أن تكون الأحصنة مهنته. شجّعه الحاج إدريس على المغامرة بإتمام أول صفقة وقال له: «تذكّر أنّ الأحصنة لا تحبّ البخلاء والحذرين ولا يمكن وجودها في منازل المرابين»، الجمل التي حفظتها شاها في ما بعد دون أن تعرف معناها.

قضى حنّا وقته في التجوال، يسير لوقت طويل في حقول الزيتون والكروم. يركب العربة ويهيم طوال أيّام، كان يشعر بصفاء داخلي كبير حين يكون خارج المدينة المزدحمة. بعد ستة أشهر من إقامتهما في المدينة، استأجرا منزلاً كبيراً، وخادماً يتقن العربيّة، يسهّل أمورهما، لم يعودا يشعران بغربتهما، لديهما أصدقاء يشاركونهما عبثهما، يقيمان حفلات صاخبة في منزلهما. سافرا إلى روما، وفلورنسا، وصقلية، قضى عازار أغلب عطلاته بصحبتهما، كان مشغولاً بدراسته بكلّ جدّية كما هي عادته، لم تتوقف رسائل وليم عيسى، يحدّثهما عن حلب، ومشاريعه المقبلة، سخر من الفتاة التي كان سيخطبها، لكنّه قال إنّه سيقوم بأول رحلة له إلى إستنبول لمتابعة مشاريع تخصّ معمل الحاج صبحي المفتي.

كانت البندقية أول الأمر مدينة عابرة لرجلين هاربين، يعيشان دون أيّ هدف، اكتشف زكريّا فيها شغفه بالخيول، وحنّا عاش لحظات أليمة قضاها متذكّراً سعاد، لا تفارقه صورتها، لم يصدّق أنّها الفتاة الأكثر حضوراً في ذاكرته، يراها في مناماته، وحين يجول في الحقول القريبة أو في الشوارع المتداخلة مع القنوات المائيّة يرى صورتها في كلّ مكان. فكّر حنّا بأنّ العيش في هذا المكان لفترة طويلة سيحوّله إلى رجل يائس. يقضي زكريّا أغلب وقته مع العمّ إدريس في سوق الخيول، يتعلّم عن الخيول وعاداتها وأنواعها، عالم من البهجة فتح له أبوابه، يعود مساءً منهك القوى، ويحدّث حنّا عن الفرق بين الأحصنة الإنكليزيّة والعربيّة، بينما حنّا غير مكترث، يبحث عن ذاته، ويقترب كلّ لحظة من فكرة أنّه سيقضي عمره باحثاً عن الملذات التي لن تنتهي بالتأكيد، يصيبه إحباط شديد حين يكتشف أنّه بعد مغادرة المرأة لفراشه لا يطيق عودتها مرّة أخرى.

وصورة سعاد لا تتركه، بقيت آخر صورة لها ثابتة في ذهنه، فتاة بلغت فجأة، وتكوّر نهداها في غفلة من الزمن، تنام على سريرها، ومن فتحة الباب المواربة رأى صدرها المكشوف، وصورتها وهي واقفة في أرض الحوش تسقي النباتات وترخي جدائل شعرها. كان اختلاط صور سعاد بصور فتيات عابرات يزعج حنّا، يسبّب له شعوراً بالعار.

يستأجر جندولاً ويدور في أزقة المدينة المائيّة، يخرج إلى القرى القريبة، يسير في أزقتها، يبحث عن معنى لحياته، لقد اكتمل نموّ جسده، وشعر بثقله. يفتقد زكريّا الذي يقضي أغلب وقته مع الحاج إدريس، يعلّمه كيفيّة العناية بالأحصنة الأربعة التي ربحها في صفقة قمار، لكنّه كذب وقال للحاج إدريس إنّه اشتراها من إصطبل في فلورنسا، كانت أحصنة جيدة، لكنّها لا تحمل علامة سلالة نادرة كالأحصنة التي كان الحاج إدريس يتحدّث عنها بشغف، تعلم زكريّا علفها، وعلاجها من أمراض خفيفة قد تصيبها.

تجرّأ زكريّا وقرع باب إصطبلات شهيرة كتاجر خيول، أصيب بالصدمة حين جال به الحاج إدريس في إصطبلات الدوقة كاترين غيوماني بعد السماح له، كلّ شيء هنا بدا مختلفاً، إنه فندق فاخر للأحصنة وليس إصطبلاً، كان في تلك اللحظة يفكّر بأنّه سيفعل الشيء ذاته لدى عودته إلى حلب، بينما اكتشف حنّا شغفاً جديداً، يقضي ساعات طويلة في كاتدرائية سان ماركو، يجلس وحيداً وينظر إلى السقف، ثمّ يعود مرّة أخرى ويصلّي مع المصلّين، لا يتحدّث مع أحد. فكّر للمرّة الأولى بالمسيح الذي كانت تحاول مارغو رسم صورته كملاك وحارس للأطفال الأبرياء. فكّر في تلك الأسابيع القليلة كثيراً في اختلاف الأديان ودلالاته، جال في رأسه سؤال وحيد: ماذا لو عاش البشر دون أديان وآلهة؟

رغم شغف زكريّا الجديد، والحفلات الصاخبة، وتجوال حنّا في حقول القرى المحيطة بالبندقية و«بادوا»، وتحدّثه لساعات طويلة مع الفلّاحين ومشاركتهم الصلاة أحياناً كمسيحي كاثوليكي مؤمن، رغم قلقه الذي بدأ يكبر كلّ ليلة، وأسئلته التي لم تتوقف عن معنى الأديان والتسامح، ورؤيته لمعاصر زيت الزيتون، ومحاولة فهمه الفرق بين أنواعه، رغم حياتهما الصاخبة وشعورهما بأنّهما لم يعودا كما كانا يوم وصولهما إلى البندقية، كانا في أعماقهما دون طموحات، يعتقدان بأنّ الحياة عبث متواصل، فكّرا أنّ عليهما، إذا قرّرا العيش هنا وقتاً أطول، ترتيب أمور حياتهما بطريقة مختلفة. تلقيا رسالة من وليم عيسى يخبرهما أنّ عمله انتقل إلى إستنبول، دعاهما لزيارته، لكنّهما قررا العودة إلى حلب، مضت سنة وتسعة أشهر على غيابهما، إنّه وقت طويل، اشتاقا إلى سعاد، والمنزل، والمدينة. ستنتهي قطع الذهب بعد أسابيع قليلة، خطّطا لحياتهما المقبلة بهدوء، تجاوز حنّا العشرين ويستطيع الحصول على أملاكه إن أقنع أحمد البيازيدي بأنّه شابّ جادّ يستطيع الحفاظ على ملكيته، استبدّ بأعماق زكريّا شغف الخيول، اكتشاف تلك الكائنات وطباعها كان سحراً غامضاً لا يمكن وصفه، سيبقى يتذكّر معلمه الأول الحاج إدريس، لن ينسى كلماته الهادئة يخبره بأنّ من يعيش مع الخيول يصبح شبيهاً لها. صور العنفوان والكرم والقوّة تغري شابّاً مثل زكريّا، والأهم تبعده نهائياً عن المحاسبة، مهنة عائلته التاريخيّة.

كان حنّا قد خطّط لحياته، لن يتوقف عن الأسئلة، ولأنّه لا يمتلك أيّة أجوبة سيعيش ثملاً، مخموراً بين أحضان النساء، لا شيء يعادل لذة الانطفاء بين ذراعي امرأة. لم يفكّرا كثيراً برقابة أحمد البيازيدي، سيعيشان في بيوت مستقلة، سيتدبّران أمور حياتهما. في أعماقه كان زكريّا يعرف أنّ الفكاك من العائلة ليس سهلاً لكنّه ضرورة. في لياليهما الأخيرة في البندقية تحدّث الاثنان لساعات طويلة عن مستقبلهما، فكّرا بأنّها المرّة الأولى التي يتحدّثان فيها كرجلين ناضجين،

وصورتهما الجديدة كانت بالنسبة إليهما مثقلة بأحزان وداع الطفولة التي بدأت تصبح بعيدة، لقد حفرت فيهما أيّام البندقية أشياء لا يمكن نسيانها، سيبقى الاثنان لزمن طويل يتذكّران أيّامهما في هذه المدينة التي لم تستطع أن تغريهما بالبقاء لكنّها حوّلتهما إلى كائنين مختلفين عن الشابّين اللذين وصلا إليها، كانا متعلقين بطفولتهما ويعتبران الضحك مهنة. فكّرا قبل اتخاذ قرار عودتهما، في قضاء بقيّة عمرهما بعيداً عن حلب لكنّهما شعرا بالرعب لمجرّد التفكير، كان حنّا متحمّساً أكثر من زكريّا الذي بدأ ينسجم مع تجّار الخيول، تكتّم على شوقه لسعاد التي لم تتركه صورتها لحظة واحدة.

في طريق العودة لم يخافا من أيّ شيء، بقيت معهما قطع ذهبية قليلة لا تغري السارقين، وهما أكثر خبرة في التعامل مع البحّارة والمسافرين، قضيا أغلب الوقت بتذكّر دهشتهما وسعاد ترمي مفرداتها الغريبة بهدوء، وبعد مجاراتها يتذكّران تصديقها لكلّ حكاياتهما الغريبة، الكاذبة التي ألّفاها خصّيصاً لها.

اشتاقا إلى حلب التي وصلا إليها مساء يوم خريفي من عام 1892، فتحت سعاد الباب، صعقتهما المفاجأة، أصبحت سعاد صبيّة جميلة تقترب من عامها السابع عشر. قوامها طويل، احتضنت زكريّا بقوّة، وارتبكت حين سلّمت على حنّا كامرأة غريبة، وانتبهت إلى الحصانين اللذين تذكّرهما زكريّا، استأذن وغاب لساعتين، وضعهما في خان للدواب ريثما يجد مكاناً يليق بهما.

بقي حنّا في أرض الدار غير مصدّق ما حدث، تنظر إليه سعاد نظرات حارّة، إنّها فتاة مختلفة لا تشبه سعاد القديمة التي كانت في طور النموّ، كانت في تلك اللحظة أجمل فتاة يراها في حياته، مارغو تحتضنه، تحدّثه بالسريانيّة، لا يفهم حنّا لماذا كانت تحدّثه بالسريانيّة، تركتهما سعاد وانسحبت إلى المطبخ، ستعدّ القهوة، ولديهما وقت طويل لتحدّثهما عن السنتين الماضيتين.

في طريقها إلى المطبخ، شعرت بنظراته تخترقها، اشتعل جسدها، ارتبكت، أغلقت باب المطبخ وبكت بقوّة، تمهّلت في صنع القهوة، تريد أن تعطي نفسها فرصة لتصديق ما حدث، عودتهما كانت حقيقة. حنّا يقف في أرض الدار يتحدّث مع مارغو بالسريانيّة ويمازح أمّ الخير بصوت عال.

عاد زكريّا مبتهجاً بوصول حصانيه الثمينين اللذين اشتراهما بواسطة الحاج إدريس من تاجر خيول لا يبيع هذه السلالات عادة، تسامح مع زكريّا مقابل وعد بأن يهرما في إصطبلاته، أضاف أنّه يليق بهما عشب حلب الطريّ، والعيش في مدينة عظيمة بعيداً عن خفّة البندقية التي احتلها التجّار الغرباء.

كانت سعاد تعرف أنّهما لن يتأخّرا أكثر في العودة، أخبرتهما عن منع تداول سيرتهما بأمر من أبيها الذي احتضنهما بحرارة بمجرّد أن رآهما أمامه، متناسياً تحذيراته السابقة للخادمتين وسعاد بعدم ذكرهما أمامه، تعاطى معهما كصديقين، بعد أيّام قليلة طلب من الكنيسة إرسال شاهد إلى مكتب المحامي لحضور تسليم الملكيّة، واحتفظ بحق الإدارة. خاف من طيش حنّا، تمّت الإجراءات بهدوء، لكنّ المدينة تحدّثت طويلاً عن كلّ التفاصيل. اصطحبه في جولة طويلة على أملاكه التي استطاع تخليصها من السلطات في مساومته الشهيرة. وحين وصلا إلى أرضه الكبيرة في قرية حوش حنّا على ضفة نهر الفرات، فكّر حنّا بأنّها مكان مناسب للعيش، أشار بيده أن هنا سيكون بيته الكبير، وقربه بيت زكريّا، وبينهما إصطبل خيوله. لحظات قليلة رأى في حوش حنّا قرية كبيرة وليست مجرّد مزرعة مؤلفة من ستة بيوت يقطنها أبو ماريانا وعائلته الذين يعملون فلّاحين في أراضي أبيه. حافظ أبو ماريانا على صفته كوكيل. قضى الاثنان ليلة في ضيافته. لم تكفّ ماريانا عن مراقبة حنّا مندهشة، حققت حلماً بعيداً، تسمع باسمه كلّ يوم مصحوباً بإشاعات لا

تنتهي، من إسلامه إلى هروبه مع عاهرة حلبيّة إلى إيطاليا، إلى جنونه، وسجنه لتهتّكه. لم يكن وجهه يوحي بكلّ هذه القسوة التي يتحدّث بها أعمامها الفلّاحون. كانت في السابعة عشرة من عمرها، تبدو امرأة ناضجة، تعلمت القراءة والكتابة في مدرسة افتتحها الخوري في كنيسة قرية المعزوزة التي تبعد عن حوش حنّا بثلاثة كيلومترات، كانت ماريانا تسيرها يومياً للوصول إلى المدرسة.

وفي الطريق تحدّث الاثنان بكلّ حرّية، كان أحمد البيازيدي يريد التعرّف إلى حنّا الجديد، كان عاطفيّاً ومتأثّراً، وعده حنّا بأنّه لن يعصي أوامره وقال دون مواربة إنّه يعتبره أباً له. حدّثه عن تجربتهما بحرّية كاملة، لم يخف ولعه بالنساء، تحدّث بالنيابة عن زكريّا، طلب منه التخلّي عن حلمه بتوريثه مهنة المحاسبة، يستطيع التخلّي عن العرش لأحد أبناء أخيه المولعين باستمرار إرث العائلة، مضيفاً أنّ زكريّا عشقته الأحصنة وعشقها، أضاف أنّهما اقتسما شغف الزراعة والأحصنة، طلب منه التصرّف بالسيولة النقديّة كما يرغب، مضيفاً بضحكة خجولة أنّهما سيعيدان الذهب إلى سعاد مضاعفاً.

شعر أحمد البيازيدي براحة كبيرة، لقد انتهى قلقه، خطّط لتوزيع السيولة النقديّة التي لم تكن كبيرة، رأى في حياته الكثير من الملّاكين المغامرين وأبناء العائلات الغنيّة الذين أفلسوا وعاشوا فقراً مهيناً. كانت الحياة بالنسبة له مجموعة حسابات لا تنتهي، يرعبه الفقر، زبائن كثيرون يعرفهم عاشوا شيخوخة مؤلمة، ذليلة. تهدّج صوته وهو يحدّث حنّا عن طعم الفقر المذلّ، وفي الوقت نفسه يحدّثه عن قيمة الطموح، ودوماً يردّد مديحه للملكيّة، حدّثه عن أبيه باحترام لمضاعفته ملكيّته خمس مرّات. لم يجامل حنّا الرجل الذي يقترب من الكهولة خائفاً، تحدّث حنّا عن حياة أبيه الذليلة رغم كلّ أملاكه، تواطأ مع رجال دين فاسدين، ومسؤولين مرتشين، للحصول على امتيازات نقل بحري. أضاف حنّا: «الآن انتهى كلّ شيء»، بقي ثأره وثأر أمّ حنّا وثأر إخوته وأخته الصغيرة التي لا يذكرها أحد لكنّ حنّا لم ينسها. كان أحمد البيازيدي خائفاً وهو يسمعه يتحدّث عن الثأر للمرّة الأولى، فكّر بأنّ المتاعب لن تنتهي، رجاه أن ينسى قصّة الثأر، وأكّد له أنّ قصّة قتل الضبّاط الثلاثة لأبيه مختلقة ولا صحّة لها، موته كان نتيجة خطأ من أناس همج غير معروفين، وأبناء العمّ هم الذين قتلوا الضابط، قاطعه حنّا بأنّه يكفي كونه ضابطاً عثمانيّاً يريد اغتصاب فتاة كريمة ليستحقّ الموت، أضاف أنّه لا يمكن لمن تجري في عروقه دماء سريانيّة نسيان المجازر الرهيبة التي ارتكبها العثمانيّون في حق المسيحيّين السريان. شعر أحمد البيازيدي براحة غريبة حين سمعه يتحدّث عن انتمائه السرياني بهذه القوّة، كان يريد إبعاد الشبهات عن محاولاته إجبار حنّا على الدخول في الإسلام.

لم يعد الاثنان للتحدّث عن الثأر، حاول حنّا طوال شهر قضاه مسافراً مع أحمد البيازيدي طمأنته، لم يستفزّه، كان ممتنّاً لهذا الرجل الهادئ الذي أنقذه من مصير غير معروف، عرف في قرارة نفسه أنّه حافظ على أملاكه، ربّاه، ومنحه أخاً رائعاً، وأختاً كسعاد، لكنّه تراجع في أعماقه، سعاد ليست أخته، كان متعاطفاً معه، لا يستطيع تخيّل حياته دون وريث، تقاسم مع أبيه صفات كثيرة، لكنّه أقلّ جشعاً، وأكثر واقعيّة وكرماً.

كانت سيرة كابرييل كريكورس التي جمعها حنّا من كثيرين عرفوه تربكه، وفي الوقت نفسه تشعره بفخر خفيّ، لم يترك قومه يوماً، حين كان المسيحيّون يعيشون كمواطنين من الدرجة الثانية، لا يحقّ لهم السير على الرصيف، ويجب أن يهبطوا من الرصيف إذا قابلوا رجلاً مسلماً، وعليهم ارتداء ألبسة خاصّة تميّزهم عن المسلمين، والأهمّ يجب دفع الجزية عن كلّ رأس مسيحي

يريد الاحتفاظ بديانته. كان كابرييل كريكورس يدفع الجزية عن العائلات الفقيرة التي لا تملك مالاً، ويتبرّع سرّاً للمحتاجين. لخّص أحمد البيازيدي فكرته عن الطريق إلى القوّة الذي يجب أن تدوس فيه على جثث ضحاياك، ارتباط القوّة بالضحايا أربك تفكير حنّا ليالي عديدة، في أعماقه فكّر بأنّ أحمد البيازيدي ربّاه ليكون شبيهاً به، لا بأبيه كابرييل الذي أورثه صفات العيش مع الأقوياء، لكنّ حنّا لا يريد رؤية جثث أعدائه القدامى في طريقه، بل أعدائه الجدد الذين سيحدّون من طموحه بامتلاك العالم، الثأر رغبة قويّة في أعماق حنّا، فكّر بأن تحققها سيشفيه من جروحه. حاول حنّا شرح فكرته عن الضحايا في الطريق إلى القوّة، والانتقام من الماضي، لكنّه صمت، شعر بصعوبة شرح هواجسه لرجل علمته دفاتر المحاسبة الشك في كلّ شيء والثقة بالأرقام وناتجها الأخير.

ما زال حنّا يتذكّر حين اصطحبه أحمد البيازيدي إلى الكنيسة لأوّل مرّة، كان في الرابعة عشرة من عمره، ظهوره الأول كان حدثاً في المجتمع المسيحي، تداول الكثيرون حكايات عن فرض الإسلام عليه، وفي ما بعد حين أصبحت زيارته للكنيسة كلّ يوم أحد موعداً مقدّساً، تعرّف إلى عائلات مسيحيّة كثيرة، كانوا يبتسمون له ويتحدّثون في منازلهم عن عبثه مع رفاقه اليهود والمسلمين في حارات باب الفرج الخلفية، الخوارنة فرحوا به، تضع العائلات بناتها في طريقه ليختار زوجة له، لم يكترث حنّا بالنفاق الذي شعر به، وبعد عودته من البندقيّة بقي مواظباً على هذه الصلاة، لم تعد تكفيه حكايات مارغو الموارنة عن المجازر التي دُفن على إثرها المسيحيّون في قبور جماعيّة، كان يريد أن يعرف أكثر عن تاريخ عائلته وتاريخ المسيحيّين في المنطقة، وتاريخ صراعات طوائف المسيحيّين في ما بينهم، وتخفيف الإشاعات التي طاردته.

بعد عودته من البندقيّة أراد مغادرة حلب، شعر بأنّه محاصر فيها، تلاحقه العيون والإشاعات، ماضيه مع زكريّا ووليم عيسى وعازار شجّع الكثيرين على تأليف قصصٍ خياليّة عنهم. لم يكترث، كان ينزعج من حجم الوصايا والمواعظ الأخلاقية والنصائح التي يتلقاها في كلّ مكان يذهب إليه. أخبر زكريّا برغبته في الانتقال إلى حوش حنّا، قال له: هناك سنعيش حلمنا بحياة منفلتة وحرّة، هناك سنكون بعيدين عن النفاق، ورقابة أحمد البيازيدي الذي قرّر ربح معركته مع ابنه زكريّا وصديقه حنّا، كعادته راهن على الزمن. ينتظرهما أن يكبرا، ليتحسّسا المعنى العميق للقوّة والملكيّة والاستقرار. لم يتوقع قرارهما ترك ملذات المدينة والانتقال للعيش على ضفاف نهر الفرات. حلم زكريّا بإصطبل خيول كبير أيضاً، يشبه إصطبل الدوقة كاترين غيوماني. لم يضيّعا وقتهما، وصلا إلى المكان، ابتهج زكريّا بقرار صديقه، خطّطا منزليهما والإصطبل ومنازل الفلّاحين الذين سينقلونهم إلى مكان قريب من الحقول.

تصاعد قلق حنّا في تلك الفترة، فكّر بأنّه تورّط فعلاً في العيش. من غرفته الكبيرة التي أمر ببنائها على التلة، أخذ يتأمّل القرية التي تنمو بيوتها كلّ يوم، يرى سعي زكريّا الجادّ لتحويل هذا المكان الصغير إلى قرية كبيرة تضجّ بالحياة، اعتمد على عناد صديقه، الذي عمل دون كلل لمدّة سنة، على استقدام باقي فلّاحي حنّا من القرى القريبة للعيش هنا. صمّم منزليهما، وإصطبل خيوله، أضاف إلى المخطّطات التي اصطحبها معه من البندقيّة الكثير من الأفكار التي لا يعرف سرّها سوى صديقه حنّا الذي بدأ يشعر ببهجة ابتعادهما عن صرامة أحمد البيازيدي وقربهما من حلب وأعزاز وعفرين وعنتاب، والأهم أنّهما يعيشان على ضفة النهر.

تنتظر الاثنان حياة جديدة، ترك حنّا غرفته على التلّ وانتقل إلى منزله الكبير، أعجبته غرفة المكتب الكبيرة المطلّة على النهر، يستطيع المرء في هذا المكان العيش باستقلالية كاملة. منزل زكريّا يشبهه لكنّ بابه الخلفي يفتح على إصطبل كبير مقسّم إلى ثمانية أقسام يتّسع لثمانين حصاناً،

لم ينس زكريّا تفصيلاً، كان بارعاً في إتمام الأشياء التي تحتاج إلى صبر ونقاش مع الصنايعيّة. سارا في أزقة القرية، شعرا بالرضى، لتناسل الحكايات، تشمّما رائحة الطبخ والخبز الطازج التي تفوح في أرجاء المكان. كان أبو ماريانا راضياً، أعجبته فكرة تجميع الفلّاحين، لقد أصبح رجلاً هرماً، لا قدرة له على الذهاب إلى بيوتهم لجمعهم للفلاحة والحصاد. أرادت ماريانا لفت نظر حنّا بأيّ وسيلة، جمعت الأطفال الصغار في غرفة في منزل أهلها لتعلمهم القراءة والكتابة، كان حنّا راضياً وهو يرى حياته تنمو بطريقة مختلفة، فكر أنّه يستطيع فعل الكثير، وأنّه ليس مجرّد وريث لا قيمة له، لم يكترث بحركات ماريانا التي تعترض طريقه لتناقشه في أمر ضروري يخصّ التعليم أو تحسين حياة الفلّاحين، يوافق على اقتراحاتها، ولا تغريه إطالة النظر إلى أقراطها الغريبة، ووجهها القاسي.

واظب حنّا على صلاة الأحد في الكنيسة القريبة، يتبادل مع الخوارنة التحيّات والاحترام ويدعم مشاريعهم في مساعدة العائلات المسيحيّة الفقيرة، وحين رأى الأطفال الصغار ينشدون الأناشيد بصوت واحد شعر بسعادة غامرة، زاد من تبرّعاته، وقدّم هدايا للتلاميذ المتفوّقين، وشعر بأنّه جزء من هؤلاء البشر الطموحين، كان البشر ينظرون إليه باحترام كبير، ولا يصدّقون الحكايات التي تتحدّث عن انحلاله، وقبل زواجه ضاق ذرعاً باعتراض ماريانا، أوصى وكيله أبو ماريانا بإخبار الفلّاحين بعدم السماح لأحد بقرع باب منزله، لن يغامر بالسماح لأحد بإزعاج قيلولته والتجسّس على حياته الشخصيّة.

تناقل الناس قصصه، كتب الوشاة إلى الوالي تقارير تصفه بالرجل الكافر، وكان أحمد البيازيدي بالمرصاد لكلّ أعدائه. قال لحنّا ذات يوم: لا يمكنك أن تكون ملّاكاً في عالم يقطنه الشياطين، وشرح له فكرة التماهي مع البشر. ما زال يذكر كلمته بأنّ الاختلاف قد يكلفه حياته، ثمّ دون مقدّمات طلب منه التفكير بالزواج، وقال: الزواج يخفف من فرادتك، ويمنحك حصانة كبيرة، وجود أقرباء يجعل المرء شخصاً واحداً من جماعة.

لم يعرف لماذا هذه القسوة التي يتعامل بها مع سعاد أقرب الكائنات إلى قلبه، لم يعد يستطيع الدخول إلى المنزل متى شاء، لا تكفي حجّة زيارة مارغو، لقد كبرا ولم يعد أحمد البيازيدي يحتمل النميمة، ونظرات الناس إليه المتسائلة عن أحقيّة شخص غريب في الدخول إلى منزله، هو في النهاية غريب، شعر بضيق كبير، تمنّى لو بقي طفلاً قريباً منها، ساعدتهما سارة على اللقاء منفردين أثناء غياب أبيها، رتبت مواعيدهما القليلة، احتفظت بسرّهما.

حين رآها واقفة في أرض دار حاييم إستنبولي شعر بإحراج كبير، لخيانته العائلة التي ربّته، فقدا براءتهما. لا يجرؤ حنّا على سماع ما ستقوله سعاد. أثناء غيابهما في البندقيّة كانت سعاد كلّ ليلة تحدّثه، تقول إنّها ستعيد كلّ الكلمات التي يجب أن تقولها، أصبحت في الثامنة عشرة من عمرها، ساحرة، أنيقة، لا تشبه الفتاة الصغيرة الساذجة التي كانتها، شرب قهوته معها في غرفة صديقهما عازار الذي سيعود إلى حلب بعد انتهاء دراسته في القريب العاجل. كان حنّا مرتبكاً وسعاد تنظر إليه بقوّة، كانت تنتظر منه قول أيّ شيء، وحنّا ينتظر أيضاً سماعها تقول ما فكّرت فيه خلال السنوات الثلاث الماضية. لكنّهما صمتا، تبادلا كلمات حذرة، وفي اللقاء الثاني تلمّست سعاد الجدار الذي ارتفع بينهما، رغم صمته كان يتسرّب إلى دمها. فكّرت بأنّ الحبّ الصامت يعيش وحيداً كطفل ضليل، وأعمى، شعرت بنفسها تقع في هاوية الشفقة التي تحاشتها طوال عمرها.

حين يزورهم في منزلهم كان يتشاغل بأشياء سخيفة، ينهض ويقطف أوراق الريحان اليابسة، تتأمّله غير راضية، تنتظر منه أيّ مبادرة، تشعر بأنفاسه أكثر قرباً منها كلّ لحظة. فكّرت بأنّها لن تنتظره طويلاً، ستقوده إلى حيث تريد، تشعر بشوقه إليها، وتقرأ رغباته.

كلّ مرّة يلتقيان ينقذه شيء يحدث قريباً منهما، ذات مرّة كان ينتظر إنهاء زكريّا إحضار بعض الأشياء التي تخصّه لنقلها إلى حوش حنّا، صبّت سعاد فنجان قهوته الثاني وانتظرت إنهاءه إزالة الأوراق اليابسة من نباتات المنزل، سمع نشيج مارغو قادماً من غرفة الخدم، هرع نحوها، وقبل وصوله إلى باب الغرفة، قالت له سعاد دون مواربة إنّه جاحد، وأناني، وغير جدير بالحبّ، تركته غاضبة، ودخلت إلى غرفتها.

لم يفهم ما حدث، نظر إلى سعاد التي لم تلتفت إليه، شعر بأنّه شخص لا قيمة له، قلبه أسود، كريه، لم ينتبه بعد عودته مع زكريّا من البندقية إلى سعاد التي كانت تنتظره لتخبره قصصاً عن حياتها ودروسها ورغبتها في زيارة بيروت، تناسى مارغو التي كانت حين ينام على ركبتها تمشّط شعره، وتحدّثه عن يسوع الذي يحبّ الأطفال الصادقين، البريئين، لأنّهم على صورته. سار بخطوات ثابتة، فتح باب غرفة الخدم، فوجئ بمارغو على حافة الموت، امرأة عجوز لا تستطيع النهوض، تحتضن تمثال العذراء بين يديها وتطلب الموت من الربّ، تدفئ أمّ الخير قدميها، تواسيها، وتطلب منها الصبر، وعدم نسيان التقوى.

جلس قرب فراش مارغو صامتاً يفكّر في سعاد، تختلط صورتها الجديدة بصورة الطفلة الصغيرة التي كان يخبرها بأنّ البشر حين يموتون، يتحوّلون إلى حيوان يحبّونه، كانت تصفق بقوة وتقول: «أريد أن أصبح كلبة»، يضحك وتسأله عن حيوانه المفضّل يقول لها دون تفكير: سمكة، تفكر بأنّها لن تراه مرة أخرى، تقترح عليه أن يصبح قطاً، لتبقى قريبة منه، كانت تفكّر دوماً بأنّه جزء من حياتها، لكنّه بعد عودته من البندقية انشغل مع زكريّا بحياتهما بعيداً عن سعاد ومارغو والعائلة، حتى إنّهما لم يردّا على رسائل كثيرة كانت تصل من عازار ووليم عيسى الذي أخبرهما بأنّه سيهجر كلّ شيء، ويتفرّغ للرسم، لم تعجبه حياته بين شلول القطن، وحركة عمّال الموانئ.

قضيا وقتهما في سفر دائم بحثاً عن النساء والأحصنة، كانا يعتقدان بأنّهما فعلا كلّ شيء من أجل الآخرين. لم ير حنّا مارغو سوى لحظات قليلة، لم يسألها عن صحّتها، لم يخصّص لها غرفة في منزله الكبير. طلب حنّا المغفرة منها فقالت له: «خذني إلى الميتم، أريد الموت بين أهلي المسيحيّين». كانت تفكّر في أعماقها، بأنّ الموت في بيت مسلمين سيجلب العار لطائفتها. اقترح اصطحابها إلى منزله في حوش حنّا، هناك الكثير من النساء اللواتي يخدمنها، لم توافق، كانت واضحة، قالت له إنّها أصبحت قمامة لا تجدي، ورائحتها تخنق الجميع، يجب رميها في حفرة عميقة، لكن إلى ذلك الحين تريد العيش في مكان تسمع فيه صلوات مسيحية، وتكون محاطة بصور يسوع، كانت تتحدّث عن الصورة الأخيرة التي ترافق الأموات إلى السماء، حين يقوم المسيح ويرى في عيونهم صورته، تريد مارغو لصورته أن تكون الصورة الأخيرة. لكن أمّ الخير لم تصمت، أمسكت بيد مارغو وهمست لها بأنّها ستملأ جدران الغرفة بصور يسوع، ورسومه، ستتلو صلاة المسيحيّين أمامها كلّ صباح، ولن تدعها تشعر بالغربة، كانت أمّ الخير منفعلة جداً، لقد مضت قرابة ثلاث عشرة سنة على تقاسمهما هذه الغرفة، تحدّثتا آلاف المرّات فيها عن كلّ شيء، تشاجرتا، وتصالحتا بعد لحظات، لكن مارغو بقيت صامتة تنظر برجاء إلى حنّا.

شعر بالعجز، لم يستطع إقناعها بمرافقته، خرج ليلاً وسار نحو الكنيسة، قرع باب غرفة المطران باسيلوس، حدّثه عن مارغو، أشار عليه بدار للعجزة ترعاها الكنيسة، رافقه إلى تلك

الدار، أصيب حنّا بصدمة وجود كلّ هؤلاء البؤساء في هذا المكان، كانت رائحة القيح والمرض تفوح من شراشف الأسرّة، والعجائز جالسين على أسرّتهم ينظرون إلى أيقونة يسوع المعلقة أمامهم على الجدار الكبير، أغلبهم نساء عشن أعمارهنّ في هذا المكان بعد نجاتهنّ من مجزرة أو زواج فاشل، وبضع نساء تخلّت عائلاتهنّ عنهنّ. لم يطل الحديث مع الأخت المشرفة التي وعدت بالاعتناء بمارغو، لم ينس أن يخبر أبو ماريانا بإرسال كمّية مؤونة تكفي عاماً كاملاً لهؤلاء المنسيّات، بقي حنّا يزور مارغو كلما سمحت له الظروف، لكنّ أمّ الخير تأتيها كلّ يوم بطعام مطبوخ خصيصاً لها، تقضي الاثنتان وقتهما في إكمال حديثهما، وحين تغيب أمّ الخير أكثر من يوم، ترسل مارغو لتطمئنّ عليها، تقاسمها النقود التي يتركها حنّا، لم يمض فصل الشتاء حتى ماتت مارغو ولم يسامح حنّا نفسه لأنّه لم يكن في جنازتها. في الشهور الأخيرة أصبحت زيارته لحلب شيئاً مؤلماً، يفكّر في سعاد طوال الوقت، كلّ الشوارع تذكّره بها، بطفولتهما. حين يقترب من حيّ الجديدة ينقبض قلبه، وحين يجلس في مقهى الجميلية مع أصدقائه يتذكّرها حين كانت تقودهم في طريقهم إلى جبل الجوشن قبل أن تنعطف بهم إلى البساتين، كانت توصيهم بالحذر، يأتيه وجهها ملاكاً حارساً، خسارتها شيء مؤلم لا يمكن احتماله، لكنّه لا يستطيع فعل أيّ شيء. كثيراً ما خطرت على باله أفكار مجنونة، لم يعجبه يوماً العقل. زكريّا لن يمانع زواجه بأخته، أمّا أحمد البيازيدي فلن يطول الوقت كي يرحل، لكن هل يستطيع إشهار إسلامه من أجلها، في لحظات كان يفكّر بأنّه يستطيع قتل نفسه من أجلها، وفي لحظات يشعر بجبن فظيع، تحاشى الحديث معها، لم يكن لديه ما يقوله لها.

ما زال يذكر الأب إبراهيم الذي عاد مرّة أخرى إلى حلب، رحّب به وامتدح أخلاقه التي يتحدّث عنها المسيحيّون، حدّثه حنّا عن رحلته باختصار، سأله عن الحبّ، وهل يسامح يسوع رجلاً غيّر دينه من أجل امرأة، لأول مرّة يتحدّث كمسيحي متمسّك بدينه، لم يكن يوماً يشعر بأنّه ينتمي إلى ما تنتمي إليه أيّ جماعة، كان الأب إبراهيم يحبّ قلق هذا الشاب، هدّأه، قال له: لا يجوز الجمع بين الإلحاد والإيمان، إنّهما ضفّتان مختلفتان لا يمكن الوقوف عليهما في اللحظة نفسها، والشك هو قفزة في الفراغ، لا شكل ولا طعم لها، لم يعرف حنّا مناسبة لحديث الأب إبراهيم وقتها، لكنّه فهم أنّه لم يستطع إخفاء شغفه بسعاد التي طفحت منه تلك الليلة. سار نحو منزل أمّ وحيد القريب من الكنيسة، قرع الباب وطلب تركه بمفرده في غرفته المحجوزة لأمثاله من الزبائن الكرماء.

بعد تنفيذ أحمد البيازيدي تهديده لجميلة وترحيلها عن حلب، تشرّدت فتياتها، وبزغ نجم منزل أمّ وحيد، كملتقى لرجال النخبة، لم يطل الأمر بزكريّا وحنّا ليقرعا بابها ويصبحا من زبائنها، حين رأتهما أول مرّة قالت لهما إنّها وبناتها ينتظرنهما منذ زمن بعيد، لم يناقشا وقرّرا اختبار ذوق أم وحيد التي قدّمت لهما في تلك الليلة أجمل فتاتين في حلب، كانت تريد لمنزلها مجموعة زبائن شباب جميلين، كانت تردّد: سرّ البهجة الشباب والجمال، لم ترغب في أن تصبح قوّادة لمجموعة رجال عجائز، يقضون لياليهم مع الفتيات في الحديث عن ماضي أعضائهم.

تفاهم حنّا وزكريّا ببساطة مع أم وحيد، وانضمّا إلى ناديها الذي تعرّفا فيه إلى أغلب أصدقائهما، عارف شيخ موسى كان يواعدهما عندها، ويقدّمهما إلى باقي أعضاء شلته الآبقة. لم تبخل عليهما أم وحيد بإرسال فتيات في مهمّات خاصّة إلى حوش حنّا، يقضين عدّة أيّام في حفلات ماجنة ويعدن محمّلات بالهدايا والمؤونة والنقود.

لم يعجبها ذلك البريق الحزين في عينيه، قالت له صباحاً وهي تشاركه الإفطار إنّ الحبّ لا يخفي نفسه، كان حنّا يفكّر في وجه سعاد وتقاطيعه الحادّة، في شفتيها المكتنزتين، وصدرها. لم

تنته رغبته الدائمة في الخلط بين زمنين، صورتين مختلفتين، لم يكن أحد يتوقع أنّ تلك الطفلة البريئة التي عاش معها كأخ لها ستصبح هذه الفتاة القويّة، الجميلة، التي جعلت من أورهان التركي المساعد الجديد لأبيها في البنك أضحوكة المدينة، تطلب منه انتظارها في ساحة باب الفرج، ينتظر ساعات ولا تمرّ عربتها، يعود مرّة أخرى ويتودّد إليها، تفعل الشيء نفسه، حين يأتي لزيارتهم ولعب الشطرنج مع معلمه أحمد البيازيدي تنظر إليه بتهكّم، ولا ترفع غطاء رأسها، تنتقد ملابسه وتناسق ألوانها، تطلب أن يضع نفسه تحت تصرّف الخيّاط جورج، سيحسّن ذوقه، ويعلمه أنّ القمصان الحريريّة البيضاء خيار جيّد لموظفي البنوك والمعشوقين لا العشاق، لا يفهم ما تقوله إلّا أنّه يوافقها الرأي. ثقتها بنفسها حوّلت رجالاً آخرين إلى حطام، كانوا يرسلون أمّهاتهم ليتفحّصوها من أجل خطبتها، لم تكن تعجبهنّ قوّتها ووقاحتها في انتقادهن، حتى اللواتي كنّ يسألن عمّتها أمينة من أجل التوسّط في أمر خطبتها كنّ يهربن منها بعد أول لقاء تسعى فيه الحاجّة أمينة لقيامها بدور الأم الغائبة.

في الطريق إلى حوش حنّا فكّر بأنّه سيدفع ثمناً غالياً لعدم اكتراثه بالجمال الذي ينمو قربه، لن يتورّط في الزواج بفتاة مسلمة، شعر بتعب شديد في الآونة الأخيرة، لا أحد يصدّق أنّه لا يريد العيش في مكان واحد، ويشعر بأنّه رجل منشطر، قادر على العيش في مكانين في الزمن نفسه، أو العيش في مكان واحد لكن في زمنين. كثيراً ما خلط ماضيه بحاضره. أبهجه اختياره العيش قرب النهر، ستبقى حلب مدينة أسراره، لن يعرف أحد متى يدخلها أو يخرج منها. اشترى منزلاً في باب الفرج، أحبّ الظلّ المتسرّب من أباجورات نوافذه المطلة على الساحة الكبيرة، قريباً من بحسيتا، يريد مكاناً لا يعرفه أحد سوى زكريّا، منحته المواسم الجيّدة الطمأنينة، كان أحمد البيازيدي راضياً عن طريقة إدارته لأمواله، لن يموت مفلساً، لكنّه لم يحتمل تقديم الطاعة لمجموعة موظفين فاسدين، ترك هذه المهمة لأحمد البيازيدي الذي كان يرسل بالنيابة عن حنّا هدايا ثمينة لوالي حلب، ولرئيس جهاز الشرطة، والقضاة لم يكونوا بعيدين عن عطاياه. لم يعترض حنّا على طريقة إدارة العلاقة مع الموظفين، لكنّه لا يريد أن يراهم، يكرههم في أعماقه. لزجون وتافهون يقضون حياتهم في تدوير الرضى. فكّر لحظة في إعادة حلم والده بإمبراطوريّة ماليّة كبيرة، لكنّه شعر بالضيق من العيش مع المنافقين، كان يعتقد أنّ المال والسلطة كقطعة الحلوى الفاسدة تجذب الذباب، ولا شيء يعادل متعة الكسل في الصباح.

في زيارته التالية بعد شهر، تحاشى سعاد حين شاركتهم العشاء، لم تكترث لحضوره، دخلت إلى غرفتها مسرعة، ولم تخرج حتى الصباح، فكر حنّا بأنّه لن يسمح لها بكراهيته، لا يستطيع احتمال ذلك، يعتبر طفولتهما أسعد أيّامه، ملأت حياته بهجة، كانت أخته الحقيقيّة، وفي لحظات كان يشعر بأنّها ابنته، وفي لحظات كثيرة كانت تتصرّف كأمّ له، كانت الشخص الوحيد الذي عانى من فقدانه في البندقيّة، شاركه زكريّا شعوره بفقدها، وقضيا ليالي بكاملها يستعيدان بمرح ذكريات الطفولة.

ذات يوم غامر بزيارة المنزل في غياب أحمد البيازيدي وزكريّا، فتحت له أمّ الخير الباب، سار إلى غرفة سعاد، قرع باب غرفتها صباحاً، وطلب منها مشاركته القهوة، سمحت له بالدخول، وأغلقت باب الغرفة، كان يشعر بأنّه في زمن مختلف، أنّها ليست الغرفة التي كان يدخلها مع زكريّا ويضعان تحت مخدّتها الهدايا، يختبئان تحت سريرها ويقلدان أصوات الحيوانات لإخافتها حين تندسّ في سريرها، تنهض فزعة وتبحث عن مصدر الصوت، تقفز فرحة حين تجدهما تحت السرير، يصطحبانها في مشاوير، يشتري لها حنّا أيّ شيء تشير إليه، قاسمته كلّ شيء تملكه. كانت طفلتهما المدللة. في ذلك الصباح نظر إليها مليّاً، تأمّل وجهها وقوامها، ثدييها، وخصرها،

كانت ترتدي فستاناً ضيّقاً، تريد المغادرة إلى مشغل الستّ حسنيّة، وكتاب باللغة الفرنسية مقلوب على الطاولة، كانت إحدى روايات ألكسندر دوماس، لم تمهله كثيراً، قالت له إنّها لم تتخيّل في أسوأ كوابيسها أنّه وزكريّا سيتركانها وحيدة، انتظرتهما وبكت طوال فترة غيابهما في البندقيّة. حاول تبرير ذلك بأنّ المدينة لا تسمح لهما بالعيش كما كانا طفلين، الجميع يتصيّد العائلة، ولا يمكنهما أن يستمرّا في اللقاء في منزل حاييم إستنبولي حتى بعد عودة عازار. أسهب في الحديث عن المدينة الظالمة، وثرثرة الناس، لكن سعاد لم تطل الحديث بصيغة الجمع، وقالت لحنّا إنها لا تفكر فيه كأخت بل كامرأة، وأضافت إنها امرأة وليست تلك الطفلة الصغيرة. كان حنّا مرتبكاً، يريد استعادة مرحه، لكنّه لم يستطع، غرق في حزنه الذي تعرفه جيّداً، بقي صامتاً، أكملت بأنّ العاهرات سيلوّثن روحه، ذكّرته بأنّها ليست أخته المحرّمة، شرب قهوته بهدوء، وطلب منها الاستماع إليه جيداً، لا تعنيه الصفة التي ستختارها لكنّه يريد الحديث إلى الفتاة التي كانتها. قاطعته وتحدّثت عن الماضي الذي لا يمكن استعادته، أضافت: مضت القوارب في نهر الجنّة. خاف من لهجتها الواثقة، لكنّه لم يكترث، تذكّر أنّ الرجال حين يكونون في مكان موحش يتحدّثون إلى أنفسهم، أو يغنّون، تحدّث عن تعبه، شعر بأنّ كلامه دون معنى، استمرّ في تشكّيه، كانت سعاد تنظر إليه، أراد القول إنّه فكّر فيها أيّاماً كثيرة، لكنّ تغيّر الصفات بالنسبة إليه مرعب، لم يستطع الفصل بين صورة طفولتها وصورتها اليوم، قضى وقته في ثرثرة عن أبيها الذي بدا له رجلاً عجوزاً، يهجس طوال الوقت بالخوف من التقاعد والشيخوخة، ردّت ببساطة بأنّه يبالغ قليلاً، إنّه يعاني من فقدانكما، مشيرة إليه وإلى زكريّا، لم تمنحه وقتاً طويلاً ليستعيد قصصاً من ماضيهما غير البعيد، أخرجت من خزانتها قميصاً مكويّاً، قدّمته له وقالت إنّها هديّة عيد ميلاده، أضافت بلهجة مؤنّبة: من أجلي لا ترتدِه في غرف العاهرات. خرجت من غرفتها وهي تربط ملاءتها جيّداً، وحنّا ينظر إليها مبتسماً، يتأمّل قميص الحرير المطرّز، انتبه إلى أول حرف من اسمها مطرّزاً كتوقيع لصانعته.

كان مشغل الست حسنية ملاصقاً لمنزل أهل سعاد، لم يمنعها أحمد البيازيدي من ارتياده وتعلّم الخياطة، ندم لأنّه لم يكن شجاعاً ويرسلها للدراسة في باريس، وهي لم تدافع عن فكرة مرافقة صديقتها نديمة البصمجي التي صمّمت على دراسة الحقوق في السوربون، كان حسن البصمجي فخوراً بابنته، يعترضه أقرباؤه وأصدقاء قدامى، يسألونه هل يعرف ماذا تفعل ابنته الوحيدة في بلاد الكفّار؟ أصبح خروجه من المنزل نادراً، احتجب بين كتبه، مات غمّاً وهو يدافع عن فكرته بحق المرأة في التعلّم، احتمل سخرية المشايخ المتشدّدين الذين هاجموه علناً، اتّهموه بنشر الرذيلة والدعوة إلى الاختلاط، لا يمكن الردّ على مجموعات كبيرة من المتشدّدين الذين يسيرون في شوارع المدينة كمجموعات تراقب الفضيلة وتريد فرض الشريعة بقوّة السيوف التي في أيديهم، فكّر في هجر المدينة، لكنّه كان مولعاً برؤية أعدائه غاضبين، يقضي أوقاتاً قليلة مع من بقي من أصدقاء، لقد تناقصوا على أيّ حال ولم يبق منهم أحد يجرؤ على مرافقته صباح العيد لزيارة المقبرة، ويوم جنازته فوجئ الكثيرون بالمئات من البشر الذين لا يعرفهم أحد يشيّعونه. بعد دفنه قال أحمد البيازيدي لأصدقائهما إنّهم كانوا جبناء وأنذالاً حين تركوا صديقهم حسن بصمجي يخوض معركته وحيداً ويدفع ثمن صمتهم.

لا تريد سعاد مغادرة حلب، والابتعاد عن حنّا، ترى هنا صورته في كلّ مكان، تعرف أنّ الحبّ الصامت يحوّل القلب إلى قطعة سفرجل يابسة، تردّد في سرّها أنّ قطعة سفرجل يابسة أفضل من قلب ميت، هناك أمل بأن تنتعش عروقها وتزهر من جديد. وجدت شغفها في مشغل الست حسنيّة

التي تشتم رجال الدين المنافقين علناً، تحتقرهم في أعماقها وتعتبر وجودهم غير ضروري، لا تخافهم وتردّد على مسامعهم أنّها إن فتحت خزانة فضائحها فلن يبقى إمام على منبره. تجاوزت الستين وما زالت تحافظ على أناقتها، وروحها المرحة. تزوجت للمرة الأولى بابن عمّها موظف الأوقاف الكبير، عاشت معه ثلاث سنوات، طلبت الطلاق ووصفت حياتها معه بالخراء، لم يجرؤ الشيخ الفاضل على التمسّك بها، اتّهمته بحبّ الصبيان وسرقة ريع أوقاف الجامع الأموي، ثمّ تزوّجت عبد الله اليوزباشي، تاجر أقمشة عشقها لكنّه مات في الأربعين من عمره، ترك لها طفلاً ضعيفاً ومصاباً بالربو، لم يكمل عامه الخامس. بقيت حسنيّة وحيدة، عبد الله اليوزباشي عوّضها عن عمر بأكمله، تصف لفتياتها لياليهما الحارّة بألفاظ صريحة، تقول جملتها الأثيرة: كان يشرب الخمر بكندرتي، علّمها التمييز بين الألوان وأنواع الأقمشة، يمسك بقطعة قماش، تلتمع عيناه ويصف لها أنواع الخيوط، والأصباغ التي شكّلتها، يقول لحسنيّة المسيها، حرير ناعم كفخذ امرأة منتوف، يحبّ استخدام دلالات غريبة تثير حسنيّة. ترك لها محلاً في خان الجمرك أدارته بحنكة ودون وكلاء، ومستودعاً ضخماً مليئاً بشتّى أنواع الأقمشة يتوسّط بستانه في قرية خان طومان.

تذكر سعاد معلمتها الست حسنية التي علمتها كلّ شيء، واعتبرت تلميذتها سعاد كنزاً يجب الحفاظ عليه، أحبّت ذوقها في انتقاء الأشياء، أفكارها وأحلامها وجمالها وقوّتها، كانت تقول عن تلميذتها «منذ عشرات السنين لم تُخرِج هذه المدينة إلى الضوء فتاة تشبهها»، عادتها في مبالغة مديح من تحبّ. حين طرّزت سعاد القميص الحريري الأبيض عرفت أنّها انزلقت إلى هاوية حبّ حنّا التي لا عودة منها، وكانت حسنيّة تعتقد بأنّه لا يمكن إنقاذ عاشقة انزلقت إلى الهاوية.

تركتها ولم تقل لها رأيها إلّا بعد سنوات، حين كانت الاثنتان وحيدتين في المشغل، كان وجه سعاد في الضوء القادم من الخارج ساحراً، قالت لها إنّها أخطأت حين أحبّت رجلاً يعشق العاهرات، أكملت: لا تستطيع امرأة واحدة مهما كانت جميلة وقويّة أن تهزم جيشاً من العاهرات، لأنهنّ نساء أيضاً، لديهنّ أحلام لا تعرفها النساء العاديّات الخائفات، أكملت: حنّا يملك جيشاً من العاهرات. كانت سعاد تهز رأسها حين تتحدّث معلمتها بهذه اللهجة، تعرف أنّها تتذكّر أحلامها الموؤودة، لم تخبرها بأنّ فساتين فتيات أم وحيد التي تفنّنت سعاد بتصميمها كانت مصنوعة خصّيصاً من أجل حنّا.

كانت سعاد تعرف هذه الحقيقة، وتسرف في صمتها، تركّز في العروة، تقول لنفسها إنّ أصابعه ستفكّ هذا الزرّ، وسيكون أكثر إثارة حين يرى فتحة الصدر، سيكون مبهوراً بجمال هذا اللون الأسود لفستان قصير جداً، شعرت حسنيّة بأنّ عذاب سعاد يتضاعف، حين تأتي قبل كلّ الفتيات في الصباح الباكر، تصنع قهوتها وتجلس قرب النافذة، تنتظر أصابع رجل تمتدّ إلى أصابعها كي تشبكها ويرحلا فجراً إلى ضفّة النهر القريب. بعد عودتها مع أبيها أحمد البيازيدي من زيارة حوش حنّا، بقيت سعاد صامتة أيّاماً، لكنّها لم تحتمل ما رأت، مرضت، تمدّدت على سرير في الغرفة الصغيرة بين قطع القماش. لا تريد البقاء في منزلها، ولا ترغب في زيارة الطبيب، فكّرت حسنيّة بأنّها ستموت لا محالة، يجب انتزاع الكلام الذي تغصّ به من حلقها بالقوّة، تخنقها الجمل القليلة، منعت حسنيّة فتيات أم وحيد من ارتياد مشغلها، في الأشهر الأخيرة فقدت سعاد ربع وزنها، وتحدّثت عن الموت مرّات كثيرة، إنّها أعراض الحبّ القاتل الذي تعرفه جيّداً، فكّرت الست حسنية بأنّه لا يمكن للبابونج المغليّ تفكيك الكلمات. لكنّ سعاد روت لها كلّ شيء، لأول مرّة تشعر بنفسها بغلة جرباء، مهانة، لا شيء، روحها متلاشية، وجسدها متقرّح ويجب حرقها مع نفايات المدينة.

بعد مغادرة حنّا إلى قريته، قرّرت سعاد إقناع والدها بزيارة حوش حنّا، قالت إنّ زكريّا وحنّا سيسعدان بالمفاجأة، وسيطمئنّ أحمد البيازيدي إلى أنّ كلّ شيء على ما يُرام، حاول والدها إقناعها بنسيان الفكرة لكنّها صمّمت، تريد الوصول يوم عيد ميلاد حنّا، تلكّأ لكنّه وافق رغم توجّسه، يريد أن يكون موضع ترحيب في منزلي ولديه، وفي أعماقه كان يريد نهاية غير مأساوية لتعلق سعاد بحنّا.

قرّر حنّا بعد وصوله إلى حوش حنّا الاحتفال بجنون، دعا أصدقاءه إلى منزله الكبير، وأضاف زكريّا من خياله بأنّه لا مانع لديهما من الاحتفال لمدّة أسبوع، كلّ شيء على ما يُرام، الأحصنة تزداد في إصطبل زكريّا، ومواسم الأرض رائعة، تفاهم زكريّا مع أم وحيد التي أرسلت ستّ فتيات، رقصن، وغنّين، وتبخترن عاريات في الصالون الكبير. كانت أناقتهنّ، والأقنعة التي كنّ يرتدينها في وصلة آخر الليل، ساحرة. لم يتخلّف أصدقاؤه من الملّاكين المدعوّين، وهم نخبة جرى انتقاؤهم بحذر شديد من أصحاب السمعة السيّئة، المبذرين، عشّاق اللذة، أتوا مع خدمهم وحرّاسهم وطبّاخيهم، ولحقت بهم مجموعة عاهرات من بيوتات الموصل وبغداد الشهيرة.

انتشر الحرّاس حول منزل حنّا، وترك زكريّا منزله لنوم الخدم والطبّاخبن والحرّاس وانتقل إلى منزل حنّا، حفلات شواء، ومائدة بقيت مفتوحة في الحديقة لمدّة سبعة أيّام، يجدّد الطبّاخون الأنواع، كلّ يوم ثلاث مرّات، والخدم يدورون حول الموائد المنتشرة في الحديقة والغرف يلتقطون الصحون والكؤوس الفارغة، كانت الأيّام السبعة تشبه حلماً قديماً لزكريّا وحنّا بإعادة رسم فكرة العيش في الجنّة.

في ذروة الاحتفال فوجئ حنّا بسعاد واقفة على باب الصالون، لم يستطع الحرّاس منعها من الدخول، كانت الفرقة الموسيقيّة تعزف أغاني راقصة، اقترب حنّا من سعاد، التي لم تكترث بكلّ هذا المجون الذي رأته، كان القميص الحريري مبقّعاً بأحمر شفاه ونبيذ، مزقت القميص وصفعته على خدّه، وعادت مع ماريانا التي كانت مَن اقتادها إلى المكان رغم معرفتها أنّه وقت غير مناسب. كان زكريّا غائباً عن الوعي، نائماً، وحنّا لم يجد ما يفعله، سوى البكاء. تركته سعاد وعادت إلى منزل أبو ماريانا حيث اختار أحمد البيازيدي قضاء ليلته بعد سماعه صوت الموسيقى قادماً من منزل حنّا، ورأى سائقي عربات أولئك الماجنين يحتلون منزل زكريّا. فهم أنّه يجب أن يغادر فوراً، الوقت غير مناسب ولا يريد رؤية كارثة لن يستطيع نسيانها لسنوات.

قضى حنّا ليلته في غرفته وحيداً، وبعد استيقاظه صباحاً خرج باحثاً عن سعاد وأحمد البيازيدي، لكنّهما غادرا فجراً مخذولين، عاد إلى المنزل، وأكمل حفلته كأنّ شيئاً لم يحدث، شعر بسعادة بأنّ حياته لم تعد سرّية، يعرفها أحمد البيازيدي وسعاد، في أعماقه شعر بأنّه أهان مشاعرها، لكنّه كان خطأ غير مقصود، ستسامحه، وقد يثيرها الأمر، اختلطت الأشياء في ذهنه، وقال في نفسه إنّه مجرّد قميص حريري ممزّق الآن.

في اليوم السابع للحفلة كان زكريّا يردّد: ها هي الجنّة، الحوريّات لسن أجمل من هؤلاء النساء، يشير بيده إلى النساء اللواتي استيقظن وتجمّعن إلى طاولة الغداء، يكمل زكريّا: والخمر ليس أفخر من هذه الخمور، والطبيعة، ينظر إلى السماء الصافية الربيعية، ويبحث عن وصف يليق بمديح السماء الصافية، لكنّه لا يجد وصفاً سوى: نحن نعيش في الجنّة الآن. تلقّى حنّا هدايا ثمينة من رفاقه الذين امتدحوا ذوقه. وفي تلك الليلة وبعد مغادرة ضيوفهما حلم حنّا وزكريّا بقلعتهما التي شارفت على الانتهاء. تذكّرا صديقهما الحميم وليم عيسى الذي كان من المفروض أن يكون معهما، زكريّا أخبر حنّا ساخراً بأنّ وليم عيسى تحوّل إلى موظف، وقريباً سيتزوّج بأيّ فتاة مسيحيّة

يختارها أبوه ولن يرافقهما إلى بيوت المتعة مجدّداً، تذكّر حنّا أنّه لم يقرأ رسائل وليم عيسى، أنّب نفسه، أخرج الرسائل وبدأ بقراءتها، شعر بالذنب لإهماله شؤون صديقه، توقف عند آخر رسالة من وليم عيسى، كانت مجموعة تهويمات عن الطفولة، يذكر فيها سعاد وزكريّا وعازار وسارة، وفي الأسطر الأخيرة يخبره بأنّه يفكّر في ترك العمل في شركة الحاج صبحي مفتي والتفرّغ للرسّم، قال كلاماً مؤثراً عن الحياة التي تمضي بتفاهتها، وعن رغبته في استقبال القرن المقبل بعد سنوات قليلة ككائن جديد.

فكّر حنّا بأنّه تحوّل إلى شخص غير مكترث، شعر بشوق جارف إلى صديقه الذي لم يره منذ سنوات بعيدة، نهض في الليلة ذاتها، طوى الرسائل وأعاد ترتيبها في درج مكتبه، خرج من المنزل وسار على ضفة النهر، كان الفضاء المفتوح، ومنظر الحقول يبهجه، لكنّه لم يستطع تجاهل صفعة سعاد التي دوّت في أعماقه.

الفصل الرابع
الحبّ المستحيل

رواية بقلم جنيد خليفة، مريد إمام العاشقين صالح عائشة العزيزي.

الفصل الأول

كانت إستنبول تستعد لاستقبال قرن جديد بعد ساعات قليلة، فتح وليم ميشيل عيسى نوافذ غرفته المطلّة على فناء منزل ماغي لتهوية الغرفة، وطرد روائح الألوان الزيتيّة، كانت ماغي تحدّث جارتها اليونانيّة عن المشايخ المرابطين في جامع أيّوب، يقرعون الدفوف منذ ستة أيّام، يبشّرون بأنّ غداً يوم القيامة. كانت جارتها اليونانيّة لا تسمعها، لا تعرف لماذا لا تصدّقها بأنّ القرن الجديد لن يكون إلّا هلاكاً، ستقوم القيامة قبل أن يصل وينتهي كلّ شيء. أكملت الجارة أنّها تبرّعت للكنيسة بمدّخراتها كاملة، ماذا تفيدها قطعة الذهب الوحيدة يوم الحساب، كانت منفعلة بأنّ المسيح سيقوم، وكم هي محظوظة لأنها ستراه بأم عينها يباركها، صُدمت ماغي حين اكتشفت أنّ جارتها لا تسمعها وهي تصرخ: وماذا ستفيد قطع الذهب الكنيسة إن كانت القيامة قادمة؟ ماغي لا تريد التحدّث مع نفسها، رفعت صوتها وأخبرت جارتها بأنّها مجنونة لأنّها تبرّعت للكنيسة بقطعتها الذهبيّة الثمينة التي وفّرت ثمنها من عملها خادمةً في المنازل. كانت جارتها في وجد عميق، تشدّ يديها على صدرها، تتأرجح وهي تودّع آخر مساء ستراه عيناها، تحدّث يسوع الذي سيقوم وتلتقيه بعد ساعات قليلة. بصقت ماغي على جارتها غير مصدّقة الهستيريا التي عمّت المدينة. كثيرون يتحدّثون عن القيامة، لمحت وليم عيسى ينسلّ من باب المنزل، صرخت به أن لا يتأخر عن السهرة، أغلقت الشبّاك وجارتها ما زالت تتأرجح مكانها محتضنة طيف يسوع الذي قالت والدموع تطفر من عينيها إنّها تراه يحلّق الآن فوق إستنبول المباركة.

لم يكترث وليم عيسى للمدينة التي تتحدّث عن يوم القيامة في كلّ مكان، كان يفكر في حماقته الكبرى التي ارتكبها قبل سبعة أشهر في يوم لن ينساه طوال عمره، حين امتلك قراره الحرّ للمرّة الأولى في حياته.

كان يوماً حاراً على غير عادة طقس إستنبول في منتصف أيّار، في ذلك اليوم استقال وليم عيسى من عمله كمراقب شحن بضائع شركة الحاج بشير المفتي. سلّم العهدة لموظف جديد، أكمل طريقه نحو «أمينينو»، اشترى رغيف خبز ساخناً، جلس على الجسر، فتّت الخبز، ورماه للأسماك، فكّر بأنّ حياة كهذه تناسبه، لن يقضي عمره موظفاً يخاف من المغامرة، ولن يسعى لكسب مودّة معلّميه ومديريه. لن يكمل دراسته في مدرسة المحاسبة، المستقبل الذي خطّطه له والده خبير الأصباغ في معمل الحاج بشير المفتي دمّره وليم عيسى خلال لحظات.

أكمل طريقه نحو «جيهان كير»، اشترى مواسير ألوان زيتيّة، وريش رسم جديدة، وقماشاً معالجاً من محلّ صغير يبيع مستلزمات الرسم والخطّ، ركل حصاة في الطريق، كان يعتقد بأنّ ركل الحصى يعني التحلّل من الواجبات، إذ لا يمكن لموظف محترم أن يركل حصاة، يصفر أو يبول على ناصية طريق. دندن بصوت مسموع لحن أغنية تركيّة يحبّها، اشترى جبناً أبيض وبطاطا، وعاد إلى غرفته في حيّ «كاراكوي».

أغلق الباب، وجد نفسه للمرة الأولى أمام بياض اللوحة، لن يخرج من غرفته التي دفع إيجارها لمدة سنة، سيتمتع بالكسل والتفكير وكتابة أحلام يقظته، ورسم طائراته وطائرات زكريّا الورقيّة التي كانت تبهر المدينة، لطالما فكر باحتراف الرسم. كتب إلى حنّا وزكريّا وسعاد وعازار رسائل يخبرهم فيها عن سعادته، لأنّه رمى حياته القديمة مع حذائه المهترئ في البحر، لكنّهم لم يردّوا على رسائله إلّا بعد ثلاثة شهور، ما عدا سعاد التي كانت تردّ بانتظام على رسائله التي تسلّمها إيّاها سارة أخت عازار التي أصبحت زوجة ديفيد. شجّعته سعاد على الرسم، روت من ذاكرة طفولتهما أشياء كثيرة عن لوحات مدهشة رسمها خلال دقائق، خاصّة لوحة قاربه الورقي الذي أرسله في النهر. وفي رسالة أخرى ذكّرته برسمه وجهاً جميلاً لامرأة حزينة على طائرتها الورقيّة المحطّمة، ذكّرته حين طلب منها الجلوس على كرسيّ في أرض الدار، امتثلت لأمره، رسمها على كرتونة كبيرة قياس 50+35 بسهولة، كانت اللوحة تشبهها رغم كآبة ظلال قلم الرصاص. ما زالت سعاد تحتفظ بلوحته معلقة في غرفتها، وبقربها لوحة لمارغو وأم الخير تقرآن في القرآن والأنجيل، رغم سذاجة الفكرة كان وجه مارغو يعبّر عن قلقها الدائم على حنّا الذي يبدو أنّه ينظر إليها مبتسماً من زاوية اللوحة.

ما زال وليم عيسى يذكر لحظة وصوله إلى إستنبول قبل تسع سنوات. أحبّ هذه المدينة دون سبب، كان يتسكّع في طرقاتها، يراقب نوارسها والمراكب التي تعبر البوسفور. يمضي وقتاً طويلاً في تأمّل الرسّامين والخطاطين في ساحة «بيازيت». بعد أشهر قليلة من وصوله اصطحبه صديقه اليوناني الموظف في الشركة نفسها إلى المتاحف وبيوت الرسّامين الذين يعرضون لوحاتهم للجمهور. يستيقظ وليم عيسى يوم عطلته ويخرج للتسكّع في الشوارع، يراقب لساعات خطاطاً أو رسّاماً مشغولاً بعمله. يكمل طريقه، يشعر بإحباط حين يفكر بأنّه لن يستطيع التوقف عن خيانة نفسه. لن يرسم الصور الكئيبة التي تتناسل في ذاكرته بلا توقف.

يوم تقديم استقالته شعر بحماسة شديدة، دون تخطيط رسم لوحة صغيرة لعامل تركي في الميناء، وجهه نحيل يوحي ببؤس مزمن. بعد أسبوع أنجز ثلاث لوحات، واحدة منها كبيرة لمجموعة بحّارة روس يشربون في بار قريب من الميناء، شعر بالرضى حين تأمّل الألوان، ووجوه السكارى المتسامحة، كان يفكّر أنّه لا يمكن لبحّار يرتاد باراً إلّا أن يكون ودوداً. حمل لوحاته وخرج من غرفته، كانت ماغي تنظر إليه خائفة لكن بتبجيل، كثيراً ما أخبرها بأنّه سيعتزل المحاسبة ليصبح رسّاماً. بعد استقالته من عمله لم تره يغادر غرفته لمدّة أسبوع، لم يطلب أيّ مساعدة، فكّرت بأنّه

أصبح شخصاً غير مفهوم، بالتأكيد يفكّر بطريقة مختلفة عن البشر العاديّين. طمأنها أنّ كلّ شيء على ما يّرام، وأضاف أنّه حقق حلمه الوحيد، لن يعود للعمل موظفاً وسيقضي عمره يحلم بأشياء غريبة.

وصل إلى منزل صديقه اليوناني، الذي ما زال غاضباً منه لتقديم استقالته وتفويت فرصة حياته، نظر إلى اللوحات وقال له: تركت العمل في الشركة من أجل هذا الهراء؟ حاول وليم شرح اللوحة لكنّه شعر ببؤس شديد. لا يريد صديقه أن يستمع إليه. كان يخطط لحياته الجديدة، كموظف سيترقى إلى رئيس شعبة محاسبة، يتزوّج، ينجب أطفالاً يعلمهم اللغة اليونانيّة، ويبتسم حين يلتقط مع عائلته صورة تذكاريّة أمام بوابة «دولما بهشا». صمت وليم عيسى، تناول كأس كونياك رخيص، وخرج مسرعاً. سار بخطى سريعة نحو مكتب البريد في «بيا أوغلو»، أرسل اللوحات الخمس إلى عنوان سارة لتوصلها إلى سعاد، دون أيّ كلمة، ستفهم معنى رسالته وتوزّعها بمعرفتها. شعر بحرّية كبيرة، تحرّر من ثقل اللوحات التي عرضها خلال الأشهر الستة الماضية على غاليريهات صغيرة في جيهان كير، فكان أصحاب الغاليريهات، بعد إلقاء نظرة واحدة عليها، يلوون شفاههم، وينصحونه برسم معالم إستنبول بدلاً من رسم وجه الفتى التركي، أو البحّارة الروس السكارى، أو وجه الفتاة الغامضة التي تشبه إحدى فتيات الدعارة المصابات بالسلّ، هذه الموضوعات لا تناسب أحداً من مقتني الفنّ في هذه المدينة، حتى هواة المجموعات الأجانب كانوا مولعين بلوحات الحياة العثمانيّة السرّية، نساء في حمّام عمومي، أو مجموعة حواة ينفخون النار أمام أحد السلاطين، لكن فئران ميتة في مستودع تفوح منه رائحة القنّب لا تعني أحداً.

كان الجوّ ماطراً، سار في الأزقة المتداخلة كعادته حين يجد نفسه وحيداً، لم يحتم بالمظلّات لحين توقف المطر الغزير، لا ضرورة لحياته إن لم تبللها الأمطار، وتحرقها شهب البرق المتناثرة، كان يردّد بمتعة هائلة الكلمات كأنّه يكتب نصّاً عن رجل يشبهه، وحيداً، غريباً، خائفاً، الشعور الذي لازمه طوال عمره. توقف المطر للحظات، وجد نفسه على مقعد حجري يطلّ على البحر، قريباً من مستودعات شركة الحاج بشير المفتي، يعرف هذا المكان وخفاياه وحرّاسه جيداً، قضى أشهراً طويلة يجرد بالات القطن المعدّة للتصدير إلى مانشستر، لم يعد يعنيه ذلك المكان بأي شيء.

جلس وليم على المقعد، غرق في تأمّل البحر، وألوانه القريبة إلى الرمادي. عاود المطر هطله لكنّه لم ينهض، كان مقيماً في لحظة الثبات التي اشتهاها، أول المساء عاد إلى غرفته، وبدأ من جديد يرسم كآبته، لم تتركه صورة الفئران الميتة التي تملأ أرضيّة المستودع الغارق في رائحة القنّب، في تلك اللحظات شعر بأنّه وجد طريق هلاكه الذي كان يبحث عنه.

في الأيّام الأخيرة من القرن التاسع عشر، بدأ يترنّح من الجوع، النقود الباقية تكفيه لأسابيع قليلة إذا اقتصد في مصروفاته، لم يفكّر من قبل بثمن الألوان والقماش، لكنّه رغم كلّ شيء كان سعيداً، تلقى رسالة طويلة من سعاد تشكره على لوحة الفتى التركي الرائعة كما وصفتها، التي احتفظت بها لنفسها، أثنت على بقيّة اللوحات التي وزعتها كهدايا منه لزكريّا وحنّا وعازار وسارة.

ترك له صديقه اليوناني قبل ثلاثة أيّام رسالة مع ماغي يطلب منه الحضور ظهر اليوم الأخير من سنة 1899 إلى منزل الحاج بشير المفتي صاحب شركة الأقطان والنسيج لمقابلته. كان وليم عيسى ينتظر هذا اللقاء، يريد الحصول على تعويضاته التي أنكرها عليه المدير، سيعرّج بعد ذلك إلى السوق ليحضر لحم خنزير من محلّ الطلياني في بيا أوغلو من أجل ماغي التي دعته لمشاركتهم سهرة استقبال يوم القيامة، ساخرة من المسيحيّات اللواتي رمين مدّخراتهن في صناديق

الكنائس، أضافت ماغي محدّثة وليم عيسى قبل خروجه إلى موعده: يجب أن لا تغيب عن استقبال اللحظة التي لن تتكرّر في حياتنا.

ارتدى طقمه الذي ما زال جديداً، كان يشعر بوهن كبير، أعجبته فكرة ماغي، استقبال لحظة لن تتكرّر في حياتهم بحفلة صاخبة بدأت الإعداد لها قبل شهر، دعت أصدقاء موسيقيّين يونانيين، وعدداً قليلاً من أصدقائها القدامى، أغلبهم أتراك مسيحيّون شغلوا وظائف عامّة صغيرة، ويونانيّون تجاوزوا الستين من عمرهم وما زالت قلوبهم مرحة، يحبّون الرقص، يتذكّرون أيّامهم الماضية بشجن ثقيل، يخططون للعودة إلى قراهم في اليونان، لكنّهم عاماً بعد آخر يتعفنون في المدينة الكبيرة، ويقلّبون أياديهم متذكّرين أنّ أغلب قراهم أحرقها جنود الإمبراطوريّة العثمانيّة، وباقي المدعوّين عادة من مستأجري المنزل.

وصل إلى منزل الحاج بشير الذي يحتلّ طابقاً أرضيّاً كبيراً على زاوية تقاطع شارعين، ويطلّ على الحديقة الخلفيّة لمدرسة غالطا سراي. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً، لم يتوقف الثلج منذ ليلة أمس، كانت المدينة بيضاء، تعبق شوارعها برائحة الفحم المنبعث من مداخنها، فتحت له الست خديجة خادمة المنزل الباب، يعرفها كما يعرف المنزل جيّداً، خلال سنوات عمله في الشركة قضى أوقاتاً طويلة يراجع حسابات سنته المالية مع الحاج بشير، الذي لا يخفي رغبته في التحدّث مع هذا الشابّ المفعم بالطموح، كما كان أبوه ميشيل من قبله، رجلاً يحب عمله، لا يخون ثقة معلميه، ويتمتع بروح غير جشعة.

كانت الشموع في بهو المنزل تذوب ببطء. كان الحاج بشير يحبّ إيقاد شموع معطّرة في النهار، قادته الخادمة إلى الصالون الدافئ، كان الحاج بشير جالساً قريباً من النافذة المطلة على حديقة المنزل، جلست بجانبه ابنته عائشة المفتي. استقبله بلطف وعانقه، وليم صافح عائشة بخجل وجلس على أقرب كنبة. حاول تذكّر الكلمات التي سيقولها للحاج كما خطّط في طريقه، لم يصدّق ما حدث، انحطّ بدنه، شعر بثقل رجليه كأنّهما رُبطتا بصخرة كبيرة، كانت عائشة المفتي قريبة منه إلى درجة أنّه يستطيع تشمّم أنفاسها، هز رأسه، وأطرق إلى الأرض يفكّر بالكلمات التي سيطلب فيها تعويضه، ينظر إلى عائشة المفتي دون خوف، ويعيد النظر مليّاً في نقوش السجّادة الممدودة على الأرض.

كانت عائشة تعاني من سأم الشتاء البارد، تنظر من نافذة الصالون إلى الثلج الذي لم يتوقف. اختلست نظرة إلى وليم عيسى، لم تكترث بإشارات والدها التي تطلب منها المغادرة إلى جناحها، اخترعت سيرة أخته وخطيبها لتتحدّث معه، تحدّثا عن أخته كصديقين، والحاج بشير شعر بالحرج، إنّه ينتظر مرسال الشيخ أبو الهدى الصيّادي، سيتناولان غداءهما ويصلّيان الظهر معاً، ثمّ يتحدّثان بمشروع مهم يطلب فيه الحاج بشير دعم أبو الهدى الصيّادي للحصول على موافقة مباشرة من السلطان عبد الحميد.

كان وليم عيسى يظنّ أنّه سيجلس نصف ساعة ويطلب تعويضاته ويرحل، لكنّه نسي كلّ شيء، قدماه لم تحملاه، دخلت الخادمة تحمل كؤوس الشاي، وبعد دقائق قليلة عادت مرّة ثانية وأعلنت وصول الشيخ محمود مبكراً، نهض الحاج بشير مسرعاً، وقاد الشيخ محمود إلى غرفة المكتب، لحظات وحلّ صمت ثقيل، لكنّها كانت كافية ليرفع وليم عيسى عينيه إلى وجه عائشة المفتي، كان يراها للمرّة الأولى في حياته. كانت تنظر إليه، شفتاها ترتجفان، قلبها يدق بقوّة، هي الأخرى لم تعد قدماها تحملانها، وجسدها تغزوه نوبات تنميل غير مفهومة.

كانت عائشة المفتي ترغب في التعرّف إليه، لم تخف ولعها به وخوفها من سيرته السيّئة التي يتداولها الحلبيّون، حين يضمّونه إلى أصدقائه، تتناقل نساء المدينة سرّاً سيرة عبثهم وحبّهم لبيوت الدعارة، يتحدّثن عن سهرات أسطوريّة المجون، تلتمع عيون بنات الطبقة الراقية ببريق غريب وهنّ يتحدّثن عن دلق زجاجات النبيذ على أجساد العاهرات اللواتي يرقصن طوال الليل عاريات، تفكّر عائشة بأنّه ليس كلّ ما يقال حقيقيّاً، لكن بالنسبة لها كانت الحكايات والشائعات مثيرة.

حين بقيا منفردين سألته مباشرة إن كانت نساء إستنبول يعجبنه أكثر من نساء حلب، أكملت سؤالها بثقة: أيّهنّ أفضل، اليهوديّات أم المسلمات أم المسيحيّات؟ كانت تغمز بأنّها تعرفه من قبل، لكن وليم عيسى كان غائباً عن الوعي، تأمّل جمال وجهها، شفتيها، وتكويرة نهديها المكتملين. لم يستطع الكلام، بادرها بالقول إنّه وصديقه عازار لا يشبهان صديقيه حنّا وزكريّا، أضاف أنّه أكثر جبناً من مشاركتهما عبثهما، وأكمل بكلمات متقطعة أنّ مدينة كحلب تحتاج إلى حكايات غريبة دوماً، سألها فجأة إن كانت مرتبطة. وصمت. كان الوقت يمرّ بطيئاً، سمع من الباب المفتوح صوت الشيخ محمود يرفع الصلاة، وصوت الحاج بشير يردّد وراءه بصوت مرتفع.

شعر وليم بأنّ عائشة لن تكون عابرة سبيل في حياته، وهي شعرت بأنّها تورّطت في قصّة من الصعب التكهّن بنهاياتها، كاد يُغمى عليها، لا تعرف لماذا سألته إن كان يعرف المنزل، أجاب بهزّ رأسه، أضافت أنّها تنام في الغرفة القريبة من غرفة الخادمة، البعيدة عن غرفة نوم أبيها ومكتبه الذي يحتلّ جناحاً خاصّاً. فهم الرسالة، استجمع شجاعته ولم يضع وقته، عرض عليها الهرب معه هذه الليلة لحضور حفلة ماغي لاستقبال قرن جديد، أضاف أنّها صديقة يونانيّة وتستطيع مساعدتهما، لم تفكّر طويلاً، أعجبتها الفكرة لكنّها شعرت بالخوف، ليس سهلاً الهرب من المنزل والتجوال ليلاً في شوارع إستنبول.

لم يطل مكوثه، قالت له إنّ أباها ينام بعد صلاة العشاء، اتّفقا على إشارة التلويح بالقنديل ثلاث مرات من نافذة غرفتها إذا وافقت على الانضمام إلى حفلتهم، ستنتظرها ماغي بعربة قرب باب الحديقة الخلفي لمدرسة «غالطا سراي»، وإن كانت أضواء غرفتها مطفأة ولم تأت خلال نصف ساعة تكمل العربة طريقها وينتهي كلّ شيء.

دخل الحاج بشير بعد الصلاة، طلب من وليم عيسى الانضمام إلى طاولة الغداء، اعتذر بتهذيب، ودّع الحاج بشير الذي قال إنّه ترك له تعويضه الذي نسي أن يطلبه في مكتب الشركة، شكره، وقبل مغادرته قال له الحاج إنّ أباه ميشيل قلق عليه جداً، عرض عليه التفكير مرة أخرى في العودة إلى الشركة، مضيفاً أنّه يستطيع اختيار المكان الذي يريد العمل فيه، قال إنّهم عائلة شريفة، لا تخون الثقة، ممتدحاً عمل أبيه لمدّة ثلاثين سنة في معمل عائلته، وأضاف أنّه يعرف بتفرّغه للرسم، لكن وليم عيسى كان يريد ترك المكان، لقد تعرّق جسده، ولم يصدّق أنّ رجليه تستطيعان قطع الأمتار القليلة الموصلة إلى باب المنزل.

لم تصدّق عائشة المفتي ما حدث، بعد مغادرته انسحبت إلى غرفتها، ظنّ الحاج بشير أنّها مريضة، لم يفهم اصفرارها خلال لحظات، طمأنته، وقالت إنّ البرد فظيع، والبقاء في المنزل وحيدة خلال الأسبوع الماضي زاد من كآبتها، مضيفة أنّها لم تحبّ إستنبول التي تزورها للمرّة الأولى في حياتها، بينما بقيت تمتدح لندن وباريس اللتين شعرت فيهما بحرّية أكبر.

كانت عائشة تبدو لمن يلتقيها لأول مرة فتاة ساذجة مسكونة بأحلام رومانسية، لكنّها تخفي تحت جلدها امرأة تحبّ المغامرة وتعجبها القصص الغريبة. تعدّها عائلتها لتكون فتاة عصريّة، تليق بزوج من الطبقة العليا، موظف كبير في الدولة مرشّح ليكون والياً أو صناعيّاً كبيراً طموحاً.

حظيت بتعليم جيّد عكس رفيقاتها وقريباتها اللواتي تزوّجن مبكراً قبل أن يتجاوزن الخامسة عشرة من أعمارهنّ. أتقنت الفرنسيّة بسهولة، وبدأت تخطّط لحياتها المختلفة، كانت واثقة بأنّها تستطيع فرض رغباتها على أبيها المولع بها، يتغاضى عن حجابها الذي كان ينزلق عن شعرها حين يكون برفقتها في تلبية لدعوة أحد القناصل الذين كان على قائمة المدعوّين إلى مناسباتهم الدائمة.

كان ينظر إليها بفخر، وهي تحدّث زوجات وبنات القناصل باللغة الفرنسيّة، وبثقة تبدي رأياً مشجّعاً لتعليم الفتيات، لا يخفي القناصل وعائلاتهم الفخر بوجودها في حفلاتهم، ينادونها باسمها دون ألقاب، كما يسمحون لها بمناداتهم بأسمائهم دون ألقاب، يقولون إنّ حلب تتغيّر، ويجب فعل الكثير لتخليصها من إرثها العثماني الثقيل، كانوا يهمسون سرّاً بهذه الآراء، توافق عائشة المفتي وتكمل أنّ مستقبل حلب مع أوروبا.

كلمات قليلة لا تعرف معانيها العميقة كانت تترك أثراً كبيراً في المتلقين من حولها، لكنّها الآن في رحلتها الأولى خارج حلب إلى أوروبا وإستنبول بدأت تفهم معنى أوروبا، شعرت بتعب شديد. أغلقت ستائر غرفتها واندسّت في سريرها، تفكّر بأنّ جسدها يجب أن يتوقف عن الرجفان، بالتأكيد لن تهرب من المنزل لتشارك شخصاً سيّئ السمعة كوليم عيسى ليلة القيامة، غفت قليلاً، شعرت براحة كبيرة، لكنّها حين نهضت بعد صلاة العصر، رأت الحاج بشير يقرأ القرآن، ويتحدّث عن «المشايخ المبروكين» الذين يقرعون الدفوف مبشّرين بيوم القيامة، عرض عليها الذهاب إلى السوق وتناول العشاء في مطعم «أسكي لوكاندة» الذي ترتاده العائلات الغنيّة، اعتذرت من الحاج، وطلبت من الخادمة تدفئة غرفتها، قبّلت والدها وتمنّت له مازحة ليلة قيامة سعيدة.

لم تصدّق نفسها تنهض من سريرها، تفكّر بعباءتها المطرّزة بخيوط الذهب، لم تصدّق أنّها تنتظر الساعة الثامنة ليلاً، خرجت من غرفتها، اطمأنّت إلى أنّ أباها نائم في غرفته منذ نصف ساعة، تفقدت مفتاح باب الحديقة الخلفي، كانت ترى من نافذتها العربة التي توقفت، أشعلت القنديل، لوّحت به ثلاث مرّات، خرجت من غرفتها، عبرت الحديقة وخرجت من المنزل، صعدت إلى العربة، كانت ماغي تنتظرها مبتسمة، كان وجهها لطيفاً، وعائشة المفتي تشعر بخدر لذيذ، قوّة غريبة تدفعها للذهاب نحو الهاوية، انشغلت بتأمّل إستنبول في هذه الساعة من الليل، كانت المدينة مزدحمة على غير عادتها في مثل هذا الوقت، لكنّه يوم استثنائي، كلّ البشرية مشغولة به، لا تصدّق أنّه بعد ساعات سينتهي قرن، في أعماقها لم تكن متأكدة من أنّ الحياة سيتغيّر طعمها مع بداية القرن الجديد. انتبهت إلى ماغي تخبرها بأنّ وليم عيسى سيصبح ذات يوم فنّاناً كبيراً، ولن ينسى وعده برسم صورة وجه قدّيستها على أيقونة ستهديها لكنيسة عمادتها في سالونيك.

طوال المسافة القصيرة كانت ماغي تتحدّث دون توقف، وعائشة المفتي تهز رأسها موافقة، مثبتة نظراتها على الشوارع الغارقة في الفوضى، مجموعة كبيرة من الجنود انتشروا على زوايا المدينة، مجموعة نساء مع رجال يسيرون ويتحدّثون بصوت عالٍ بلغة لم تفهمها، قدّرت أنّهم بلغار أو يونانيّون، باعة الكعك ولاعبو الكشتبانات كعادتهم يثيرون الجلبة، ويصطادون الزبائن السذّج. بدت لها إستنبول مدينة مرحة على عكس صورتها المتجهّمة التي شاهدتها قبل أيّام. حين نزلت من العربة كان وليم عيسى ينتظرها أمام باب البيت. كان متأكداً من قدومها، فكّر أنّه يحبّ هذا النوع من الفتيات الحمقاوات، الجريئات، اللواتي لا يوحي منظرهنّ بحقيقتهنّ، أمرت ماغي سائق العربة بالعودة منتصف الليل، ودخلت إلى حلبة الرقص مباشرة، كان الموسيقيّون يعزفون أغنية يونانيّة راقصة، انتبهت عائشة المفتي إلى أنّها لم تقل أيّ كلمة، حاولت قول أيّ شيء، لكنّها لم تستطع، قادها وليم عيسى إلى غرفته، ترك الباب وراءه مفتوحاً، كانت الغرفة تفصح عن هويّة ساكنها،

مواسير الألوان المفتوحة، اللوحات غير المنتهية، بقايا التبغ والشاي، الفوضى في كلّ زاوية، جوارب الصوف والمعطف القديم، ولوحة تضمّه مع أصدقائه يطيّرون طائرة زكريّا الورقيّة، تعرّفت إلى حنّا في اللوحة، ابتسمت، لكنّهما بقيا صامتين، لم يتعثّرا في الكلام، خرجا من الغرفة، شرب وليم عيسى نخب الجميع، رقص بعنف على وقع موسيقى السنتورات الثلاث، كان قلبه يضحك، روحه تطير، تلامسها عائشة المفتي التي استعذبت فكرة الصمت، لم تنطق بحرف، شاركت الجميع جنونهم بصمت، تهز برأسها مبتسمة، تراقب الوجوه المتحمّسة لرقصته، كانت تشعر بأنّ كلّ شيء من أجلها. وصلت رسائله بسهولة، وحين وجدت نفسها قربه في العربة التي خرجت من «كاراكوي» ووصلت إلى مدرسة «غالطا سراي»، كان المكان مزدحماً، مجموعة كبيرة من الدراويش يتجاوز عددهم المئة يقرعون الدفوف، ينشدون بصوت واحد، يقفون للحظات في الشارع حين يشير قائدهم بإشارة معروفة من يده، يرقصون غير مكترثين بالبشر الذين كانوا ينظرون إليهم باستغراب، كانوا مهمومين بيوم القيامة، يشعرون بالأرض تنزاح تحت أقدامهم. بقيت تنظر إليهم من نافذة العربة التي توقفت في الزحام، ارتمت في حضنه، قال الحوذي إنّ القرن سينتهي بعد خمس دقائق، استندت عائشة المفتي إلى ذراع وليم عيسى الذي لم يضع وقتاً، نزلا وسارا بضع خطوات مبتعدين عن الحوذي، كانت عدّة عربات متوقفة في المكان، انعطفا إلى شارع فرعي ضيّق، قبّلها من فمها قبلة طويلة، كانت قبلتها الأولى، التهب جسدها، تعلقت برقبته وقبّلته قبلات طويلة غير مكترثة بما يمكن حدوثه.

شاهدا من مكانهما جنون المدينة، أجراس الكنائس تُقرع، أصوات بكاء وموسيقى راقصة تنبعث من البيوت البعيدة، وأصحاب العربات المتوقفة كانوا ينتظرون أن يخفّ الزحام، ارتجفت عائشة بين ذراعي وليم عيسى الذي عاد إلى العربة فوراً، أمر الحوذي بالانعطاف إلى منزل الحاج بشير، بقيت عائشة طوال الطريق صامتة، وكان وليم عيسى غارقاً في رائحة عطرها، يتنفس المدينة من جديد، إنّه قرن جديد.

وصلت إلى المنزل، لم تصدّق أنّ الأمور مرّت بسلام، كانت عيناها غائمتين، قلبها يدق بعنف، وجهها وردي، تشعر بنفسها بجعة هائلة الحجم لكنّها تطير بخفّة في سماء المدينة الساحرة. فتحت نافذة غرفتها، كان وليم واقفاً مكانه على الرصيف المقابل، رأته تحت الثلج الذي لم يتوقف في تلك الليلة.

لم تحتمل رؤيته كمشرّد على الرصيف، يثبّت نظره على نافذتها، أشارت إليه بأنّها ستتفح له الباب، لم تكن تعرف أنّها أصيبت بجنون غير محتمل، لكنّها لم تفكر لحظة في كلّ ما تفعله، تريده في سريرها الدافئ.

قادته من يده إلى غرفتها، فكّرت بأنّ الفجر ما زال بعيداً، اطمأنّت إلى نوم أبيها، والخادمة، عادت إلى غرفتها، كان ينتظرها، شبه غائب عن الوعي، ارتمت بين ذراعيه، احتضنها بقوة، تشمّم رائحتها، لم يستطع مفارقتها لدقائق، أعجبته هذه الفتاة المسلمة الصامتة، التي تفوح منها رائحة عطر قويّ، وجهها الطويل الأبيض، وشعرها الأسود الذي كانت تتدلى خصله من تحت حجابها، تمنحها إثارة كبيرة.

غيّرت ملابسها، وارتدت ثوباً حريريّاً قرمزيّاً، شعرت بأنّها تبحث عن هذا الرجل بالضبط. لم تكن فتاة ضائعة بل تعرف ماذا تريد من الرجال والحياة في مدينتها حلب البعيدة، لم تصدّق أنّها قبّلته بهذه الحرارة في لحظة استقبال القرن الجديد، ولم تخش شيئاً، كان طعم شفتيه حلواً.

هدأت المدينة وغابت الأصوات، الليل الصامت، الشوارع الفارغة، في الغرفة الدافئة، تسير عائشة على رؤوس أصابعها، تضمّ وجهه إلى شفتيها، فكّرت بأنّه لا يمكن المكوث في الماضي، لقد مضى قرن بكامله، ووليم عيسى قربها يفكّر بأنّه شخص مختلف، كان يسمع صوت أضلاعه تتقصّف، يجب أن يغادر قبل الفجر، لكنّه لا يريد تركها وحيدة، لو يأخذها من يدها، يسيران إلى حلب، يدخلان مدينتهما، ويعيشان قرب النهر، في قارب صغير.

نبّهته بأنّه يجب أن يغادر، نهض واحتضنها من جديد، سار وراءها حذراً، وحين أصبح في الشارع، شعر بأنّه يريد الصراخ، سمع صوت أذان الفجر، أكمل طريقه سيراً على قدميه، ما زالت هناك مجموعة قليلة من البشر يحتمون من الثلج الذي لم يتوقف، وصل إلى غرفته، فوضى المنزل توحي بحجم عبث الليلة الماضية، ارتمى على سريره، لم يستطع النوم، شعر بأنّ أمعاءه تتقطع، برد شديد تسلل إلى مفاصله، فكّر بأنّه سيموت، حاول النهوض لكنّه لم يستطع، صوت أنينه القويّ أيقظ ماغي التي ما زالت مخمورة، أحضرت له مشروباً ساخناً، ونامت على كرسيّ بجانب سريره.

في اللحظات الأولى للقائها بوليم عيسى، فكّرت عائشة المفتي بأنّه رجل مناسب لمغامرة عابرة فقط، لم تجرؤ على إتمامها مع شابّ فرنسي التقته في حفل استقبال القنصل الفرنسي في حلب، عرض عليها السفر إلى باريس والعمل مع فرقته المسرحيّة الصغيرة، شعرت بالخوف من الفكرة، ودون تفكير تركته ومضت لتكمل حديثها مع زوجة القنصل. مغامراتها مع الآخرين كانت صغيرة، لم تتجاوز لمس اليد، أو ضغط الكفّ، مع وليم شعرت بروحها تتفتّت بين شفتيه.

استيقظت في العاشرة صباحاً، كانت الخادمة قد أعدّت إفطارها للمرّة الثالثة، كان أبوها قد غادر مبكراً لتفقد شؤون عمله، أعطتها الخادمة رسالة أتى بها شابّ يوناني، فتحت المظروف، ولم تصدّق عينيها، نهضت مسرعة وخرجت دون أن تشرح للخادمة أيّ شيء، وصلت إلى غرفة وليم عيسى، كان يهذي وماغي قربه تبكي بصمت، الطبيب الذي فحصه طمأنهما، مجرّد نوبة برد وسينهض منها بعد أيّام قليلة.

كان مرضه فرصة لعائشة، تأتي كلّ يوم صباحاً تعتني به، يتجاهل الإجابة عن أسئلتها الكثيرة عن ماضيه، كان يخبرها بأنّ في ذاكرته حقول رمّان يابس، وطائرات ورقيّة لا تطير، يصمت ويمسك بأصابعها، يتمهّل في كلّ شيء، يطلب منها تركه لمصيره، تشعر كلّ لحظة بأنّه يجتاحها، لا يمكن لرجل مثله أن يكذب، كان يبكي إذا تأخّرت عن موعدها، وفي ليلته الثانية لم يستطع النوم وهو يفكّر بأنّهما يقفان على صخرة متحرّكة في نهاية العالم.

لم يعترض الحاج بشير على خروجها للتعرّف إلى المدينة مع الخادمة التي كانت تتركها وحيدة وتذهب لزيارة أقاربها، خاف الحاج بشير على ابنته حين رأى شرودها الدائم، قدّر أنّه الشوق إلى حلب، أصبح لصمتها طعم مختلف، أخبرها بأنّهما سيغادران بعد ثلاثة أيّام إلى حلب، لقد مضت ثلاثة شهور على مغادرتهما حلب، إنّه وقت طويل، شعرت بارتباك ولم تستطع القول إنّها لا تريد العودة إلى حلب، فكّرت بالفراق، لكنّها تفاءلت حين نهض وليم من فراشه، مستعيداً عافيته، تعلقت بالمكان، أصبحت صديقة ماغي التي أحبّتها، تركت لها الوقت الكافي للعناية بوليم عيسى، غرفته الصغيرة الغارقة في لوحات غير مكتملة، ملابسه المهملة، أشيائه المبعثرة، لكنّها كانت تمسك بإناء روحه، قطرة قطرة، وحين يطفح الإناء بين يديها، تفكّر بأنّه لا يمكن للعالم أن يستمرّ كما كان.

في ليلتها الأخيرة في إستنبول تسلّل وليم عيسى إلى غرفة عائشة المفتي، تلقى الإشارة، عبر الباب الذي تركته له مفتوحاً، يعرف الطريق جيّداً، وصل إلى غرفتها، تمهّل في إغلاق الباب، لم

يمهلها، احتضنها وقبّل شفتيها بقوّة، شعرت بدوخة لذيذة، لا تعرف لماذا استسلمت له، لكنّها فوجئت باجتياحه لها كطوفان، إنّه رجل حلمت به من قبل، صاحب فضائح كبيرة، يعيش أغلب وقته مع العاهرات، يعرف الكثير عن الحبّ والنساء، شجاع لا تهمّه سمعته، يهدم أخلاق المدينة ويدمّر سمعة عائلته المحافظة، يترك عمله المستقرّ ويعيش في الحضيض، يرسم أشياء غريبة، ويتذوّق طعم الحياة، نعم إنّه رجلها المفضّل، حبيبها الأبدي، ولن يمنعها شيء عنه.

كان وليم عيسى شابّاً جميلاً، طويل القامة، تقاطيع وجهه الأسمر قويّة وعيناه جريئتان، أناقته، وخبرته في التعاطي مع النساء، لا يمكن لفتاة مثل عائشة المفتي مقاومتها، خلع وليم عيسى ملابسها بهدوء، مدّدها على السرير، لم يكن متعجّلاً، كان الليل في بدايته، ذكّرته بعذريّتها وعدم رغبتها في منحه غشاء بكارتها، تحدّث عن الحبّ كعاشق، صدّقته، في أعماقها كانت تشعر بأنّها لا تشبه الفتاة التي كانتها قبل رؤيته لأول مرّة، شيء في داخلها تحطّم ولا يمكن إصلاحه، جسدها، أعضاؤها لم تعد نفسها، كلّ شيء في حياتها اختلف، اللحظة التي انتظرتها لسنوات كانت قربها، استسلمت له، احتضنها بقوّة، قبّل نهديها الطافحين، بطنها، كعب قدميها، لم تخجل من عريها، استعرضته في المرآة، شعرت بروعة تكوين أعضائها كما أخبرها، في تلك الليلة حدّثها بشغف عن أحلامه في رسم وجوه الباعة الجوّالين في أزقة حلب، يريد أن تشاركه أحلامه، قبل رحيلها إلى حلب قضى الاثنان ليلتهما الأخيرة ملتصقين وعاريين، يتحدّثان عن اللوحات التي سيرسمها من أجلها.

فكّرت في أعماقها بأنّها تستحق هذه الشراكة، لم تفكّر في اختلاف الدين بينهما، قالت في أعماقها إنّ المغامرة تستحق، لقد وجدت هدفاً عظيماً تعمل من أجله، أغرمت بشفتيه، تنتظر قبلاته، وكلماته الساحرة عن تلك المتاهة التي سيقودها إليها، سيقضيان عمرهما يتذوّقان عسل الحبّ والحلم، فكّرت للحظات بأنّها قادرة على فعل أيّ شيء من أجل العيش مع هذا الرجل صاحب الخيال الآبق. لطالما كرهت الرجال البليدين، المهذبين الذين كانوا يزورون والدها في منزله الكبير، ويتحدّثون عن الأخلاق الحميدة، ويلمّح آباؤهم إلى إمكانيّة التقدّم لخطبة ابنته، لكنّ الوالد الذي وعدها ألّا يتحدّث في أمر الزواج قبل وصولها إلى الثامنة عشرة من عمرها، كان يعتذر بلباقة.

قبل بزوغ الفجر بكى الاثنان، شعرا بأنّ انفصالهما مستحيل، تركت له كلّ ثيابها التي نزعها قطعة قطعة عن جسدها، وترك لها كلّ الرسوم التي رسمها في غرفتها على مناديلها، كانت ذات أهمّية كبيرة بالنسبة لعائشة المفتي. اتفقا على طريقة المراسلة فور وصولها إلى حلب، طمأنها وليم عيسى بأنّه مستعدّ لأن يصبح مسلماً من أجلها، ولن يرفض والدها فكرة تزويجها به، كان الحاج بشير يحبّه، طوال سنوات عمله في الشركة، كان يمتدح أمانته وامتدح وليم عيسى ولع أبيها بالفنون، وانفتاحه وتحرّره، وأحلامه العظيمة التي كان يخبرها للجميع ببساطة.

قبل أن يصل إلى رصيف الميناء لوداعها عن بعد، أرسل برقيّة عاجلة لحنّا، يطلب منه مساعدته على ترتيب أمر مراسلته، وشرح له في رسالة طويلة كلّ التفاصيل، كما كتب رسالة ثانية لسعاد شرح فيها تفاصيل علاقته مع عائشة المفتي وطلب منها التعرّف إليها، كان يريد أن يخبر العالم كله بقصّة حبّه.

كانت عائشة المفتي تبتعد عنه، تشعر بأنّه يراها من مكان ما، نظرت إلى عشرات المودّعين، كان وليم عيسى يقف في الزاوية البعيدة، صعدت إلى السفينة، ولوّحت له، كانت تشعر بأنفاسه تلفح

رقبتها، لم يتحرّك من مكانه حتى تحرّكت السفينة وغابت. شعر بثقل في ركبتيه، سار على رصيف الميناء لا يعرف ماذا يفعل بوحدته.

قرأ حنّا الرسالة وضحك ساخراً من صديقه المتعلق بفتاة مسلمة تبعد عنه مئات الكيلومترات، لكنّه أمر خادمه صالح العزيزي بترك عمله كمراقب للفلّاحين في أراضيه وكخادم مؤقت، والانتقال نهائيّاً من قريته العنابية ليقيم في غرفة الخدم أسفل درج منزل حنّا في باب الفرج، متفرّغاً لمهمّة المراسل، يتناول رسالة موضوعة في صندوق حديدي معلق قرب الباب، يضع الرسالة في مغلف خاصّ مكتوب عليه اسم حنّا كريكورس ويسلّمها لموظف البريد ليرسلها إلى عنوان وليم عيسى، ويتسلّم رسائل وليم عيسى ويضعها في الصندوق نفسه ويترك بابه مفتوحاً.

في أول رسالة أُعجب وليم عيسى بجمل عائشة المفتي المسبوكة بقوة، لم تكن فتاة ساذجة، علمتها زيارتها الأولى إلى أوربا مع والدها أن العالم واسع ومليء بالأشياء الرائعة، ترفض ببساطة تكرار حياة أختها الغارقة في بؤس الأولاد، وثرثرات العائلة، والتقاليد الخانقة. بعد وصولها إلى حلب فكرت بماحدث. شاردة، وحيدة أغلب وقتها. تتلقى رسائله وتكتب له يومياً.

شعر صالح العزيزي بروعة حياته الجديدة كمراسل، سيعيش بعيداً عن شقاء الفلّاحين، والحصاد، والبذار، يقطع شوارع المدينة كلّ يوم، يصل إلى مركز البريد، يتسلّم الرسالة الواردة ويضع الرسالة التي يجب أن يرسلها، ويعود إلى غرفته، إنّها مهمّة سهلة، يفكّر بفرصته لتأسيس حياته هنا بعيداً عن قرية العنابيّة. جرّب لأول مرّة ارتداء بنطال وقميص، تعثّر في مشيته لكنّه بعد أسابيع قليلة اعتاد الملابس الجديدة، هجر شرواله الثقيل، ولم يعد يكترث لعائلته في العنابية، تباعدت زياراته، لم يعد مغنّي الحصاد حين كان يقود قافلة طويلة من الحواصيد، إلى حقول العدس والجلبان، يحثّهم على العمل بأغانيه التي لا تتوقف، كان صوته العذب ومغازلته للفتيات ومدحه للرجال تثير همم الحواصيد، تنتقل البهجة إلى الجميع الذين يذوبون تحت شمس حزيران في الحقول الواسعة.

في الشهر الأول لم يعرف شيئاً عن الرسائل ومضمونها، تلصّص ذات يوم وشاهد شابّاً صغيراً يضع الرسالة في الصندوق ويهرب مسرعاً. فكّر صالح العزيزي بأنّ مهمّته غامضة وخطيرة حتى يحيطها حنّا بكلّ هذه السرّية ويفرّغه ويدفع له راتباً شهريّاً من أجلها، إضافة إلى الوصايا والتحذيرات الكثيرة. شعر صالح العزيزي بإحساس غامض، أنّه شريك في مؤامرة كبيرة. بعد أقلّ من شهرين سأله موظف البريد عن سرّ الرسالة اليوميّة التي يرسلها حنّا كريكورس إلى صديقه وليم عيسى، همس له أن يكون حذراً، قد يكون الاثنان يحوكان مؤامرة ضدّ الوالي.

لم يستطع صالح الإجابة عن الأسئلة السريعة لموظف البريد، لكنّه شعر في لحظة بأنّه يجب أن ينقذ معلمه من شبهات الموظفين الصغار المؤذية، قال له إنّ حنّا وصديقه وليم عيسى يعملان في تجارة الجلود، وهذه الرسائل تخصّ عملهما، لكنّه في طريق العودة وهو يقلّب بين أصابعه رسالة وليم عيسى فكّر بأنّ الموضوع يخصّ امرأة.

فكّر في تلك الليلة بأنّه يتحسّس وقع الكلمات القويّة في المظروف، تلفحه الحرارة، أنهى عمله وعرّج إلى منزل الرجل الذي قابله مرّات عديدة في المقهى، كان يتحلّق حوله عدد كبير من أفنديّة المدينة ويسألونه عن كلّ شيء، كان رجلاً متواضعاً، يعلّم الأطفال في منزله قرب مدخل سوق النحّاسين، ويحقق المخطوطات القديمة، قرع صالح الباب وانتظر خائفاً، فتح له تلميذ صغير الباب، طلب صالح مقابلة المعلم جنيد خليفة، أفسح له المجال دون تردّد، طلب صالح من المعلم تعليمه القراءة والكتابة.

نظر إليه جنيد خليفة وتفحّصه، يبدو ريفياً يحاول التمدّن، لم يمهله صالح وقال إنّهما من القرية نفسها، عرف جنيد خليفة عائلة صالح العزيزي وأثنى على جدّته. عرض صالح العزيزي خدماته على الرجل، يستطيع فعل الكثير من الأشياء، ينظف غرفة الصف، يقطع الحطب، طلب الرجل الصامت منه الانضمام إلى الصفّ في اليوم التالي. كان صالح العزيزي قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره، قويّ البنية، قصير القامة، تلتمع عيناه بذكاء حادّ. لم يصدّق جنيد خليفة قدرته على التعلم، بعد شهر كان يقرأ كلمات بسيطة، يحتمل سخرية الأطفال الصغار زملائه في الصف، وبعد ثلاثة أشهر كان صالح قادراً على كتابة جمل بسيطة دون أخطاء، لا يتوانى عن تقديم خدمات لا يطلبها أحد منه، ينظف غرفة مبيت معلمه، يصبّ القار على السطح، يصلح المزاريب، يعزّل البئر، يقود التلاميذ الصغار ويسلمهم إلى أهاليهم.

كانت المرة الأولى التي يجرؤ فيها صالح العزيزي على فتح أول رسالة من عائشة المفتي إلى وليم عيسى، شعر بدوار وهو يقرأ الكلمات التي فهم أغلبها، امرأة تكتب إلى رجل لم ينس عباراتها القويّة «تعال لتقطف وردتي»، «ومخدتي مبللة بدمع المشتاقة»، «وأنا دونك ورقة شجر ضائعة على صفحة النهر» وعبارات كثيرة بدأت تعلق في ذهنه ويحفظها غيباً.

لم ينم ليلتها، فكّر بطريقة لرؤية عائشة، لا يمكنه تخيّل معنى كلمات امرأة لرجل يعيش بعيداً عنها كلّ هذه المسافات. في اليوم التالي أحضر دفتراً كبيراً، ونقل الرسالة كاملة إلى دفتره، شعر بأنّه يرتكب حماقة كبيرة، لكنّه لم يستطع مقاومة إغراء قراءتها مرة أخرى في هدأة الليل قبل أن يندسّ في فراشه.

اشتاق وليم عيسى إلى عائشة المفتي وشعر بضيق، كل يوم يدور حول منزل الحاج بشير المفتي المهجور، ينتظر أن تفتح يد عائشة المفتي السحرية الباب، لاحظ ذبول النباتات في الحديقة، حتى الخادمة لم تكن موجودة. يسير في الطرقات على غير هدى ويسأل نفسه ماذا يفعل بعيداً عنها. نفدت نقوده ولن يستطيع دفع إيجار الغرفة بعد شهرين، ستنتهي ألوانه قريباً، واللوحات المكدّسة في الغرفة لم يكترث أحد بها، رسائلها اليوميّة تمنحه طاقة عظيمة، لم تستسلم ماغي، أقنعت راعي كنيسة كاراكوي باستخدام وليم في ترميم الأيقونات المحفوظة منذ مئات السنين في أقبية الكنيسة. العمل المكرّر والتعاطي مع مرمّمي الأيقونات الذين تعاملوا معه بغلاظة، والعيش في قبو الكنيسة لم يعجب وليم عيسى، لم يكن مؤمناً كفاية ليحبّ حياة الكنائس والأديرة، يريد رسم الفلّاحين في الحقول، والبحارة في البارات.

ترك لنفسه حرّية العيش بعيداً عن الواجبات، هذا ما يحتاج إليه العاشق، الوقت الطويل للتفكير في الحبّ، كتب لعائشة أنّه سيعود إلى حلب ليقضي الشتاء قربها، ولم يعد يحتمل تنفّس هواء مدينة لا يتشاركان ليلها.

كان صالح العزيزي يخطّ على دفتره الرسالة التاسعة عشرة حين خطرت له ملاحقة الخادم الصغير الذي لم يشعر بخطوات صالح وراءه، رآه يدخل من البوابة الضخمة لمنزل كبير يشبه قصراً صغيراً محاطاً بالأسوار، عرف أنّه قصر الحاج بشير المفتي، دار حول المنزل ليالي بأكملها، لمح عائشة تفتح نافذة غرفتها، كانت ترتدي قميص نوم قطنياً، وشعرها مفرود دون حجاب، بيضاء، طويلة، تقصّفت ركبتا صالح، لم يرَ جمالاً فاتناً كهذا من قبل، حام حول المنزل لأيّام، رآها للمرّة الأولى تخرج من باب المنزل، تركب عربتها، محجّبة وتكشف عن وجهها، لحق بها، شعر بأنّها فتاته التي حلم بها، مرّت قربه غير مكترثة، لفحته رائحة عطرها القويّة قبل دخولها منزل الست حسنيّة الخيّاطة. لم يكن صعباً على صالح ربط علاقة وليم عيسى بسعاد

البيازيدي التي تعمل في مشغل الست حسنيّة، كثيراً ما أرسله حنّا إلى منزل أحمد البيازيدي، محمّلاً بأفضل سلال الكرز أو التين، وفي ما بعد أرسل سلال الجوز والعنب إلى منزل الست حسنيّة.

انقطع صالح عن حضور دروس المعلم جنيد خليفة الذي أرسل له تلميذاً يستفسر عن أحواله، لكنّ التلميذ الصغير لم يفهم معاني كلمات صالح العزيزي التي كان يردّدها. فكّر جنيد خليفة بأنّ تلميذه الذي قال إنّه تحوّل إلى نسمة هواء تعبر غرفة المحبوب قد أصابه الوجد العميق، حين رآه بعد أيّام كان شخصاً مختلفاً، يردّد جملاً مذهلة عن الحبّ والفناء، قال لمعلمه: هل تصدّق يا معلّمي أنّني أمس كنت أقبّل الإصبع الصغرى لمحبوبتي، واليوم أنا زرّ صغير في ثوبها، وغداً أنا الغبار الذي سيندسّ في ثوب نومها، ليتشمّم عطر النهدين.

شعر وليم عيسى براحة كبيرة لقراره، جال في إستنبول طوال النهار، توقف قرب الصيّادين الفقراء، يراقب وجوههم المتعبة، يقرأ رسالة عائشة المفتي الجديدة حتى يحفظها عن ظهر قلب، يجلس في جايخانه بي أوغلو، يكتب لها صفحات طويلة، يرسم لها وجوهاً من المدينة، يقول لها «أمس حلمت بك، لا جديد لديّ إذن، لكنّني اليوم صباحاً درت حول منزل أبيك سبع دورات كما يفعل المؤمن في الحجّ إلى مكّة المكرّمة». يتابع الكتابة، يرسم نورساً كبيراً، يغلق الرسالة، ويرميها لموظف البريد في غالطا سراي الذي حفظه، وبدأ يمازحه متسائلاً عن الاسم الحقيقي لصاحبة هذه الرسائل، لم يتردّد في القول هذه رسائل عائشة لكنّه لم يقل المفتي، هز الموظف برأسه متفهّماً ومتعاطفاً.

كان يريد لكلّ المدينة أن تعرف قصّته، حين نظر إلى المرآة بعد زمن طويل شعر بالرعب، كانت عيناه غائرتين، وجسمه أكثر نحولاً، لقد غار دمه في الأودية العميقة، تسعة أشهر كافية ليتفتّت، لم يخرج من غرفته قبل ترتيب حقيبته، دسّ لوحات عائشة الست، وترك بقيّة اللوحات لماغي التي لم تصدّق أنّه سيرحل، أيقظها قبل الفجر، كان جاهزاً للمغادرة، لا قيمة لمدينة سماؤها لا تضمّ أنفاسها، تفهّمت ماغي شوقه، بكت بحرقة، وخرج مسرعاً ليرمي برسالته الأخيرة التي كتب فيها أنّه في الطريق إليها «على صفحة الماء أمشي، تحملني أجنحة الندم، كيف لقلبي القاسي أن يتركك كلّ هذه الشهور، لتنهشني الوحوش وتمزقني طيور البراري، لن تكوني إلّا لي، لن أكون إلّا لك حتى لو جثة هامدة». بكت عائشة وكانت تحسب الدقائق لوصوله، كلماتها لم تعد كافية، تبقى في السرير ساعات طويلة، تشعر بأمراض وهميّة تصيبها، لكنّه سيصل، وفكّرت بأنّها ستبقى في حضنه قرناً كاملاً، تتشمّم رائحة صدره، وتندسّ في خاصرته إلى نهاية العالم. ركب الباخرة إلى إسكندورن، وبقي جالساً على كرسيّ طوال وقت الرحلة التي استغرقت ثلاثة أيّام ينظر إلى النقطة ذاتها، يريد أن يعذب نفسه، يقتات من الأرغفة القليلة التي لفّتها ماغي على شكل زوّادة تقيه الجوع في الطريق، كانت تعرف أنّه لا يمتلك سوى مجيديات قليلة لا تكفيه أجرة الطريق.

ظهور عائشة المفتي في منزل الست حسنيّة قلب حياة سعاد، في أول زيارة، تقدّمت من سعاد قبّلتها وقدّمت نفسها، كانت سعاد قد أرسلت لها رسالة تدعوها لزيارتها في المشغل، تعرف قصّتها مع وليم عيسى. كانت عائشة المفتي هديّة ثمينة لسعاد، فتاة سافرت خارج حلب، جالت في أوروبا وإستنبول، تشبهها، قويّة، واثقة من نفسها، لا تخشى شيئاً. لم تضيّع سعاد وقتها، حدّثتها عن طفولتها مع وليم عيسى وعازار وحنّا وزكريّا وسارة. روت لها طرائف بعيدة، وأصبحت الفتاتان صديقتين حميمتين، تتبادلان الأسرار والزيارات الدائمة.

حين أخبرت عائشة المفتي سعاد بموعد وصول وليم عيسى، طمأنتها سعاد بأنّها ستهتمّ بتدبّر أمر لقائهما. تذكّرت سنوات طفولتهما، كان وليم عيسى الأكثر رقّة، والأكثر حرصاً على إرضائها. صمّمت على أن تساعد صديق طفولتها والفتاة التي أصبحت صديقتها الحميمة.

في اليوم التالي لوصول وليم عيسى إلى حلب، قضى الليلة الأولى في منزل أهله، وفي اليوم التالي انتقل للعيش في منزل حنّا في باب الفرج، لم يعد يطيق سماع حديث أبيه عن ضرورة عودته إلى عمله محاسباً في الشركة. ذهبت سعاد إلى منزل الحاج بشير المفتي، اصطحبت عائشة المفتي إلى منزل عائلتها، أرسلت خبراً لوليم عيسى تخبره عن موعد اللقاء، كان أحمد البيازيدي مسافراً لتفقد منزله الصيفي في أريحا، جهّزت لهما القبو الذي سيضمّ ذات يوم مانيكاناتها، شجّعت عائشة المفتي على فقد عذريتها، همست لها بأنّه لا أحد جديراً بمنحه هذا الشرف سوى الرجل الذي نحبّه، وحين سألتها عائشة المفتي: هل فعلت ذلك؟ قالت بأسى إنّ من أحبّته كان جباناً وهرب من الحبّ، أضافت أنّها تجهّز عروسه التي سيتزوّجها بعد أسابيع قليلة. فهمت عائشة المفتي أنّها تتحدّث عن حنّا، كلّ يوم كانت عائشة المفتي تشعر بقرابة روحيّة أكثر مع سعاد التي تقول عنها نساء المدينة إنّها متكبّرة، وقاسية، وقويّة، لا يمكن لرجل إن لم يكن قاتلاً أن يعيش معها، ثمّ يكملن أنّها ستبقى عانساً إن بقيت ترفض الخاطبين الذين يتقاطرون بالجملة إلى مكتب أبيها، وأغلبهم أبناء عائلات مرموقة وغنيّة.

سألت عائشة المفتي وليم عيسى في لقائهما الأول الذي حرسته سعاد: هل تريد قطف وردة عذريّتي، شعر وليم عيسى بورطة حقيقيّة، وقال ببساطة نعم، كان ينظر إليها بجنون، لا يصدّق أنّه يلامسها، حملها بين ذراعيه، مدّدها على الأرض وقبّلها بنهم من كلّ المسامّ، كان يهذي، وكانت عائشة تغيب وجداً، تتمسّك به وتشدّه إلى جسدها، تريد له الذوبان فيها. كانت ساعات قليلة لكنّها عبرت بهما إلى أمكنة بعيدة، شعرا بأنّ أشواقهما لا تنطفئ، لن تنطفئ، لا يمكن أيّاً منهما الابتعاد عن الآخر، كانت عائشة المفتي مستسلمة له، وكان يريد اختصار الأشهر التسعة الماضية، لا يمكن لشوق العاشق أن ينطفئ، بل يزداد اشتعالاً وحرارة، لم تصدّق أنّ المساء قد هبط، وتسمع صوت سعاد تخبرهما بضرورة عودة عائشة المفتي إلى منزل أهلها قبل حلول الظلام.

بعد عودتها إلى منزل أهلها، تابعت طريقها إلى غرفتها، شعرت بالشوق الذي لا ينتهي، انتظرت الساعة التاسعة، نام كلّ من في المنزل، خرجت إلى التراس، كان وليم عيسى يحوم حول منزلها، يخفي وجهه، وينظر إليها من بعيد، بقي ساعات ينظر إليها من بعيد، حتى منتصف الليل، لوّح لها من بعيد وغادر المكان، لم يأبه لحظة بما يمكن أن يحدث.

تكرّرت لقاءاتهما في منزل تدبّرت أمره سارة أخت عازار، استأجرت لهما غرفة صغيرة في منزل كبير ملاصق لمطبعة باب النصر تؤجّر صاحبته اليهودية الغرف الخمس لعائلات فقيرة، وتترك هذه الغرفة لتؤجّرها للقاءات عاطفيّة عابرة، غالباً ما كانت سارة تأتيها بالزبائن بعد احترافها عمل المرسال وحافظة أسرار العشّاق الذي برعت فيه، يساعدها زوجها ديفيد الذي بقي يعمل حارساً للحمّام وموقداً للنار في مراجله. كانت سعاد متحمّسة لمساعدتهما، كانت تطلب من الخادمة البقاء في مشغل حسنيّة، ترتّب قصاصات القماش، ترافقها إلى باب منزل اليهودية، ترتدي الاثنتان الملحفة، وتضعان غطاء وجه كتيماً، تسحبان طفلين تتدبّرهما سارة، تبدوان كامرأتين في طريقهما إلى منزلهما. كانت تريد في أعماقها التعبير عن امتنانها لوليم عيسى، صديق طفولتها الذي حُرمت من التواصل معه حين كبرا، ولم يبق لهما إلّا الرسائل، وبعض اللقاءات العابرة، كانت تكتب له عن ألمها، وهجر حنّا، يشاركها وليم عيسى أفكارها حول رغبتها في تأسيس مشغل

خياطة خاصّ بها، يشجّعها على حلمها بتنظيم عرض للأزياء، ويقدّم لها تصاميم ملوّنة لفساتين غريبة، كانت سعاد تحبّها، كان يرسم لها أحلامها، يشعر بقرابة روحيّة قويّة بينهما، وكان مستودع أسرارها.

كانت في أعماقها تريد لعلاقة عائشة المفتي ووليم عيسى النجاح. حين يغيب أبوها في سفر مفاجئ، تدعوهما إلى المنزل، ترتّب الأمر بنحو جيّد، وتحرسهما، لا تريد لأيّ مفاجأة إفساد الأمر أو فضحه، ينسلّان إلى القبو الذي أصبح مكان سعاد المفضّل منذ سنوات، تخزّن فيه الأقمشة وصناديق تصاميم أزيائها الخاصّة، تخفي رسوم أحلامها التي يرسمها وليم عيسى. كانت سعاد تجعل القبو مكاناً مثالياً للقاء سرّي لعاشقين، يدفنان أسرارهما في ذلك المكان المعتم. تأتي عائشة المفتي في الساعة العاشرة صباحاً، تشرب قهوتها مع سعاد، تستأذنها في انتظار وليم عيسى الذي ينسلّ عبر الباب الجانبي المفتوح، يقطع أرض الدار الكبيرة التي يعرف كلّ تفاصيلها منذ أيّام طفولته، تحضر لهما سعاد صحون الفواكه، ومكسّرات، ومجموعة من أعواد البخور الهندي، وشراب الورد، وتحرسهما.

يدخل وليم إلى القبو، وعائشة تنتظره، تتعلق برقبته، تقبّله بنهم كبير، لم تعد تخاف، تقضي ثلاث ساعات بين أحضانه، وتهمس له أن يقطف عذريتها، لكنّه يتمهّل، ويخبرها بأنّه بعد عودته من إستنبول ومشاكله المتواصلة مع أهله، بدأ يفكر في طريقة لبقائهما معاً إلى الأبد. حين تكون قربه يشعر بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام، تراجع في اللحظة الأخيرة وهو يتأمّل عضوها الوردي، كان يشعر في أعماقه بهوّة سحيقة مليئة بكلّ ما يخصّها، رائحتها، صوتها، شعرها، كلماتها الشبقة، أحلامها، كان يقول إنّ الحبّ هو أن تمتلئ بتفاصيل امرأة تستطيع طرد كلّ النساء من أعماقك.

احتمل وليم عيسى سخرية حنّا وزكريّا وعازار من نظريّته، وحديثه الرومانسي الذي يشبه العشّاق المعتوهين، الذين يقضون عمرهم في الحديث عن محبوباتهم، يعانون الفراق، وينهون حياتهم متصوّفين في إحدى الزوايا يتحدّثون عن رغبات غير محسوسة، يتحوّلون إلى مجاذيب، فاقدين لألق العاشق. لكنّهما في الوقت ذاته شعرا بأنّ وليم عيسى جادّ في قصّته، ولم تكن نزوة طارئة، فكّر حنّا للمرّة الأولى بخطورة ما يفعله وليم عيسى، لكنّه تباحث مع زكريّا وعازار وقرّروا الوقوف مع صديقهم مهما كلّفهم الأمر.

أثناء تناول عشائهم وعده أصدقاؤه بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام، سيمهّد حنّا الطريق لارتباطهما. لم يكن الحاج بشير المفتي شخصاً متعصّباً. وعقدة أعمامها، وعائلة ميشيل عيسى المتديّنة، سيجري التعامل معهما بهدوء وصبر، إذ ليس من السهل على مسيحيّ أن يشهر إسلامه من أجل الزواج بفتاة مسلمة. لكنّ حنّا كان واثقاً بأنّه سيجد طريقة لحلّ هذه المشكلة، يشعر في الأشهر الأخيرة بأنّه في أفضل حالاته، تربطه علاقات قويّة بأهمّ أركان السلطنة، الوالي والقضاة، الموظفين الكبار ورجال الدين المسيحيّين والمسلمين، أصبح في النهاية رجل الجميع، كانت تستهويه الألعاب الكبرى، ولا يرغب في مزاحمة أحد، فجأة يغيب عن الأنظار ليظهر في منتصف معركة ساخنة، يبدي رأيه ويتدخّل في إنهائها.

بعد عودة عائشة المفتي من إستنبول، كانت فتاة مختلفة، تساعد أختها في تدبير شؤون أولادها الأربعة، تشارك أباها تفاصيل عمله، تراجع الحسابات وأحياناً تزور معمل النسيج، لا تأبه بنظرات العمّال المستغربة لوجودها في هذا المكان، تطمئنّ على أوضاع العاملات، وتبدي رأيها في الأصباغ التي اهتمّت بالقراءة عنها، ثمّ تقضي وقتها الفائض مع سعاد، تتبادلان كلمات سرّية

تعرفان شيفرتها، تحضر جهازها، وتوصي المدام حسنية على أفضل أنواع الأقمشة، لم تكن تحبّ الغرق في الأشياء، تؤيّد سعاد بأنّ أشياء قليلة تكفي، لكنّها لا تخفي ولعها بأنّ هذه الأشياء القليلة يجب أن تكون ثمينة، تحبّ تطريز ثياب النوم بخيوط الذهب، وتوصي على أطقم من ملاعق الفضّة الخالصة، تفكّر في تفاصيل الأشياء التي ستشكل عالمها الساحر مع وليم عيسى.

تزور المياتم ولا تبخل في التبرّع للجمعيّات التي تعتني بالعجائز والأطفال اليتامى، تتطوّع لتعليم اللغة الفرنسية للفتيات، وتهتمّ بشؤون مدينتها مع مجموعة فتيات كنّ يجتمعن ويتحدّثن بصوت عالٍ عن الجهل، ويضعن الخطط لتعليم الأطفال، يتبادلن الكتب التي تأتي في البريد من باريس وبيروت، ويدعمن الصحافيّين الإصلاحيّين الذين يتحدثون عن حقوق المرأة، ويرسلن الرسائل إلى الصحف يرغبن في المشاركة في تحريرها.

كان أبوها يشعر بالفخر، لقد كبرت عائشة المفتي كما أراد لها، كان يخاف عليها، ويفكّر بأنّه إذا مات فستنهشها العائلة التي لم يعد يتعاطى مع أفرادها إلّا في المناسبات القليلة، كان إخوته ينتقدونه ويحدّثونه في تفاصيل الحكايات التي يثرثر بها سكان المدينة، عن فلتان ابنته، وعلاقاته مع جماعة عبد الرحمن كواكبي والملحدين والكفّار الذين ارتفعت أصواتهم في الآونة الأخيرة، إلى درجة تشكيكهم ومطالبتهم بإصلاح الدين نفسه، يريد لها زواجا ناجحاً يحميها من الإشاعات التي تلاحقها، كما لاحقت بعض صديقاتها في السنوات الأخيرة، لكنّه لم يفلح في إقناعها بالشبّان الذين كانوا يتودّدون إليها.

بعد عودتهما من إستنبول دخلت عائشة المفتي عامها الثامن عشر، ازدادت جمالاً، بقامتها الممشوقة، ورقبتها التي ورثتها عن عمّتها أيقونة المدينة. لكنّ عائشة المفتي كانت أكثر حرارة من عمّتها، أقصر قليلاً، جلدها الناعم الأبيض مستعار من جدّتها الحلبيّة. ما زالت تذكر تلك النظرات الحزينة التي كانت توجّهها إليها حين تحملها بين ذراعيها وتتمتم بأنّها ستكبر وستحرق فتنتها قلوب الرجال. كان جميع أفراد العائلة يأخذون كلمات الجدّة على محمل الجدّ، إلّا أنّهم تناسوها حين كبرت عائشة المفتي بعيداً عنهم، بعد خلافات أبيها مع إخوته وأبناء عمومته على ميراث الجدّ الكبير، في القضيّة التي اشتهرت في المدينة بدكاكين سوق الخيش.

تقول نساء المدينة إنّ عائشة المفتي استعارت من نساء عائلتها الشهيرات بجمالهنّ أفضل ما لديهنّ، لكنّ خفّتها لم تكن تعجب أولئك النسوة اللواتي ينشغلن بتبادل معلومات دائم عن أفضل العرائس، وخرج اسم عائشة المفتي من التداول بعد رفضها حفيد مفتي إنطاكية المتخرّج حديثاً من كليّة الطبّ في إستنبول، ويشغل والده منصباً كبيراً في قصر «يلدز»، لم يعد أحد يجرؤ على طرق باب منزل أهلها، تداولت المدينة تفاصيل ردّ الهدايا الثمينة وكلماتها حين قالت له: «تستطيع شراء كراسي مساندها من ذهب لكن ليس قلب امرأة وُلدت على صفحة ماء النهر ووهبت نفسها للبحار العميقة».

لم يفهم أحد معنى كلماتها تلك، لكنهم توقفوا عند طقم الذهب المشغول بعناية والموقع باسم الصائغ ذي القناع الذهبي الأرمني الذي تتزاحم نساء الطبقة العليا في إستنبول عاصمة السلطنة على اقتناء مصوغاته القليلة والنادرة، ليفاخرن بها.

مضى الخريف، رتّب وليم عيسى حياته في المدينة، بقي ينتقل بين منزل عائلته ومنزل حنّا في باب الفرج، بحث عن مكان يحوّله إلى مرسم خاصّ به، وبدأ يفكّر في استئجار منزل ليكون عشّ زوجيّته، وعائشة المفتي تنهض مبكرة من النوم، تأمر الخادمة بإحضار إفطار أبناء أختها، تراقب غذاء أبيها الذي يعاني من أمراض الروماتيزم، وفي موعدها تخرج إلى منزل الست حسنيّة

وتتسلل منه برفقة سعاد وسارة تسير أمامهما لتطمئنّ إلى خلوّ الطريق من أيّ مفاجآت، وحين تنعطفان إلى شارع «الخندق» تسير وراءهما لتطمئنّ إلى أنه لا أحد يلاحقهما، يصلن إلى الغرفة في منزل اليهوديّة كلّ يوم اثنين وخميس حيث ينتظرها وليم عيسى. في اللقاءات الأخيرة بدآ يتحدّثان في ترتيبات خطبتهما، كان حنّا وزكريّا وعازار قد وعدوه بالمساعدة وتقديم كلّ الدعم المطلوب، غير متناسين أنّ أمر تغيير دين وليم سيكون كارثة تصيب عائلته، وموافقة والدها ليست مضمونة، لم يكن الحاج بشير يرغب في الصدام مع المسيحيّين أو في أن يكون سبباً في فتنة.

في طريقها المعتاد إلى لقاء وليم، كانت عائشة مسترخية في جلستها، تفكّر بعذوبة أن تكون محبوباً، حين سمعت صراخ سائق عربة اعترضت طريقها تحاول الدخول إلى شارع فرعي، مدّت رأسها من نافذة عربتها، كان حوذيّها يعتذر من حوذي عسكري رغم أنّه لم يخطئ، كان يوبّخه بكلمات نابية ويهدّده، نزل حكمت ضاشوالي الضابط العثماني من العربة، ورأى عائشة، نظر إليها مليّاً، أمر حوذيّه بإكمال طريقه، لكنّه لم يستطع النوم ليلتها، كان قد سمع من عمّاته عن عائشة، لم يصدّق هذه الثقة في عينيها.

لم تتحمّس عمّاته لخياره، قلن إنّ الرجال يخافون من الفتيات القويّات، وعائشة المفتي قويّة جداً، وحمقاء، تتصرّف بخفّة ولا تقيم وزناً للتقاليد، لا تناسب ضابطاً قويّاً مقرّباً من السلطان عبد الحميد الثاني شخصياً، تنتظره مناصب مهمّة جداً في المستقبل القريب. سمع في الأشهر الماضية حكايات كثيرة عن عائشة المفتي، التقاها صدفة على رصيف ميناء إسكندرون، كانت تترجّل من الباخرة القادمة من إستنبول، كان لقاءً قصيراً لكنّها كانت تتصرّف بثقة مع الحمّالين الذين يحملون حقائبها، كانت برفقة أبيها، تتأبّط ذراعه وتسير كأميرة نحو عربتها، تأمّل ثقتها بنفسها، وجمالها، ولم يصدّق أنّ الرجال من الممكن أن يخافوا من امرأة. بالتأكيد رجل مثله سحل جثث الأرمن في شوارع الرها، حارب لسنوات وقمع أيّ احتجاج ضدّ السلطان في مدن الأناضول لن يخاف من امرأة، كان اسمه كافياً لبثّ الرعب في قلوب أشدّ المعارضين. لم ينتظر طويلاً، أرّقه وجه عائشة المفتي ليالي طويلة، اقتنع بوجهة نظر عمّاته بأنّه يجب أن يبحث عن عروس من بنات الرجال القريبين من السلطان عبد الحميد الثاني، ويفضّل أن تكون تركيّة، لكنّه في ذلك اليوم حين التقاها مرّة أخرى في شارع الخندق شعر بأنّ هذه هي المرأة التي يبحث عنها. حسم أمره، قرع باب منزل أبيها الحاج بشير المفتي، طلب يدها دون مقدّمات، قال له إنّ السلطان عبد الحميد شخصياً سيكون مسروراً لقبوله عرض الزواج. كانت رسالة واضحة أكّدها الوالي الذي أتى في اليوم التالي إلى منزل الحاج بشير، تحدّث بلهجة ليّنة، وكلمات لطيفة ممتدحاً أخلاق حكمت ضاشوالي وملمّحاً إلى نسبه الرفيع، وأصل عائلته الحلبي، مذكّراً بجدّه مستشار السلطان عبد الحميد وعمّه المقرّب من والي دمشق، وقرّر الوالي دون أن ينتظر ردّ الحاج بشير أن تكون الخطوبة يوم الخميس المقبل.

شعرت عائشة المفتي بقوّة ارتطام جسدها، وقعت في مصيدة لا يمكن التملّص من فخاخها، طلبت سعاد منها التفكير بهدوء، كانت تعرف حكمت ضاشوالي جيّداً، تحتقره، كما يحتقره حنّا وزكريّا وعازار منذ كان زميلهم في المدرسة. فكّرت عائشة بأنّ المواجهة تعني تدمير حياتهم، وتدبير التهم لزجّ والدها في السجن، وتشويهها كما حدث مع فتاة بدوية ارتحل أهلها من الموصل إلى حلب بعد رفض عائلتها تزويج ابنتهم بقائد جيش الموصل العثماني، لم يستطيعوا الهرب من انتقامه، ولم يعودوا يحتملون المضايقات التي لا تتوقف، قرّروا ترك المدينة إلى حلب، اعترضت طريقهم مجموعة ملثمين قبل وصولهم إلى حلب، ذبحوا قطعان غنمهم وأحصنتهم وخطفوا الفتاة

وأعادوها إلى الموصل، اغتصبها لعدّة أيّام وتركها لعسكره الانكشاريّين، اغتصبوها لثلاثة أيّام بالتناوب، حتى ماتت، ورموا جثتها في نهر دجلة.

شعرت عائشة المفتي بثقل رهيب، خروجهما من هذه الورطة لن يكون سهلاً، استمعت إلى نصيحة سعاد التي نصحتها بالهرب من كلّ أراضي الإمبراطورية العثمانية والعيش في أوروبا، إن كانت مستعدّة لخوض المغامرة حتى النهاية، أصبحت مخطوبة ولا يمكنها مغادرة المنزل دون إذن. بقيت الرسائل الشفهيّة التي تحملها سعاد كلّ يوم وسيلة وحيدة للتواصل بين عائشة المفتي ووليم عيسى.

كان وليم عيسى يكتب لها بشغف أنّه لن يتركها وحيدة، سيهربان، ويؤكّد لها أنّه رتّب كل ما يحتاجان إليه، سيساعده أصدقاؤه المخلصون. كلّ ليلة يأتي حكمت ضاشوالي إلى منزل خطيبته، يجلسان على التراس الكبير المطلّ على بساتين الورد، يقذفان النهر القريب بالحصى، يملي عليها رغباته، ويسير بخطى ثابتة أمامها، تبقى عائشة صامتة، تتبادل نظرات تعاطف مع أبيها الذي شعر بأنّه يقدّم ابنته لرجل ليغتصبها. يأمر حكمت ضاشوالي الخدم بنقل طاولة العشاء إلى التراس ليستمتع بنسمات الربيع، كان يتصرّف بصلف متكبّر، كان يفكّر بأنّه يجب هدم كبريائها قبل الزواج، بدأ يشعر بلذة سيطرته التي تبدو في خضوع وتصرّفات الحاج بشير المفتي، وعدم مخالفته في أيّ رأي أو اقتراح.

كانت عائشة المفتي تحاول الهروب من شغفه الذي يزداد يوماً بعد آخر، يخبرها بأنّه مرشح ليكون رجلاً مهماً في السلطنة، سيسعى بكلّ جوارحه لخدمة سلطانه المعظم، يعدها بأنّها ستصبح سيّدة مهمّة عندما سيختاره السلطان لمنصب مهمّ في الآستانة. كانت تهزّ برأسها، تجامله وتمنع نفسها عن قتله، قالت له ذات يوم إنّه يجب أن يفكّر مليّاً وما زالت لديه فرصة للعدول عن قراره، تحدّثت عن مزاجها الصعب، ومرضها المزمن الذي اخترعته، قالت له إنّها تعاني من نوبات صرع، لكنّه كان يزداد تشبّثاً بها، وقبل يوم من هربها مع وليم عيسى قالت له إنّ أحدهما لا يصلح للآخر، لكنّها فوجئت به ينهض محتقناً، وقبل خروجه طلب من أبيها الاستعداد لعقد قرانهما بعد ثلاثة أيّام، ليلة الخميس المقبل، كان قراره حاسماً.

في الليلة ذاتها ارتدت عائشة ملحفة سوداء، أخفت عينيها ببرقع، وصعدت إلى العربة التي كانت تنتظرها بين أدغال شجرات صنوبر كثيفة، قرب ضفّة النهر، كان كلّ شيء معدّاً لعبورها شوارع حلب في طريقها إلى خارج المدينة، أعدّ حنّا وزكريّا كلّ شيء، وتصرّفا بسرّية تامّة، غادرت العربة المدينة فجراً، صعدت الطرق القاسية متحاشية الطرق الرئيسيّة إلى قرية شران حيث ينتظرهما عارف شيخ موسى. كان زكريّا يقود العربة التي دخلت إلى منزل الجدّ، بينما وليم ميشيل عيسى ينتظرها، وحنّا يراقب من بعيد ترتيب كلّ الأمور ويطمئنّ على راحتهما.

أحرقت عائشة المفتي كلّ المراكب، لم يحتج الاثنان إلى وقت طويل للبدء بالبحث عن أفضل الطرق لهروبهما من أراضي السلطنة. قبل عودة زكريّا وحنّا إلى القلعة، في طريقهما إلى حلب، تشاورا مع عازار في أمر تهريب وليم عيسى وعائشة المفتي إلى باريس، كان زكريّا يعرف الطرق جيّداً، اقترح أن يعيشا هنا في هذا المنزل البعيد عن العيون لأسابيع قليلة، إلى حين بدء تسيير قوافل الحجّ التي ستوصلهما إلى الحديدة في اليمن، ومن هناك سيكون سهلاً ركوبهما أيّ باخرة إلى البندقية، ومنها سيكملان طريقهما إلى باريس. شعرت عائشة المفتي بالاسترخاء، لم تعد خائفة، ترك لهما عارف شيخ موسى الكثير من الطعام والمؤونة، أرسل لهما زكريّا حصاناً من أفضل أحصنة إصطبله ليكون تحت تصرّفهما إن احتاجا إلى الهرب.

عاشت عائشة المفتي أجمل أيّامها في هذه المنزل الصغير بعيداً عن البشر، كان الطريق إلى المنزل محروساً بمسلحين من فلاحي عارف شيخ موسى آغا، تستيقظ قبل الفجر، تصنع قهوتها، وتفتح النافذة، تراقب الفجر، ترى السهول البعيدة، العربات والفلّاحين، ترى من نافذتها الأشياء والبشر مجرّد نقاط صغيرة تتحرّك في الحقول، تحضر الإفطار وتوقظ وليم عيسى بقبلة من شفتيه، تعتني كأيّ فلّاحة بالدجاجات، تسقي شتول الفاصولياء والبامية والبطيخ في المزرعة، ثمّ تعود إلى الغرفة وتندسّ قرب وليم عيسى الذي يفكّر بأنّ السعادة هي العيش مع امرأة تشبه حبيبته، كان متحمّساً للهرب معها إلى باريس، هناك سيرسم لوحاته التي حلم بها، ويصمّم أفيشات المسرحيّات الضخمة، كان يحلم بأشياء كثيرة لا يمكن فعلها في حلب، خطّطا لحياتهما، تحدّثا كثيراً عن مستقبلهما، لم يكونا خائفين. كانا منسجمين، ولم يناقش رغبتها في عقد قرانهما في البندقية، هناك ستمنحه غشاء بكارتها وتصبح امرأته، كانت الأيّام تمرّ هادئة في ذلك المنزل، لكن في مدينة حلب كانت حكايتهما يؤلفها رواة ويضيفون كلّ يوم تفاصيل جديدة إليها.

قبل مغادرتها تركت عائشة المفتي رسالة قصيرة لأبيها، طلبت منه الغفران، لأنّها أخفت عنه قصّة حبّها لوليم عيسى، وقالت إنّ الموت أهون عليها من العيش مع شخص متكبّر، وتافه، وقاتل كحكمت ضاشوالي، طمأنته بأنّها موجودة في مكان لن يستطيع أحد الوصول إليه، وحين يصبح لديها عنوان دائم خارج الإمبراطوريّة ستبلغه به وسيكون فخوراً بها.

كانت كلماتها القليلة تنضح بالحبّ لهذا الأب اللطيف الذي لا يشبه أغلبيّة سكّان مدينته، أخفى الكثير من أمنياته ليستطيع العيش مع رفاقه، اعتاد عيش حياته المزدوجة، لم يجرؤ على التعبير عن نفسه، كان يعترف في لحظاته الأكثر صفاءً أمام من يحبّهم بأنّه جبان، قضى عمره يتنكّر للأحلام. كان معجباً بالرجال الأقوياء الذين يجاهرون بانتقاد رجال الدين المتملّقين للسلطان، لكنّه لم يكن يجرؤ على الغياب عن صلاة الجمعة والاستماع لخطب هؤلاء المتملّقين، لا يردّ لهم طلب تبرّع لجوامعهم وجمعيّاتهم. فكّر بأنّ عائشة ستمنحه صكّ الانعتاق من ازدواجية حياته، فكّر لها بمصير مختلف عن أختها التعيسة، ولم يقف في طريق تعليمها، شجّعها على تعلّم الفرنسيّة، وإقامة علاقات صداقة مع نساء متحرّرات، ولم يؤنّبها على ملابسها التي كانت لا تشبه ملابس فتيات عائلتها وقريباتها.

بعد قراءته كلماتها القليلة شعر بدوار، لكنّه في أعماقه بدا مرتاحاً، فكّر بخلاصه من هذه الورطة، في أشخاص من الممكن أن يساعدوه، كيف سيشرح لهؤلاء الأشخاص ورطته الحقيقيّة، لقد قرأ فاتحة ابنته مع حكمت ضاشوالي والوالي شهد على الاتفاق، وهذه الليلة كان مقرّراً أن يأتي إلى منزله الوالي والمفتي لعقد قرانها على خطيبها.

وضع الرسالة في جيبه، توجّه نحو منزل صديقه أحمد البيازيدي، أغلق الباب وراءه، ومدّ يده برسالة عائشة التي لم تحدث الأثر المطلوب. أخبره صديقه بأنّ الوالي لن يستطيع تخليصه من الورطة، اقترح عليه التوجّه إلى المفتي أو إرسال برقيّة لصديقه أبو الهدى الصيّادي في إستنبول، أضاف أحمد البيازيدي أنّه يشك في أن يتدخّل أبو الهدى الصيّادي ضدّ عائلة ضاشوالي. لم يستطع أحمد البيازيدي الاعتذار عن مرافقته إلى مكتب المفتي الذي استمع إلى الحاج بشير وصمت.

كان صمت المفتي دليل شؤم، الشيء الوحيد الذي اقترحه عليه هو محاولة الاختفاء من المدينة إن كان يريد المحافظة على حياته، القصّة ليست امتناع فتاة عن القبول بعريس، بل هي إهانة لن يسكت عنها الضبّاط العثمانيّون في المدينة. بعد ساعات كانت المدينة تتناقل سيرة عائشة المفتي التي هربت مع رجل، وصل حكمت مع جنوده إلى منزل الحاج بشير، قرعوا باب المنزل، فتح لهم

الخادم الباب، دخلوا إلى المنزل، فتشوا كلّ الزوايا والغرف، كان المنزل شبه فارغ، حمل الحاج بشير أشياءه الثمينة وأوراقه وغادر المدينة مع ابنته الأخرى وأولادها. صادروا كلّ أشياء عائشة المفتي، أحرقوا المنزل، ولم يتركوا المكان قبل التأكد من أنّ المنزل الفاخر قد أصبح رماداً.

ظنّ الجميع أنّ النار الملتهبة ستطفئ أحقاد حكمت ضاشوالي الذي كان يقطع مكتبه بخطوات واسعة، يشعر بفراغ بين ضلوعه، فكّر في عائشة المفتي التي مرّغت شرفه في التراب، لكنّه اشتاق إليها، شعر بحبّ جارف نحوها، تذكّر كلماتها ورسائلها التي حاولت إيصالها إليه. لم يكفه حرق منزل أهلها ثمناً لشرفه المطعون، لن يكتمل نصره في هذه المدينة قبل استعادتها وترويضها. دهمت دوريّات الجنود المنازل التي قدّروا اختفاءهما فيها، حين دخلوا منزل أحمد البيازيدي لم يصرخ في وجوههم، استسلم بخبرة الموظف وبكلّ هدوء للجنود الذين تعاملوا بقسوة مع الرجل الهرم، شعر بالتعب من التشكّي. كان يفكّر بأنّه محظوظ لأنّ القدر لم يضعه في مواجهة ضابط عثماني آبق مشهور بأنّه جزار كحكمت ضاشوالي. تعرّض أحمد البيازيدي في حياته لعدد لا يُحصى من الدسائس، كان دوماً يستبق العاصفة الكبرى، كان يعرف أنّ شخصاً يستطيع قتل الناس بدم بارد لا يمكن مجابهته، خرج الجنود من منزله، لم يطلب من أحد الاعتذار، كان سعيداً لمرور العاصفة. رمت عائشة المفتي بحجر ثقيل في المياه الآسنة، ستشتعل المدينة خلال ساعات، لم يعد لديه قدرة على إخماد النيران. سرّب حكمت ضاشوالي في اليوم التالي اسم وليم عيسى كشريك لعائشة المفتي بعد تحقّقه من الأمر. أصبحت القصّة مثيرة أكثر للرواة الذين تحدّثوا عن قصّة عشق بين شابّ مسيحي اشتهر كزير نساء وفتاة مسلمة. استعادت المدينة قصص حنّا ووليم وزكريّا وعازار مع عاهرات المدينة. استقرّت القصّة في ملامحها الأولى عن حبّ ممنوع ومستحيل، تنهّدت صبايا المدينة وهنّ يستمعن إلى تفاصيل جرى تأليفها على عجل عن لقاءات قديمة بين وليم عيسى وعائشة المفتي في منزل اليهودية التي شهدت عليهما وفتّشه حكمت ضاشوالي، وحقّق مع سارة وديفيد، تحدّثت الصبايا عن مناديل معطّرة كان يتبادلها الاثنان، وصادر الجنود أغلب هذه المناديل الحريريّة التي كانت تحمل اسم وليم ميشيل عيسى مكتوباً بحروف لاتينية.

احتجّ المسيحيّون على إقحام اسم وليم ابن ميشيل عيسى في القصّة المثيرة، اشتكى المطران للوالي وحذره من فتنة طائفيّة قد تحرق المدينة إن استمرّ الضابط حكمت ضاشوالي في خرق حرمة بيوت المسيحيّين في حلب، بحجّة البحث عن عروسه. لكنّ الوالي الذي أعجبته حالة الفوصى، لم يكن لديه أيّ جواب، اعتبر الأمر خارج صلاحيته، مضيفاً أنّه لا يستطيع منع رجل من البحث عن زوجته، وأسهم رجال الوالي بتسريب تفاصيل كثيرة غير حقيقية عن تحقيقات أجرتها السلطات واتّهمت فيها العاشقين بخدش الحياء العام والتآمر على الدولة، وتواصلهما مع جمعيّات سياسيّة تهدف لهدم منظومة الأخلاق الإسلاميّة.

استمرّت حملة المداهمات ضمن أسوار حلب لمدّة أسبوع. بحجّة البحث عن عائشة المفتي جرى تفتيش كلّ بيوت المدينة، خاصّة بيوت المسيحيّين، واعتُقل ستة عشر شخصاً لحيازتهم أسلحة ممنوعة، ومنشورات تحرّض على السلطان، وتدعو للقوميّة العربيّة.

كان حنّا وزكريّا يسترخيان في القلعة ويجمعان كل الحكايات، يقدّران الموقف كأنّهما في مهمّة حربيّة. مستعدّان لمعركة حقيقيّة إذا اقتحم الجنود القلعة، لم تعد القصّة تهريب صديقين إلى خارج الحدود بل فتنة تهزّ أركان المدينة الساكنة. دافعت فتيات وشبّان عن عائشة المفتي وسمعتها، وآخرون طالبوا بمعاقبة الانحلال الذي بدأ ينتشر في المدينة، أغلقت صحيفة وصفت زواج الضابط بعائشة المفتي بزواج بالإكراه، واقتيد الصحافي إلى السجن، وجرت مساومته للمرّة المئة على

التوقف عن التحريض ضدّ فساد رجال السلطنة، خاصّة أتباع أبو الهدى الصيّادي الذي ترقّى ليصبح شيخ الإسلام وأقرب المقرّبين من السلطان عبد الحميد.

قال حنّا لزكريّا وهما يشربان من كأسيهما ويتأمّلان من شرفة القلعة السهول البعيدة، إنّ الحجر الذي رمته عائشة المفتي ووليم عيسى كان ثقيلاً وسيحرق المدينة، كثيرون استغلوا الحكاية ليثبتوا وجهات نظرهم، لم تعد عائشة المفتي تلك الفتاة اللطيفة التي أحبّت صديقهما، أصبحت رمزاً للتحرّر والانعتاق لدى أصحاب نظرية التحرّر من العثمانيين واللحاق بأوروبا، وفتاة منحلّة يجب قتلها لدى أنصار الإمبراطوريّة العثمانيّة. كان زكريّا يفكّر بأنّ القصّة يجب أن تتوقف كي يستطيعا تهريبها، لا يمكن تهريب أسطورة كما قال، أعدّ كلّ شيء عن الرحلة الخطرة التي سيقوم بها وليم عيسى وعائشة المفتي قبل وصولهما إلى الحديدة في اليمن بدلاً من بيروت، حنّا أشار عليه بالاستعانة بصديقتهما هدى شمعون لمساعدتهما في الوصول إلى البندقية وسيكون سفرهما إلى باريس سهلاً.

استقرّت الفكرة على ذهاب عائشة المفتي ووليم عيسى في موكب حجّ مسيحي إلى بيت لحم، ومن ثم متابعة الطريق مع موكب حجّ مسلمين إلى مكّة، ولدى وصولهما إلى مكّة سيصبح أمر وصولهما إلى الحديدة في اليمن أمراً سهلاً، هناك سيستقبلهما القنصل الإيطالي ويمنحهما إذن صعود لباخرة إيطاليّة عابرة، وحين يصعدان إلى سطح المركب سيصبحان بأمان وتحت حماية حكومة إيطاليا.

بحث زكريّا مع حنّا كلّ التفاصيل، القوافل التي سيرافقانها، المصاريف، الأوراق المزوّرة التي أُعدّت بسهولة، وفيها عائشة المفتي تحمل اسم ماريا وكنية عائلة حنّا كريكورس، وفي رحلة الحجّ ستكون سعاد البيازيدي. قدّر زكريّا أنّ لهجة عائشة المفتي ستفضح انتماءها الحلبي، لذلك كانت كلّ الأوراق خارجة من السجلّ المدني في حلب، مختومة بشكل نظامي، ولا يمكن الشكّ في صحّتها.

كانت الرسائل المتبادلة بين وليم عيسى وصديقيه تحمل شيفرات يعرفانها جيداً، يحملها رجال ثقات، يذهبون إلى مزرعة عارف آغا في شران، وفي اليوم نفسه يحملون الجواب، في الرسالة الأخيرة اتفق الجميع على الانضمام إلى موكب الحجّ المسيحي الذي سيغادر جسر الشغور في 25 أيلول، شعر وليم عيسى وعائشة المفتي بالاسترخاء. فوجئا بجنود عثمانيّين نظاميّين ومجموعة من الإنكشاريين يطوّقون القرية ويقتحمون المنزل، لا يتحدّثون العربية، قبل موعد مغادرتهما المنزل الذي عاشا فيه لحظاتهما الحميمة بأيّام قليلة، لم يمهلا وليم عيسى استخدام سلاحه، فهم كلّ شيء حين رأى رجال عارف شيخ موسى آغا مقيّدين بالأصفاد، لكنّه قرّر في لحظة أنّهما يستطيعان النجاة، فقفزا من النافذة وهربا بين الكروم، إلّا أنّ طلقات الجنود كانت أسرع من قدرتهما على الاختباء. تأكد الجنود من قتلهما، وغادروا المكان، ولم يجرؤوا على اعتقال عارف شيخ موسى آغا الذي كان ينتظر مناسبة كهذه لإعلانه العصيان.

ترجّل حكمت ضاشوالي عن حصانه، نظر إلى عائشة المضرّجة بدمائها، لم يحتمل النظر طويلاً في عينيها، شعر بورطته، لن يسكت المسيحيّون عن قتل شابّ مسيحي، سيعتبرها القناصل قضيّة كبيرة، خاصّة في هذا الوقت الذي اشتدّ فيه الصراع بين الإنكليز والفرنسيّين والطليان على إتمام صفقات الخطوط الحديديّة، شعر في أعماقه بأنّه استردّ شرفه الضائع، تركهما وغادر المكان، بعد وصوله إلى حلب تلقى أمر نقله إلى الآستانة. غادر حكمت ضاشوالي مدينة حلب في أول شهر تشرين الثاني من عام 1901. كانت المدينة صامتة كأنّها في عزاء، وصل إلى منزل الحاج بشير

الذي تحوّل إلى رماد لكن أحجاره وزخارفه الرائعة ما زالت واضحة، تحاشى الناس في الشوارع النظر إلى عربته. لكن الحكاية لم تنته، لم يضيّع عارف شيخ موسى آغا وقته، رافق الجثّتين إلى القلعة. بكى حنّا بكلّ حرقة وهو يراهما ممدّدين في العربة، قرّر مع زكريّا دفنهما قريباً منه في حقول القلعة. كانت شمس الصباح تراقب من نافذتها المطلّة على الحقول زكريّا وهو يحفر قبرين تحت شجرة جوز كبيرة، حنّا وزكريّا يضعان عائشة المفتي مضرّجة بدمائها في تابوت، حفر زكريّا اسمها الكامل على التابوت، ثمّ أنزلاها بهدوء وأناة، وفعلا الشيء نفسه مع صديقهما وليم عيسى، رأت دموعهما وهما يقبّلانه للمرّة الأخيرة، ويرميان الزهور التي قطفاها من الأرض الواسعة على قبريهما.

الفصل الثاني

لم يحتمل صالح العزيزي رؤية وليم عيسى يأمره بحمل حقائبه، وترتيبها في غرفة نوم الضيوف في منزل حنّا، كان يشعر في أعماقه بأنّه يستحق عائشة، إنّه يحبّها أكثر منه، يستطيع أن يخرج قلبه من جسده ويهديه لها، يستطيع تقديم عينيه لترى بهما إذا أرادت، هكذا كان يعتقد بأنّ الحب هو أن تمنح قطعة من جسدك لمحبوبك.

قرع باب غرفة معلمه جنيد خليفة ليلاً، كان متعباً، تفلت منه كلمات غير مترابطة عن الحبّ، والعشق، عن عائشة، وعن الموت، أخبر جنيد بأنّه يفكّر بقتل وليم عيسى، قال سأصبّ الرصاص المصهور على رأسه، وينتهي كلّ شيء. أخرج من جيبه قطع رصاص كبيرة، وأكمل حديثه بلهجة جدّية «لن يستطيع أحد أخذ عائشة المفتي منّي». تركه جنيد خليفة يهذي، شعر بالملل من تكرار حكايات صديقه الغريبة. أصبح جنيد يعرف أنّ صالح يريد الحديث مع شخص يعرف قصّة عشقه لعائشة المفتي، مرّات عديدة حاول ثنيه عن حلمه المستحيل، كان جنيد يتحدّث كرجل عاقل، يعدّد الفروق بينهما، لكنّ صالح لم يكن يستمع إلى النصائح التي لا تعجبه، يشعر بضيق شديد لأنّه أخبر جنيد خليفة بحقيقة مشاعره، حين يكون في غرفته وحيداً يخرج دفتره ويكتب لها رسائل لكنّه لا يرسلها، يريد أن يبقى مستتراً، يعيش في ظلالها، يخرج ليلاً ويطوف حول منزلها، يعرف أنّها لن تراه، لكنّه كان يفكر بأنّها وراء تلك النافذة تنام في سريرها، يتخيّلها في ترفها، يتأمّل النافذة المظلمة ساعات طويلة، ينتظر أيّ بصيص ضوء، يعود منهكاً قبل منتصف الليل، ويعيد قراءة رسائلها التي نقل أغلبها إلى دفتره.

ذات يوم انتظرها، نزلت من العربة، وسارت نحو باب مشغل الست حسنيّة، اقترب منها كثيراً، كان يريد أن يقول لها أيّ كلمة، وقفت تنتظره أن يتكلّم، شعر بالخرس، كانت نظراتها قويّة، ورائحة عطرها تصل إلى أنفه، أربكتها نظراته الضعيفة، تابعت طريقها، وقع دبّوس من شعرها، بقي واقفاً مكانه ينظر إليها، خاف أن تحدّث سعاد بالأمر، حمل الدبّوس وسار مسرعاً، لديه شيء منها، وقف على بعد شارعين وفكّر بأنّه كان يجب أن يخبرها حقيقته، يجب أن تعرف أنّه عاشقها الحقيقي الذي غيّرت حياته للأبد، فكّر بالخوف لأول مرّة، فكّر بأنّ الرجال حين يصيبهم الوله، يصبحون رجالاً جوفاً، يمتلئون بالضراط والكلام الفارغ.

عودة وليم عيسى أفقدته الأمل، بكى ليلتها وحيداً، كذئب وحيد في البراري، كان يسمع حركته فجراً، يصنع قهوته، كان صالح في غرفته يسمع وليم عيسى يصفر لحن أغنية، يحق له أن يكون سعيداً، من تعشقه عائشة المفتي يحق له أن يصبح ملكاً. لم يحتمل صالح وجوده في مكان واحد مع وليم عيسى، خاصّة حين ترك منزل أهله، واستوطن شقة صديقه القريبة من منزول حلب العمومي

في باب الفرج، أتى بكلّ حقائبه ولوحاته وألوانه، كانت المنطقة تناسب شخصاً كوليم عيسى، الحركة لا تتوقف في هذه المنطقة، تنبعث أصوات الموسيقى من منازل بحسيتا حتى الصباح، والعربات لا تتوقف عن خدمة زبائن العاهرات.

بعد عدّة أيّام من استقرار وليم عيسى في منزل حنّا، حمل صالح أغراضه وسار نحو منزل جنيد خليفة، استأذنه في المبيت ليلة ريثما يتدبّر أمره، كانت أغراضه قليلة، صرّة كبيرة فيها ثلاثة دفاتر صغيرة، ومجموعة أقلام، وقميصان، ومجموعة أشياء مختلفة، مسامير، قطعة خشب ناعمة، والكثير من التراب، وقطع قماش ملتقطة من المهملات، ودبّوس شعر رائع من الواضح أنّه غالٍ، ومجموعة كبيرة من ظروف الرسائل، وشال حريري أزرق اعتنى به جيّداً، ملفوف بقطعة جلد، ليحافظ على رائحته العطرة. ولوحة كبيرة ملفوفة بعناية، فتحها جنيد خليفة وتأمّلها طويلاً، كانت رائعة، تختلط عواطف العاشق بدمه دوماً، لم يستغرب حين رأى توقيع وليم عيسى في زاوية اللوحة، لكنّه لم يفهم قيمة الأشياء الأخرى، لم يطل الوقت حتى سمع صالح يخبره بقراره ترك العمل خادماً لدى حنّا، لم يعد يحتمل رؤية غريمه يأمره بتنظيف الغرفة أو إحضار الطعام من المطاعم القريبة، كما لم يحتمل حين شاهد عائشة المفتي تتسلّ إلى منزل أحمد البيازيدي ورأى وليم عيسى ينسلّ وراءها من الباب الذي تركته له سعاد مفتوحاً.

عرض عليه جنيد خليفة مقاسمته الغرفة تلك الليلة، طيّب خاطره بكلمات مؤازرة، قال له: غداً نتحدّث طويلاً ونرتّب أمر إقامتك. خطر له أنّ وجود صالح العزيزي قربه يساعده على التخفيف من وحدته، لكنّ الحقيقة أنّ جنيد خليفة أثارته الحكاية أيضاً حين وجد نفسه عالقاً في قصّة تقترب من الخيال وفيها كمّ من الأسرار كافية لحرق المدينة، أثارته تحوّلات صالح من فلّاح ريفي ساذج، إلى خادم يريد أن ينتمي إلى المدينة، إلى عاشق في قصّة حبّ مستحيل، فكّر بأنّها الأشياء كما يجب أن تحدث دوماً كي تصبح الحياة جديرة بالعيش، وفي الوقت نفسه كانت تجذبه الرسائل القليلة التي نسخها صالح على دفتره، لذلك رغب في العيش قريباً منه.

تحدّث مع صاحب المنزل، ضمّ القبو الصغير إلى غرفته في «القيسرية» التي يتقاسمها مع مستأجرين آخرين، اشترى فراشاً من الصوف، ولحافاً ومخدّة وحصيراً، وجرّة ماء. قال صالح العزيزي إنّ هذه الأشياء القليلة تكفيه للعيش، ودخل إلى القبو ولم يخرج منه إلّا مرّة واحدة، قضى وقته متربّعاً على الحصير، ينظر إلى عنكبوت ينسج خيوطه في زاوية القبو، يسأله جنيد عن أوضاعه، يجيبه أنظّف قلبي، ويصمت، لا يكترث بدعواته للتسكّع في المدينة كأيّ شابين. صمت صالح العزيزي الطويل فرض على صديقه الإقلاع عن عادة السؤال. يبقى صالح بمفرده في قبوه وينتابه شوق هائل لرؤية عائشة، يخرج فجأة ويسير نحو منزلها، يدور حوله عدّة دورات ويكمل طريقه إلى مشغل الست حسنيّة، وقربه منزل أحمد البيازيدي، حتى اكتشف ذات يوم غرفة اليهودية، راقبهما وعرف أنّ عائشة تلتقي مع عشيقها في هذا المنزل، فكّر بأنّه سيصاب بالجنون إن بقي يتتبّع أثرها ولا يمسكه، سرق الشال من غرفة وليم واللوحة أيضاً وجدها مركونة خلف الخزانة، عرف أنّ وليم يخفيها عن أعين حنّا الذي كان يأتي مع زكريّا وعازار في أوقات قليلة، يقضون ليلة يتناولون عشاءهم، ويتحدّثون بأصوات منخفضة، ثمّ يغادر الأصدقاء الثلاثة ويبقى وليم عيسى بمفرده يقضي وقته بين الرسم والتسكّع ومواعيد عائشة.

ليلة اختفاء عائشة مع وليم عيسى دخل صالح إلى غرفته محبطاً، رأى عائشة تركب العربة التي يقودها زكريّا والتي اتّجهت نحو الشمال، كان يفكّر بأنّها هربت وفقد أثرها، فكّر بأنّ فقد أثر الحبيب حوّل المدينة إلى رماد، لم تعد الشوارع تعني شيئاً، ولا السماء والأبنية والمطر والرياح،

كلّ شيء يذهب مع الحبيب، كان شعور صالح بالفقد كبيراً، تضجّ في رأسه مئات الصور والأفكار، لكنّه يشعر بالعجز، يفكّر في المكان الذي اختبأت فيه عائشة مع وليم عيسى. فكّر بأنّ حنّا ليس غبيّاً ليستقبلهما في القلعة، إنّها مكان معروف، والعربة التي اتّجهت نحو الشمال لا بدّ ستصل إلى إصطبلات زكريّا في العنابية، أو إلى مزرعة عارف شيخ موسى آغا.

يأتي جنيد خليفة بالطعام، يثرثر جنيد بالحكايات التي تتداولها المدينة عن خطيفة خطيبة حكمت ضاشوالي الضابط العثماني الذي اختفى من المدينة، لم يخبره بأنّه رأى عائشة تغادر في عربة يقودها زكريّا، كاد ينزلق أكثر من مرّة لكنّه فضّل الاحتفاظ بسرّه، ينسحب جنيد إلى غرفته، تاركاً صالح مكانه يحدّق في العنكبوت.

فجراً استيقظ جنيد على قرع شديد على الباب، فتحه ورأى مجموعة جنود ينتشرون في أرض الدار، كانوا يخرجون صالح من قبوه مكبّلاً ويقتادونه إلى السجن، رموه في الزنزانة، وضربوه بالسياط، وفي منتصف النهار استدعاه حكمت ضاشوالي، أجلسه على كرسيّ مقابله، وسأله مباشرة عن مكان اختفاء عائشة، نظر إليه صالح بحقد وصمت، وأجاب بأنّه لا يعرف. تابع حكمت ضاشوالي أسئلته عن الرسائل التي كان يضعها كلّ يوم في البريد، أجابه صالح بهدوء إنّها رسائل عائشة إلى وليم ميشيل عيسى. لدى عودته إلى الزنزانة فكّر بأنّه لن ينجو، لم يجرؤ حكمت ضاشوالي على التحقيق مع حنّا واكتفى بخادمه، لكنّ صالح في الليالي العشر التي قضاها في الزنزانة فكّر كثيراً بإفشاء سرّ المكان الذي تأكّد من أنّه مزرعة عارف آغا، في اليوم التالي لهروبهما خرج فجراً واستأجر بغلاً من خان القادري في باب جنين، ودار حول المزرعة التي يعرفها جيّداً، لمح في الليل ظلّ عائشة، كانت بعيدة، لكنّ صالح لا يمكنه أن يخطئ، بقي ينظر إلى النافذة المضاءة حتى انطفأت في منتصف الليل، فكّر بالهجوم على المنزل، لكنّ الحرّاس كانوا منتشرين في كلّ مكان. في طريق عودته فكّر بأنّه إذا سافرت عائشة خارج المدينة وفقد أثرها سيفقد طعم الحياة، إذا عرف حكمت ضاشوالي المكان فسيستعيد عائشة ويقتل وليم عيسى، ولن يتزوّج رجل مثله فتاة هربت مع شابّ مسيحي، وكلّ المدينة تعرف قصّتها. أصبح لديه أمل بأن تعود عائشة فتاة وحيدة، شعر بكراهية كبيرة تجاه حكمت ضاشوالي ووليم عيسى، الاثنان بالنسبة له يريدان خطف محبوبته منه، السياط التي يتلقاها يومياً من الجلّادين في الزنزانة لم تثنه عن صمته، وفي ليلة اليوم العاشر طلب رؤية حكمت ضاشوالي على انفراد، أسمعه عن ظهر قلب رسائل عائشة إلى وليم عيسى، كان يراقب غيظ حكمت ضاشوالي وهو يردّد مقاطعها بتؤدة، يريد للحقد أن يطفح من قلبه كي يقتل وليم عيسى ولا يكتفي باعتقاله. ثمّ في كلمات بسيطة وصف له المكان مقابل تعهّده أن يطلق سراحه ولا يقتل عائشة المفتي.

يوم مقتل عائشة ووليم عيسى دخل جنيد خليفة إلى القبو، وأخبره دون مواربة بالحدث الذي هزّ المدينة، سرد له تفاصيل الحكاية التي يتداولها الناس، لم يكترث صالح على عكس ما توقع جنيد، كان يعرف كلّ شيء، غارقاً في حزنه الشديد، يفكّر في خيانته. بعد خروجه من السجن تابع طريقه نحو العنابيّة، لم يمكث طويلاً في منزل عائلته، غيّر ملابسه، واستعار بغلاً من أحد أقربائه، وتابع طريقه نحو شران، وفي منتصف الطريق فوجئ بعارف شيخ موسى يقود عربته بنفسه، ويتجه نحو القلعة، رأى وجه عائشة الميتة، تابع من بعيد دفن زكريّا وهو يحفر تحت شجرة الجوز قبرين للعاشقين. بكى بحرقة، شعر بفراغ كبير في صدره، تابع طريقه، وصل إلى غرفته، فكّر بأنّه يجب أن يموت في هذه اللحظة، لم تعد لحياته أيّ قيمة، شعر بدنس الخائن.

تركه جنيد وخرج صباحاً إلى عمله الجديد في مطبعة الجريدة، وحين عاد لم يجده في القبو. أصبح صالح يخرج كلّ صباح، يجول في طرقات المدينة، يتمتم بأشياء لا يسمعها أحد، يقف قرب الثكنة منتظراً خروج حكمت الضاشوالي وذهابه إلى منزل عمّته في باب الحديد حيث يقيم. كان حرّاس الثكنة يستغربون سيره خلف عربة حكمت ضاشوالي، ثمّ وقوفه بعيداً يراقب دخوله، منظر ثيابه المهمل ولحيته الطويلة وغير المعتنى بها جعلهم يظنّونه أحد المجانين أو والد أحد السجناء الذين غالباً ما يبحثون عن أبنائهم في سجون الثكنات. فوجئ صالح بعربة حكمت ضاشوالي المحروسة جيّداً تتّجه للخروج من المدينة، وحين سأل أحد الخيّالة عن وجهتهم أجابه إلى إستنبول لمرافقة قائدهم. في تلك الليلة عاد صالح إلى قبوه منهكاً، لم يجب عن أسئلة جنيد، وعاد مرّة أخرى لتأمّل العنكبوت، شعر بأنّه مجرّد خائن لا أكثر، يعيش وهماً كبيراً، ترك عائشة ولم يصارحها بحبّه، كان يجب أن تعرف أنّه عاشقها، لكنّه سلّمها بيديه إلى المجرم، شعر بفراغ رهيب في داخله، لن يشفيه سوى الانتقام، ندم صالح لتركه حكمت ضاشوالي يغادر المدينة، كان يستطيع طعنه رغم الحراسة المشدّدة في الأيام الأخيرة، التي جعلت الاقتراب منه مستحيلاً، كان يكفيه أن يهجم عليه ويمنعه الحرّاس كي يبثّ الرعب في قلب الضابط العثماني، هي رسالة أراد صالح إرسالها لتضاف سيرته إلى سيرة عائشة المفتي التي لم تتوقف المدينة عن إضافة حكايات وهميّة عن علاقتها بوليم عيسى.

في الوقت نفسه كان حكمت ضاشوالي خائفاً من الانتقام لمقتل وليم عيسى وعائشة المفتي، لن يعرف من أين يأتيه الموت، ثأرهما كان ثقيلاً، الحكاية أصبحت مشهورة، ستلاحقه ولن تتركه ينام، لا يمكن للبنادق قتل الشائعات والحكايات، فكّر بأنّه لن يستطيع العيش في حلب، القصّة مختلفة عن قمعه انتفاضات الأرمن المستمرّة، هنا هو قاتل ولن يمنع شيء عائلتي المفتي وعيسى من الأخذ بالثأر، إنّه عرف بين العائلات ولن تحميه صفته كضابط مرموق ومقرّب من السلطان عبد الحميد. شدّد الحراسة على منزل عمّته حيث يقيم، رافقه ستة خيّالة أثناء عبوره المدينة، وقضى أغلب وقته في الثكنة حزيناً ويشعر بالهزيمة، لم يعد يشعر بالأمان، طلب نقله إلى مكان خارج ولاية حلب.

وبعد أيّام حين دخل جنيد لتفقد صديقه، وجد رسالة صغيرة من صالح يخبره بأنّه تاه في الأرض، طلب منه المحافظة على أشيائه المتروكة في عهدته، كانت الصرّة نفسها التي يعرفها جنيد جيّداً بالإضافة إلى مجموعة دفاتر جديدة.

وصل صالح العزيزي إلى إستنبول أوائل شهر كانون الثاني سنة 1902، كان الطقس بارداً، لكنّه اعتاد كلّ شيء في الطريق الذي قضى أغلبه سيراً على الأقدام. في أحيان قليلة كان يركب مع مسافرين في عربات عابرة، لم يكن يملك نقوداً، يعتاش على صدقات المسافرين، وكروم وحقول الطريق، يردّد رسائل عائشة المفتي في صوت منخفض، خاف نسيان كلماتها، نحل جسده كثيراً، ثوبه القطني الخشن وصندله الجلدي المهترئ يوحيان بأنّه أحد المتصوّفة المباركين. كانت المرّة الأولى التي يسافر فيها خارج مدينته، تأمّل حياة البشر في طريقه، يسجّل ما يسمعه ويراه، أقنع نفسه بأنّه يجب المحافظة على صمته، كان يقول في نفسه الصمت يليق بخائن العاشقين. وصل إلى إستنبول مساءً بعد سفر ثلاثة أشهر، بهرته المدينة الكبيرة، اندسّ وسط مجموعة دراويش كانوا يعبرون الطريق، لم يبدُ غريباً عنهم، يشبههم، إلّا أنّه شخص منفرد دون جماعة، قضى ثلاثة أشهر في التكايا، يتلقى الصدقات، مرّة واحدة شارك في حفل كبير لمجموعات مختلفة قدمت من كلّ أنحاء البلاد للاحتفال بذكرى وفاة شيخهم المعروف بالعنتابلي، لم يكترث صالح لمعرفة المزيد من

التفاصيل، وجد نفسه وسط مئات من الرجال النحيلين، يتحدّثون التركيّة، في النهار يقرأون القرآن بصوت عالٍ، وفي الليل ينشدون قصائد شيخهم المتوفى. تحمّس صالح، وقف وسطهم، رانت إليه عيونهم، صمت الجميع، رفع يديه، وأغمض عينيه، قرأ باللغة العربية مقاطع من رسائل عائشة التي كان يحفظها غيباً. كانت العيون تعبّر عن إعجاب شديد رغم أنّ قلة منهم تفهم اللغة العربيّة، وقع الحروف كان قويّاً، وحين وصل صالح إلى هذا المقطع تهدّج صوته وأنشد «أنا زورقك الذي يمضي إلى نهاية العالم، أنا نجمتك التي تتسلل ليلاً إلى قلبك لتحرسه، أنا الوردة التي ذبلت بالأمس لأنّها لم تركِ، أنا الحبّ الذي لا يشفي سقيماً..». توقف فجأة، كانت عينا شيخ كبير طاعن في السنّ تنظر إليه، أشار إليه أن يكمل، لم يستطع صالح أن يتماسك وبكى بحرقة، جثا على ركبتيه، نهض الشيخ العجوز وسار نحوه، طبطب على كتفيه، وسأله بالعربيّة عن صاحب الكلمات، لم يملك صالح جواباً، بل عاد لترديد كلماتها «أنا زورقك الذي يمضي إلى نهاية العالم، أنا نجمتك التي تتسلّل ليلاً إلى قلبك لتحرسه». توقف، وأشار الشيخ من مكانه للجميع بإكمال حفلهم، قرعت الدفوف، وكان صوت الناي شجيّاً، إلى درجة أنّ صالح بقي يردّد في صوت خفيض بقيّة الرسائل وحين يصل إلى «خذني حبيبي إلى ذلك المرج الأخضر، قبّلني كما لو كان الموت ينتظرنا في كلّ زاوية، قبّلني بقوّة، احفر بفأس أنفاسك قلبي، دع رائحتك تحت جلدي، وخذني امرأة غرقى في اللهيب. دثّرني، لقد متّ منذ قرون، ولا أنهض من جديد إلّا من أجلك حبيبي». يتوقف صالح ويهز برأسه، تندفع دموعه ويبكي بصمت.

طلبه الشيخ صباح اليوم التالي، ولم يجده التلاميذ في ركنه المعتاد. حمل كيسه واختفى في أزقة المدينة الكبيرة، لكن الكلمات بقيت محفورة في قلب الشيخ الكبير.

لم يجد صالح مكاناً ينام فيه سوى الفراغات بين أكياس البضائع في الميناء مع الحمّالين الذين ينتظرون البواخر لتفريغها، شعر بالأسى لخيانته كلمات عائشة، أصابه الوجد ولم يستطع إلّا أن يفضح سرّه، كاد يتحوّل إلى شخص مختلف، جبان لا يريد الانتقام لمحبوبته، قضى ستة شهور مشرّداً، لا يعرف أحد لماذا ترك مدينته حلب ليعيش على أرصفة إستنبول، في قلبه ينمو حقد دفين على نفسه. موت عائشة كان كارثته الكبرى، تبخّرت في الهواء. يبحث في المدينة الكبيرة عن عنوان حكمت ضاشوالي الذي رآه يتبختر على حصانه في موكب السلطان عبد الحميد في طريقه إلى جامع السلطان أحمد، لا يمكن لضابط مثله أن يبقى وحيداً، رآه مرّة أخرى محاطاً بمجموعة من أصدقائه في طريقهم إلى احتفال خاصّ، شعر صالح بالسعادة، لقد أصبح يعرف أغلب الأمكنة التي يتردّد عليها، ولن يفلت منه. كان حكمت يسكن منزلاً قريباً من جامع محمّد الفاتح، من الواضح اطمئنانه وعدم اكتراثه بما فعل، كلّ مساء يجول صالح في المنطقة المحيطة بجامع محمد الفاتح، يراه عائداً مساءً إلى منزله، يرصده كلّ الوقت، شعر بأنّ الفرصة حانت حين رآه يركب عربته ويتّجه وحيداً نحو مطعم لتناول عشائه في الحيّ القريب، انتظر عودته آخر الليل مخموراً كعادته، رأى عربته تتهادى من بعيد، كان وحيداً، إنّها من المرّات القليلة التي يكون فيها دون حارسه أو سائق عربته، لم يمهله، أخرج سكينه الحادّة المربوطة بحزام جلدي تحت ثيابه، اقترب صالح من حكمت متمهّلاً، كشف لثامه، جرّه بيديه القويّتين من العربة، وطعنه ثلاث طعنات قاتلة، وقبل أن يسلم روحه نظر في عينيه وقال له: هذه الطعنات الثلاث من أجل عائشة، قلت لك أن لا تقتلها. ولم يتركه إلى أن اطمأنّ إلى موته، أعاده إلى العربة وأغلق بابها. سار صالح بهدوء شديد، غير مبالٍ بأيّ شيء، لم يعنه أن يُقبض عليه، يريد أن يموت أيضاً، ستراتاح روحه ويعتبره ثمناً عادلاً أن يموت ثلاثة رجال من أجلها، يردّد في سرّه «ما قيمة الصباح دون كلماتك، ما قيمة النهر

إن لم يكن مرآتك، ما قيمة الحياة إن لم تأخذني كزورق يجوب البحار الثلاثة» لم يتوقف عن السير، وصل إلى شاطئ البحر، رمى ثيابه الملوّثة بالدم، سبح رغم الجوّ القارس، ارتدى ثوبه القطني، ويمّم وجهه نحو حلب، كان قد غاب قرابة سنة، ولم يعرف أحد طريقه، لقد اشتاق إلى مدينته التي وصل إليها أول شهر تشرين الأول من عام 1902، كان يفكّر بأنّ المدينة تحفظ أنفاس العاشقين.

في الطريق توقف في قرى كثيرة، تحاشى المدن، تناول قطع خبز تركها له المحسنون، تتبارك به النساء الفقيرات، صمته يوحي بقوّة إيمانه بالنسبة إليهنّ. حين وصل إلى حلب أكمل طريقه نحو غرفة جنيد خليفة الذي لم يحتمل النظر إليه، كانت عيناه زائغتين، وجسمه قد نحل كثيراً، تحوّل إلى طيف رجل، لم يطق صالح الإجابة عن أسئلة صديقه، لم يكن يعرف كيف يشرح له، أنّه ممتلئ برسائل عائشة، استعاد أشياءه التي تركها في غرفة جنيد، وخرج فجراً، قطع طرقات المدينة أكثر من مرّة، دار حول منزل الحاج بشير المفتي الذي سكنت أنقاضه عائلات فقيرة، دخل إلى المنزل، قادته قدماه إلى مكان قدّر أنّه غرفة عائشة، في كلّ زاوية كانت أنفاسها هنا، يكفيه ما بقي منها، لكنّه لم يحتمل المكوث في مكان يعجّ بأطفال فقراء مرتدين ثياباً بالية، أكمل طريقه نحو النهر، تحت السماء الربيعية نام بعمق لأول مرّة منذ سنتين.

استيقظ فجراً، تراءى له منزل الحاج بشير من بعيد، عاد إلى الطرقات، وقبل الظهر وجد نفسه يعود إلى غرفة جنيد خليفة الذي نظر إليه متفهّماً بلاءه، قاده إلى غرفته المليئة بالكتب، وجد له فسحة ليمدّ فراشاً من القطن، لم يكن صالح قد تجاوز الثلاثين لكنّه زهد في الحياة، أصبح غير قادر على فعل أيّ شيء، بقي في منزل صديقه أشهراً عديدة، أحياناً يجيب باقتضاب عن أسئلة جنيد خليفة الملحّة، كان يريد معرفة ما حدث معه خلال رحلته التي قرأ فصولها في دفتر مهترئ.

حاولت عائلته إقناعه بالعودة معهم إلى العنابيّة، لكنّه لم يجد سوى جواب واحد: لن أترك أرض عشقي، هنا سأموت قرب أنفاسها. في الأيّام التالية كان يشعر بأنفاس المدينة تخنقه، يتحدّث بضيق عن المدينة التي لم تعد نفسها، يخرج إلى الطرقات، يدخل إلى المقاهي، يردّد رسائل عائشة بصوت عالٍ كأنّه يلقي قصائده على الهواء، يريد لها الخروج من أعماقه، فكّر بأنّ ترديدها بهذا الشكل يشبه فصد الدم، يجب أن يخرجها من حياته، لم يعد يطيق الحياة نفسها، تؤلمه الذكريات، تؤلمه ذكرى خيانته، رائحة عائشة البعيدة، لم يرغب في مقابلة حنّا الذي أخبره برغبته في العودة للعيش في منزل باب الفرج، جاب حلب لأربعة فصول، سار في طرقاتها كلها، قرأ رسائل عائشة على المارّة، على المتصوّفة في زواياهم، على المصلّين في الجوامع، لكنّه طفح بالألم، لم يعد يحتمل نظرات الناس المندهشة، تسلّل مرّة إلى الجامع الأموي وصعد درج المئذنة بعد انفضاض مصلّي الفجر، أغلق باب درج المئذنة من الداخل، فوجئ سكّان المدينة بصوت صالح العذب يخلط بين رسائل امرأة عاشقة، يبكي ويعيد تذكيرهم برسائل عائشة «حبّك أغلى من ياقوت الأرض، زهد العشاق الذين يراقبون طيران الإوزّ على ضفّة النهر، حبّك نجوم تنهض من رمادها، قدني حبيبي من يدي كعمياء إلى ضفة النهر، هناك اخلع ثيابي، واغمرني في عذوبة قبلاتك، عذبةٌ قبلاتك، عذبٌ طعم يديك، لن تجد شيئاً بعد موتي سوى رائحتي التي تحبّ، عنبر صدري، أنا تراب وأنت ماء، اصنع من ضلعي صلصالاً، تناثر في أيّامي زمناً مفرداً يتفرّق ولا يجتمع، أنا تراب وأنت ماء، اسقني لأنبت ريحاناً في ضلوع العشاق».

بين كلّ مقطع من رسائل عائشة كان يبكي ويصرخ بصوت قوي «أنا خائن العشق وقاضيه، أنا إمام العاشقين» لم يجرؤ أحد على الصعود إلى المئذنة، تجمّع عدد كبير من المارّة، لم يمض وقت

طويل حتى بدأ المتصوّفة يخرجون من زواياهم ويلتحقون بتلك الأنشودة العذبة، امتلأ صحن الجامع الأموي الكبير، خاف الجنود من هذا الحشد الذي بدأ يزداد، وصالح لا يتوقف عن الإنشاد مفتوناً بالأصوات التي بدأت تشاركه ترديد مقاطع كاملة كانت قد سمعتها من قبل، بدأت المدينة تزحف إلى الجامع الأموي، لا أحد يعرف مناسبة لكنّهم حين يرون صالح في وجده العميق يفهمون أنّه وصل إلى نهاية السيرة، لم يعد يكتفي بإنشاد نصوصه على مجموعات قليلة في المقاهي، الآن يريد أن يخبر كلّ المدينة، رجا مؤذّن الجامع الأموي صالح أن ينزل عن المئذنة، لكنّه لم يكن مكترثاً، لقد ضاع صوته والآلاف كانوا ينظرون إليه بخشوع رهيب. وصل الوالي مع كبار الموظفين، استمع بشغف إلى ذلك الصوت الحزين، صمت صالح لحظات قليلة، أمر الوالي حرّاسه بإنزال صالح واعتقاله، كسر الجنود باب المئذنة المغلق وصعدوا الدرج اللولبي، كان صالح قد سبقهم وعلّق أنشوطة في أعلى المئذنة، خلال لحظات شنق نفسه، همهمت الأصوات منخفضة، ثمّ تصاعدت، مات إمام العاشقين.

تمت

الفصل الخامس
قبر وسط حقول الكرز

حلب 1903

شعر حنّا بأنّ قتل وليم عيسى وعائشة المفتي بهذه الطريقة المروّعة هزيمة شخصيّة له. ما زال يتذكّر مودّة عائشة المفتي حين حضرت عرسه، رآها واقفة مع سارة وسعاد أمام باب الكنيسة، كانت تبتسم، اصطحبتها سعاد معها وأرادت شكره على مساعدتهما، قدّمت نفسها له بأنّها حبيبة صديقهم، وهي هنا من أجل مشاركته أفراحه، ابتسم وأفسح لها المجال لتبارك لجوزفين التي استغربت هديّتها الثمينة، زنّار من الذهب الخالص، لم يناقش حنّا كعادته حين سألته جوزفين عن سرّ هديّة ثمينة من فتاة مجهولة، وقال إنّها هديّة الحاج بشير المفتي الذي تربطه به مصالح متعدّدة. بعد مقتل صديقه وعشيقته انعكس مزاجه العكر في ذلك الشتاء على ضيوف قلعته، الذين طلبوا منه طيّ صفحة موت العاشقين. يكفي ما حدث بسببهما، كادت حلب تحترق، وكادت الحرب بين المسلمين والمسيحيّين تقع.

في أول احتفال لمجموعة الأصدقاء في القلعة أوائل شهر كانون الأول، وصلت النساء، كان الضيوف مبتهجين كعادتهم، شعرت شمس الصباح بأنّ قبرَي عائشة المفتي ووليم عيسى، رغم التكتّم، سيحوّلان القلعة إلى مكان لحجّ محبّي القصص الغريبة. لم تستوعب سرّ حزن حنّا الدفين في ذلك اليوم. لقد مضت أشهر عديدة على القصّة لكنّه ما زال يؤنّب نفسه، يعتبر نفسه مسؤولاً عن عدم حمايتهما.

حين كانت تحتضنه ليغفو، يتسرّب قلقه إليها، لم يعد يحدّثها عن سعاد، ويصف أجفانها، ورقتها، لم ينم قبل السادسة صباحاً، أزاح يدها بهدوء، لا يريد إيقاظها، وانسلّ من غرفة النوم، خرج من القلعة وسار في حقل الكرز، وصل إلى قبريهما، لحقت به وقبل وصولها إليه سمعت نشيج بكائه الحارق، فهمت أنّهما ليسا مجرّد تابوتين بل فكرة يحتاج إليها حنّا كما الجميع الذين لم يتوقفوا عن الانقسام بشأنها.

لم يمكث في ذلك الشتاء في القلعة سوى أيّام قليلة، قضى أغلب وقته في السير في حقول حوش حنا مع زكريّا، الذي لم يزر القلعة في ذلك الشتاء، بقي قريباً من أحصنته وشاها.

يتذكّران أنهما حين وصل عارف وكشف الغطاء عن وجهي وليم عيسى وعائشة المفتي القتيلين، شعرا ببرودة في أطرافهما، لم يبذلا جهداً لتسليم الجثتين إلى عائلتيهما، أو لمن بقي من أقربائهما، قال عارف إنّه يتحمّل المسؤولية، لم يقدّم لهما الحماية الكافية.

لم يردّ حنّا على مطران الروم الأرثوذكس الذي طلبه بعد أيّام ليسأله عن جثة وليم ميشيل عيسى، أنكر معرفته بالأمر، وطلب منه مراجعة الوالي، والمطالبة بتحويل القتلة إلى القضاء، أضاف حنّا أنّ وليم عيسى لم يفعل شيئاً يستحق أن يُقتل من أجله، تفهّم المطران غضبه، ولم يردّ على أسئلته المتلاحقة، وطلب منه نسيان أمر طلبه.

كان حنّا يعتبر في أعماقه أنّه قريب منهما أكثر من عائلتيهما، وله حق دفن كلّ منهما قرب الآخر في مقبرة ليست مسيحيّة ولا مسلمة، شاركه زكريّا ذلك الجنون، حفر قبراً كبيراً لشخصين، وحين أنهى فجراً، أنزلا الجثمانين وأكملا دفنهما، كان عارف شيخ موسى يراقب من مكانه، حزيناً، امتلأت روحه بالعار، لم يستطع حماية ضيفيه، اقترح عليهما استدعاء خوري وشيخ للصلاة عليهما، أجابه حنّا أنهما عاشقان ولن يصلي عليهما أحد.

في الأيّام التالية اعتنت شمس الصباح بالنباتات التي زرعها حنّا على القبر الكبير، لم تجب عن أسئلة الفلّاحين، الذين يقلمون أشجار الكرز، أو يقطفون ثمار الجوز، اخترعت حكاية دفن زكريّا لحصانه الأشمر الثمين الذي مات في سيول الشتاء الماضي، اتجاه الشاهدتين إلى جهة غير محدّدة، وشغف زكريّا بخيوله جعل دفن الحصان حكاية معقولة، تناسى الجميع الأمر، إنّها فكرة بسيطة من أفكار زكريّا الغريبة التي لا تنضب.

بعد عام غابت سيرة العاشقين وإمامهما عن أحاديث سكّان المدينة، وقرّر الاثنان مع عائلتيهما قضاء عطلة عيد الأضحى في منزل عائلة أحمد البيازيدي. بدا منظرهما غريباً وهما يحتفلان بالعيد والعائلة، قاما بكلّ الواجبات الاجتماعية ولم يتذمّرا من زيارة بعض الأقارب، بل بالعكس كان حنّا وزكريّا ودودين، واستفسرا عن أحوال الجميع.

في أول أيّام العيد اجتمعا إلى طاولة الغداء، تبادلا أحاديث ودّية عن الأحصنة والمواسم مع زوّار العائلة، قاما بزيارة مفاجئة لعائلة عارف شيخ موسى، وحملا هدايا كثيرة للعمّة أمينة التي عادت إلى منزلها واحتجبت عن الناس، ولبّيا دعوة أهل جوزفين للعشاء، وفي صباح اليوم الرابع للعيد ناقش حنّا بالتفصيل مع أحمد البيازيدي أرباح استثماراته، استمع بكلّ جدّية لنصائح هذا الرجل العجوز الذي ما زال يذهب كلّ صباح إلى مكتبه في البنك، يستقبل العملاء بنشاط، ويراقب صعود عائلات منافسة في مهنة المحاسبة، يضع في طريقهم العراقيل، يورّطهم في مستنقعات الأرقام التي تغرقهم، لم يكن يريد الرحيل عن الدنيا إلّا وعائلته تتربّع على هذا العرش.

كان يجمع أبناء العائلة دورياً، يسأل عن أخبارهم فرداً فرداً، ويطمئنّ بأنّ شغف الأرقام ما زال يثير أبناءهم الجدد، يخطط معهم لتوريث الأبناء المراكز الحسّاسة، كمحاسب الولاية، ومحاسب الوالي الشخصي، وإدارة البنوك الجديدة التي تريد فتح فروعها في حلب، كان الجميع يحافظون على سرّية هذه العلاقات الشائكة، ويسهمون في تقويتها، كانوا يستخدمون تشبيهات الجدّ نجيب البيازيدي الأول، الذي قال قبل مئتي سنة إن العائلة كدفتر إن مُزّقت صفحة منه تنفرط كلّ الصفحات تباعاً.

بعد ليلة طويلة قضاها مع أحمد البيازيدي اعترف بمتعة تذوّق طعم العائلة للمرة الأولى، وأخبر الجميع بحمل جوزفين، أغرته فكرة الوريث في الأشهر الأخيرة، لم يكن يريد للكنيسة التي عاد للصلاة فيها كلّ يوم أحد أن ترثه.

في تلك الليلة رأى سعاد في طريقها إلى غرفتها، بقيت صامتة وهي تنظر إليه بقوّة، لم تردّ على سلامه، وسؤاله عن أحوالها، كانت رسالة قطيعة لم يحتملها، شعر بنفسه ضعيفاً، زائداً عن الحاجة، لقد اكتملت أنوثتها، في اللحظات الأولى شعر بأنّ في قلبه تجويفاً عميقاً مظلماً، فقدان البراءة في علاقتهما في السنوات الأخيرة جعل هذا الثقب لا يتوقف عن النزف، تخطر على باله كثيراً، في أحلام يقظته يتخيّل نفسه معها، يقطعان الطرقات في الحقول، ويسيران إلى نهاية العالم، ترعبه فكرة أنّه بحث عن رائحتها في كلّ النساء اللواتي ضاجعهن، تمنّى لو كان مثل وليم عيسى الذي فاجأهم بقوّته الخفيّة، وجمله القاطعة حين أخبرهم بأنّه لن يعيش دون عائشة المفتي، وكلّ النساء بالنسبة إليه هنّ تلك الفتاة التي التقاها صدفة في إستنبول، لم يصدّقه أصدقاؤه، سخر منه حنّا، وعازار طلب منه التفرّغ للرسم، بينما زكريّا اكتفى بالضحك. لكنّه حين عاد إلى حلب، نحيلاً، جائعاً، صدّقه الجميع. لم يتوقعوا تتابع الأحداث، منذ زمن بعيد لم يمت عاشق علناً في هذه المدينة، كلّ العشّاق السابقين ماتوا سرّاً، وتكتّم الجميع على قصص حرق فتيات لأنفسهن وانتحار فتيان ورجال عشاق لصعوبة العيش بعيداً عن حبيباتهم اللواتي زوّجتهنّ العائلات درءاً للفضيحة. مشهد النساء الملفّحات بثيابهنّ السوداء، وأغطية رؤوسهنّ، لا توحي بأنهنّ عاشقات. والرجال بذهولهم وصمتهم وتكتّمهم لا يوحي منظرهم بأنّهم عشاق، الحبّ يحبّ الفضيحة، العلن، النهار، الضوء.

بعد عودتهم إلى حوش حنّا بأسابيع قليلة، ابتهج حنّا بولادة جوزفين ابنهما كابرييل، لكنّه شعر بملل وضجر بعد أيّام قليلة، فكر في الهرب إلى مكان بعيد لا يعرفه أحد فيه، لم يجد سوى القلعة مكاناً للاسترخاء، عاد إليها مع زكريّا. يشرد حنّا وحيداً مستعيداً صورة سعاد التي تمنعه من تركيب صورته كعاشق، استسلم لفكرة العيب وخيانة تاريخ العائلة التي ربّته كفرد منها، استقرت صورتها أختاً له، محرّمة، ولا يجوز حتى في أحلام اليقظة التفكير في نهديها الطافحين ورائحتها، لكنّ حياته وأحلامه كانت شيئاً مختلفاً، لا تتركه صورة سعاد، يفكّر فيها طوال الوقت، يشعر بعذاب رهيب، لكنّه في الوقت نفسه يشعر بمتعة هائلة، يفكر بأنّه لن يكون معطوباً إلى الأبد، لديه ما يقوله لسعاد، لكنّه حين يراها تغور أفكاره، ويشعر بنفسه بئراً مهجورة طافحة بالأعشاب اليابسة.

سار حنّا من القلعة نحو العنابيّة، حيث قضى زكريّا أيّامه الثلاثة الماضية منتظراً ولادة نادرة في إصطبله، كان يعقوب مشغولاً بتخليص الجنين من أمّه، كانت ساعات صعبة تصبّب فيها يعقوب عرقاً. ابتهج زكريّا بالمهر الجديد، تمّت الولادة بنجاح على رغم صعوبتها، نظر إلى حنّا، كانت عنياه حمراوين، من الواضح أنّه بكى، سار الاثنان في حقل الكرز، في الظلام سمع زكريّا صوت حنّا يردّد أنّهما يستطيعان تخليد ذكرى صديقهما وحبيبته. أضاف زكريّا أنّ الخلود لا يعني شيئاً لكنّهما يستطيعان منع تشويه سمعتهما، مدّ حنّا يده بعدد من جريدة «المدينة» نشر فيها جنيد خليفة الحلقة الأولى من روايته التي سمّاها «الحبّ المستحيل»، كان قد غيّر اسمَي وليم عيسى وعائشة المفتي لكنّ كلّ القرّاء كانوا يعرفون البطلين وإمام العاشقين، قرأ زكريّا الفصل الأول، وقال لحنّا إنّ الكاتب لا يعرف شيئاً عن صديقهما. نفدت أعداد الجريدة من الأسواق، وانهمرت الرسائل على الجريدة، كانت الآراء متناقضة، هناك من يتّهم الجريدة والكاتب بنشر الفاحشة في المجتمع، وقسم آخر من القرّاء يشكرون الكاتب ويطالبون بالمزيد، وبعض الرسائل كانت تشتم إمام العاشقين وتسمّيه الخائن والواشي، وكتب قسم آخر قصصه الشخصية مع الحبّ المستحيل وأرسلها لاستخدامها في كتابة هذه الرواية. فكّر زكريّا بأنّ الحكاية لن تنتهي، ما زالت آثار الحجر المرميّ في المستنقع واضحة وقويّة.

صباحاً خرجا من القلعة، سارت العربة في أزقة المدينة، كان البشر ينظرون إلى حنّا وزكريّا نظرات غريبة، لم ينس سكّان مدينة حلب الحكاية كما ظنّا، كلّ المدينة تعرف دورهما في عمليّة الخطف، والكثيرون يؤلفون قصصاً غريبة عمّا يدور في أروقة القلعة التي أصبحت رمزاً للانحلال.

وصلا إلى سوق النحّاسين، لم يبذلا جهداً لمعرفة العنوان الذي يقصدانه، فوجئ جنيد خليفة بحنّا وزكريّا يتّكئان على حافة الباب ويستأذنان بالدخول، كان يعرفهما جيّداً، فوجئا بصورة كبيرة لعائشة في صدر الغرفة، لم يسألا عن سرّ وجود اللوحة في هذه الغرفة، بالتأكيد صالح باعها لهذا الرجل الشغوف بقصّة العاشقين، قدّم لهما شراباً مخلوطاً بماء الورد، تبادل حنّا وزكريّا نظرة متفاهمة، لا يمكن استئجار شخص زاهد كهذا، يكتفي بالقليل. لم يضيّعا وقتهما وأبديا إعجابهما بروايته، قال حنّا إنّهما صديقا وليم عيسى وحبيبته، يستطيعان تقديم تفاصيل لا يعرفها إذا أراد كتابة قصّتهما، استمع إليهما لكنّه بقي مبتسماً حين تساءل حنّا إن كان صالح وشى فعلاً بهما، قال إنّه متأكّد من أنّ صالح لم يكن واشياً، ويعرف أنّهما طاهران وتفاصيل قصّة عذريّة عائشة التي يختلف عليها سكّان المدينة لا تشغل باله، لكن ما يشغل باله حقيقةً هو اختفاء جثمانيهما. فكّر حنّا للحظات وتفاهم مع زكريّا بنظرة خاطفة، سأله مرّة أخرى هل أفشى صالح سرّ مكانهما، أنكر جنيد بشدّة الأمر، طلب حنّا منه مرافقتهما إذا أراد رؤية قبر العاشقين، لم يتردّد لحظة واحدة، وركب معهما العربة، وفي الطريق اتفقا على إيقاف النشر، حتّى يضعا أمامه كلّ التفاصيل وتُعاد كتابة الرواية، وعاهدهما على كتمان سرّ قبريهما. وكان الشخص الوحيد الذي يدخل القلعة من خارج نخبة الرجال المختارين.

اصطحبه حنّا عبر طريق القبو حيث منصّة المنتحرين وورشة صك النقود، كان جنيد يعرف رائحة الزرنيخ المنتشر في المكان، خرجا معاً إلى حقل الكرز، وصلا إلى شجرة الجوز الكبيرة، وحين وصلا إلى القبرين أجهش بالبكاء، وطلب المغادرة فوراً. كما طلب الإذن من حنّا بوصف قبريهما دون الإشارة إلى مكانه، وفي طريق العودة كان زكريّا يقود العربة وجنيد يحدّث حنّا عن رسائل عائشة، يصف عينيها الرائعتين، وجدائلها الطويلة، قال كلمات قليلة وصمت، تكتّم على أمر دفاتر صالح العزيزي الذي كتب فيها الكثير عن إحساسه بالعار لخيانته معشوقته، ومعلومات لا تشرح طبيعة علاقته بعائشة، بدا لهما متعباً وهو يلوّح لهما مودّعاً.

سارت العربة في شوارع باب النصر، ونزلت نحو الجميلية عبر شارع الخندق، اصطحبا عازار معهما، طلب حنّا من زكريّا العودة إلى «الجلوم»، حيث انتقل ميشيل عيسى وبناته الأربع إلى منزل صغير استأجره بعد هربه من منزله في «الفرافرة». فتحت لهم ابنة ميشيل الكبرى الباب، أخبرتهم بأنّ أباها نائم والوقت غير مناسب للزيارة، كانت غاضبة جدّاً، لقد تركها خطيبها بعد الفضيحة. لكنّ حنّا دخل من الباب ولم تستطع منعه، لحق به زكريّا وعازار، كان ميشيل غارقاً في سكر شديد، لم يكن سعيداً بزيارتهم، لكنّ حنّا لم يمهله، حدّثه عن مسؤوليته مع زكريّا في مساعدة صديقهما، وأكمل حنّا أنّه كان سبباً في تسهيل أمر تبادل الرسائل، نظر ميشيل إليه وقال كرجل عجوز: أعرف أنّكم دفنتموه في القلعة، مضيفاً: «حسناً فعلتم، وليم لن يرتاح إلّا قرب حبيبته، وماذا سيفعل في مقبرة مسيحية؟ لا أريد لأحد أن يبصق على قبره». أكمل وهو ينظر إلى عازار: «أنا كخط المعماري المائل الآن، ضائع، ومعلّق في الفضاء، أتأرجح كبندول ساعة قديمة، كقطعة قماش لا تنفع فيها كل الأصباغ». تحدّث عن مأساة صديقه الحاج بشير الذي أغلق معمله واحترق منزله أيضاً، وهرب إلى مكان غير معلوم، لقد انتهت حيوات كثيرة، لا أحد سيدقّ بابهم

ليطلب أيّاً من بناته الأربع للزواج، أشار إلى ابنته الكبرى: لقد عادت وحيدة بعد أربع سنوات خطبة، ولم يبق أمامها إلّا أن تصبح راهبة.

شعر حنّا بتعاطف كبير مع ميشيل، اعتقد أنّ رحيلهم الآن سيهدّئ قلقه، لكنّه طلب منهم البقاء، صبّ لهم من الكونياك الرخيص الذي يشربه، أخبرهم بأنّه لا يفعل شيئاً، لا يخرج من منزله، لا يحتمل نظرات الناس إليه، يشرب طوال الوقت، آخر الليل يسير إلى سريره مترنّحاً، كان يريد القول: ستنسى المدينة ما حدث كعادتها، لكنّه إلى ذلك الحين عليه أن يموت أو يخرج من هذه الغرفة مع بناته الأربع تاركين حلب إلى مكان بعيد، مشيراً بيده من النافذة، مكرّراً: هذا ما سأفعله في القريب العاجل.

مساءً قطعت العربة التي تضمّ الأصدقاء الثلاثة شوارع المدينة، كان عازار يفكر بأشياء كثيرة، قطعوا بساتين الورد، تأمّل المنازل في الأحياء الجديدة، عبروا النهر إلى حيّ الجميليّة. قال عازار: كان يجب أن يعيش وليم ويكمل مشروعه ويرسم ألف سنة ليشفي جراحنا، لكنّه ترك كلّ شيء ورحل.

كانت ليلة صعبة على حنّا، قضاها قرب قبر العاشقين، تركه زكريّا وعاد إلى قرية حوش حنّا، هناك سيكون وحده مع أحصنته والنهر وشاها، لا مزاج له لمجاملة رفاقه السكارى الذين افتتحوا موسمهم في القلعة بحفلة الأثواب الزرقاء الشفافة التي اقترحها عارف شيخ موسى. توقفت عربته وأنزل الخدم منها ثلاثة صناديق مليئة بفساتين زرقاء شفافة من مقاسات مختلفة، مطرّزة بورود ناعمة، ارتدتها النساء التسع اللواتي سيتقاسمن الغرف والرجال، وفي الليلة التالية تفتّق ذهن عارف شيخ موسى عن فكرة فرقة موسيقيّة من ثلاثة رجال عميان، كان يعرفهم جيداً، يحتلون الجامع الأموي وينشدون للنساء العاقرات صاحبات النذور، تفاهم معهم بسهولة، قدّموا في الليلة الأولى وصلة أغانٍ رائعة، رقصت الفتيات التسع حتى الصباح، ولم يضيّع عارف الفرصة، تعاقد مع هذه الفرقة لتعزف ثلاثة أيّام في الأسبوع. وكان العميان سعداء بهؤلاء الزبائن الكرماء. كانت ليالي هذه السنة الأكثر تهتّكاً. كان حنّا يترك ضيوفه وينسلّ إلى حقل الكرز، يفكّر بأنّ الموتى لا يحتاجون إلى الشمس ولا يشعرون بالبرودة، يقلع الأعشاب التي تنمو على القبرين، ويزرع وروداً جديدة. بعد انقضاء الشتاء الثاني تناسى الجميع القبر، صكّ مجموعة قطع فضّية على شكل ميداليات أسطوانية تحمل رسماً للعاشقين، وضع كلّ القطع في صندوق وطلب من الصنّاع مغادرة القلعة. أصبحت فكرة مملّة أن يبقى الصاغة ليصبّوا نقوداً لمملكة غير موجودة، شعر بالسعادة حين أخبره زكريّا بأنّ شاها ولدت ابنهما أحمد، كان زكريّا متحمّساً، طلب منه مرافقته إلى حوش حنّا لإكمال ذلك الشتاء.

العودة إلى العائلة وقضاء الربيع قرب جوزفين وابنه كابرييل منحته فرصة للتفكير مرّة أخرى في تهدئة قلقه، والعيش بسلام، كانت أصابع الطفل الصغير تبعث البهجة في نفسه، يتأمّله طويلاً وهو يغفو في سلام في سريره، لكنّه لم يحتمل لوقت طويل فكرة العيش مع العائلة، عادت إليه رغبة التشرّد في الأمكنة، ترك حوش حنّا وقضى أيّاماً في مضافة عارف شيخ موسى الذي لم يتوقف حديثه عن القطارات والعروض التي يدرسها للاستثمار في هذا البغل الحديدي الخرافي الذي يقطع المسافات مسرعاً.

فكّرت زوجته جوزفين بأنّ الزمن سيقوده مرّة أخرى إلى مكانه الطبيعي، لم تمانع إنجاب المزيد من الأولاد، اعتادت العيش دونه، تسيّر أمور العائلة مفترضة أنّها ستفتقده صباحاً ولن تجده، تعيش

بهدوء، ساعدها إيمانها العميق في احتمال هجره، كانت في أعماقها تحبّ هذا الشخص المعذب الذي استبدّت في قلبه شهوات الدنيا، تعتقد أنّه في أعماقه مسيحي صالح رغم ولعه بالحياة الآبقة.

قبل الطوفان بأشهر قليلة بدأ حنّا يشعر بملل كبير، لم يعد يلبّي دعوات أصدقائه الكثيرة، بدأ يبحث عن أفكار مثيرة أكثر، لم يعد يغريه تناول إفطاره مع نساء عاريات، ولا السهر مع فرقة مغنّين عميان، لقد انتظر انتحار أحد المقامرين، لكنّه كان يتدخل دوماً في الوقت المناسب ويمنع إفلاس أحد من أصدقائه الملاّكين الذين تستبدّ بهم شهوة المقامرة. اتّهمه أصدقاؤه بأنّه يفقد اللعبة إثارتها، لكنّه بقي مصمّماً على أنّه لا يريد رؤية أحد من رفاقه مفلساً، وطلب من الجميع البحث عن أفكار أكثر إثارة من طبخ خواريف في قدور نحاسيّة، أو صعود فتاة إلى الطاولة وخلع ملابسها قطعة قطعة على أنغام موسيقى مجنونة تُبثّ من أسطوانات غربيّة.

بقيت له لذة لا يشاركها مع أحد، النوم في حضن شمس الصباح التي تماهت مع الدور الذي رغبه، تداعب شعره، تقصّ له أظافره، وتطلب منه العناية بعائلته، تنهره حين يتحدّث عن سعاد ويسهب في وصف ألم ابتعاده عنها، كانت تريد لهذه السيرة أن تتوقف، كانت تشعر بعذاباته، طلبت منه اصطحاب طفله إلى القلعة ذات يوم، تناسى طلبها، وفكّر بما قاله جنيد خليفة في لقائهم الأخير، حين جلسوا هم الثلاثة، عازار وحنّا وزكريّا، يتحدّثون أمامه عن وليم عيسى وعائشة المفتي، لكنّ جنيد فاجأهم بالحديث ساعات طويلة عن تلميذه صالح العزيزي الذي كان خادماً لحنّا لكنّه تحوّل الآن ليصبح إماماً للعاشقين. كان جنيد يدافع عن صالح، ولكنّه في لحظة كاد يعترف بأنّ ما تركه صالح في دفاتره يجعل من فعل خيانته أمراً واقعاً، لكن في تلك السنوات كان مولعاً بتقديم سيرة صالح، لا يريد لأيّ شيء أن يفسد نصاعتها، هكذا لا يمكن لإمام العاشقين أن يكون خائناً واشياً.

الفصل السادس
الطريق الشاق

حلب – دير زهر الرمان – 1908

غادر آخر المعزين منزل أحمد البيازيدي، نظر زكريّا إلى حنّا، كان صامتاً وحزيناً، ضيق يجثم على صدره، قام حسن المصابني بواجبه على أكمل وجه، واعتنى بالمعزين، وخاصّة الرسميّين منهم، الوالي، ومعاونيه، قائد الشرطة، والتجّار الكبار، كان يريد إرضاء سعاد، فتح منزله لاستقبال النساء المعزيات، أوصى على الطعام، واعتنى بكلّ التفاصيل كرجل مولع بإتقان الواجبات الاجتماعية، يحبّ أن يتحدّث عنه الناس بإعجاب. اكتفت سعاد بالجلوس قرب عمّتها أمينة التي بقيت مطرقة رأسها في الأرض، تستعيد ذكريات عمر بأكمله مع أخيها أحمد البيازيدي الذي كان يخاف منها ومستعدّاً دوماً لتلبية كلّ طلباتها، كان رجلاً ودوداً يعتقد بأنّه خُلق لمهمّة تصحيح العالم، وتقويمه من فوضاه، عبر ترتيبه في دفاتر حسابات دقيقة. أمّا أمينة فلم تكترث بالنسوة الكثيرات اللواتي رغبن في التبرّك بها، فتيات صغيرات قبّلن يدها، مسحت على رؤوسهنّ واكتفت بكلمات قليلة مجاملة، شعرت سعاد بغربة شديدة، انتظرت انتهاء المراسم لتعود للتمدّد على أريكتها وحيدة. في الليلة الأخيرة بعد مغادرة آخر المعزيات وقيام الخادمات بتنظيف المنزل، انتظرت نهوض عمّتها إلى سريرها الذي أعدّته لها، سمعتها تطلب منها تفسيراً لعدم سعادتها في الزواج بحسن المصابني. لم تطل سعاد التفكير، قالت لها إنّه لا يمكن لأيّ شخص شرح التعاسة.

مضت إلى غرفتها، سمعت صوت دخول حسن متأخّراً، وحين استيقظت لم تجد عمّتها، أخبرها حسن بكلّ التفاصيل كعادته، وكعادتها لم تستمع أو تهتمّ لوصفه لحظة وصول الوالي، والمصالحة التي تمّت بين تجّار متخاصمين. شعرت بنفسها مزهرية محطّمة، لن يستطيع أحد لملمة نثارها. لم تفهم سرّ تحوّلات حنّا حين رأته من نافذة غرفتها في منزل أبيها يندفع نحو التابوت، ليشارك الرجال حمله، كان شخصاً آخر بالنسبة إليها، لا يمكن إلّا أن تتعاطف معه، كانت تريد لحقدها عليه أن يزيد، لكنّها فكّرت فيه خلال الأيّام الثلاثة الماضية، لم تفارقها صورته، وجهه النحيل، لمعان عينيه، واليأس الذي كان يتساقط من أصابعه. أرادت رؤيته بأيّ ثمن، تريده أن يعود ذلك الرجل

الذي كرهته، متعجرفاً، جباناً رغم قوّته، لكنّ منظره محشوراً بين الرجال الذين يحملون التابوت حطّم قلبها، عادت إلى تعاطفها القديم، إلى أيّام طفولتهما التي هربت من تذكّرها دوماً.

في الليلة الماضية لم يستمع حنّا إلى حديث حسن المصابني الذي كان يمتدح العزاء، ويعدّد أسماء أغلب الناس الأقوياء الذين قاموا بالواجب، ويشرح بحماسة دلالات هذا النفوذ الخفيّ. كان حنّا شارداً، وقربه زكريّا يتلمّس غربته عن كلّ ما يقال، ويفكّر بأنّ رحيل والده في مثل هذا الوقت كان مناسباً، لقد تحلّل من الواجبات. نهض حنّا وخرج من المنزل، تبعه زكريّا ولم يفهم رغبة حنّا في تركه وحيداً تلك الليلة، شاهده يدخل إلى كنيسة السريان الكاثوليك، شعر بانقباض في صدره، لا يريد لصديقه نهاية كهذه، لكنّه لم يجد الكلمات المناسبة التي تردعه عن زهده الذي أوصله لخدمة الكنيسة.

كان متعباً، لكنّه لم يتشكّ، مسح بيده على رأس ماريانا التي بكت حين رأته، انتظرته بشغف، لا أمل لديها في الحياة سواه، طلب الانفراد بالمطران باسيلوس الذي قاده إلى قاعة المكتبة، أخبره حنّا عن رؤيا استبدّت به منذ مئة يوم، أخذت تتّضح رويداً رويداً، أخبره بأنّه سيحفر التلة الصغيرة المقابلة لتلة العنابيّة، وهناك سيجد كنيسة مطمورة. أضاف أنّ التل واقع ضمن ملكيّته، استمع المطران باسيلوس باهتمام وشفقة، أخبره بأنّ بقايا الكنيسة التي يتحدّث عنها موجودة في قرية براد القريبة، يستطيع الذهاب إلى تلك الأرض المباركة، لن يمنعه أحد من ترميم الكنيسة المهدّمة ومنازل المسيحيّين الأوائل، وبداية حياة جديدة. كان المطران باسيلوس ينظر إليه بتشفٍّ واضح، لقد انهار الرجل الآبق أخيراً، ولم يجد مكاناً سوى الكنيسة ليسند روحه إلى مذبحها.

تابع حنّا سرد تفاصيل رؤياه، ضاق ذرعاً بتشكيك المطران باسيلوس، خرج فجراً من الكنيسة، وبعد خطوات قليلة انتبه إلي ماريانا تتبعه، قالت له إنّها تصدّقه ولن تتركه وحده، ستذهب معه إلى أيّ مكان، قالت له اعتبرني خادمة، أو أختاً، أمسكته من ذراعه وتابعا طريقهما، طلب منها العودة إلى الكنيسة، قال لها إنّ حياته لم تعد كما كانت، لقد فقد اليقين، ولا يعرف ما الذي يستطيع فعله في الوقت الفائض من حياته، لكنّها لم تتركه، تابعت طريقها صامتة، وقالت عبارتها الأخيرة: «تستطيع طردي ساعة تشاء، لكن دعني أرَك الآن»، وأكملت أنّ الكنيسة ليست المكان الملائم لفتاة يتيمة، لا تريد أن تصبح راهبة، وإن عادت إلى منزل عمّها في أورفة فلن تخرج منه إلّا إلى المقبرة.

بعد الطوفان تغيّر حنّا كثيراً، صار وجهه أكثر صفاءً، تشي خطواته البطيئة بزهده، لقد دفن حياته الماضية في أعماق النهر مع وجوه أحبّته الغرقى، سارت معه ماريانا ولم تسأله أيّ شيء، اعتبرت صمته موافقة مبدئيّة على السماح لها بمرافقته، دخل إلى سوق الحدّادين، شرح لحدّاد عجوز حاجته إلى فؤوس حادّة ورفوش وباقي أدوات تساعده على نبش تلّ كبير، نظر إليه الرجل وأخبره بأنّه يعرفه، لم يكترث حنّا، بقي صامتاً، تفهّم العجوز الوضع، قال في سرّه إنّها نزوة جديدة ستنتهي، لكنّه زبون جيّد في كلّ الأحوال، منع تعرّض بعض التجّار له، حين كانوا يرونه في ثيابه الجديدة ويبدو لهم شبه مخبول، عرض عليه تصنيع رفوش كبيرة خصّيصاً لهذه المهمة، وافق حنّا، شعر بضيق جاثم على صدره، تجمهر كثيرون لرؤيته، لا يريد الحديث مع أحد، ينظرون إليه بشفقة كبيرة، لا يصدّقون أنّ الواقف أمامهم يتحدّث بكلّ هذه النعومة، هو الرجل الذي ألهب خيال المدينة بفضائحه وأفكاره التي كانت القلعة تتويجاً لها.

كلّ شتاء يسرّب حنّا الحكايات التي يريد لها الانتشار في المدينة عن ذلك البناء المحتجب بغابة صنوبر وأشجار زيتون وتين وكرز، وأغلبها تدور حول عشّاق فقدوا الأمل، ونساء يستحممن

بالحليب والعسل، ويرتدين ملابس تأتي خصّيصاً من إستنبول ولندن، لم ينتحر أحد، لكن قاعة المنتحرين التي روّجت لها شمس الصباح بكلّ جدّية، اكتسبت جمهوراً كبيراً، كان من بينه مجموعة فنّانين وخطاطين وشعراء حلموا بالعيش في ذلك المكان.

كان حنّا شريكاً في كلّ شيء غريب في هذه المدينة، كلّ العيون التي كانت تنظر إليه بإعجاب لامتناهٍ الآن تنظر بشفقة مبطّنة بحسرة أن ينتهي رجل لم يبلغ الأربعين من عمره هذه النهاية، أعداؤه وجدوها فرصة ممتازة للانتقام منه؛ لقد مات أحمد البيازيدي، والطوفان جعله شبه مجنون، والانتقام لا ينتظر كثيراً. كان الجميع يتحدّثون عن نهاية مأساوية تنتظره، قتلاً على يد أحد الولاة أو أزواج النساء اللواتي خرب حياتهنّ، كان أصدقاؤه يتوقعون نهايته في غرفة المنتحرين.

لم يضيّع حنّا وقته في الردّ على معارفه من سكّان المدينة، كانت ماريانا جالسة قربه في العربة، تنتابها مشاعر غريبة من التعاطف مع هذا الكائن الذي لم يعد يربطه بالماضي أيّ شيء. قطعت العربة باب الفرج، وصلت إلى منزل أحمد البيازيدي، طلب السائق من زكريّا مرافقتهما، وتابعت العربة صعودها نحو الشمال، وصلت إلى حيث أشار حنّا بيده للسائق بالتوقف، سار عدّة خطوات صاعداً التلّ، نصب راية بيضاء وبفأسه بدأ حفر الأرض، وإزاحة التراب، قال لزكريّا الذي كان ينظر باستغراب: سنحفر التل، هنا كنيسة مدفونة، سنكتشفها ونتبرّع بها لذكرى جميع أمواتنا، ونكمل تيهنا.

في الأيّام الأولى تجمهر عدد كبير من فلّاحي العنابية، يراقبون العبث الذي يقوم به ملّاك أكثر من نصف أراضي قريتهم، تجرّأ الأطفال على ضربه بحبّات الجوز، سخرت منه النساء، والملّاكون المنافسون له في المنطقة نفسها من أولاد الخضر أتوا بأحصنتهم وترجّلوا مع رجالهم المسلحين ببنادق جديدة، حاولوا إجباره على الاعتراف بأنّه يبحث عن كنوز مختبئة في قلب هذا التلّ، بقي صامتاً يضرب الأرض بفأسه، لم يحتمل زكريّا سماع الإهانات الموجّهة لحنّا، أمسك بكبير آل الخضر سليم وجرّه عن ظهر حصانه، رماه على الأرض، وأخبره أنّه إن لم يغادر هذا المكان خلال لحظات فسيحرق منازلهم بمن فيها.

كان زكريّا جادّاً، وآل الخضر يعرفونه، إنّه ليس رجلاً ثرثاراً، يستطيع زكريّا طلب نجدة نسيبه عارف آغا وأصدقائهم آغوات جبل الأكراد، الذين سيرسلون خلال لحظات مئات الرجال الأشدّاء القادرين على حرق المنطقة، وتشريد كلّ آل الخضر الذين تحوم شبهات كثيرة حول ملكيتهم التي انتزعوها بالتحايل عبر سنوات طويلة من ملّاكهم الذي أصابه الخرف، ووقّع صكوكاً لا يعرف مضمونها، وتحوّل آل الخضر من مرابعين إلى مُلّاك، لكن آل الخضر يخافون من إعادة التشكيك في صكوك الملكيّة، وآل البيازيدي هم الوحيدون الذين يستطيعوا الهمس في أذن الوالي وحتى الباب العالي وإقناعه بتخليص ملكيّتهم. فكّر سليم الخضر للحظات، فهم أنّ زكريّا جادّ في إشعال المنطقة وحرق منازلهم، لم يحن الوقت بعد لانتزاع مئات الدونمات المهملة من ملكية حنّا وضمّها إلى أراضيهم المتاخمة. غادر مع فلّاحيه، ولم يعد مرّة أخرى إلى هذه المنطقة. تابع ما يحدث في تلّ زهر الرمّان المتاخم للعنابيّة عن بعد عبر عمّال جواسيس دسّهم بين البنّائين الذين بدأوا بأمر من زكريّا ببناء سور حول أراضي حنّا في تلك المنطقة، كانت تبلغ أكثر من أربعمئة دونم ما عدا أراضي صغيرة موزعة بين أملاك سليم الخضر وإخوته الذين لم يسمح لهم حنّا حتى بزيارة القلعة، استقبلهم على الباب حين فكّروا بدخولها، قدّم لهم القهوة، استمع منهم إلى وجهة نظرهم بمدّ قناة ماء من نهر عفرين، كانت فكرة مستحيلة لانخفاض مستوى النهر عن الأراضي العالية التي

يتحدّثون عنها، لكنّه فكّر بأنّهم يريدون الحديث معه بأيّ حجّة، الجميع يعرفون أنّه لا يمكن رفع ماء نهر إلى جبل.

تابع حنّا عمله، يساعده زكريّا بنقل التراب وبناء جدار بدأ يتكوّن يوماً بعد آخر حتى حجب الرؤية، تناسى الفلّاحون كلّ شيء بعد الشهر الأول، اعتبروا ما يحدث عبث مالكين كبار، لم يسمح لهم زكريّا بالعمل داخل السور المحاذي لإصطبل زكريّا، منبّهاً الوكيل الذي طمأنهم بأنّ حنّا وزكريّا سيرحلان أول الشتاء كعادتهما إلى القلعة وسيعود كلّ شيء على ما يُرام.

يهجع حنّا وزكريّا بعد حلول الظلام إلى المنزل القديم القريب من التلّ الذي تركه زكريّا لاستراحته لقربه من إصطبلاته، يجلس حنّا مع زكريّا وماريانا إلى الطاولة الكبيرة، يتناولون عشاءهم بصمت ثمّ يتفرّقون إلى غرفهم. قرّر زكريّا عدم ترك حنّا نهائياً، خاف من غدر آل الخضر. كانت ماريانا تعتني بالرجلين دون اكتراث لأقوال الناس الذين كانوا يتحدّثون عنها كفتاة ساقطة، عذراء تعيش مع رجلين غير محرّمين، بدا واضحاً أنّ رؤيا حنّا حقيقة بالنسبة إليها كما هي بالنسبة إلى زكريّا الذي بدأ حلم صديقه يدغدغه. فكّر بأنّ هذا التل كان يجب أن يُحفر أصلاً منذ زمن طويل، إن لم يجدوا كنيسة فسيجدون تماثيل يبيعونها للأجانب الذين يتحدّثون طويلاً عن التاريخ القديم، ويدفعون نقوداً كثيرة مقابل تماثيل مطمورة تحت الأرض، كثيراً ما حطّمها فلّاحو حنّا أو رموها في إصطبلات الخيول حين كانت تعلق في محاريثهم.

خلال الأشهر الثلاثة الأولى نشأت بينهم لغة جديدة لم تكن معروفة من قبل، يتبادلون كلاماً قليلاً، الرجلان يشعران بالامتنان لوجود ماريانا معهما، يعاملانها بلطف شديد، وهي تشعر بامتنان لوجود زكريّا الذي يتصرّف بالأمور الدنيويّة بسرعة دون أن يطلب منه أحد، أخفى تمثالين متوسّطي الحجم في الأرض القريبة، وتفاهم مع حنّا بالنظرات، لم تفهم ماريانا سرّ احتفاظه بهما، بالنسبة إليها لم يكونا سوى حجرين كبيرين، وقد أهمل من قبل حنّا وزكريّا أحجاراً كثيرة كانت تخرج من بطن التلّ. يراقب زكريّا مخزون المؤونة، يذهب إلى المدينة، يملأ العربة بما ينقصهم، يسنّ الفؤوس ويصلح الرفوش، لا يردّ على تهكّمات أهل حلب الذين تداولوا كلمات المطران باسيلوس الذي اتّهم حنّا بالجنون، تحدّث أكثر من مرّة مع الوالي ليحجر على أملاكه ويضعها تحت تصرّف الكنيسة لكونها الوريث الوحيد لواحد من رعاياها. وفي الطرف الآخر أغلقت شمس الصباح باب القلعة ولم تعد تستقبل أحداً، تتحدّث مع الحارسين اللذين احتفظت بهما من عدد كبير من الرجال كانوا يتناوبون على حراسة المكان وخدمة حدائقه الكبيرة، قضت وقتها داخل القلعة تعمل مع شاها على نول لنسج الحرير في فعل عبثي لا ينتهي، كانت تنتظر انتهاء مأساة حنّا لتقرّر مصيرها، المكان ما زال ضمن أملاكه، وإن حدث له مكروه فلن تتركه الكنيسة يوماً واحداً، ستهدم المكان الذي لم يتورّع كلّ رجال الدين عن المطالبة بهدمه مراراً وتكراراً.

ارتطمت الفأس بأول أحجار حائط ضخم مهدّم، اغرورقت عينا حنّا بالدموع وخرّ راكعاً على ركبتيه، لم يتمالك زكريّا نفسه من وقع الصدمة، وكان اليوم الأخير من شهر نيسان من عام 1909. بقي حنّا خاشعاً طوال الليل، ابتهج زكريّا بصدق رؤيا صديقه، تابع عمله بهمّة كبيرة وهدوء، حتى بدأ الحائط يظهر رويداً رويداً كجزيرة انبثقت من بحر هادئ في ليلة مقمرة، لقد تأكد من أنّها ليست مجرّد حجر كبير بل حائط طويل مهدّم لكنّ أحجاره ما زالت كما هي باقية مكانها. حين رأى حنّا يبكي بصمت الزاهدين شعر زكريّا بانقباض حادّ في صدره، قال في قرارة نفسه الآن تغيّرت حياة صديقه إلى الأبد، لقد مات حنّا القديم، تناسل من جثة صديق عمره ومن تراب التلّ رجل ناحل، بقي واقفاً مكانه، يجب أن يقنع حنّا بردم الحائط، لكنّه شعر بفوات الأوان.

ما زال حنّا صامتاً منذ الصباح، راكعاً على ركبتيه، بحثت ماريانا عن زكريّا لم تجده، غابت الشمس وهبط الظلام، كان يوماً ربيعياً دافئاً، النجوم تلتمع كحبّات ألماس في السماء الصافية، فكّرت ماريانا بأنّ التلال المحيطة، وبيوت العنابيّة التي من الممكن رؤيتها، عبارة عن خرائب وقبور هائلة. قادت حنّا من يده، فرشت له فراشاً تحت شجرة التين الكبيرة، طلب منها تركه وحيداً، بقيت ماريانا طوال الليل تنظر إليه خلسة من نافذة غرفتها، رأت وجهه تحت ضوء القمر، عاد زكريّا من جولته حول التلّ، وحين رأى وجه صديقه الجديد لم يحتمل ضعفه، تركه وسار باتجاه القلعة القريبة التي لا تبعد سوى مئات الأمتار عن التلّ. قرع الباب، لم يكن لديه وقت للتفكير، قال لشاها: وجدنا الكنيسة. لم تصدّق، ظنّت أنّ زكريّا أصابه الجنون، قادته من يده إلى الحمّام، كانت الأقذار تنسل من جسده، أحضرت له ملابس نظيفة، وأعدّت له عشاءً. أخذت تهمس بكلماتها القديمة التي تتغزل بعضوه، قالت له أريد فارسي الليلة. استغرب زكريّا تغيّر شاها، لاحظ في الأيّام الأخيرة تحوّلها، بدأت تتكلم، ولم تعد تشرد كثيراً، شعر بسعادة كبيرة، وقدّر أنّ أحاديثها مع شمس الصباح ساعدتها على التعافي من صدمة الطوفان، الذي مضى وقت طويل على حدوثه. لم يقرب زكريّا شاها، ولا أيّ امرأة أخرى منذ ذلك اليوم. استعجلت شاها على ولوجها، اشتاقت له، إنّها امرأة أخرى، أكثر جمالاً، جسدها أكثر نعومة، تشمّم رائحة العطور المخصّصة لعاهرات القلعة، قادته من يده إلى أول غرفة، طلبت منه مضاجعتها، تناسى زكريّا وجود شمس الصباح، استسلم لشاها التي كانت في تلك الليلة شبقة، همست له أريد ولداً جديداً، فهم زكريّا سرّ رغبتها، فكّر بأنّها عادت إليه، احتضنها وحدّثها عن المستقبل كما كانا يفعلان قبل الطوفان، يلحّ عليها بأن تنجب له عشرة أطفال، لكنّها بعد ممارستهما الجنس عادت إلى حزنها، كانت تريد نطفته، طلبت منه أن لا يتحدّث عن العودة إلى حوش حنّا، تريد حياة مختلفة، همست له: لا أحتمل العيش قرب كلّ هذه القبور.

بقي حنّا مكانه، ينظر إلى القمر السابح في السماء، أنعشته نسمات الليل، ودّ لو صرخ لتسمعه بنات آوى التي يتردّد صدى أصواتها في أودية جبل «ليلون»، لكنّه بقي خاشعاً، يفكّر في الحياة الأخرى التي اكتشفها من جديد، لم تعد تفاصيل حماقته تعنيه، نسي كلّ شيء، احتقر في أعماقه الفتى الذي كانه. كانت ماريانا قربه تنظر إليه بشغف، وجهه يشعّ بنور تتحسّسه بمفردها، عيناه الضاحكتان تمنحانها أملاً بحياة جديدة، لا تعرف شكلها، لكنّها كم حلمت أن تكون جزءاً من حياته، لا تعنيها الصفات لكنّها قربه تشعر بأنّها ملكة العالم، حلمت في ليالٍ كثيرة بأنّها إحدى عشيقاته، أو زوجته، لكنّها الآن تفكّر بأنّ حنّا رجل وحيد ومسيحيّ ضالّ، وجد طريقه أخيراً إلى الإيمان. عاد إليه شغفه نفسه يوم صمّم القلعة، تمهّل في حسم أموره، اعتكف في الغرفة، عاد زكريّا إليه بعد الظهر مرتدياً ثياباً نظيفة ولحيته حليقة، عرف أنّه كان في القلعة، كان يحدّث حنّا بسعادة عن رغبة شاها في طفل جديد، لقد شُفيت من الغرق. لم يرد حنّا الاستماع إلى ثرثرة صديقه عن القلعة، فكّر بردم الحائط، لكنّه في اليوم التالي شعر باستحالة ذلك، تابع الحفر مع زكريّا بهدوء. كان السور قد اكتمل، ولم يعد الفضوليّون يستطيعون التلصّص.

بعد أسبوعين اتّضحت الكنيسة التي كانت جدرانها مهدّمة وسقفها مدمر، لكنّ أغلب أحجارها الضخمة والأعمدة وبقايا القبّة ما زالت موجودة، أرسل زكريّا حوذيّه لإحضار عازار الذي وصل مساءً، طلب منه حنّا البقاء هنا، جال في المكان، تفحّص التلّ، والأحجار، فهم من بعض النقوش أنّه أمام بناء يعود إلى القرن الرابع الميلادي، قد يكون منزلاً كبيراً، وقد يكون مكاناً لإقامة ضبّاط جيش روماني. لكنّه بالتأكيد ليس كنيسة. بقي عازار قرب حنّا تلك الليلة يستمع إليه يتحدّث بكلمات

متباعدة عن فكرة الفناء، واستيقظ الاثنان على صراخ زكريّا المرعب، كان واقفاً يحمل في يده مجموعة عظام آدمية، أكثر من ثلاثين جمجمة، وعظام ساق لم تتحلّل بعد، والكثير من العظام التي بمجرّد لمسها تحوّلت إلى رماد، عاد حنّا للغرق في النظر إلى السماء، يرى زكريّا من مكان جلوسه يخرج الجماجم، يساعده عازار على صفّها بعناية على الأرض. لم يكن لدى أحد أيّ جواب، اكتفوا بالتخمين، لكنّ خيالهم أصبح عاقراً، حسم زكريّا الأمر، لا يريد لماريانا رؤيتها، حمل بقايا العظام، دفنها والجماجم مرّة أخرى تحت شجرة الجوز الكبيرة قرب قبر وليم عيسى وعائشة المفتي، كان الحلّ المثالي لإنهاء جدل لا يمكن التفكير فيه، ظل زكريّا يعتبر ماريانا كائناً غريباً عنهم، وافقه حنّا على الاحتفاظ بسرّية مكان دفن بقايا الموتى.

لا يمكن لأحد التخمين بأمر المقبرة الجماعية، من الواضح أنّهم ماتوا في اللحظة نفسها، طلب زكريّا من عازار التفرّغ والإشراف على بناء السور، وترميم الكنيسة، قال عازار إنّها ليست كنيسة، مجرّد أحجار لبناء مهدّم، قد يكون إصطبل حيوانات، لم يرغب زكريّا في جدال عازار، طلب منه بناء كنيسة على أنقاض هذا المبنى، لا يمكن إقناع مئات آلاف المسيحيّين المؤمنين بأنّها ليست كنيسة، لقد شاع الخبر في البلاد، لم تعد تنفع الاحتياطات. أكمل زكريّا الحفر، تبدّى الحائط الآخر، عليه نقوش مكتوبة باللغة السريانيّة، استعان عازار بصديق يترجم المخطوطات السريانيّة، نظر إلى النصّ المنقوش على حجر كبير، وصمت ثمّ أخبره بأنّ حنّا على حقّ، هذه كنيسة سرّية كان يتعبّد فيها المسيحيّون الأوائل حين كانوا مطاردين من جنود القيصر.

لم يكترث حنّا لنقاشات عازار وزكريّا والمترجم، فوضى الحركة في المكان أشعرته بأنّ قدمه لا ينبغي أن تنزلق مرّة أخرى إلى ما يهمّ الأحياء، عبث التاريخ، والحقيقة، خرج من غرفته مرتدياً ثوباً كتّانياً نظيفاً، وصندلاً من الجلد، يحمل كيسه على كتفه، وعصا في يده، سأل زكريّا أين الطريق إلى بيت لحم، أشار إليه جهة الجنوب، قال له إنّه يترك له حرّية إعادة البناء إلى ما كان عليه، البقايا الموجودة تكفي للدلالة على هويّة الكنيسة، يريد بناء دير صغير هنا ليعيش فيه بقيّة حياته.

خرج من المكان وسار في طريقه نحو قلعة سمعان، منها سيكمل طريقه إلى جسر الشغور، ومنها إلى اللاذقية والقلمون ثمّ سينعطف إلى حوران ومنها إلى القدس وبيت لحم. فكّر بأن الطريق طويل، سيمنحه فرصة للتفكير في الأفكار المتضاربة التي تخنقه. رافقته ماريانا، أخبرته لدى وصولهما إلى الدانا بأنّهما حين يدخلان دمشق سيتبعان الطريق الذي سار عليه القدّيس بولس الرسول ليباركهما، لم يكترث، لا يريد لصفائه الروحي أن يلوّثه ضجيج البشر الباحثين عن قوّة لا يستطيع ادّعاءها، يبحث عن المشقة، يسير في اليوم أكثر من عشر ساعات، وينام ساعات قليلة، تخبر ماريانا المتسائلين بأنّهما في طريقهما إلى الحجّ لكنيسة القيامة، لكنّ حنّا بقي صامتاً، يفكّر أنّه يعيش في متاهة لا يريد الوصول إلى نهايتها، فكّر أنّه سار حتى نهاية عمره فهل سيصل إلى مكان مختلف؟ لا يملك تصوّراً عن المكان المختلف، خطرت له حكايات مارغو القديمة عن مدن يعيش فيها الأقزام، وبلدان يعيش فيها أناس عيونهم خلف رؤوسهم، وأخرى لا تنام لأنّ الشمس لا تغادرها. لكنّها كانت متشابهة بالنسبة له، مدن فيها بشر يسعى الأقوياء للسيطرة عليهم وتحويلهم إلى خدم وعبيد، ورجال دين يشكّكون في إيمانهم، ويعتبرون أنفسهم الوسطاء بينهم وبين الله. حكايات مارغو عن المجازر والمقابر الجماعيّة للمسيحيّين السريان ما زالت تحفر في أعماقه، فكّر لماذا لا تكون تلك الجماجم والبقايا هي لقبر جماعي لبني قومه، لجماعة قُتلت ودُفنت على أيدي الإنكشاريين. أعجبته الحكاية وفكّر أنّ هذه الأرض تغصّ بالمقابر الجماعيّة، تضمّ رفات بشر

بؤساء لم يدفنهم أو يصلّ عليهم أحد. فكّر في غربته وغربة أولئك الموتى، تخيّل شهقاتهم الأخيرة، لا يمكن تجميل المجزرة، كما لا يمكن نسيان وجوه الضحايا. موت رهيب لن ينجو منه أحد. لم تتركه حكايات مارغو، استعادها بالكامل، كأنّها كانت مخبوءة في زاوية مظلمة من أعماقه، لا فعل عظيماً كتبجيل الضحايا وإعادة الاعتبار لهم، إنّهم ليسوا مجرّد بقايا بل حياة كاملة دُفنت قسراً، تمنّى لو كانت مارغو لا تزال على قيد الحياة ليخبرها بأنّه كان يهرب من تلك الصور المفزعة التي كانت تريد لها الاستقرار في أعماقه. «إنّهم أسلافك يا حنّا»، كانت تقول بصوت واضح «ويجب أن تردّ الاعتبار لهم». كيف نردّ الاعتبار لمن مات بسكاكين القتلة، إنّه سؤال يستحق أن يفكّر فيه حنّا. كانت الأفكار – رغم قسوتها – تفصله عن سماع ثرثرة ماريانا التي تفكّر بأشياء لم تخطر على باله، يريد العيش في الماضي مع الضحايا، وهي تتحدّث عن قداسته المقبلة. أمران في غاية التناقض، لا يمكن الدمج بينهما، خطرت على باله العودة مرّة أخرى وتأليف فصيل مسلّح يثأر من العثمانيّين لكلّ الضحايا، لكن في أعماقه كان يفكّر في صورته الأخرى كرجل زاهد يريد العيش بعيداً عن حسابات القوّة، كان يصعد الطريق إلى معلولا ويفكّر بأنّه يحتاج إلى مكان يريح عظامه، ويفكّر بأنّه قريب من الموت كثيراً، وهذه الجبال الجرداء تليق بموت رجل يبحث عن أسلافه في وقع الخطى الممحوّة.

وصل إلى معلولا، صلّى في كنيستها، كانت ماريانا قربه منهكة، تراقب كلّ حركة يقوم بها، كم تغيّر هذا الرجل، درب الآلام الذي ساره في رحلة الحجّ التي افترضتها منحته طاقة عظيمة كانت تشعر ماريانا بإشعاعها. ظنّته وصل إلى يقينه.

قضى حنّا أيّاماً قليلة، شعر بضيق كبير من أسئلة الخوارنة الذين لم يصدّقوا القصّة التي وصلت إليهم، حاصروه ليعترف بأنّ ما اكتشفه ليس كنيسة بل بناء مهدّم يشبه الكثير من بيوت تلك المدن الميتة التي دُمّرت بحروب استهدفت المسيحيّين في تلك المنطقة ومجازر وزلازل متواصلة وحروب بين المسيحيّين أنفسهم، بقي صامتاً، وطلب إعفاءه من الحديث عن تجربته الروحيّة، قال إنّ إيمانه الذي لم يكتمل مختلف عن إيمانهم، ما زال يعيش لحظة المخاض القاسية، جال في المناطق القريبة، كان يفكّر بمصيره، شعر بنفسه ضائعاً، معلقاً في الهواء، فكّر بإبعاد ماريانا المولعة بشرح قداسته، ومتابعة طريقه إلى القاهرة أو إلى أيّ مكان بعيد لا يعرفه فيه أحد.

استبدّ به الحنين إلى غرفته في حوش حنّا، استعجلته ماريانا للمرة الأولى الوصول إلى كنيسة القيامة قبل عيد الميلاد، لكنّه لم يردّ، فكّر أنّه يستطيع إكمال مشروعه، سيرمّم الكنيسة ويمنحها للمؤمنين، ويبني ديراً يكون مكانه النهائي، يعيش فيه مع أصدقائه الذين سيصلون إلى لحظات الزهد التي وصل إليها. سيكون الدير مليئاً بالعاجزين، والرجال الذين يعانون من فرط الخيال، ولا يصدّقهم أحد حين يتحدّثون عن أجسادهم المفكّكة التي تسير في الطرقات.

لا تعنيه العبادة قدر عزلته، لم يكن يوماً متديّناً ولم يعنه كلّ ما بدأ يسمعه عن بداية تشكّل أسطورة كنيسته، كانت ضربة طائشة أصابت مرّة ولم تدع شيئاً، تذكّر سؤال الأب إبراهيم إيّاه حين زاره لساعات قليلة في غرفته المنعزلة في حوش حنّا عن بقيّة أحلامه، أجابه ببساطة أنّه بعد فقدان عائلته، أوحى له مشهد الأرض بعد الطوفان بفكّرة أنّه ليس الناجون من الموت بالضرورة أناساً ما زالوا على قيد الحياة، مشيراً من النافذة إلى الأرض المنبسطة، «تحت هذه الأرض يرقد أمواتي». منذ تلك اللحظة بدأت أسئلة الحياة والموت تحفر عميقاً في ذاته، الأشهر القليلة التي قضاها بعيداً عن البشر في غرفته المعلقة على رأس التل يراقب هجرة الطيور وتقلبات الطبيعة،

أوحت له بأنّ الحياة هي انتظار طويل للموت، لم تعنه أسئلة الإيمان والإلحاد، كما لم تعنه كلّ المصنّفات الموجودة في مكتبات الكنائس التي تتحدّث عن ولادة المسيح ومعجزاته.

لو أنّه قضى بقيّة عمره يراقب الحياة والموت من النافذة، في الأرض الموات، فسيجد البشر يعيدون العمل نفسه، يبنون منازل جديدة، يتزوّجون وينجبون أطفالاً ثمّ يموتون واحداً تلو الآخر أو يأتي طوفان جديد ويمنحهم لذة الموت الجماعي، مراقبة هذه الدورة أعادت إليه يقينه بأنّ كلّ شيء عبث، لا يمكن ضبطه، أتى إلى هذا المكان ليهرب من الجموع التي ستخرّ ساجدة، البشر يحتاجون إلى معجزات، ألعاب خفّة، أوهام، أحلام وأشياء غير مفهومة، لكنّه كان يحتاج إلى سلامه الداخلي، للموت بهدوء بعيداً عن الضجيج.

لم يفهم حنّا سلوك ماريانا التي كانت تختلي بالمطارنة والخوارنة في أماكن توقفهم لساعات طويلة، تجيب عن أسئلتهم وتشرح لهم ماضيه المعذب، كأنّه فجأة انتبه إليها، لم تعد تلك الفتاة الساذجة، البسيطة التي كانت تصنع عرائس السكّر لأطفال قرية حوش حنّا، وتعلمهم الكتابة، لكنّه لم يكترث، أصابته حمّى جديدة، باحثاً عن شيء لا يعرفه، اعتبر أيّامه بعيداً عن حلب فرصة أخيرة له ليتعرّف إلى ذاته. لم يقنعه كلام ماريانا، لا يريد أن يصبح قدّيساً، لم يكن في حياته معجباً بالمعجزات، بل كان شغوفاً بالحياة المثقلة بالأخطاء والحماقات، وما زالت تغريه لحظات انتظار الانتحار المثيرة، أشياء كثيرة لم يقلها لأحد، لكن فات الأوان للاعتراف بالكثير من الأخطاء القاتلة، فكّر بأنّه حتى في أحلامه كان رجلاً آبقاً، يحبّ الشرّ والشيطان أكثر من الملائكة الذين يطوفون بسذاجة حول رؤوس الأطفال الأبرياء.

لم يستأذن أحداً في مغادرة كنيسة معلولا، لم تعجبه سخرية الرهبان اليوميّة على طاولة العشاء، ولم يعجبه التلميح إليه بأنّه يشتري القداسة بنقوده. بعد أيّام قليلة شعر بأنّ المكان يقصده الكثير من الشخصيّات الدينيّة المؤثرة، ولا يريد الاشتباك معهم، لا يملك طاقة على نقاش أناس يعتبرون أنفسهم يمتلكون الحقيقة، كان يتمنّى لو أنّه زار هذا المكان قبل سنوات قليلة، لم يكن يتوانى عن دق عنق بعض الخوارنة والبصاق في وجوههم الساخرة، والتبوّل على قداستهم، لكنّه الآن يفكر في أشياء بعيدة لا يريد لأحد إفسادها برأيه. البحث عن الذات لا يحتاج إلى وضعها على طاولة طعام قذرة أمام العامّة. كلّ ما تحتاج إليه هو التكوّر على نفسك ورمي أشلائها على جدران غرفتك.

لم يتوقف في دمشق كما رغبت ماريانا، تابع طريقه نحو حوران، كان يتلمّس الأشياء التي تتساقط منه ولا يلتقطها، حدّث ماريانا مرّات قليلة أثناء رحلتهما، قال إنّ غرفته المطلّة على خرائب حوش حنّا، هي المكان الوحيد المناسب لحياة جديدة، يمارس فيها شغفه بمراقبة الحياة والموت، الطيور تهاجر، وأزهار الربيع تتفتّق بكلّ هدوء، وتموت في أوقاتها، لا شيء يعادل هذا النظام المدهش، لم تتأخر وردة عن موتها ولا طير عن هجرته في الوقت المناسب، سعادة اكتشافه أنّه لا يحتاج إلى الكثير من الأشياء للعيش صدمته، شعر بأنّ عمره الماضي كان أكذوبة، لكنّ القلعة بقيت شيئاً مختلقاً، الحكايات التي ألّفها رواة مهرة جعلت من المكان أسطورة، أهمّ ما فيها غموضها، تثير خيال سكّان المدينة.

لحظات تمدّده قرب شمس الصباح أعادت له الكثير من البراءة، تحمّمه بيديها، وتعطّره، تلبسه البيجاما وتقوده إلى السرير، تروي له الحكايات حتى يغفو، كانت رائحتها تقترب كلّ يوم أكثر من رائحة أمّه، قد تكون أسعد لحظات حياته التي لم ينتبه إليها من قبل.

كانت سعادته كبيرة حين يشعر بيديها تغطّيانه، وتعدّل له المخدة، يمسك بكفّها ويتحسّس دفء عالم قديم أصبح مفقوداً، كانت شمس الصباح قادرة على استعادته بهدوء، دون ضجيج، ومن

اللحظة الأولى فهمت أنّها أيضاً تشعر بسعادة الدور الذي تقوم به، وتماهت معه، وبدأت تمارس دور الأم حقيقةً، تحاسبه على مائدة الإفطار على فعل طائش أو جملة قالها، وتبدي رأياً صارماً في رفاقه الذين يدعوهم إلى القلعة، لم تعد تدخل غرفة اللعب، تركت الأمر لخادمتين عجوزين والنساء المقيمات في القلعة، واعتزلت في جناح خاصّ، أعادت فرشه كمنزل دافئ وصغير، كلّ ما فيه يوحي بالبراءة.

كلما اقتربا من حوران، كان قلقه يتصاعد، لقد حسم أمره، سيعود للعيش في غرفته المطلّة على قريته الزائلة حوش حنّا، لا يريد العيش قريباً من زحام البشر، ليست لديه أيّ صفات يتحدّث عنها الآخرون كحقائق، كان مجرّد حلم، بدأ يشك الآن في أنّه من بقايا حكايات أمّه التي ماتت وهي تخبره عن كنيسة مطمورة في إحدى تلال أراضي أبيه المحيطة ببراد.

كانت ماريانا تعتبر حديثه عن شمس الصباح والقلعة فألاً سيّئاً، لكنّها لم تكن تملك القرار، كانت تفكّر بأنّه يحتاج إليها، تمسك بيده كطفل ضالّ وتقوده طوال الطريق، وجدت حياتها مرّة أخرى، الطوفان كان اختباراً من الربّ لقوّة إيمانها. أيضاً ماريانا تغيّرت كثيراً، فكّرت بأنّها ورثت دور شمس الصباح في تدبير شؤونه، قرّرت أنّها لن تسمح لأحد بأن يعبث به، بينما كان حنّا يستمع إليها بهدوء ويفكّر في الربّ الذي حين يريد اختبار عباده يحرمهم من كلّ أحبّتهم دفعة واحدة. لم تتوقف ماريانا عن الكلام عن دلالات كلّ ما حدث، أرادت له العيش في كنيسته، لن يكون صعباً تطويبه قدّيساً، لديه كلّ المؤهّلات التي يحتاج إليها القدّيس، الماضي العابث، شهوة الانتقام التي ماتت، واختبار إيمانه بطوفان عظيم، قالت له إنّ كلّ ما حدث كان يجب أن يحدث، الطوفان، موت طفله وزوجته، اندثار القرية بالكامل، والأهم هو ثبوت الرؤيا، والكنيسة التي لم يصدّق أحد وجودها، لكنّها فوجئت بجوابه ساخراً منها حين قال لها: كم هي مكلفة إذن فكرة صناعة القدّيس.

رأت في صمته دلالة عافية، الثرثرة تفقد القدّيسين مهابتهم. أمضى حنّا وقتاً طويلاً في مراقبة نباتات الطريق وطيوره وزواحفه، وتجاهل تجمّعات البشر، شعر بالتعب، أخبرها بقراره التوقف في دير حوران. كان يعرف أنّه في ذلك المكان المعزول سيفكّر للمرّة الأخيرة في حياته المقبلة. وقبل وصولهما إلى ذلك المكان الذي لم ترغب ماريانا في التوقف فيه، كانت تفضّل متابعة طريقهما إلى بيت لحم والمرور على القدس، حيث الرعايا ينتظرونه في الكنائس لمباركتهم، بينما دير حوران مكان منعزل ومشغول بقضايا لا تهتمّ لشؤون المسيحيّين اليومية، إنّه مكان لعزلة الرهبان، لا يناسب شخصاً ينتظر الجميع معجزاته، بعد تحقق البشارة الأولى ببزوغ الكنيسة، لكنّها لم تجرؤ على منعه من سيره على الدرب الذي يوصله بعد مسير نصف نهار إلى دير حوران، وسمعته يقول لها بهدوء: افعلي ما تشائين في حياتك، لكن دعي لي حياتي، لم تجبه لكنّها فكّرت بأنّ كلّ شيء خططت له قد ينهار، تعرف طيشه جيّداً، ما زالت عيناه تلتمعان بتلك الشهوة القديمة لملذات الحياة والنساء والقمار والأفكار الغريبة عن الموت والدفن في توابيت من الفضّة الخالصة.

وصلا إلى دير حوران قبل الغروب بقليل، كان الأب إبراهيم ينتظرهما، قال لحنّا إنّه ينتظره منذ وقت طويل، وكان لديه يقين كامل بأنّه سيختار هذا الدير للاستراحة في رحلة الحج الشاقة، أجابه حنّا بأنّه يحجّ إلى ديره ولن يكمل طريقه إلى بيت لحم. أضاف أنّه سيعود من هنا إلى محطته الأخيرة.

كان الأب إبراهيم لطيفاً، ودوداً، تلمّس قلق حنّا، ولديه الكثير من الأفكار التي يرغب في تداولها مع حنّا الذي كان بحاجة إلى السماع من رجل جليل، يكرهه أغلب رجال الكنيسة، أخبر الأب إبراهيم بأنّه في الطريق اكتشف أنّ ماريانا استبدّت بها شهوة السلطة، وأضاف متسائلاً: هل

السلطة تستحق خسارة أرواحنا النقيّة من أجلها؟ تأمّلها الأب إبراهيم لأيّام ووصفها لحنّا، بأنّ ماريانا مختلفة عمّا كانت تبدو عليه في قريتها حوش حنّا، ليست فتاة ساذجة بل شديدة الذكاء وعنيدة تحبّ الوصول إلى أهدافها بغضّ النظر عن الوسيلة. أضاف واصفاً إيّاها بالمؤمنة المتشدّدة التي تحتاج إليها الكنيسة دوماً. المتشدّدون دوماً يقدّمون خدمات لا تُحصى رغم ثباتهم وقسوتهم. أعجب حنّا باختصاره للأشياء، وصراحته. فكّر بأنّه رجل يستطيع أن يأتمنه على شكّه، فكر بالاعتراف أمامه، أجّل الفكرة إلى يوم آخر، وقرّر أن يمكث هنا لفترة أطول من الأسبوعين المقرّرين. رحّب الأب إبراهيم بإقامته وعرض عليه الانتقال للمبيت في الغرفة القريبة من المكتبة حيث يعمل طوال الوقت على نسخ الكتب والخرائط، وافق حنّا دون نقاش، أراد الابتعاد عن ماريانا، لقد أرهقته رفقتها في الطريق وثرثرتها طوال الوقت عن المعجزات التي يستطيع القيام بها. ومنذ اليوم الأول استعاد حنّا وإبراهيم صدى لقاءاتهما القديمة القليلة، أصبحا صديقين يتبادلان وجهات النظر والتحدّث دون قيود، جالا في أراضي الدير، وكانت سعادته كبيرة للتحلل من القيود، عادت إليه مرّة أخرى رغبة الكلام، والسؤال، ورواية الذكريات التي أخبره إبراهيم بأنّه يعرف أغلبها، في الأشهر الماضية طافت سيرة حنّا كلّ الأمكنة. رُويت سيرته كرجل مولع بالقمار والنساء، وتحوّله بعد الطوفان العظيم إلى قدّيس، والقصص التي ألّفها أعداؤه قبل سنوات عن تهتّكه وجدت رواة مهرة يعيدون تركيبها باستخدام خيالهم، لتصبح قصصاً توحي بحقارة ماضي الذي عاقبه الربّ بالطوفان، لكنّه منحه الرؤيا ليخرج من الخطيئة الكبرى إلى القداسة.

لكنّ الأب إبراهيم حين التقى ماريانا أخبر حنّا بأنّها ما زالت تلك الفتاة الساذجة، المتعصّبة للمسيح، ما زالت تخاف أن يقول لها حنّا اتركيني وحدي. هزّ حنّا برأسه متفهّماً ومتذكّراً أنّه لم يقم برحلة واحدة مع امرأة تثرثر طوال الوقت، لكنّه تحدّث عن طموحاتها الكبيرة في تطويبه قدّيساً. فوجئ بالأب إبراهيم ينصحه بأن يتركها قربه، سيحتاج إليها في أوقات كثيرة، مردّداً بأنّها ما زالت في مرحلة البراءة والدهشة من تحوّل حياتها، إنّها فتاة تنسج أحلامها في الهواء.

طلب حنّا من إبراهيم إقناع ماريانا بالتوقف عن رواية أخبار المعجزات التي طافت البلاد، وبدأت بتشكيل صورته الجديدة. ماريانا لم تستطع إجباره سوى مرّة واحدة على المبيت ليلة في كنيسة يبرود، مسح بيده على رؤوس ثلاثة أطفال يعانون من الشلل، وقيل إنّهم ساروا في ما بعد دون مشقة، وروى كلّ من حضر تلك اللحظات القليلة بأنّهم شاهدوا ذلك النور الذي ينبعث من وجوه القدّيسين عادة. لم يعجبه هياج الجماهير الذي لم يتوقف، وحين بدأت النسوة بالبكاء محاولات الوصول لملامسة أصابعه الممدودة شعر بحنق كبير على ماريانا، انهمرت دموعه وعاد إلى داخل الكنيسة، لملم كيسه وغادرها ليلاً حين عاد الناس إلى منازلهم، ولم يستمع إلى ماريانا ورجائها بدخول دمشق.

قال حنّا لإبراهيم إنّ هذه المعجزات لم تحدث، لكن إبراهيم شرح له آليّة صناعة المعجزة، قال له ببساطة إنّه ليس مهمّاً حدوث المعجزة بل الأهم هو تصديق الناس لها، لن يستطيع أحد إيقافها، دوماً نحتاج إلى المعجزات للتخفيف من بؤسنا البشري، وأضاف إبراهيم أنّ صناعة القدّيس تحتاج إلى تواطؤ العامّة، «لا تحاول إيقاف الحكايات، لن يسير شخص آخر على الماء بعد موسى ولن يُصلب أحد بعد يسوع، لقد اكتملت صورة يهوذا في أذهان البشر».

في الأسبوع الثاني عرض الأب إبراهيم على حنّا مخطّطات قديمة لكنائس مندثرة، غارت في أعماق الأرض، الزلازل هدمت قسماً منها، والحروب في ما بين المسيحيّين، وهيمنة المسلمين على بعضها وتحويلها إلى جوامع، كانت المخططات بالية لكن خطوطها ما زالت واضحة،

وأضاف إبراهيم أنّ حكاية طمر الكنيسة ضائعة، لذلك يجب تأليفها من جديد، قد يكون عازار على حق بأنّ المكان ليس كنيسة رغم تأكيد الترجمان أنّ المكان مخصّص للعبادة سرّاً، كاد حنّا يخبر الأب إبراهيم عن بقايا الموتى إلّا أنّه صمت، لم يكن في تلك اللحظة مستعداً للحديث عن ضحايا المجازر.

كان قلق حنّا يزداد يوماً بعد يوم، شعر بأنّه لن يستطيع الإفلات من الطوق الرهيب الذي يطوّقه، كان فقط مطمئناً إلى وجود زكريّا قربه، بالتأكيد اعتنى بالمكان بعد غيابه، لم يترك البغال تبول في ممرّاته، وقال حنّا في أعماقه بالتأكيد لن يتركه وحده، كان واثقاً بأنّه أنهى بناء الكنيسة التي ستتحوّل إلى دير صغير، سيتركه حنّا للرهبان ويغادر إلى غرفته المطلة على المقبرة والنهر في حوش حنّا قبل حسم أمر حياته الجديدة، أو سيحوّله في ما بعد إلى مركز يقتفي آثار ضحايا المجازر، يحصيهم ويبحث عن قبورهم، ويعيد الاعتبار للمجهول الذي انتموا إليه، وفي الوقت نفسه يشير إلى القتلة بأسمائهم كي يشعر ورثتهم بالعار إلى الأبد. تعجبه أفكاره الغريبة لكنّه في منتصف الفكرة كان يشعر بالنقصان، لماذا يريد لورثة القتلى أن يشعروا بالعار؟ ما ذنبهم؟ هل العار يورَّث؟ وهل كان أجدادنا أتقياء أم هم مجموعة قتلة أيضاً؟ تختلط الأفكار التي تبدو غريبة عن صورته الجديدة، فكّر بأنّ أكثر الحكايات التي روتها مارغو عن المسيح كانت تبجّل التسامح والنسيان والغفران. نعم نحن خليط من الضحايا ودماء القتلة.

شعر إبراهيم بأنّه لن يصلح لمهمّة تأليف حكاية الدير، لكن في الوقت نفسه أخبره عن قوّة الإيمان في قلبه، مضيفاً أنّ الحياة المتهتّكة منحته قوة عقل جبّار وقلب رقيق، وهذا ما يحتاج إليه رجل في طور التحوّل، الفرادة دوماً تحتاج إلى القوة، كان يشعر بها حين يجتمع الكلّ إلى طاولة العشاء، وينتظرون أن يتحدّث حنّا للرهبان الذين أثارتهم الحكاية التي روتها ماريانا للجميع بينما كان مشغولاً مع صديقه إبراهيم بتبادل الآراء وحكايات الماضي، والخرائط التي أدهشته، كما أدهشته آلاف المخطوطات التي تحفل بها مكتبة الدير، والتي رتّبها إبراهيم خلال عشرين سنة من إقامته هنا.

شعر إبراهيم برغبة حنّا في الهروب، حدّثه حنّا ذات ليلة عن ذلك الإحساس الرائع بالعيش دون انتظار، قال له إنّ الانتظار هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان، يريد العودة إلى غرفته على التلّة، تاركاً كلّ شيء وراءه. هناك سيستيقظ فجراً، يتفقد الأشجار والنباتات التي نمت في الليلة الفائتة، وتحوّلات النهر اليوميّة، يراقب الحيوانات التي تهرم كلّ يوم، ويقرأ كتباً سيرسلها له إبراهيم الذي حاول إقناعه بأنّ بإمكانه فعل كلّ هذه الأشياء هنا، لكنّ حنّا ظلّ يصف حوش حنّا مع بداية الربيع بعد الطوفان حين تبدأ الأعشاب بالانتعاش، تشعر بطعم الحياة البريئة، وبعد أسابيع قليلة تتحوّل الأرض الخراب إلى مرج أخضر.

شعر حنّا بحزن شديد لفراق الأب إبراهيم، الذي أخبره بأنّه لن يستطيع العودة إلى مكانه الأثير، سيقضي عمره بانتظار الموت لتطوبيه قدّيساً، الجميع يريد موته لفعل ذلك، إنّه الرجل الوحيد الذي ينتظر الجميع موته كي لا يفسد أوهامهم، ولن يستطيع الهرب من الدائرة التي أحاط نفسه بها، أضاف أنّه سيشعر في البداية بضيق شديد لكن بعد ذلك سيستلم بهدوء لتلك القوّة الناعمة التي تحيط به، لن يكتب أحد تاريخ شكّه إلّا ليثبت إيمانه الشديد في ما بعد ليقولوا إنّ الطوفان قد حوّله من رجل آبق وقويّ، يحبّ التهتّك والملذات إلى طفل صغير يحبّ اللعب مع الحياة.

كان الأب إبراهيم ينظر إليه من نافذة غرفته بتعاطف كبير وهو يغادر بوابات الدير فجراً، وفي نفسه تلك القوّة الرهيبة التي تلاشت بعد زمن قصير، شعر بأنّه دخل إلى الشباك التي لا يطيقها،

بقدمه سار إلى حتفه، حياته تزعج كلّ من حوله. وموته سيمنح حياة جديدة لمن حوله.

وصل حنّا وماريانا بعد سفر شهرين إلى حلب، اشتاق للسير طويلاً في أزقة مدينته المتداخلة، فكّر بأنّ ماريانا يجب أن تتركه لشأنه، ليهيم وحيداً في الطرقات، يعرف جيّداً كلّ أسرار وبوابات المدينة. أصابه إحباط شديد حين بدأ الناس في الأزقة يشيرون إليه، يعيدون حكاية رؤياه بطرق سرد مخترعة، تناسى الجميع الرواية الأصليّة عن رجل شعر فجأة بأنّه معلق في الفضاء، زاهداً بكلّ شيء، بعد فقده ولده وزوجته، وفائض سنوات حياته يربكه، لو يموت الآن لانتهى كلّ شيء في هذه اللحظة، شعر بأنّها لحظة مناسبة للموت، لا يريد الاستقرار في ضفّة الحياة الغامضة التي شعر بثقلها.

لم يدافع أحد عن أبيه، والطوفان ذكّره بأنّ كلّ حياته السابقة عبث، النقود التي صكّها من الفضّة الخالصة تحوّلت إلى خردة ولعبة صبيان باهتة. توابيت الفضّة فقدت بريقها، تحوّلت من حرّية اختيار الموت بفروسية إلى دليل لتحدّي الإرادة الإلهيّة، وكلّ ما حدث لم يكن إلّا عقاباً عادلاً لهرطقته.

لم تسمح له ماريانا بمتابعة سفره إلى قريته حوش حنّا، وطلبت منه بإصرار التفكير للمرّة الأخيرة في مصيره، وعدته بأنّها ستتركه يفعل ما يشاء، وهي اختارت حياتها، ستخدم الربّ في كنيسة زهر الرمّان. لدى وصولهما إلى الكنيسة كاد المشهد العظيم يحوّله إلى رجل أعمى. وماريانا قربه تغرورق عيناها بالدموع.

لم يستطع تصديق المشهد، مئات المشلولين والعميان والبُرص والمرضى المحمولين على محفات وبرادع الحمير ينتظرونه منذ أسابيع، كانت شمس الصباح ترتدي عباءة وتضع خماراً وتقف بقرب شاها، تراقبان من تلّ العنابية مشهد دخوله إلى الدير وسط حشد البشر الهائل. كانت الأيدي تتخاطفه، الدموع تغرق المكان، حنّا يبكي بصمت، لا يمتلك شجاعة القول لهؤلاء البشر إنّهم يبحثون عن وهم، ما زالت ذاته عالقة في وحول الدنيا، كان مستسلماً، منح لمسته للجميع، يضع يده على الرؤوس، ويسحبها من الشفاه التي تسعى لتقبيلها، لم يحبّ يوماً هذه العبودية، لم يفكّر بالبؤس البشري يوماً، تساءل في أعماقه من أين أتى كلّ هؤلاء البؤساء.

تابع طريقه وسط الجموع، أنقذه الصمت، حجم المعذبين الذين أحاطوا به متمسّكين بالخلاص، جعله يشعر بأنّ كلّ ما فعله في حياته السابقة لا قيمة له، ماذا يعني أن تعيش ببذخ وتبني قلعة لتقضي مع رفاقك فصل الشتاء، تتحدّث عن لذة الخسارة في القمار، بينما كلّ هؤلاء المعذبين يعيشون بالقرب منك.

أكمل جولته وشعر بنفسه تنزلق إلى هاوية لا خروج منها، لا يستطيع أن يخبر هؤلاء الناس أنّ مساعدته لا تكفي لينهض المشلول ويسير على قدميه، ولمسته لا تعيد البصر إلى رجل أعمى، طفح قلبه بالألم، وفي أعماقه شعر بغضب، لا يريد أن يصبح جزءاً من الوهم، لكن صيحات رجل أعمى أخبر الجميع أنّه يستطيع أن يرى دمّرت أمنيته، لقد شُفي الأعمى، ومن الطرف الآخر تعالت صيحات امرأة مشلولة استطاعت السير خطوات قليلة لأول مرّة في حياتها، المعجزة المتجسّدة أمام ناظريه أغلقت كلّ الأبواب، استطاع التخلص من الحشد وغاب في أروقة الدير التي بدت له نظيفة، قادته ماريانا من يده إلى غرفته في الطابق الأول من الدير الذي انتهى بناء الجزء الرئيسي منه وما زالت أعمال البناء مستمرّة، وأغلقت الباب وراءه، ارتمى على السرير ونام لساعات طويلة، وحين استيقظ فجراً كان الهدوء يعمّ المكان، وشعور عميق بالراحة انتابه لعودته إلى الأرض التي يحبّها.

تسلل من غرفته، كان ضوء الفجر القادم من شقوق الستائر يلوّن الأشياء القليلة الموجودة في غرفته، فكّر بأنّ عازار وزكريّا أعدّا كلّ شيء بعناية، الغرفة كبيرة تفضي إلى بهو وغرفة أخرى، فُرشت بأشياء قليلة، طاولة كبيرة من خشب الجوز تتحلق حولها ستّة كراسيّ، وسرير واسع، ومكتبة، وخزانة ملابس صغيرة، مكان متقشف لكن معتنى بتفاصيله، فتح الباب وبدأ بتفقد المكان، سار في الممرّ الذي يفضي إلى خمس غرف مغلقة، وفي الطابق الأرضي قاعة كبيرة، وبجانبها مكتبة ومطبخ كبير ملحق به غرفة مؤونة كبيرة، تفضي إلى درج طويل يوصل إلى الأقبية، تشمّم رائحة العدس والبصل حين اقترب من باب المطبخ المفتوح، لم يفهم كيف بُني هذه المكان بهذه السرعة، فتح الباب وكانت الراهبة تيريز التي قدّمت له نفسها تُعدّ الإفطار، شوربة عدس وخبز تفوح رائحته الشهيّة وبصل، حين رأته انحنت بتبجيل كبير، أرادت تقبيل يده، سحب يده وسألها مباشرة عن زكريّا وعازار، كانت إيفون بقربها تراقبه، لم يفهم ماذا حصل حتى يراها مرّة ثانية في هذا المكان، لكنّه كان سعيداً لرؤيتها، لم يجبه أحد عن سؤاله الذي كرّره، سمع صوت ماريانا من خلفه يجيبه بأنّ زكريّا وعازار رحلا عن المكان، متسائلة ماذا يفعل رجل مسلم ورجل يهودي في دير مسيحيّ؟

التزم الصمت وسار بخطوات بطيئة نحو الخارج، فوجئ بماريانا مرة أخرى تقطع الطريق عليه، لا يجوز له الخروج من هذا المكان، على الأقلّ لمدّة أربعين يوماً، كانت تنظر إليه بجدّية، وكلّ شيء فيها مختلف، أمرته بالعودة إلى غرفته، قالت إنّ الخادمة ستعدّ له الإفطار، وسيكون لديهما وقت كافٍ للحديث عن كلّ شيء، همست له مضيفة أنّ خروجه من هذا المكان يعني موت أسطورته.

الجدّية في صوت ماريانا كانت مرعبة بالنسبة له، رغم أنّه لم يعد يخاف من موته، الرحلة الطويلة إلى دير حوران طهّرته، سار نحو غرفته مرّة أخرى، دخلت الخادمة فطيم تحمل طعام الإفطار، رتّبت كلّ شيء وخرجت دون أن تنبس بحرف، لم يعتد العيش وحيداً، وقبل الطوفان لم يتناول يوماً إفطاره بمفرده. ترك كلّ شيء على الطاولة وخرج من الغرفة، أراد تفقّد المكان، واجهته ماريانا وقالت: أهمّ شيء لأيّ قدّيس هو الاحتجاب، كلّ المدينة تناقلت قصص شفاء العميان والمشلولين، والحكاية التي كبرت كثيراً لم يعد بالإمكان السيطرة عليها، لن تستطيع إقناع أحد بأنّك لست القدّيس المنتظر، اقترحت عليه التفرّغ للقراءة، وأضافت: من غرفتك وجناحك تستطيع أن تراقب الطيور وحياة النباتات وموتها.

استجمع قوّته واقترب منها وقال لها بكلّ برود إنّه لا يريد أن يصبح قدّيساً، وما حدث مجموعة أوهام لا يريد لها الاستمرار، يجب أن ينساه الجميع، يعرف جيّداً الطريق إلى الحياة التي يريدها، وحذرها من التدخل في حياته، أو محاولة بيع الأوهام للبشر المعذبين، أو الاتفاق مع البطرك ومطارنة الكنيسة على سلبه الإرادة.

تركها وتابع طريقه مستكشفاً الكنيسة، ينحني له أناس لم يرهم من قبل، يحيّونه وهو لا يكترث لردّ التحيّة، ما زال الانفعال يسيطر عليه، توقف مع إيفون وتبادل معها الحديث عن حياتها بعد الطوفان، أخبرته بأنّها تركت منزل عمّتها في حلب لتعيش في الدير بعد سماح باسيلوس لها، مضيفة أنّهم لم ينسوا قصّة افتضاض خطيبها لبكارتها، وهي تطلب الإذن منه للانتقال والعيش هنا قربه، أضافت أنّها لا ترغب في العيش مع أقربائها أو في مكان آخر ليس فيه شخص يدافع عنها، طلبت منه الحماية الكاملة. كان حنّا يعرفهم جيّداً، ويتذكّر خطيبها الذي دفنه زكريّا في مقبرة حوش حنّا. ابتسم ورحّب بها، كانت إيفون سعيدة، تشعر بأنّها وجدت مكانها النهائي هنا مع هذا الرجل

الرائع، مضيفة أنّ ما تعلّمته من خدمة التمريض قد يفيد سكّان الدير. قرّر الخروج من هذا المكان، لكنّه من النافذة الصغيرة رأى جموعاً حاشدة أكبر من حشود أمس تطوّق المكان، خُيّل إليه أنّه سمع صوت الأنين يصمّ أذنيه، إنّها ورطة حقيقيّة. لن يجامل ويغرق في دور يرسمه الآخرون له، لم يجبه أيّ أحد عن مكان زكريّا وعازار، وسبب عدم وجودهما في المكان.

عاد إلى المطبخ، أمر تيريز بإطعام الناس المنتظرين في الخارج. قالت له إنّ هؤلاء الناس أتوا بكلّ هذه المؤونة ولم يأتوا إلى هنا من أجل الطعام، وما يبحثون عنه هو لمسته الشافية.

تراقب ماريانا كلّ خطواته، تسمع كلّ ما يقوله، تدوّن في دفتر صغير ملاحظات، دقق في تفاصيل وجهها وجسدها، فوجئ بأنّه للمرّة الأولى في حياته يطيل النظر إليها، ارتبكت ماريانا لكنّها بقيت واقفة بثبات، لا تريد لأيّ تفصيل أن يغيب عنها، تعرفه جيّداً، لم يتخلّص من عبثه بعد، خياله سيقوده إلى التهلكة، وعلاقته السيّئة طوال عمره مع الكنيسة ستجعل من خروجه خطراً حقيقيّاً على حياته، يجب الحفاظ عليه، شعر بنفسه مشوّشاً، عاد للغرق في دوامة قلق لم يشعر به منذ يوم الطوفان.

لم تبدأ ماريانا بعد حياتها الجديدة التي اختارتها كراهية، ما زالت تشعر بالغربة عن حياة الأديرة، تشتاق في لحظات الصباح إلى ضجيج الفلّاحين في حوش حنّا، التي ينهض سكّانها دفعة واحدة، في لحظات قليلة تُفتح أبواب البيوت، تنبعث روائح المواقد التي تعدّ الإفطار. يجب أن تنسى حياتها الماضية، وتقتل رغباتها، يجب أن تفعل شيئاً ليصبح الدير مكاناً مغرياً لمكوث حنّا فيه، دون التفكير بعبث الحرّية والعيش مع الساقطين والساقطات كما عاش أغلب سنوات عمره، قريباً من ملّاكين يحبّون الأفكار المجنونة.

لم يفهم حنّا ماذا حصل في غيابه، قرّر في أعماقه أنّه لن يسمح لأيّ كائن بأن يخطّط له حياته، ما زال طعم اللحظات الأولى للنهر بعد الطوفان يؤرّقه، لم يرَ الحقيقة كما رآها تلك الليلة، حين صعد إلى غرفته الوحيدة على رأس التلة. كلّ شيء كان مرتّباً في ذلك المكان الذي كان يهرب إليه بين الحين والآخر، قام خادمه بعمل جيّد، حين اعتقد بأنّ الغرفة يجب أن تبقى نظيفة، وجاهزة لاستقباله دوماً، فتح النافذة ورأى المشهد الذي لن ينساه في حياته، نهر هادئ يجري دون مبالاة منذ آلاف السنين لكنّه قبل يومين ابتلع قرية كاملة، ابتلع سكّانها، وطناجر مطابخها، والفرش والبسط، والحيوانات، لم يترك أيّ شيء، ورغم ذلك كان منظره فاتناً وبريئاً، ضوء القمر ينعكس على صفحته كاملاً، وصمت مطبق دون أيّ نأمة تُغرق المكان، تعيده إلى لحظات الخلق الأولى، فكر حنّا بأنّ الحياة انبثقت هكذا، كائنات خرجت من النهر وتناسلت على ضفّتيه، لم يغب عن ناظره النهر طوال الليل، وبشغف كان ينتظر تلك المعجزة، أن يعيد النهر ما سلبه في ليلة الطوفان، أن يتقيّأ الغرقى وأشياءهم، لكن لم يحدث أيّ شيء. في ضوء الفجر، كانت نبتة تمد برأسها، ولون أخضر يزداد كل يوم، لم يعنه اسم النبتة، بقي يتابعها حتى تفتّقت الأرض على الضفة، مرج أخضر، أصوات ضفادع، وأسماك يراها تسبح أسراباً في النهر، لقد مضت حياة وعاشت أخرى، كان يفكّر بأنّه ضيّع الفجر من عمره، لم يستيقظ فجراً من زمن بعيد، لم يتأمّل ذاته، لقد ندم، أن تكون رجلاً غريقاً ليس بالأمر السيّئ، هناك في الأعماق الكثير من الأشياء التي لا يراها المتنزّهون في ليالي الصيف على ضفة النهر.

كان يريد شرح كلّ شيء لزكريّا عن الرؤيا التي لم تتركه، لكنّ قراره المجنون بحفر التل أجّل الحديث، لقد غاب منذ تلك اللحظة عن كلّ شيء، لكنّ زكريّا يجب أن يعرف جيّداً أنّه يحتاج إليه، كان واثقاً في أعماقه بأنّ صديقه لن يتركه فريسة للبرودة، وطموحات ماريانا التي لا تعنيه،

ودسائس باسيلوس الذي قال مرّة «إذا أسلم حنّا فلن يكون خسارة كبيرة للمسيحيين، بل سيكون خلاصاً من وباء قاتل». شعر برجليه ثقيلتين، سار في غرفته، فتح باب خزانة الكتب، وجد بضعة كتب يعرفها ولا تغريه قراءتها، وفكّر بأنّه إن كان لا بد من سجنه في هذا المكان فلن ينقذه سوى راهب حوران إبراهيم وصديقه زكريّا، شعر براحة كبيرة بأن لا أحد سيعترض على وجود الراهب الحوراني في هذا المكان، ولن يسمح لأحد بالاعتراض على وجود زكريّا، سيدافع عن حياته الجديدة حتى لو اضطرّ لحرق المعبد، شعر في تلك اللحظة بأنّه استعاد صفاءه وقوّته وحماقته، بقيت في أعماقه تلك الرغبة في رؤية ذلك المشهد مرّة أخرى، انبعاث الأرض على ضفة النهر الذي يجري بهدوء غريب، وفي أعماقه تستقر بوداعة جثث بشر وأشياء منازل وحيوانات قرى عديدة.

سيبقى زكريّا يذكر حنّا وهو يخبره عن الكنيسة المدفونة في التلّ، ظنّها إحدى أفكاره الغريبة التي كانا يتبادلانها دوماً، تختلط الأفكار في ما بعد إلى درجة أنّهما لا يستطيعان التمييز بينها، كان يعتقد بأنّ الطوفان سقف مأساتهما، لكنّ الطوفان كان بداية حياة جديدة لا يعرفان عنها أيّ شيء.

ما زال زكريّا يذكر حين كانا عائدين من قرية شران قبل الطوفان بعشر سنوات، بعد قضائهما أسبوعاً مخمورين في مزرعة عارف شيخ موسى، كانت رائحة زهر الرمّان تملأ الفضاء، سأله حنّا إن كان يملك أرضاً فيها رمّان، أجابه بأنّه لا يعرف، لا يعتقد أنّ في أراضيه القليلة حقل رمّان، أصلاً لم يكن زكريّا شغوفاً بامتلاك الأراضي، تحت إلحاح حنّا اشترى بضع عشرات من الدونمات بعدما أقنعه صديقه بأنّها ستكون مفيدة له في ما بعد، من الممكن أن تكون مراعي لخيوله. أضاف حنّا أنّ الرمّان أثار شهوته للحبّ، ولم تكن المرّة الأولى التي يحدّثه فيها حنّا عن شهوته للحب، لكنّه لم يحسَب لحظةً أنّه قادر على هذا الفعل، كان زكريّا يعتقد أنّ كلّ شيء على ما يُرام.

تذكّر زكريّا ذلك اليوم، فكرة الحبّ وصمت صديقه طوال الطريق في عربتهما المفروشة بأفضل أنواع الوسائد المريحة، وحين غادر كطفل يتيم مع فتاة لا تعرف شيئاً عن حياتهما، فكّر زكريّا بأنّه يجب أن يكمل الطريق إلى آخره، وفي النهاية لن يحدث إلّا ما يرغب فيه، هكذا فكّر زكريّا وهو يعمل بجدّ مع عازار لإعادة بناء المكان ككنيسة. كانت الأحجار الكبيرة منحوتة، احتفظت حتى بأماكنها، وبعد شهرين من سفر حنّا، كانت الكنيسة قد اكتمل بناؤها الرائع، خطّط عازار الدير، وعمل مع مئات العمّال الذين كدّوا ليلاً ونهاراً في ورديات لا تتوقف لإكمال بناء الدير الصغير الذي حدّثه عنه حنّا. حفر زكريّا أرضيّة غرفته واستخرج صناديق الفضّة، باعها، وأفرغ مستودع القمح لدفع تكاليف بناء الدير الصغير، الذي أراده مكاناً يليق بروح صديقه الجديدة، كان عازار يتفهّم كلّ ما يقوله زكريّا ببساطة، كان معجباً بهما، وما زال يتذكّر حكايات وليم عيسى عن جنون صديقَي طفولته. اقترب البناء من نهايته، والسور قد اكتمل، كلّ شيء أصبح قريباً من نهايته حين وصل المطران باسيلوس إلى المكان، بلهجة حازمة طلب من زكريّا مغادرة الدير، مضيفاً برجاء ترك حنّا لمصيره الجديد، قال إنّ المسيحيّين يحتاجون إليه، أكمل أنّ الحدود المرسومة للدير أصبحت من ضمن أملاك الكنيسة، ولا يجوز لمسلم أو يهودي المكوث في هذا المكان إلّا بإذن من البطرك.

شعر زكريّا في تلك اللحظة بفراغ كبير، وفكّر أنّهم يريدون قتل حنّا، ومصادرة أملاكه. لم يواجها كصديقين لحظة خطيرة كهذه، كانا يعتبران رجال الدين كقراد الخيل، تمتصّ دماء تلك الكائنات الجميلة، كثيراً ما سخرا من مشايخ وخوارنة، فكّر بالرد على باسيلوس ومرافقيه لكنّه

شعر بأنّ معركته دون حنّا ناقصة، أصبحت تحجّ المكان أعداد غفيرة من المسيحيّين للتبرّك بالكنيسة التي أشاع باسيلوس حكاية عن تاريخها انتشرت في كلّ الأرجاء، وأضافت الرواية الكثير من القداسة على المكان الذي ناسبه هذا الجوّ المشحون باحترام المعجزات. منذ زمن بعيد كانت الكنيسة تنتظر معجزة، وحنّا وهبهم إيّاها رغم نقصانها، لن تكتمل بوجود شاهد قويّ مثل زكريّا يعرف الجميع أنّه يتقاسم مع صديقه كلّ شيء، الأسرار، والأحلام، والأفكار الغريبة، ولاكتمال الحكاية يجب أن يغيب الشهود، ويبدأ خيال الرواة بنسج الماضي البعيد، ومحو كلّ ما يعوق نموّ فيض من النهايات السعيدة.

فكّر زكريّا بأنّه لن يشتبك مع المطران باسيلوس في هذه اللحظة، طلب منه العودة بعد ثلاثة أيّام لتسلّم المكان رسمياً، وباسيلوس في الوقت ذاته كان يخشى زكريّا، يعرف أنّه لن يستسلم ببساطة، لا يخاف الوالي، عائلته المتنفذة ستؤمّن له الحماية، قبل بعرض زكريّا العودة بعد ثلاثة أيّام.

شعر زكريّا بفراغ داخلي وباسيلوس يغادر الكنيسة، منذ زمن بعيد لم يسأل نفسه إن كان حقاً يريد البقاء وحيداً وبعيداً عن عائلته، خطرت له العودة مرة أخرى إلى منزل أبيه، يريد اكتشاف حياته من جديد، قضى ليلة في القلعة محاولاً إقناع شاها بالولادة في منزل العائلة، أجابته ببساطة أنّها لن تترك هذا المكان إلّا بعد الولادة، أعجبتها القلعة، هنا توقفت كوابيسها، ولم تعد تشعر بالخوف، أخبرته في هذا المكان عن حرّيتها وحريته، هنا لن تنتظره، مضيفة أنّها لم تفقد حبّها له، تنتظر مولودها الجديد بشغف كبير، كانت تتمنّى أن تلد فتاة، هناك الكثير من الأشياء تريد تعليمها لابنتها.

القلعة تحوّلت إلى مكان لإيواء العاهرات العجائز المتقاعدات اللواتي لم يجدن معيلاً في شيخوختهنّ، دعت شمس الصباح أم وحيد أول الأمر، وفي ما بعد فكّرت بتحويل القلعة إلى مكان يؤويهنّ جميعاً، لم يعد حنّا يكترث بهذا المكان، كانت فكرة غريبة لكنّها ملأت القلعة حياة جديدة، رائحة الطبخ فاحت من المطبخ، اليهوديّات والمسلمات والمسيحيّات يعشن ويروين ذكرياتهنّ، ينتظرن الموت، تآلفن بسرعة، وأعجبهنّ المكان الذي لم يطأنه من قبل، لكنهنّ أرسلن له الفتيات من كلّ مكان.

كان زكريّا يبدو رجلاً ضعيفاً من دون صديقه حنّا، غريباً عن الأمكنة التي شارك في تصميمها، لم تسمح له شمس الصباح بالتجوال بحرية في القلعة، قالت له إنّ القلعة الآن تتحوّل لتصبح مكاناً معزولاً عن العالم، يُفتح بابه فقط للنسوة اللواتي يرغبن في التوبة، لم يفهم في اللحظات الأولى معنى كلامها، ظنّ أنّ المكان في طغيانه وفراغه حوّل شمس الصباح إلى امرأة معتوهة تعاني من آثار الوحدة، لكنّ النظام الجديد الذي فرضته كان يوحي بأنّ كلّ شيء تغيّر، صناديق الخمور الفاخرة، وربطات العنق، وكل الأشياء التي كانت تعني الرجال الذين كانوا يعيشون هنا شهوراً طويلة جرى ترتيبها في صناديق وترحليها إلى القبو الذي كان مخصّصاً لمبيت الأحصنة وسائقي عربات الضيوف، بقيت خزانة ملابس حنّا فقط مغلقة ولم تُمسّ، البيجامات الحرير، والبدلات الفاخرة، والأقلام، والأحذية، لكنها أشياء قليلة لا تملأ خزانة صغيرة من درفتين.

لكنّه مع ذلك كان يعيش سعادته السرّية مع شاها التي استجابت له، كانت تريد أن يضاجعها كلّ ليلة، تريد أن تحبل، كأنّها تودّع الحياة والملذات، أخبرت شمس الصباح بأنّه طلب منها أن تتحوّل إلى امرأة تشبه نساء القلعة، وشمس الصباح لبّت رغبتها، فتحت لها باب الحمّام التركي، وملأت أحواضه الثلاثة بالماء الساخن، دلّكت جسدها بماء الورد، وضعت تحت تصرّفها مجموعة ثياب فاحشة، قمصان نوم جديدة، قادمة من باريس وروما، لم تمانع شاها أن تقمّص كلّ ليلة شخصيّة

امرأة من نساء القلعة، تخترع شخصيّات جديدة وتضيفها إلى حكايات شمس الصباح، زكريّا أيضاً ازداد شغفاً بشاها، بدت له أجمل وأكثر إثارة وهي تتقمّص شخصيّات عاهرات مضين الآن، كانا يمارسان نوعاً من الانتقام المتبادل، تريد إخراج قيح كلّ النساء اللواتي مارس معهنّ الجنس، وهي تشعر بأنّها كانت تشاركهما المغامرات الغريبة التي تسمع عنها من الغرباء.

قضيا ثمانية أسابيع في شغفهما، قالت له بعدها إنّها حامل، كانت سعيدة، شعر زكريّا للمرة الأولى بأنّه ما زالت هناك إمكانية لعودة الحياة إلى طبيعتها، حملت كلّ الثياب الداخلية الفاحشة، أحرقتها، ثمّ ارتدت ثوباً قطنياً بنفسجياً، عريضاً، وامتنعت عن مجاراته في اختراع قصص جديدة، بدأت تفكّر بالطفل القادم، تقضي وقتاً طويلاً مع شمس الصباح والنساء العجائز وهنّ يحضرن أثوابه، وقمصانه، وأقمطته، ويتحدّثن بجدّية كاملة عن طفلهما المشترك الذي سيأتي في الشتاء المقبل.

لم يستسلم زكريّا لرغبة باسيلوس في تسليم المكان إلى المطرانية، أمر الحرّاس بإغلاق بوابات المكان، لكن ما حدث بعد أيّام قليلة أنّ جنوداً عثمانيّين اقتحموا المكان، اعتقلوا زكريّا، أطلقوا النار في الهواء، وسلّم موظف العدليّة المكان إلى البطركية بمحضر رسمي، اقتادوا زكريّا إلى السجن، رموه في زنزانة باردة، وهدّدوه بإحالته إلى إستنبول إن تمادى في تحدّيه للمطران، قال له المحقق إنّ من كان يشفع له قد مات.

قضى زكريّا أيّاماً في السجن، فكّر في مصيره، خاف أن يكون حنّا شرد، أو مات، بدأ يفكّر في وسيلة لخروجه من السجن، يريد أن يوصل رسالة إلى أصدقائه، لكن كلّ الطرق كانت مسدودة، كان الحارس يرمي له الطعام في صحن نحاس حقير ويغلق الباب لليوم الثاني، عازار لم يترك صديقه، وطلب من صهره حسن المصابني دفع الكفالة الكبيرة، ثمّ قاد جلسة المساومة، حرّيته مقابل أربعمئة ليرة ذهبيّة، دفعها حسن المصابني عن طيب خاطر، ورشا الضبّاط المسؤولين والقضاة لطيّ الموضوع نهائياً.

عاد زكريّا إلى القلعة لكنّه لم يحتمل البقاء هناك، ثرثرة النساء المتقاعدات أزعجته، يبكين طوال الليل في انتظار الموت، منهنّ نساء بالغن في التوبة. لم يعنه الأمر، يشغله اقتراب موعد ولادة شاها ورفضها ترك القلعة، تغيّر المكان كثيراً، فاحت منه رائحة الأمومة، لكنّه لم ينجُ من تأليف الرواة بعد وصول نساء متقاعدات من بيوت الدعارة إليه.

قضى زكريّا الصيف بأكمله مستمتعاً باللذة الفائقة والشغف الذي منحته إيّاه شاها، منتظراً حنّا، والوقت الباقي قضاه متنقلاً بين إصطبلات خيوله الجديدة. عادت مملكته إلى سابق عهدها، بدأ هواة الأحصنة يتوافدون إلى إصطبلاته مرّة أخرى، لكنّه كلّ مساء كان يصعد إلى التلة ويراقب الدير الذي ما زالت أعمال بنائه مستمرّة، وبناء ملحقات به كما صمّمها عازار الذي كان يحدّثه عن شغفه القديم بنوافذ القباب التي تحافظ على الضوء، كما في الحمّامات القديمة.

استدعى المطران مهندساً إيطاليّاً من بيروت ليشرف على إتمام البناء وفرش الدير والكنيسة وتزيينها، بدلاً من عازار الذي انزوى في مكتبه، كان يعتقد بأنّ المعركة لا تستحق كلّ هذا العناء، لكنّ عينيْ عازار القلقتين جعلتا زكريّا يفكّر أنّهم خسروا القلعة والدير، لن يكون من السهل اقتلاع مجموعة نسوة متقاعدات من سوق الدعارة من مكانهنّ، كما ليس من السهل اقتلاع مطران من مكانه، بقي قبرا وليم عيسى وعائشة المفتي فقط لهما في هذا المكان.

عودة حنّا والتطوّرات المتلاحقة أرجأت النقاش الطويل بينهما، حين وقف الاثنان على رأس التلة يراقبان حنّا وهو يخترق حشود المشلولين والمرضى الملتمسين بركته، لم يعودا واثقين بأنّ

هذا الرجل النحيل الزاهد هو صديقهما صاحب الأفكار الغريبة.

لم يحتمل زكريّا البقاء بعيداً عنه، في اليوم الثالث توجّه نحو الدير، لم يستمع إلى تعليمات ماريانا التي تمنع الدخول دون إذن، تابع طريقه نحو غرفة صديقه، فتح باب الغرفة، بكى حنّا حين رآه، احتضنه بقوّة، وطلب منه عدم تركه، كان حنّا خائفاً من كلّ شيء، كما قال له، من الهواء والصمت، من البشر، والحيوانات، إنّه لا يثق بأنّهم سيتركونه يعيش كما يرغب.

لم يخفه حنّا عن أحد، ولم يقدّم أيّ تفسير لكيفيّة تسلّله إلى الدير، طلب منه مشاركتهم العشاء، رحّبت به ماريانا التي تعرف أن استفزاز حنّا في أمر يخصّ زكريّا بعد معاناته وسجنه قد يودي بكلّ شيء إلى الخراب، استعاد حنّا خلال اليومين الماضيين كلّ قوّته، لم يعد ذلك الرجل الذي يريد الجميع التدخل في حياته، لكن ماريانا لم تعد تخاف من أيّ شيء، شعرت بأنّها ربحت المعركة، فهي في طريقها لأن تصبح راهبة والدير أصبح من أملاك الكنيسة، والحكاية قطعت شوطاً كبيراً، لم يبق سوى بضع محطات سيكتشفها بنفسه، لم تأت على ذكر طلب باسيلوس طرد زكريّا من الدير، سألته عن أحصنته، وشاها، أخبرها بأنّ شاها ستلد خلال أيّام قليلة، وإصطبلاته عادت للعمل من جديد. لم تضيّع وقتاً، طلبت منه المساعدة في تأسيس إصطبل الدير، قالت إنّها تريد أهمّ السلالات فيه، مضيفة أنّ الكثير من الحجّاج السريان الكاثوليك الأغنياء سيساعدون في تزويد الإصطبل بسلالات نادرة، انتزعت منه وعداً بالاهتمام بطلبها، كان زكريّا يجاملها، لا يريد إفساد فرحة صديقه باستعادته، لكن في الوقت نفسه أعجبته الفكرة وأثارت خياله، إنّها الطريقة الوحيدة لبقائه قريباً من حنّا، وهذه طريقة مثالية لحمايته ومنع القتلة من التسلّل إلى حياته.

لم يخف زكريّا سعادته بانتقال شاها إلى غرفة قريبة من غرفته في الدير، أقنعها حنّا بالبقاء قربهما، بعيداً عن نساء خاسرات، بدا الطابق العلوي كله مخصّصاً لحنّا وأصدقائه الذين لم يجرؤ باسيلوس على إزعاجهم خوفاً من حنّا الذي بدأ يتحوّل إلى قدّيس بالنسبة إلى المؤمنين.

بعد ثلاثة أسابيع بدأ زكريّا العمل بنشاط غريب لتأسيس إصطبلات الدير، عاهد نفسه أن تكون أهمّ إصطبلات الشرق، انتقى الركن الشرقي الشمالي من الدير، حيث مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة مملوكة لحنّا، وطلب من عازار مرّة أخرى العودة إلى العمل، خطّطا الأبنية. عاد إليهم ذلك المرح الذي فقدوه جميعاً.

في ليلة الميلاد كانت الكنيسة مضاءة بالشموع، والقدّاس الكبير ينتظر مرور حنّا، بدأت آلام مخاض شاها، كان حنّا يقف قرب الباب معها، والنسوة يعملن على مساعدتها في ولادتها، استمرّت آلام الطلق أكثر من ست ساعات، ومع انبلاج الفجر، كان الدير صامتاً، تفرّق الجمع الغفير الذي انتظر رؤية حنّا يطلّ عليهم، لكنّه لم يفعل، اكتفى الجميع بالصلاة في الكنيسة، كانت خطوات ماريانا قويّة وهي تخرج من غرفة شاها، كانت تحمل طفلاً وطفلة، وفي عينيها حزن وهي تخبرهما بأنّ شاها قد ماتت.

عمّ الذهول وجوه الجميع، احتضن حنّا الطفلين، وقال: ستُدفن شاها في الدير. تركهم ثمّ مضى إلى غرفته حاملاً الطفلين الملفوفين بقطعتي قماش، وطلب من إيفون مساعدته في تغسيلهما وتمليح جسديهما، كان إعلان تبنٍّ واضح لا لبس فيه، نظراته الغاضبة والحزينة أخافت الجميع الذين لبّوا كلّ أوامره دون نقاش، حفر الشمّاس بولس الذي انضمّ إلى سكان الكنيسة قبراً في زاوية الدير البعيدة، قريباً من الحائط الذي يفصل الدير عن القرية، طلب زكريّا من يعقوب الذهاب إلى منزل أهل صهره وإحضار أخته سعاد وزوجها، ولم يكن صعباً إيجاد شيخ من سكّان قرية العنابيّة.

فهمت ماريانا في تلك اللحظة أنّ حنّا قد يتمادى أكثر، شاركت الجميع في تنفيذ أوامره، جهّزت الكنيسة لصلاة إسلاميّة على جثمان شاها، أمرت بولس أن يعتبر المكان الذي سيختاره مقبرة للدير، لا تريد لقبر شاها أن يكون معزولاً، تسامح ماريانا أشاع جوّاً من الراحة، لم تتوان عن تقبيل سعاد وتقديم العزاء لها، ثمّ الإشراف على فتح العزاء والطبخ للمعزين الذين توافدوا من القرى القريبة، ومن حلب توافد أفراد قلائل من عائلة البيازيدي وعارف شيخ موسى وأقربائه، الذين اعتبروا دفن شاها بهذه الطريقة إهانة لهم كعائلة، لكنّ حزن زكريّا ترك كلّ المواضيع معلقة.

الشي الوحيد الذي طلبته ماريانا هو احتجاب حنّا عن الظهور، لأنّ ظهوره سيكون فرصة لزحف المدينة إلى العزاء من أجل رؤيته. كانت مبرّراتها مقنعة، اكتفى حنّا بالإشراف على العناية بالطفلين، والاطمئنان إلى سير الأمور بطريقة مرضية، قضى وقتاً طويلاً مع أصدقائه للمرّة الأولى منذ زمن طويل، أصابته الخيبة حين اقترب منه طفل صغير، ومدّ يده له برسالة عرف أنّها من شمس الصباح، لم يرغب في قراءتها، فهمت أنّ عدم جوابه هو بداية القطيعة النهائيّة بينهما.

انتظر حنّا حضور زكريّا مساءً، ومدّ يده بالرسالة وطلب منه قراءتها بصوت عالٍ، كان زكريّا في أعماقه يخاف من هذه اللحظات الغريبة، إنّها الرسالة الأولى من شمس الصباح، فتح المغلف وكانت الرسالة قصيرة، تطلب دفن جثمان شاها في القلعة، وأخذ الطفلين لرعايتهما، قالت إنّها أحق الناس برعاية ذكرى صديقتها الوحيدة في الحياة، متوسّلة إلى حنّا وزكريّا أن لا يحرماها من أمنيتها التي قالت إنّها الأخيرة.

صمت حنّا، وفهم زكريّا رغبته في نهاية لهذا الموضوع، إنّها آخر شخص يذكّره بحياته السابقة، يكفيها المكان المخصّص لها، ريثما تموت آخر النساء سيجدون وظيفة أخرى للمكان.

لم ينتبه أحد إلى تسمية المولودين، بعد ثلاثة أيّام من موت شاها شعر زكريّا بأنّه غائب عن الوعي، تحرّكه قوة غير مرئيّة، يتلقى أوامر الجميع وينفّذها، لكنّه كان يشعر بالطمأنينة إلى وجود حنّا بعقل يقظ، شعور الفقدان تسلل إلى قلبه، قالت له سعاد غاضبة بعد عودتهما من المقبرة، كان يجب أن تموت في الطوفان، أضافت أنّ المولودين يجب أن ينضمّا إلى العائلة، ستفسدهما حياة الدير، لكنّ زكريّا في تلك اللحظة لم يكن يفكّر إلّا بالمصادفات التي قلبت كلّ الأشياء وحياة الجميع رأساً على عقب، شعر بالندم لأنّه سمح لحنّا بحفر التل، اكتشاف الكنيسة وتخريب كلّ شيء. أن تكون شاها أول الميتين في الدير فأل سيّئ. شعر بأنّه لم يعد كما كان قبل الطوفان، شيء في أعماق قلبه لا يستطيع تسميته أو الإمساك به يخبره بضرورة تصحيح الخطأ، الأمكنة الضيّقة على اتساعها كانت تشعره بالرعب، لم يستمع إلى ثرثرة سعاد، واتّهامات شمس الصباح لماريارنا بقتل شاها، شعر بأنّ رأسه سينفجر، يريد العيش بعيداً راعياً لأحصنته، يجول معها ومع صديقه بقاع الأرض، ولا يستقرّان في مكان.

لم يكترث بمحاولة أحد الخدم منعه من الدخول إلى جناح حنّا، ولم يستمع إلى رجاء ماريانا أن يتصرّف بحذر في هذا المكان، وهي تحاول إفهامه أنّ كلّ ما يخصّ حياتهما الماضية قد انتهى. كان حنّا ينتظره، وقال مبتسماً: يجب أن نسمّي المولودين، مضيفاً أنّه سمّى الفتاة عائشة، واقترح عليه أن يسمّي الصبي، أجابه ملتقطاً إشارته السرّية بأنّه سيسمّي الفتى وليم، كادت الدموع تطفر من أعينهما، لاستعادة ذكرى صديقهما، في لحظة لم يصدّقا أنّها حدثت رغم دفنهما الجثمانين بأيديهما في حقل كرز القلعة القريب.

لم يعد لديهما ما يفعلانه سوى ترديد الاسمين، عائشة ووليم. استعادة ذكرى صديقهما أسعدتهما، شعر زكريّا بسخافة تمضية حياتهما هنا وسط كلّ هؤلاء البشر، سأل حنّا إن كانا سيبقيان لوقت

طويل في هذا المكان، شعر بالضيق ممّا يحيط به، لكنّه لم يكن متأكداً من جوابه، طلب منه زكريّا التريّث إلى وقت زهر الرمّان، سارا إلى جناح ماريانا التي خصّصت سريرين صغيرين للطفلين قرب سريرها، كانت منسجمة في دور الأم، كان الطفلان ضعيفين، كأنّهما لن يستطيعا تجاوز محنة الحياة، لكن في وجه عائشة كان بريق غريب يشعّ من عينيها ووجهها، لا يمكن إخفاء الشبه بينها وبين أمّها.

لحظات قليلة لكنّها كافية ليشعر الاثنان بسلام داخلي، وعاطفة تحدّثا عنها في ما بعد مراراً، ماريانا لم تضع وقتاً، طلبت من زكريّا أخذ الطفلين إلى عائلته لتربيتهما، أو تركهما نهائيّاً هنا، ستعتني الراهبات بأمرهما، هي الأخرى لم تخف تعلقها بالطفلين اللذين رغم ضعفهما كانا يبتسمان للجميع، حسم حنّا أمر الطفلين وقال: سيعيش وليم وعائشة هنا إلى أن يبلغا، كان زكريّا موافقاً، لا يريد لهما العيش في منزل أهله، هناك لن يعتني بهما أحد، أخته سعاد متزوّجة، وعمّته أمينة مندمجة في دورها كداعية كبيرة، مشغولة في الأيّام الأخيرة برثاء شيخها الأكبر أبو الهدى الصيادي الذي داسته أحذية الاتحاديين في شوارع إستنبول قبل نفيه إلى جزيرة الأمراء «رينيكبو» ليموت فيها عام 1909، لم يبق لهما أحد، لكنّ زكريّا لا يعرف لماذا قال لماريانا إنّ الوقت ما زال مبكراً لبتّ أمر حياة الطفلين، كان يريد مخالفتها فحسب. شعرت في تلك اللحظة بأنّه يكرهها حتى الموت.

الفصل السابع
الجوع

«مصنف حنّا رقم 4»

1915

رغم الحرب، كانت ماريانا تعدّ مراسم الاحتفال بالسنة السادسة لتأسيس الدير عام 1915، لم أناقشها في التاريخ الذي حدّدته، لا تهمّني مناسباتها التي تحرص عليها. فكرت بأنّه ما زالت هناك فرصة أخيرة لنجاتي. شعرت بأنّ جسداً جديداً قد حلّ محلّ جسدي القديم، روحي المثقلة بالخطايا تفتّتت، نثرتها كما كنت أرغب فوق ذرى أشجار الرمّان التي تفتّحت أزهارها رائعة، متوحّشة، جمال فاتني من قبل، أتحسّسه الآن وأتذوّقه كلّ لحظة. أخرج فجراً من غرفتي، أسير في الحقول المحيطة بالدير، أرى زكريّا مشغولاً بعلف الأحصنة، أصل إلى تلك التلّة الصغيرة المكسوّة بأشجار الصنوبر، أرى القلعة بعيدة، أشعر بخوائها، من الغريب أنّني لم أحنّ إليها، أصبحت مكاناً حيادياً بالنسبة إليّ، كأنّه يخصّ جيراناً منعزلين، لا يريدون إلقاء تحيّة الصباح. لكنّها بدت لي تحفة هندسيّة يحق لعازار الفخر فيها. منذ سنوات لم يلحظ أحد أيّ حركة أو ضجّة منبعثة من المكان، حوّلته شمس الصباح إلى مكان تقضي فيه رفيقات أم وحيد شيخوختهنّ، بعيداً عن عوزهنّ وإهانات البشر الذين يرمونهنّ بالحجارة في الطرقات، أو يبصقون عليهنّ لدى مرورهنّ في الأسواق، لقد تحوّلن إلى ركام نساء مذنبات أبديّات لا أحد يقبل توبتهنّ.

تخيّلتهنّ كسيرات، أجسادهنّ مترهّلة، ويرتدين أثواباً فضفاضة، وجوههنّ دون ماكياج، ويدفن بعضهنّ بعضاً، دون اكتراث لديانتهنّ. انضمام وداد اليهوديّة إليهنّ سيمنح المكان ذاكرة جديدة، أتذكّر عشق عارف لأناملها الناعمة وبشرتها البيضاء. قرع باب القلعة ذات صباح، وقال لي سأتزوّج وداد، اشتريت لها منزلاً في بناية صديقنا الإنطاكي، وأكمل: يجب أن تشهد على عقد زواجنا، كان يتحدّث كطفل صغير، قلت له: إذا بقيت مصمّماً على الزواج، وسمحت لك الخاتون أم يوسف التي كانت مريضة ولا أمل من شفائها، فسأقيم لك عرساً لم تشهده حلب منذ نصف قرن. كعادة عارف طويت القصّة بعد أيّام، وأثاث منزله غطّاه الغبار.

فكّرت في أم وحيد، لم يسمحوا لها بنقل فتياتها إلى أحد منازل المبغى العمومي، خسرت المعركة مع القوّادين الذين استأثروا بإدارة المكان، وحكموه بالقوّة والبطش.

إنهنّ نساء لا أحد يقبل توبتهنّ، كم من البشر الذين قابلتهم خلال السنوات الماضية أخفوا في أكمام أرديتهم الفضفاضة عصا غليظة، يقولون إنّها عصا الله. أشفقت عليهم، لكنّني في الوقت نفسه كنت أفكّر كم هم قادرون على تدمير البشر. حين كان الأب إبراهيم يشرح لي تاريخ الغفران، كان يعرف أنّ الغفران متعلق بالبشر لا بالله، كان يريدني أن أعرف أنّ الله لا يمكن أن يكون ظالماً. ذات صباح فتحت باب المكتبة، وجدته جالساً مكانه، يرتشف أول رشفة من منقوع زهر البابونج، ويبتسم كعادته، كنت مكفهرّاً، سألته مباشرة: إن لم يكن الله موجوداً فمن يعوّض ملايين البشر عن حياتهم الواهمة التي عاشوها، أجابني ببساطة بأنّنا نحن البشر اخترعنا الله، وحدّدنا صفاته، وإن كان غير موجود كقوة مادّية ملموسة فإنّ اختراعه منح ملايين البشر الراحة في سعيهم نحو الموت.

لا يفيد أحداً التفكير بعدم وجود الله، في الأشهر الأخيرة شعرت براحة غريبة، عدت للإحساس بطعم الأشياء، لم يعد ينتظرني المصابون بالعمى لأشفيهم، كنت أريد أن أصبح رجلاً منسيّاً لا يراني أحد، الاختفاء ذروة الحرّية، أصبحت خيط ضوء، لا تراني الخادمات والراهبات، لا أحتاج إلى تحيّتهنّ، كرهت التبجيل، أصبحت مولعاً بفكرة الاختفاء، والإقامة في النسيان، إنّها الحياة التي تمنّيتها طوال عمري.

لم أشغل تفكيري في أمر وجود الله، اقتنعت بأنّ الله فكرة كما هو يسوع، من أصابته روعتها شعر بسعادته الخفيّة بذلك الظلّ الخفيّ الذي يحرس حياته، ومن لم تصبه يخَفْها، ويبجّلها، ومن لا يخف فسيشعر بتعاسته وخوائه، كهيكل الديناصور العظمي الذي أعجبني شغف يوسف به. فكرة تشبه الحبّ والخوف. حين أرى سعاد تقطع أرض الدار، أشعر بنسمة تتغلغل في روحي، أذكر نظرتها قبل أن تكتشف تلطّخ القميص الحريري الذي أوصتني بكلّ جدّية بأن لا أسمح لعاهرة بفكّ أزراره، كانت لا تحبّ أن يشاركها أحد في حبّي، إنّها لحظة قصيرة جدّاً، جزء من الثانية، وددت لو أحتضنها، وأقبّلها بحرارة، غير مكترث بوجود حشد البشر من حولي، كنت أريد تلك اللحظة، لا يغادرني وجهها الغاضب وهي تنظر إلى القميص الملوّث بالخمر وقبلات النساء، بصقت عليّ وغادرت. لم أنس احتقارها يوماً، كما لم أنس لمساتها القليلة، خوفها عليّ من مرض عابر، أو موت مفاجئ. سأعيش طويلاً من أجلها. لحظة مغادرتي المنزل إلى حوش حنّا، سمعت صوت تحطّم جدران قلبي، غارت في داخلي تلك العذوبة، أصبحت بعيداً عنها، تحوّلت إلى بركة ماء آسنة، تملأ الضفادع أضلاعي، وتقتسم مع النمل والخفافيش كلّ فراغاتي.

تذوّقت الحبّ، عشته طوال عمري، لم أستطع يوماً إقناع أيّ أحد لم يتذوّقه بوجوده، حتى أقرب أصدقائي، كانوا يقولون إنّني أتحدّث عن عالم خيالي، يليق بالأطفال الصغار، النساء بالنسبة إليهم كنّ مجموعة ثقوب، يجب ملؤها بمائهم المقدّس، وهم في المقابل فشلوا في إقناعي بأنّ الله الذي يعرفونه هو الذي يتحدّث عنه رجال الدين. كنت أرى الله كالحبّ ينمو في ضلوعي، إنّهم لا يعرفونه، عرفته في السنوات الماضية، حين تلمّست زهرة الرمّان للمرّة الأولى، تساءلت كيف عشت عشرات السنين دون لمسة الجمال الربّانية التي تفطر القلب.

الآن أشعر بضرورة خروجي إلى البراري، والتمتّع بقوّة الاختفاء، كوني منسيّاً، وحيداً مع أصدقائي القلائل جداً، شعرت بصواب قراري باحتفاظي بعائشة ووليم ليعيشا قربنا أنا وزكريّا في الدير. لا يمكن تخيّل الحياة من دونهما، أقفز كطفل صغير حين تلقّني عائشة بذراعيها، الطفلة التي

لم تتجاوز السابعة من عمرها، وتهمس لي بأنّها بالأمس كبرت وأنا صغرت، ثمّ تضيف بصوت خافت كأنّها تخبرني سرّاً بأنّها في الليل تذهب إلى أماكن أخرى. ليلة أمس كنت طفلاً صغيراً تقودني من يدي وهي كانت امرأة كبيرة، تقول بعد حيرة إنّها تشبه عمّتها سعاد، وتضيف أنّنا ذهبنا إلى ضفّة نهر عفرين، وهناك ركبنا ظهر سلحفاة كبيرة، ورحلنا في النهر إلى مكان آخر، تتوقف للحظة وتقول: لقد نسيت اسمه.

أمرت ماريانا الخدم بالتحضير لمناسبة استقبال البطرك الذي سيصل للاحتفال خصّيصاً بذكرى تأسيس الدير. أصبحت الاحتفالات تثير حنقي، البلاد غارقة في حرب طاحنة، آلاف الشباب يُقادون إلى الجبهات ولا يعودون، قلت للأب إبراهيم: القداسة وهم، عبّرت عن سعادتي بأنّ مشروع ماريانا المزيّف لن ينجح في جعلي قديساً، كعادته حين يريد مخالفتي في أمر هز برأسه وقال: أنت تتوهّم أنّك أكثر حرّية من ذي قبل، أضاف: لقد دخلت الشرك بقدميك. قرأ في عينيّ القلق الذي لم يتركني في الليالي الأخيرة وأنا أفكّر في الهرب من كلّ شيء، قال لي: لديك فرصة أخيرة للفرار، أضاف: إذا عدت إلى هنا فلن تغادر هذا المكان إلّا إلى القبر.

قرّرت الهرب وحيداً، الأرض واسعة والعالم ساحر، السير في الحقول ومراقبة النباتات وتلمّسها سيمنحني متعة العيش قرب البشر وتلمّس آلامهم، ليس لديّ أيّ شيء أخسره، فقدت امتيازاتي كملّاك. في الأيّام الأخيرة فكرت في صالح العزيزي، ولحاقه بحكمت ضاشوالي وقتله، حكايته لم تتركني، كنت معجباً بشغفه، لقد انتقم لنا، أفكّر بقوّة الحبّ حين تحوّل الكائن من خادم إلى شاعر جوّال زاهد، ثمّ إلى واشٍ، ثمّ إلى قاتل، ثمّ إلى منتحر، ثمّ إلى إمام للعاشقين.

انسللت فجراً من غرفتي، تابعت طريقي ملتفّاً حول الطريق، في كيسي بضعة أرغفة وأشياء قليلة، توقفت في قرية براد لوقت قصير، بحثت عن الخطى القويّة المندثرة، كان سكّان القرية فقراء، وغير مكترثين لعيشهم بين أنقاض كنائس وأديرة مدمّرة، كانوا يستعملون الأحجار الضخمة لبناء زرائب حيواناتهم، يفكّرون في لقمة عيشهم ولا يكترثون بقداسة التاريخ.

فكّرت بزكريّا الذي سيبقى وحيداً، لكن قبل وصولي إلى دير سمعان العامودي انتبهت إلى خطواته خلفي، كان يلاحقني منذ اللحظة الأولى، طلبت منه تركي لمصيري، ضحك ضحكته التي اشتقت إليها، كان يصطحب عربته معه. سألني متى سأعود، أجبته: لن أعود. قال لي: وأنا لا أستطيع البقاء مع ماريانا في مكان واحد، مضيفاً: قد أقتلها وأرمي جثتها للكلاب.

شعرت بسعادة غامرة لوجود زكريّا معي في فراري الأخير، لدينا وقت طويل سنتحدّث فيه عن طفولتنا، أخاف العيش من دونه، لن يبتزّني أحد في العالم ما دام قربي، احتاط وتدبّر لنا من إدلب التي توقفنا فيها أغطية للنوم، وملابس قليلة، وطعاماً يكفينا. في الليالي الأولى نمنا في الفلاة، تأمّلت القمر في ليالي الشتاء، استعدت مهارتي في تحديد الجهات عن طريق النجوم، استعدنا طفولتنا وتجاهلنا الأمكنة الآهلة، كنّا نرى آثار الحرب والمجاعة الرهيبة، الأرواح التي تتساقط جوعاً تضعنا أمام حقيقتنا كبشر أنانيّين، توقفنا عند مفارق طرق نطلب مساعدة فلّاحين عائدين من حقولهم، لم يبخلوا علينا، كانوا بشراً طيّبين، لكن عدم تحديد وجهتنا أضجر زكريّا.

أشعر بقلقه، يريد الاعتراف بشيء، لم يقله إلّا حين وصلنا إلى مزار قمّة جبل النبيّ يونس قرب قرية صلنفة، نمنا ليلتنا فيه، فتح زكريّا باب المزار، لم نكن خائفين رغم وحشة المكان النظيف. وجدنا بقايا طعام، بقينا أكثر من عشرة أيّام وحيدين، الثلج يتساقط بغزارة في شباط، لا أحد سيغامر بالخروج من منزله لتفقد مزار يتربّع على قمّة جبل منفرداً. في الليلة الأخيرة أخبرني زكريّا بأنّ تلك الطفلة التي سمّيتها هيلين هي ابنته. الأقاويل التي تناولها سكّان الدير همساً عن علاقة غير

شرعيّة بينه وبين إيفون صحيحة، تجاهلت اسم إيفون وقلت إنّ هيلين سعيدة مع أمّها فطمة التي تبنّتها، كان يريد لي أن أوبّخه، أعاتبه، لكنّي وجدت نفسي أفكّر: هل ما فعله يستوجب التوبيخ؟ أيّ خطأ كبير ارتكب؟ فكّرت في خطايا صديقي، بعد عدّة أسابيع من تجوالنا ونحن ندخل إلى حلب سألته: هل حقاً افتضّ خطيب إيفون غشاء بكارتها. نظر إليّ ولم يجبني، كأنّه نسي الحكاية بأكملها. كان زكريّا يفاجئني دوماً، أخبرني بالحكاية كاملة كأنّه في جلسة اعتراف يطلب الغفران، أخبرته بأنّ الفتاة اللطيفة إيفون التي كانت تعتني بشؤوني، حاولت أكثر من مرّة أن تخبرني بشيء ما، لكنّي كنت شارداً.

حكاية إيفون وهيلين وزكريّا زادت من ألمي، أذكر يوم أتت ماريانا بالطفلة، وضعتها بين يديّ قائلة إنّها وجدتها في سلّة قرب باب الدير، طلبت منّي تسميتها والسماح للخادمة فطيم التي تعمل في مطبخ الدير بتبنّيها. كانت ماريانا تريد طرد فتاة العار من الدير، كما طردت أمّها قبل عدّة أشهر، لقد تمنّت إيفون الغرق مع خطيبها وعائلتها لكنّ حظها في النجاة أربك حياتها، بقيت قصّتها مع خطيبها تلاحقها، لم يغفر لها أحد حتى الشائعة.

قضينا عشرة أيّام نتأمّل غابات قرية صلنفة الموحشة، نسمع في الليل أصوات عواء بنات آوى والذئاب تحوم حولنا، نراها تبحث عن فريسة. هدأ الثلج وبدأت بشائر الربيع، كان زوّار المزار القلائل يظنّوننا حارسين له، يتركون لنا طعاماً قليلاً، كسرة خبز، قطعة جبن، يعتذرون بأنّهم لا يملكون في زمن المجاعة أيّ شيء، يتبرّكون بنا ويطلبون منّا العناية بالوليّ المقدّس.

شعرت بصفاء ذهني لم أشعر به من قبل، غياب البشر ليس سيّئاً إلى هذه الدرجة، كنت أقوم بأعمال كثيرة، أحتطب وأشعل النار، وأطبخ، استطاع زكريّا إخفاء كمّية قليلة من البرغل وزيت الزيتون في العربة، أفكّر في وحدتي وسط هذه الغابات، ماذا لو بقيت هنا طوال حياتي، أحرس وليّاً يتركه الجميع لوحدته شتاءً.

أوائل الربيع تكاثرت أعداد الزوّار، تعرّضنا لفيض أسئلة، ساعدنا مظهرنا البائس على التخفّي، لكنّ وجود العربة وهذين الحصانين يفضح كلّ شيء، تصرّف زكريّا كالعادة، تحدّث عن وفاء نذورنا في خدمة المزار. نزلنا الجبل بحذر شديد، كدنا ننزلق أكثر من مرّة، وصلنا إلى حماه، ولم ندخلها، خرجنا نحو سلمية، وتهنا في البادية، كان المنظر بديعاً، أزهار برّية تتفتح، وندى الصباح يغمرنا، ينعش قلبينا، نتحدّث بمرح كما كنّا نفعل في طفولتنا التي استعدناها مرّات عديدة بتفاصيل مختلفة.

كان زكريّا يقود العربة التي يجرّها أفضل حصانين في إصطبله، صفّرت ذلك اللحن الحزين الذي كنّا نصفّره حين كنّا أطفالاً في طريق عودتنا من ضفّة النهر. ابتسم زكريّا، نظر إليّ متفقداً ما بقي من روحي القديمة، كان يعرف أنّني متّ منذ زمن بعيد، وأنا الآن شخص آخر، قلت له أريد الذهاب إلى حوش حنّا، غمغم وفهمت أنّ الخادم نفسه ما زال يعتني بغرفتي هناك. طلبت منه العودة عن طريق حلب. كان البدو يقطعون الطريق، ولن يكون وصولنا سهلاً، قد نكون صيداً دسماً لهم، لم يعد لدينا أيّ نفوذ يحمينا، شعرت في الأشهر الماضية بأنّنا رمينا كلّ ماضينا على الطرقات.

فكّرت بغرفتي في حوش حنّا، اشتقت إليها، نسيت الكثير من الأشياء، اعتقد زكريّا بأنّ الوقت الذي سنقضيه في الطريق سيكون كافياً ليخبرني عن أوضاع أملاكي أو ما بقي منها، كنت غير مكترث، أعرف أنّه لم يعد لديّ سوى أرض حوش حنّا، لا أعرف من يعتني بها، أخذت الكنيسة كلّ شيء، في لحظة طيش تركت لماريانا كلّ سندات البنك، والأموال، تنازلت عن الأرض والدير

للكنيسة، قلت في نفسي إنّني أعطي أهلي، سيحترمون وصيّتي بأن يصبح الدير بعد موتي مكاناً يقضي فيه العجائز أيّامهم الأخيرة، اكتشفت أنّني بجّلت الموت وخفت من الشيخوخة طوال حياتي.

لم يكن الطريق كما توقعت، لم أكن أعرف أنّني أخرج من موت إلى موت أقسى، كلّ ما شعرت به خلال الأشهر الماضية كان وهماً، لم نستطع الهرب إلى ذاتنا، ما زلت أذكر لحظة مغادرتنا مزار وليّ جبل النبي يونس كيف شعرت بأنّني سأفتقده، لكنّه مكان غير معدّ للاختفاء.

كان زكريّا يعرف كلّ الطرق الفرعيّة إلى حلب، وصلنا إلى خانطومان، ولم يكن المكان يعني لنا أيّ شيء، تحدّثنا عن مفاجأة عازار وزيارته في مكتبه، لم أكن متحمّساً لشيء سوى الوصول إلى غرفتي في حوش حنّا، ومراقبة عودة الطيور التي بدأت أسرابها تملأ السماء. فوجئت بشوارع حلب مهجورة وموحشة، لا يمكن لمدينة أن يختفي سكّانها، طوابير من الشباب المقيّدي الأرجل والأيادي يقودهم عساكر أتراك إلى الحرب، كانت كافية لشرح ما يحدث، الأمّهات يستجدين العساكر القساة ترك أبنائهنّ وأزواجهنّ، يرتمين عليهم ليستطعن لمسهم للمرّة الأخيرة، لكنّ عربات القطار المحروس جيّداً كانت تبتلعهم، وتحوّلهم إلى مجرّد سحابة دخان أسود.

من الصعب عليّ رؤية مدينتي فارغة، خائفة، وموحشة إلى هذه الدرجة، جثم ضيق على أنفاسي، لم أعرف لماذا كلّ هذا البؤس، ماذا حدث؟ مجموعة أطفال عراة، يحملون في أياديهم صحوناً وحللاً فارغة، ومجموعة مشايخ يوزعون شوربة العدس مع نصف رغيف شعير، ينهرون الأطفال الذين يطلبون المزيد، العساكر العثمانيّون دهموا كلّ البيوت وصادروا كلّ ما يؤكل، والمجاعة قتلت الآلاف، لم أر مجاعة من قبل لكن رائحتها تزكم أنفي الآن. تردّدت في النزول من العربة، خفت أن أعود شخصاً مرئيّاً. كان زكريّا حزيناً، لم يخبرني بأنّ الدير لم ينجُ من تلك الحملة، صادروا كلّ المؤونة وتركوا الأقبية خاوية، فهمت أخيراً سرّ فقرنا الشديد في الأشهر الأخيرة، كنت أسمع نقاشات خافتة عن انتهاء المؤونة، وإعادة توزيع وجبات الطعام. استطاعت ماريانا عقد صفقة مع الضابط المسؤول عن المنطقة، واحتفظت ببعض أكياس البرغل والعدس وكمّية قليلة من زيت الزيتون مقابل دفع مبلغ كبير، كانت تحتفظ فيه من آخر سند باعه البنك لمصلحتي، وأودع النقود في حساب الدير الذي حرصت ماريانا على أن يكون بإدارتها. كانت تقول إنّني عديم الأهليّة، ومرّة ثانية تقول: القدّيسون لا تليق بهم النقود القذرة، ويجب عدم تلويث أياديهم الناصعة بعفونتها.

تمرّ الجنائز الجماعيّة قربنا، نعوش دون مشيّعين، اختفى الشباب الأقوياء، لم يبق سوى العجائز والأطفال، الجنود يراقبون كلّ شيء، يفتّشون العربات، لم يتركوا منزلاً في المدينة لم يفتشوه، نهبوا المستودعات المليئة بالبضائع والحبوب، صادروا كلّ ما يدبّ على الأرض، مررنا قربهم، نظروا بقسوة إلى زكريّا، قال لي إنّهم يريدون الحصانين، ثمّ أكمل أنّه خلّص نصف الأحصنة مقابل مبلغ كبير دفعه للوالي، ومبلغ آخر لخزينة الدولة، قدّرت أنّ زكريّا أصبح رجلاً فقيراً بعد دفعه كلّ هذه المبالغ لتخليص أحصنته، وأردف أنّه ندم، لم يكن يتوقع أن تستمرّ المجاعة. طمأنني بأنّه لن يسمح لأحد بمصادرة العربة والحصانين، لم أفكّر في تلك اللحظة سوى في سعاد، هل هي جائعة أيضاً، سألت زكريّا مباشرة عنها، قال لي: سعاد تحتفظ بمستودع سرّي لا يعرفه أحد، لقد سدّت منفذ القبو بأحجار، ما وجدوه قليل لكنّ المؤونة ستتعفن إن لم تجد وسيلة لإخراجها، أضاف: بالتأكيد وجدوا وسيلة لإخراج ما يكفيهم من طعام... سيساعدها عازار. حاول زكريّا تجنّب المرور من أزقة باب النصر، لكنّ الأوان قد فات، اعترضت طريقنا مجموعة كبيرة من الأطفال يبكون معاً كأنّهم أوركسترا تعزف لحناً حزيناً، أمّهاتهم قربهم، يمدّون أياديهن لمارّة لا يكترثون. نزلت

من العربة، لا أملك شيئاً أتركه لهؤلاء الأطفال، أعطاني زكريّا حفنة نقود، تركتها لهم، لم أستطع إشاحة نظري عن أطفال ميّتين بينهم، إنّهم يموتون بالتدريج، يتساقطون واحداً بعد آخر. سألت زكريّا: هل لدينا أيّ شيء في مستودعاتنا؟ ضحك وأجاب بأنّنا لم نعد نملك المستودعات، ذهبت لملكيّة الكنيسة، نحن الآن فقراء كهؤلاء الأطفال، قد يصيبنا الجوع إن لم نصل إلى حوش حنّا، هناك سنجد بعض المؤونة التي دفنها الفلّاحون في الأراضي.

شعرت بالأسى حين رأيت كل هؤلاء الأطفال الجائعين، عظام أقفاصهم الصدرية ناتئة، ينتظرون الموت في أيّ لحظة. كانت أزقة باب النصر فارغة تماماً. ما قيمة الحياة إن كان كل هذا البؤس يحيط بك؟ طلبت من زكريّا التوقف عند ناصية شارع الخندق، صعد أكثر من عشرة أطفال إلى العربة، والباقون لحقوا بنا، وصلنا إلى منزلي في باب الفرج، طلبت من زكريّا فتح الباب، هبّت رائحة عفونة، منذ سنوات بعيدة لم أدخل إلى هذا المنزل، لم يفهم زكريّا لماذا أتيت بالأطفال إلى منزل لا كسرة خبز فيه، طلبت منهم أن يأخذوا كلّ أشياء المنزل، الثريّات الكريستال، والسجّاد العجمي، وشراشف الحرير المطرّز، والكنبات، الطناجر والصحون والكؤوس، كان الأطفال يتحاملون على أنفسهم في حمل الأشياء والخروج بها، قلت لزكريّا إنها أشياء تباع حتى لو بثمن بخس، لا شيء لديّ أمنحه لهؤلاء الجائعين، لم أستطع منع نفسي من النظر من أباجور المنزل إلى مدخل سوق بحسيتا العمومي، بقي عدد قليل من النساء العاملات في السوق، منكوشات الشعر، وجوههنّ متعبة، لم يعد أحد يبادل الجنس بالمال، لا زبائن، لا هدايا ولا روائح عطرة تفوح من المدخل وتنشر عبقها في أرجاء الأحياء المجاورة. تركت الباب مفتوحاً لكن زكريّا أغلقه بعد فراغ المنزل من كلّ أشيائه، ركبنا العربة وتابعنا طريقنا، قلت له لو نبيت هنا، لكنّه لم يستمع إليّ، كان غاضباً منّي. برأيه الثريّات لا تؤكل، وهذه الأشياء جزء من حياتنا الماضية، لم يفقد زكريّا الأمل بعودتي إلى حياتنا الماضية، لكنّه حين رأى الأطفال يحاولون إخراج الكنبات، أيقن أنّني لم أعد أكترث بما بقي لديّ من أشياء.

قبل خروجنا من حلب، كان الجميع ينظرون بدهشة إلى الحصانين، البشر يفتّشون بقايا روث الحيوانات، ينقّون الحبوب الباقية، وطناجر كبيرة تغلي أوراق الأشجار. نهب الجنود كلّ شيء، وأرسلوه إلى مستودعات الجيش، لم يتركوا أيّ شيء، الدجاج والخراف والأغنام، الأحصنة والحمير، وكلّ ما يدبّ أو يؤكل نُقل إلى الجبهات.

لم أرغب في ترك المدينة، لأول مرة أشعر بسخافة ما أفعله، تلك العزلة القسريّة، تلك التأمّلات في أصول خلق الكون، ومفهوم الله والجمال والموت، ها هو الموت يسير بقدمين حافيتين، يدبّ على الأرض قربي ويحصد آلاف الأرواح، يتسرّب من شقوق الأبواب، لا أحد يوقف طوفانه، تطوّعت مجموعات بشريّة لدفن الجثث المتروكة في الشوارع والبيوت المهجورة، لكنّهم لم يستطيعوا إكمال مهامّهم. من يستطيع دفن مدينة ميتة؟ كنت أتساءل ولم أستطع تخيّل حجم الكارثة حين كنت في الدير، ظننت أنّ الجنود يريدون حصّتهم كالعادة من أرزاقنا. في سفرنا كنت أريد الاختفاء، لكن زكريّا شرح لي أنّه قبل عام حين بدأت الحرب، لم تكن الأمور بهذا السوء. قبل خروجنا من باب الحديد شاهدت رجالاً يحاولون إحراق كومة جثث، أشاروا لنا بأن نبتعد، مضيفين أنّهم موتى الطاعون، لقد اقترب الفناء، من سينجو من الجوع سيموت بالطاعون، ومن سينجو من الاثنين سيموت بالكوليرا، ومن سينجو من كلّ ذلك سيموت بالحرب، أخبرني زكريّا دون مقدّمات بأنّ حسن المصابني وصديقه راؤول ماتا في الطاعون لا نتيجة جلطة قلبيّة، وجثتاهما احترقتا. فكّرت أنّه لا يهمّ نوع الموت، إنّه واحد في النهاية.

رأيت قطعاً من أثاث منزلي تجول في المدينة، لقد باعها الأطفال لمجموعة تجّار محتكرين، يتاجرون في كلّ شيء الآن، الأرواح، الأجساد، لن يتركوا فرصة ثمينة كهذه، لكنّني حين تخيّلتهم يموتون أيضاً انتابني الغثيان، منذ زمن بعيد لم أتحسّس الحقد، ظننت أنّني نسيت الغضب والاحتقار لكنّ جذورهما ما زالت في أعماقي.

وصلنا إلى حوش حنّا، مقبرة القرية ما زالت على حالها، لم يعد الناس للعيش هنا، ما عدا بضعة بيوت قليلة لفلّاحين لا يستطيعوا زراعة سوى مئات الدونمات، بينما باقي الأرض الكبيرة أصبحت بوراً، تشققت، لم تفلحها سكّة محراث منذ سنوات، شتلات القطن أنعشت روحي. صعدت إلى غرفتي، كان زكريّا يحتفظ لنا بوجبات من التين اليابس، والزبيب، واللحم المقدّد، وبضعة أرغفة من خبز الشعير، رغم الجوع الذي نهشني تقيّأت، انقبضت معدتي، تحشرجت أنفاسي، ارتميت على الفراش، لم أستطع النهوض من الفراش فجراً، كان زكريّا غارقاً في النوم، يشخر تعباً، حاولت النوم مجدّداً، سمعت جلبة نهوض زكريّا، سمعته يتحدّث مع فلّاحين شاهدوا عربتنا، تجمّعوا حول التلة، كان يتحدّث غاضباً ويهدّد، فهمت أنّ أحداً سرق الحصانين، لم أبال، أغلقت النافذة، وعدت مرّة أخرى إلى الفراش، أشعر بعجزي، في الوقت نفسه كنت أفكّر بأنّ الأمور ستكون على ما يُرام، أصوات البشر الذين أحاطوا بالتلة أزعجتني، قال زكريّا إنّهم رعاياك، ينتظرونك كي تمسح على رؤوسهم. كانت المجموعة تزداد عدداً، خفت أن ينجحوا في تطويق التل والغرفة بعد يومين، ولا يبقى لنا منفذ للهروب، كان جوعهم أقلّ، هنا يستطيعون إخفاء بعض الطعام في الآبار، أو على قمم الأشجار الباسقة، استعاد الصيادون نشاطهم، أصبح النهر مصدر رزقهم، نصبوا خيامهم وغاصوا في أعماق النهر بحثاً عن السمك، والأعشاب والطحالب، تدبّر زكريّا أمر استعارة حصان من أحد الملّاكين الذي تشكّى من فلّاحين يسيطرون على ما بقي من أراضٍ. لم أسمح له بزيارتي، كنت أكره جشعه وأعرف نيّاته منذ زمن بعيد. يريد ضمّ الجزء الشرقي من أراضيَّ إلى أرضه الشاسعة، طلبت من زكريّا إيجاد وسيلة للهروب من البائسين العميان والبُرص والمشلولين المنتظرين معجزة لا أملكها، قال زكريّا: يكفي أن تمسح على رؤوسهم. لن أبيع الوهم لأحد، قلت لزكريّا ونحن نبتعد عن حوش حنّا. كنت حزيناً في أعماقي، ساعدتني الشوربة الساخنة التي أعدّها زكريّا ليلة أمس على تحسّن صحّتي. في الطريق كانت الجثث متناثرة، نساء يحملن أطفالهنّ الذين ماتوا، عرفنا أنّهم أرمن فارّون من المذبحة، عشرات الجثث تنهشها كلاب شاردة. اقتربنا من حلب مرّة أخرى، لم أحتمل مشهد طفل جائع ميت ونسر يفرش جناحيه فوقه ويلتهمه ببطء شديد، لم أستطع فعل شيء سوى البكاء بصوت عالٍ.

فكّرت لحظة بأنّ زكريّا سيعرض عليّ المبيت في منزل العائلة، لكنّه توقف بالعربة أمام كنيسة السريان الكاثوليك، عادت سعاد إلى منزل أهلها بعد موت زوجها، لم تنجُ أملاكه ومعمله ومنزله الفاخر من النهب،كما أخبرني زكريّا، كانت لحظة مناسبة لسعاد التي كرهت تلك الحياة المتواطئة، لم يستطع حسن الهرب خارج المدينة كما خطّط، وببساطة كانت سعاد تقول: مات الكثيرون وحسن مات كما الجميع.

كانت الكنيسة موحشة، شعرت بأنّني في المكان الخطأ، خرجت قبل أن يعود المطران من جولته لتفقد رعاياه في الجزيرة، لقد قام المطران باسيلوس بعمل عظيم، فتح مستودعات الكنيسة، باع الأيقونات الثمينة، ورهن بعضها، ليطعم أهل مدينته، أفلست الكنيسة ولم يبق لديها ما تبيعه، تركها المطران وذهب في جولة ليشجّع أتباعه الأغنياء على فتح مخازنهم أمام الفقراء. قرعنا باب منزل عازار الذي كان مندهشاً من حضورنا في مثل هذا الوقت، عادت إلينا تلك الرائحة القديمة

للصداقة، عازار فقد وزنه، بدأ يتلقى معونات من جمعيّة خيريّة يهوديّة كالكثيرين، لم ينجُ من بطش الجوع والمصادرة، كان يحمد الله أنّه لم يمت في الطاعون. قضينا ليلة طويلة نتحدّث فيها، شعرت بأنّني فقدت الرغبة في الكلام، صمتّ، أخبرنا عازار عن موت ديفيد والبشر المنكوبين، غفوت وكنت أفكّر في طريقة للهرب، أردت إكمال الطريق وحدي وملامسة الطاعون، اخترت موتي، لم أعد متحمّساً للعيش، شعرت براحة كبيرة وأنا أتخيّل جسدي محترقاً مع أجساد المصابين في الطاعون، إنّه قمّة الاختفاء، ضحكت في سرّي وأنا أتخيّل ورطة ماريانا وهي تتحدّث بحماسة عن قدّيس وهمي، لا يمكن التعاطف مع من يموتون جوعاً سوى بمشاركتهم الموت.

تركنا عازار يغط في نومه وغادرنا، كنت حزيناً، لم يبق لي مكان أستطيع الاختفاء فيه، أشعر بعجزي، زكريّا يقود العربة بصمت إلى منزل عارف شيخ موسى، لم يكن الوضع أفضل لدى وصولنا، كان عارف رجلاً مكسوراً، منهاراً، اقتادوا ابنه يوسف إلى الحرب بعد اعتقاله في إصطبل الدير حيث كان يختبئ، وفراره في ما بعد والتحاقه برجال شيركو. كان عارف منزعجاً ممّا حدث، لو كان يملك نقوداً كافية لخلّصه من الخدمة العسكرية. الجنود نهبوا مستودعات الطعام وجرار زيت الزيتون، لم يتركوا له شيئاً، كان على حافة الجوع، وفي الغرفة الكبيرة كانت مجموعة عائلات أرمنيّة تتناوب على النوم، لقد بقيت ست فتيات صغيرات بعد موت أمّهنّ من أيّام قليلة، لم يعرف عارف ماذا يفعل بفتيات ناجيات من المجزرة، تحدّثت معهنّ باللغة التركيّة، ردّت إحداهنّ وقالت اسمها مريم وهؤلاء الفتيات أخواتها، من الواضح أنهنّ لسن أخوات لكن مريم لا تملك وقتاً للشرح، كانت تخبرنا بجمل متقطعة عن الجثث المعلقة على الأعمدة والقرى المحروقة عن بكرة أبيها، والطريق الطويل الذي قطعنه سيراً على الأقدام، قالت إنّها غادرت أورفا منذ شهر، كلّ أهلها ماتوا ما عدا أخاها هاروت الذي فرّ من بين أيدي الجنود على تخوم كلس، تبكي مريم وتطلب منّا البحث عن أخيها الذي لم يبلغ الحادية عشرة، كانت تقول إنّه صغير على الحرب، وإن وجدوه وعرفوا أنّه أرمني فسيقتلونه، كما فعلوا مع خالها وأبنائه الستة الذين دفنوهم أحياءً في حفرة كبيرة.

كان عارف يشعر بحرج كبير وهو يحمل صينيّة الطعام ويضعها أمامنا، القليل من البرغل ودجاجة صغيرة وصحن لبن رائب، أكلت الفتيات الست والتهمن كلّ شيء خلال لحظات، اكتفيت بلقيمات قليلة، شاخ عارف كثيراً، لم أره حزيناً كما هو اليوم. قبل أربع سنوات أخبرني زكريّا أنّه منذ مدّة لم يعد يملك شيئاً، بقي له أقلّ من ثلاثين دونم أرض قرب سكّة القطار، فقد مكانته بين الآغوات، ينتظر كلّ صباح القطار ويلوّح له، مخاطباً أناساً وهميّين بأنّ هذا القطار قطاره، انضمام ابنه يوسف إلى رجال شيركو جعله يشعر بالعار بين الآغوات، لم يبق لديه سوى هذا المنزل ومنزل حلب الذي فقد قيمته، من يشتري منزلاً والبشر يموتون جوعاً، اختفت النقود من بين أيدي الناس فجأة.

لم يمانع عارف اصطحابي الفتيات ليعشن في الدير، كان في أعماقه ممتنّاً، قبل أن يودّعنا كان صوت القطار يقترب، ابتسم بحزن شديد وقال إنّه قطاره، ويستطيع أن يوقفه لنصعد في جولة إذا أردنا، لم يكن يصدّق ما حدث رغم السنوات التي مرّت على نهاية حلمه، لم يعنه القبض على النصّاب ومحاكمته، الأموال ذهبت أدراج الرياح.

عندما وصلنا إلى الدير كنت مهدود القوّة، أفكّر أنّه لا يمكن للبشرية أن تفنى، كانت أخبار الحرب تطغى على كلّ الأمنيات، لم أحتمل البقاء في الدير، خرجت، أريد السير إلى نهاية العالم، لم أطلب من أحد أيّ شيء، أريد أن أضلّ الجهات، لكنّني شعرت بقدميّ مقيّدتين إلى هذا المكان، لم

تغادرني صورة النسر يلتهم ببطء جثة الطفل الميت، ومنظر الموتى لم يتركني لحظة، طفحت في ذاكرتي صور غربان سود، فكّرت بأنّهم سيبحثون عنّي ولن يجدوني، بعد أشهر سيقولون إنّني متّ، أطوي صفحة مرهقة من حياتي. ليلة عودتنا تحدّثت مع الأب إبراهيم الذي قام بأفعال عظيمة خلال الأشهر الماضية، تحدّث إلى المطران وبارك بيع أيقونات الكنيسة وفتح المطبخ أمام الجائعين، اعتنى بمريم وباقي الفتيات الأرمنيات، طمأنهنّ بأنهنّ وصلن إلى برّ الأمان، سيبحث عن هاروت وباقي أفراد عائلاتهنّ، كان الأب إبراهيم ينظر إليّ بشفقة، لقد عدت كرجل مهزوم، توجّهت نحو غرفتي، وأغلقت الباب بالمزلاج، كأيّ مهزوم، لا أريد رؤية أحد.

كانت هذه بداية الاستسلام النهائي، رغم معرفتي أنّني سأتلاشى قريباً.

دير زهر الرمّان – 1923

الفصل الثامن
عالم يتداعى

حلب – دير زهر الرمّان – 1948

الطفولة تبتعد لكنّها لا تغادرنا أبداً. تردّد عائشة التي ستحتفل بعيد ميلادها الأربعين بعد أسبوعين، وهي تسير كامرأة غريبة في ممرّات الدير، تحمل أصغر أبنائها حسكو، تريد مباركة حنّا كريكورس الجدّ، للمرّة الثالثة تأتي ولا تستطيع رؤيته، طلبت منها ماريانا بقسوة مغادرة المكان. ولادة عائشة وطفولتها ذكرى ثقيلة لماريانا، على عكس ولادة وليم التي تعتبرها فألها الحسن. تردّد أنّها لن تتوقف لحظة عن تصحيح أخطاء حنّا. اعتقدت بأنّ الزمن يقتل الحكايات، شكّكت في طفولة حنّا وحياته في منزل أحمد البيازيدي، لا يمكن لقدّيس مقبل أن تربّيه عائلة مسلمة، كانت تهمس للراهبات اللواتي يحفظن ما تقوله ماريانا عن طفولة حنّا، الذي يبدو في حكايتها كأنّه مخطوف ومُجبر على العيش مع عائلة مسلمة، وتسهب في الحديث عن عذاباته حين كان شابّاً قبل أن يغمره نور يسوع.

سارت عائشة نحو منزل زكريّا، كان زكريّا كعادته صامتاً، لم يعد يكترث بما تفعله ماريانا، ارتمت على صدره، ضمّها بين ذراعيه وطلب منها نسيان أمر الدير، لقد انتهى هذا المكان، شعرت بالأسى، لقد هرم كأحصنته، وإصطبلاته. طلبت منه أن يرافقها إلى منزلها، قال لها مبتسماً: كلّ الباقين سيموتون هنا ويُدفنون دون ضجيج، مضيفاً: وأنا منهم. منذ خمس سنوات لم تتغيّر كلمات زكريّا المحبطة، وعائشة كعادتها لا تريد تصديق ما حدث، لم يخبرها بأنّه يعاني في الآونة الأخرى من دمامل تنطفئ وتعود إليه كلّ فترة، نصحه الطبيب بأن يتعايش مع مرضه الذي لم يسمّه.

تذكّرت عائشة وصول موكب الأب إبراهيم قبل خمس وثلاثين سنة، كانت في الخامسة من عمرها، اصطحبها حنّا من يدها وسارا نحو الأب إبراهيم، رحّب به بحرارة واحتضنه بقوة، كان وليم مسترخياً في حضن ماريانا كعادته في عدم مفارقتها. منذ ولادة التوأم تقاسمهما حنّا وماريانا، حين رأت ماريانا تعلّق حنّا بأهداب عائشة تركتها له، وأصبحت أمّ وليم، كلّ يوم تخترع سيرة

مختلفة عن تنفيذها لوصيّة صديقتها الحميمة شاها في تبنّي ابنها، خوفها عليه جعل وليم يشعر بأنّها أفضل أمّ يمكن لكائن الحصول عليها.

في ربيع عام 1913 دخل موكب الأب إبراهيم إلى الدير وسط ترحيب كبير من سكّانه، ثلاث عربات تجرّها ستة أحصنة عربيّة أصيلة، العربات محمّلة بسجّادة أصفهانيّة كبيرة ما زالت ممدودة في غرفة المكتبة، ومخطوطات قديمة والكثير من أدوات النسخ، أوراق وزجاجات حبر، حبال قنّب وريش أقلام حبر إنكليزيّة بأشكال وماركات مختلفة، كلّ شيء كان مرتباً بعناية في صناديق من كافة الأحجام، هرع وليم لمساعدة الخدم في إنزال الأحمال. كانت ماريانا تراقبه بسعادة، ضائعاً وسط الفوضى، مندهشاً من رؤية كلّ هذه الأشياء الغريبة، شعرت بحماسته حين حدّثها ليلاً قبل أن ينام عن ريش أقلام الحبر الكبيرة، قال لها إنّها تشبه الأسماك، ثمّ تساءل إن كانت تؤكل. اعتادت أسئلته الغريبة، امتدحت ذكاءه كأيّ أمّ، وراقبت نموّه كلّ لحظة، لم تصدّق أنّ الله منحها هذه الهديّة الثمينة، كانت تشعر في لحظات بأنّها مستعدّة لدفع أيّ ثمن مقابل أن يكون وليم ابنها الحقيقي، لكنّ الأوان قد فات، تورّطت أكثر ممّا يجب في مشروع تطويب حنّا قدّيساً، واكتفت بوليم الذي لم يسأل كثيراً عن أمّه الحقيقيّة، مكتفياً بحنان ماريانا الهائل، يشعر بالتميّز، ويتصرّف كابن حقيقي لهذه المرأة المعذبة. حين كبر وليم لم يجد صعوبة في توليف المتناقضات التي حكمت حياته، كان مبعثراً بين الجميع، لكنّ خيطاً سرّياً يشدّه إلى ماريانا التي تشعر بقوّة هذا الرابط الذي يمنحها الأمان، تفكّر لحظة بأنّ الربّ يمنح الأشياء ناقصة لمن يحبّهم، ماذا لو كان وليم مسيحيّاً ومن عائلة مجهولة. المشكلة الكبرى كانت عائشة أخته القويّة التي تتحكّم في حياته.

لحظة وصول الأب إبراهيم إلى الدير تغيرت حياة وليم، لم يتوقف شغفه بالعالم الجديد، كلّفته ماريانا بخدمة الأب إبراهيم المبجّل. أعجبته مهمّة تنظيف الأقلام، يأتيه بكؤوس شاي ساخن، ينتظره كي ينهي طعامه ويصبّ الماء ليغسل يديه ثمّ يعطيه المنشفة، يبقى مستعدّاً لتلقي أيّ أمر من المبجّل، يقوم بكلّ الأفعال بجدّية لا متناهية، ويوم الأحد يركب أمامه على الحصان ليجولا في المنطقة المحيطة بالدير. أحبّ الأب إبراهيم براءته، وتعلقه بالأشياء التي تخصّ الكتابة، بالورق والأقلام، ورائحة الصمغ، والجلود، وأحبّ تفانيه في خدمته. رافقه في جولاته إلى الأسواق، يحمل له المظلة ويفسح له الطريق بطريقة مضحكة، كانت ماريانا مطمئنّة إلى بقائه في الدير طوال حياته قريباً منها، لا تطيق فراقه، طلبت من الأب إبراهيم تعليمه القراءة والكتابة، لم يضع وقتاً، أمره في اليوم التالي بالجلوس إلى طرف الطاولة الكبيرة قربه، وكتابة الأحرف عشر مرّات، كان يرسمها بهدوء، ويعتني بخطّه، تساعده ماريانا في استعادة دروسه وحلّ وظائفه. انضمّت عائشة إليه، وأعجب الأب المبجّل بقوّة ذاكرتها، وقدرتها على ترتيب الفوضى، كانت تستطيع خلال دقائق ترتيب كومة مبعثرة من الأوراق والمصنّفات، تفرزها حسب الأنواع والأحجام، ترقم كلّ شيء ولا تخلط ملفّاً بآخر.

بعد خمس سنوات كان وليم وعائشة يقرآن ببساطة أيّ نصّ، يحفظان سوراً كاملة من القرآن والإنجيل،وكان بإمكان وليم، خلال ساعات قليلة، أن يرسم أيّ شخص بملامحه الحقيقيّة. لم تعجب البورتريهات الأولى معلمه الذي قال له: تأمّل المخفيّ في البشر، الوجوه مسطّحة ولا تعني شيئاً لأعماقنا، أثنى على مهارته التقنيّة وخطوطه القويّة، كلفه بنسخ مخطوطة قصيرة سجّل فيها راهب مجهول يوميّاته في دير اندثر في القرن العاشر الميلادي على أطراف مدينة عدن، لم يبق منه سوى حائط طويل كان أساساً لبناء جامع في القرن السادس عشر. رسم وليم الدير وملحقاته اعتماداً على رواية الراهب المجهول، وقدّم المخطوطة الجديدة إلى معلمه المبجّل الذي لم يخفِ تأثّره بهذا

العمل الرائع، عندما اكتشف حبّه الرسم، لم يبخل عليه بالألوان التي كان يوصي عليها زوّار الدير، يرسلونها للمبجّل الذي يشرح لوليم أنواعها وطريقة استعمالها.
ما زالت ماريانا تحتفظ برسومه الأولى في خزانتها الخاصّة، ومنها بورتريه رائع لحنّا، وآخر لها، يظهران عاطفته القويّة نحوهما. لم يحتج إلى ملاحظات كثيرة لينسخ بخطّ رقعي رائع تلك المخطوطة على ورق أصفر مقوّى، كان الأب إبراهيم فخوراً بإنجاز تلميذه وهو يعرض عليه الصفحات بأناة، كادت ماريانا تبكي فرحاً حين قال لها الأب إبراهيم: «ابنك سيكون له شأن عظيم». أرسل المخطوطة إلى مطبعة الشهباء في حلب، طبع منها ثلاثين نسخة، وكان اسم وليم ابن ماريانا كناسخ يزيّن الصفحة الأولى، بقيت لديها النسخة الأولى، واحتفظ وليم بنسخة منها في صندوق أشيائه المركون في قبو منزل عمّته سعاد.
وليم يحدّث ماريانا كل ليلة عن المخطوطات المهترئة التي تفوح منها أنفاس الأسلاف. يحققها الأب إبراهيم الذي كان صعباً على وليم أن يفهم رغبته في قضاء سنوات عمره في عمل مكرّر، لا يليق بثراء معارفه. كان الأب إبراهيم يهرب من صراعات المطارنة ورجال الكنيسة. يريد المحافظة على سلامه الداخلي، لم يستطع وليم انتزاع موافقة معلمه على كتابة سيرته الشخصيّة، بل أوصاه بكتابة سيرة دير زهر الرمّان، كأنّ الأب إبراهيم يمرّر الرسائل السرّية إلى تلميذه، ويجامل ماريانا كأمّ تريد الحفاظ على حياة ابنها في مكان لا يمكن التنبؤ بنتائج صراعاته العنيفة.
التقط وليم الرسالة واكتفى برسم كل تفاصيل الدير، قضى ثلاث سنوات يتأمّل كلّ زاوية وركن، رسم لوحة كبيرة ما زالت معلقة في غرفة حنّا تلخّص ما كان يُروى عن عودة حنّا مع ماريانا من الحج، كانت اللوحة محتشدة بالعميان والبُرص، الفقراء، المؤمنين الذين كانوا يبكون ويمدّون أياديهم لتلقّي بركات قدّيسهم حنّا. كانت ماريانا راضية عن هذه اللوحة التي أظهرتها مرتدية ثوباً بسيطاً وفقيراً، زاهدة تقود حنّا من يده ليمنح بركته للمحتاجين، الشيء الوحيد الذي لم يعجبها هو وجود زكريّا في زاوية اللوحة ينظر بقلق إلى صديقه، تجاهلته ماريانا من أجل الاحتفاظ بروعة التفاصيل التي تظهر قوّة الإيمان في قلب حنّا. عمل ثلاثة شهور على هذه اللوحة، ولم يسمح لأحد سوى عائشة برؤيتها قبل إنهائها، وهي التي اقترحت عليه وجود زكريّا في زاوية اللوحة، بل وبالغت بأن طلبت منه رسم أمّهما شاها، لكنّه ترك بورتريه شاها ليرسمه وحده في لوحة ضخمة كما تخيّلها. انزعجت ماريانا من تلك اللوحة التي لا أحد يعرف، ولا حتى وليم، كيف وصلت إلى منزل أورهان، على الأغلب تخلّصت منها ماريانا في محاولاتها الدائمة لمحو أيّ علاقة لوليم بعائلته.
كان وليم يكبر أمام عيني ماريانا، يشعّ الذكاء من عينيه، يفعل الأشياء ببساطة، يرسم، يلوّن، لا تعنيه صراعات من حوله، يصدّق كلّ حكاياتهم دون نقاش، سكّان الدير كانوا يحبّونه ويخافون من أخته عائشة التي تعيد رواية الحكايات كما حدثت، لا كما يرغب الرواة في تأليفها.
تصف ماريانا طفولة وليم بأنّها أفضل أيّامها، لا يشكّك أحد في علاقتهما كطفل وأمّه، ينام في سريرها، تروي له سيرة يسوع، وحكايات طويلة عن بشر فاضلين ضلّوا الطريق قبل توبتهم، كانت التوبة لازمة رئيسية في حكاياتها، في البداية كانت الحكايات مثيرة، لكن بعد بلوغه لم يعد وليم يكترث بالحكايات، تحوّلت حياته إلى مجموعة صور يجب ترتيبها يوميّاً.
بقيت عائشة غائبة عن مشاريع ماريانا، تقضي أغلب وقتها مع حنّا، يسير وليم في أروقة الدير ويتحدّث عن أشياء غريبة، يردّد أناشيد مندثرة يحفظها عن ظهر قلب، يقضي ساعات طويلة في غرفة النسخ مع معلمه يعملان، أراد الأب إبراهيم توريث وليم كل معارفه، كاد ينتزع الموافقة من

زكريّا لإرساله إلى روما ليتعلم اللغة اللاتينية. خاف زكريّا من أفكار ابنه، لم تعجبه تحوّلاته، خاف عليه من قضاء بقيّة عمره في هذا المكان المعزول، بعدما استبدّت فكرة كتابة تاريخ الدير بخياله. كادت ماريانا تنجح في الحصول على نسخة مكتوبة عن تاريخ الدير كما تريد له أن يُكتب، لولا تدخل أخته عائشة التي أنّبته بعنف على تزويره تاريخ حنّا إرضاءً لماريانا، أخضعته لرقابة صارمة بعد تشكيكه بحكاياتها، واستجوابه الراهبات اللواتي لم يقدّمن له سوى حكاية صمّمت ماريانا أن تكون الوحيدة، ويعرفها كلّ سكّان المنطقة، ومن كثرة تردادها أصبحت تُروى على قارعة أيّ طريق، والمختلف فيها سيرة الأخت ماريانا المبجّلة، التي مات أغلب من كان يعرفها في وباء الطاعون الذي اجتاح المدينة بأسرها عام 1915. لسنوات بقيت صورتها لغزاً يغري الرواة بإضافة صفات على تفاصيلها، كلما مضى الزمن غابت صورتها الحقيقيّة تحت ركام قصص ألّفها الرواة كما أرادت، تقرن دوماً سيرتها بسيرة حنّا، لا تسامح في أيّ خطأ فيها، كانت الرواية كما أرادت، لكن اختلاطها كان أفظع بما لا يقاس من سيرتها، وحسب اختلاط الروايات يبلغ حنّا الآن مئة وخمسين سنة، وما زال يكسر حبّات الجوز بأسنانه القويّة، لكنّه في الحقيقة لم يتجاوز الخامسة والسبعين، يتساقط جلده وشعره، ومنذ سنوات لم يره أحد في قاعة الصلاة، يسير وحيداً في حقول دير زهر الرمّان ليصل إلى منزل زكريّا، يقضي يوماً أو يومين ويعود إلى غرفته.

مرّت أربعون سنة ولم تستطع عائشة نسيان الضوء المتسرّب من نافذة غرفتها المطلة على بيوت قرية العنابية القريبة، كانت تسير في الحقول وهي بعد طفلة صغيرة لم تتجاوز السادسة من عمرها لتصل إلى القلعة المتربّعة على تلتها، لم يفتح أحد ستائرها منذ سنوات، مكان غامض، شبه مهجور، تلاحقه الحكايات الغريبة، لا أحد يعرف من يعيش في هذا المكان سوى زكريّا وحنّا. آخر شخص تحدّث عنها كان تيودور الهولندي الذي وصل إلى الدير صيف عام 1919 قادماً من إستنبول، يحمل في حقيبته عدّة كاميرات ومجموعة ملصقات تمجّد الحزب الشيوعي الروسي، طلب إذن المبيت عدّة أيّام في الدير قبل متابعة طريقه إلى الهند.

في اليوم التالي لوصوله جال في القرى القريبة، التقط صوراً كثيرة لفلّاحين وفلّاحات يحصدون العدس، التقط صوراً لكنائس مهدمة، ومعابد، جسور حجريّة مهجورة، وطرق مرصوفة، ومعاصر عنب منقوش عليها رموز إله الشمس، وجمل مكتوبة باللغة السريانيّة لم يهتمّ أحد بترجمتها. عاد في تلك الليلة إلى الدير، وقال للأب إبراهيم الذي دعاه لمشاركته العشاء إنّه رأى في القلعة مجموعة نسوة يرتدين ملابس بيضاء، يتحرّكن ببطء كأنهنّ يسرن فوق الماء، أو يرقصن على أنغام موسيقى غير مسموعة، قال إنهنّ أكثر من عشر، أردف بل أكثر من عشرين، لكنّه لم يتلق جواباً شافياً. تابع استعداده لتلبية رغبته في التقاط صورة له مع عائشة التي كانت تجلس في حضنه مبتسمة، قال تيودور إنهنّ ثلاث نسوة واحدة منهن هرمة، من الواضح أنّها تستجدي الموت بصوت قويّ وثابت، لكنّ الأب إبراهيم لم يعلق، طلب رؤية صوره، وما بقي من صور للثورة الروسيّة في حوزته.

عاد تيودور مرّة أخرى إلى المكان نفسه، حاول دخول القلعة، لكنّ الحارس طلب منه المغادرة، لا يمكن لأحد رؤية ما يحدث في الداخل. بحث عمّن يخبره عمّا يحدث في هذا المكان الغريب، لم يجد سوى نتف حكاية رائجة في المنطقة عن قلعة صمّمها معماري يهودي كمتاهة لحنّا ملّاك الأراضي الكبير، وصديقه المسيحي الذي عشق امرأة مسلمة وخطفها إلى هذا المكان، وتتبّعه أهل الفتاة وقتلوا العاشقين، وبقي قبراهما وسط حقول الكرز مهجورين، محاطَين باللعنات لا يقترب منهما أحد خوف إصابته بالجذام. بعد إلحاحه في السؤال عن المكان استدعته ماريانا وطالبته

بالمغادرة أو احترام المكان وتقاليده، وعدم الحديث عن القلعة، كانت لهجتها جادّة وهي تنطق بكلمات فرنسية قليلة، هز برأسه متفهّماً، لكنّه بقي يفكّر في أمر حكايات القلعة المتناقضة التي سمعها في الأيّام اللاحقة.

راقت الحياة في الدير تيودور، نسي أمر رحيله إلى الهند، أعجبته مدينة حلب، تحدّث ليالي طويلة مع الأب إبراهيم الذي أحبّه، وتعلق وليم وعائشة به، طلب من ماريانا السماح له بالعيش في الدير. كان واحداً من البشر فاقدي اليقين كما وصفه حنّا حين التقاه للمرّة الأولى. روى للجميع عن حياته وطفولته وعائلته، متحسّراً على خيبة أمله بثورة أكتوبر في روسيا، حلمه الكبير الذي تداعى أمام عينيه.

حين كان تيودور شابّاً لم يتجاوز العشرين من عمره، هجر دراسة الفلسفة وآمن بأنّ العالم سيغدو عادلاً حين تنتصر الشيوعية، اكتشف شغفه بالتصوير الضوئي حين قابل لأول مرّة مصوّراً روسيّاً محترفاً، يجوب قرى هولندا ويلتقط الصور لطواحين الهواء، وفي طريقه يلتقط صوراً عابرة للسكارى في الحانات، وجنازات القرويّين المغرم بتصويرها، قال له المصوّر الروسي: «الحياة الرائعة رحيل دائم»، والكاميرا جواز سفر يفتح لك كلّ الأبواب. لا أحد في العالم يقاوم إغراء الوقوف أمام تلك الآلة العجيبة التي توقف الزمن. رافق تيودور معلمه الروسي في رحلته الطويلة وكان مرشده ومترجمه، علّمه التصوير وحدّثه عن فقراء روسيا، وإيمانه بالثورة المقبلة. كانت لحظة عظيمة لتيودور، اكتشف فيها نفسه، فكّر بأنّه خُلق ليكون جزءاً من العالم الجديد، لم يعجب عائلته البرجوازيّة التي فوجئت بابنها الفائق الذكاء يردّد فقرات كاملة من البيان الشيوعي، ويتحدّث عن كومونة باريس، ويشرح لهم كتاب أصول العائلة والملكية الخاصّة والدولة، ويطلب منهم توزيع ثروتهم على الفقراء ليتخلصوا من عبء اضطهاد العبيد العاملين في حقولهم في أفريقيا.

لم يضيّع تيودور وقته، بعد رحيل المصوّر الروسي إلى روسيا، خرج من منزل عائلته حاملاً حقيبته، عرض مجموعة صوره على مصوّر هولندي شهير، حين سمع اسم عائلته قرّر أن يعلمه التصوير، استأجر غرفة في مركز المدينة، بحث عن رفاق يقاسمونه الأفكار نفسها، وجد بضعة شباب ينتمون إلى عائلات فقيرة يناقشون أفكار ماركس وإنجلز علناً في الجامعة. أصبح تيودور مصوّراً وبراعته فاجأت معلمه الهولندي، رغم عدم إعجابه بأفكار تلميذه الذي لا يتوقف عن التبشير بالثورات. اهتمّ بالبحث عن الفقراء في المصانع والفلّاحين في الحقول، والعبيد، وعمّال السفن، والعاهرات، التقط لهم مئات الصور. شعر بأنّ الثورة في أمستردام ستتأخر كثيراً، رحل إلى روسيا ليشارك في النضال الثوري، كان الحزب الشيوعي الروسي يجذب الكثيرين من ثوّار أوروبا المتهالكة. وصل إلى موسكو ليلاً، قرع باب معلمه الروسي، فتحت له عجوز نحيلة أخبرته بأنّ معلمه قد تُوفي بعد عودته بأشهر قليلة من رحلة هولندا.

غرق تيودور في عالمه الجديد، استأجر غرفة في منزل يقطنه طلبة، يتحدّثون دوماً عن الثورة المنتصرة، وصلت حماسته إلى ذروتها حين رأى لينين يخطب في الجماهير المحتشدة في الساحة الحمراء، كانت الأصوات تهدر قويّة وترتفع القبضات في الهواء. انتصار الثورة أمر لا لبس فيه، لكنّ تيودور كان غريباً، يسير وحيداً في شوارع موسكو، يبحث عن شيء لا يعرفه بالضبط، كان يقول: حين أراه سأعرفه، فكرة، شخص، مجموعة بشريّة، حلم، يلتقط صوراً لكل الأمكنة والوجوه، لم يرض عن إعدام أنصار القيصر بهذه الطريقة دون محاكمات، كانت فكرته عن العدالة مختلفة، الثقل الذي شعر به ضغط على صدره، رفاقه المنتشون بالنصر هاجموه وبصقوا عليه لأنّه

يتحدّث كالبرجوازيين، لم يسمحوا له بشرح وجهة نظره عن العدالة، وطلبوا منه مغادرة المنزل المشترك.

ترك وراءه كلّ أغراضه، وضع في حقيبة واحدة قطع ثياب قليلة، وصوره وكاميراته وغادر موسكو، لم يعرف إلى أين يذهب، لا يمكن العودة إلى منزل العائلة التي شتمها، الشرخ بينهما أكبر من اختلاف وجهات نظر، ما زال يتذكّر أحاديث معلمه الروسي عن العدالة، تلك القيمة التي استهوته، وقرّر البحث عنها. وصل إلى إستنبول وأعجبته فكرة التجوال الحرّ، في الطريق كان يشعر بأنّ الوطن والعائلة وباقي الأشياء التي تدلّ على الهويّة، يمكن تحويلها إلى فكرة قابلة للنقاش، والتخلّي عنها ببساطة.

وصل إلى دير زهر الرمّان ليلاً، طلب طعاماً وسريراً للمبيت. أسرته نسمات الصيف اللطيفة فجراً. بعد أسبوعه الأول قدّم عرضه للأب إبراهيم بتعليم الأطفال اللغة الفرنسية والغناء وتأليف فرقة كورال مقابل مبيته وطعامه. كانت صفقة رابحة وافق عليها الأب إبراهيم ولم يجد صعوبة في إقناع ماريانا بأن تخصّه بإحدى غرف الضيوف في الطابق الثاني.

بعد حصوله على حق الإقامة في الدير، تنقل بين مدينة حلب ودير زهر الرمّان. عاد إليه نشاطه المحموم، تعلمه عائشة اللغة العربية، مقابل تعليم وليم التصوير، كانت صفقة أخرى رائعة، لم يعد يشعر بأنّه رجل عاجز، مشرّد، مخذول، يقول لنفسه إنّه يمكن العمل على تحقيق العدالة في أيّ مكان، العالم مليء بالظلم، سيبلغ الأربعين بعد عدّة أشهر، وما زال يحلم بالشيوعيّة التي ستحقق السعادة لكلّ البشر. لم يكترث بمضايقات ماريانا، وطلبها الدائم بضرورة الصلاة، وتعليم أطفال الكورال أناشيد دينية. جاملها في المشاركة في صفّ المصلين في قدّاس يوم الأحد، لكنّه أخبرها بأنّ أغلب تلاميذه مسلمون وهو ليس كاثوليكيّاً، وكاد يخبرها بأنّه ملحد، لكنّه صمت، ترك حرّية الغناء للأطفال السعداء الذين كانوا ينشدون أغانيهم الريفيّة بحماسة زائدة.

تصطحبه عائشة صباحاً من يده، تجلسه على مقعده، تعلمه القراءة والكتابة. يبدو منظرهما مضحكاً لمن يراهما، ثابر على تعلّم اللغة العربية. شعر بشغف وليم بالتصوير، علمه كلّ الأسرار وكان كريماً في رواية الحكايات لأطفال القرية الذين كان منظرهم بهيجاً وهم جالسون تحت شجرة زيتون كبيرة متحلقين حول معلمهم يقرأ لهم حكاية. كان حنّا يراقبه من نافذة غرفته مبتهجاً. بدأت الحياة الصاخبة تدبّ في الدير، لم يعد ذلك المكان الصارم، الصامت والحزين. لم تكن الموسيقى تتوقف لأوقات طويلة من بيانو تيودور، والطفلان اللذان تعلما العزف بسرعة، انتقلا بعد سنوات إلى المدينة، ليعزفا في حفلات خاصّة ويشاركا في حفلات الكورال الأسبوعيّة، ويحترفا الموسيقى في ما بعد. في إحدى الحفلات التي كان الكورال يستعدّ فيها لاحتفال نهاية العام الدراسي في المدرسة التي ترعاها الكنيسة السريانيّة في حلب، تقدّمت هيلين من المنصّة التي يقف عليها أطفال الكورال، تطلب الإذن من تيودور لتغنّي، كانت في الرابعة عشرة من عمرها، فتاة سمينة، مهملة، تقضي أغلب وقتها مع مريم وباقي الفتيات الأرمنيّات اليتيمات اللواتي يرعاهنّ الدير.

ردّدت هيلين المقطع الأول الذي حفظته عن ظهر قلب من أوبرا عايدة، وكان تلاميذ الكورال قد فشلوا في حفظ كلماتها الإيطالية كاملة، لم يصدّق تيودور أنّ هذه الفتاة المهملة، القصيرة، الخجولة، قادرة على انتزاع القلب من مكانه، لم تحتمل النظرات المعجبة المحيطة بها، أنهت غناء المقطع مقلّدة تيودور وهربت إلى مكانها المعتاد في زاوية المطبخ، لتتابع تقشير البصل، وفصل حبّات العدس من الحصى مع أمّها فطيم خادمة الدير التي تغادر مساءً إلى منزلها في قرية العنابيّة.

ما زالت عائشة تتذكّر أيّام تيودور وتبتسم للمصادفات التي عاشها الجميع وخاصّة هيلين، تعبت من السير في الحقول، وصلت إلى منزل فطيم في العنابيّة، خطر لها أن تقرع الباب لتسلّم على الخادمة اللطيفة التي أصبحت عجوزاً، لكنّها تابعت سيرها، تذكّرت لقاءها مع يوسف في الإصطبل، شعرت بالفزع، لم تفكّر من قبل في الزمن، لقد مضى ربع قرن على ذلك اللقاء...

حين بدأت الحرب العالميّة الأولى لم تفهم لماذا يهاجم الجنود العثمانيّون منازل العنابيّة والدير ويفرغون أقبية المؤونة، ويقتادون شباباً ريفيّين مكبّلين في سلاسل، رأتهم منكّسي الرؤوس في طريقهم إلى محطّة القطار الذي سينقلهم إلى الجبهات، كان يوسف واحداً منهم، يسير مع مئات الشباب الذين جرى التقاطهم من الحقول التي فرّوا إليها، أخرجوا يوسف من إصطبل الدير حيث كان يختبئ لأشهر دون أن يعلم أحد به. حاول وليم منعهم من أخذه لكنّ الجنود كانوا غليظين معه، رأته عائشة يسير منكّس الرأس ومقيّد اليدين، لكنّ يوسف فرّ بعد يومين من قافلة التجنيد الإجباري، استطاع مع بعض أبناء الفلّاحين القفز من عربة القطار، والتوغّل في الحقول القريبة لميدان أكبس، ساروا ليلاً في طرقات يعرفونها جيّداً، حتى وصلوا إلى كهوف جبل ليلون، قرّروا العيش في الجبال التي لن يستطيع الجنود العثمانيون الوصول إليها. كان يوسف ورفاقه الفرارية يعرفون كلّ الطرق السرّية من قرية قسطل جندو إلى قرية شيخ الحديد، ومن كلّ الأطراف، يكملون طريقهم في الجبال الوعرة، يفتح لهم الفلّاحون أبواب منازلهم في أيّ لحظة، ويعودون مرّة أخرى من شيخ الحديد إلى بلبل عن طريق راجو. يشعرون بالأمان في تلك الأمكنة الموحشة.

عاش يوسف سنته الأولى في مغاور الجبال، يخرج ليلاً مع رفاقه بحثاً عن طعام لا يجدونه حتى في بيوت الأغنياء ليهاجموها، كان يشتاق إلى حياته الماضية، إلى مكتبة «الملا منان» ودروس اللغة الكردية التي صمّم على تعلم كتابتها وقراءتها، اشتاق إلى غرفة الهيكل العظمي للديناصور الذي تحوّل بالنسبة له إلى كائن يستطيع رواية حكايات مشوّقة عن تاريخ الأسلاف الغابر.

يسير مع رفاقه الفرارية ليلاً بين خرائب المدن الميتة، يحومون حول القرى القريبة، ويعودون إلى كهوفهم فجراً. طلب لقاء شيركو، قاطع الطريق الأسطورة الذي يؤلف فقراء الأكراد الأغاني لتمجيده. لم يطل انتظاره، قاده ثلاثة مسلحين إلى قائدهم شيركو الذي لم يخف إعجابه بابن عدوّه، استمع إليه باحترام، إنّه خرّيج مدارس يرتادها أبناء الأغنياء، وقرأ كتباً كثيرة من مكتبة جدّه، كما أنّه تحدّث عن العدالة وظلم الأغنياء، ويقرأ ويكتب باللغة الكردية. كان لقاءً وحيداً قرّر بعده شيركو السماح ليوسف بالانضمام إلى رجاله، والتحدّث باسمه، ولم يطرده كما طرد بعض الفرارية الذين لم يثق بهم.

كانت الحياة الجديدة قاسية، لم يعتد يوسف النوم في المغاور والاشتباك مع رجال الأغوات، والجنود الأتراك الذين كانوا يبحثون عن شيركو في كلّ مكان، منذ أكثر من خمس سنوات. قضّ مضجع الحكومة والوالي، وبثّ الرعب في قلوب الآغوات، سمع شيركو لأول مرّة من يوسف حديثاً طويلاً عن حق الأكراد كشعب في دولة مستقلة. كان الرجل الضخم القويّ العضلات يبتسم كطفل، ويهز رأسه حين يشرح يوسف وجهة نظره في حق العمل من أجل هذه الدولة، كما يفعل مثقفو العرب في الانفصال عن الدولة العثمانية وتأسيس دولتهم.

لم يستوعب شيركو الكثير ممّا قاله يوسف، إلّا أنّه أعجب بقصائد الملا الجزيري التي كان يحفظ يوسف الكثير منها، يقف على رأس الجبل المطل على عفرين، يصرخ كابن آوى ويفكّر بأنّ المصائر ليست هي ما نراه ونعيشه في حياتنا. أصبح يقضي وقتاً طويلاً مع شيركو، يشاركه

غزواته التي تكثّفت ضدّ قوافل العثمانيين، كان يفكّر بتحقق المستحيل. في السنة الثالثة أصبحت حياة يوسف تعجبه، لم يعد يحنّ كثيراً إلى منزل عائلته الذي تسلل إليه أكثر من مرّة ولم يستطع احتمال حزن أبيه بعد خسارته لأرضه فوق النهر ونقوده، فكّر بأنّه يخاطر بالذهاب لرؤية الهيكل العظمي للديناصور، يعرّج في اللحظات الصعبة على الدير، يجلس مع حنّا أوقاتاً قصيرة، لا يجد فيها كلاماً يعبّر به عن المصائر الغريبة، مصيره ومصير حنّا، ويكتفي بالقليل الذي يقدّمه له زكريّا بالنيابة عن الدير، لكنّ حنّا يطلب منه دوماً العودة إذا احتاج إلى مكان يؤويه، كان معجباً بشجاعته، وأسئلته الغريبة.

كان يوسف يبيت في إصطبل زكريّا ليالي قليلة، خاصّة في الشتاء حين يصبح العيش في الكهوف مغامرة غير مضمونة، لا يمكن لرجال شيركو الموت جوعاً، إنّهم قساة قادرون على التهام الكلاب أو أيّ حيوان يصيدونه، والصيد وفير في تلك الجبال.

كان عارف قلقاً على ابنه الذي يزداد قوّة وبطشاً، لم يكن راضياً عن شراكته مع شيركو، أصبح مطلوباً لعدّة جرائم كقائده، عرفه الفلّاحون حين اعترضوا قافلة جنود عثمانيين يقتادون مجموعة رجال مكبّلين لترحيلهم إلى الحرب. كانت القافلة تضمّ سبع عربات كبيرة مليئة بالقمح ودبس البندورة والمربّيات والعدس المجروش والطحين الذي صودر من بيوت قرية راجو. كان الكمين محكماً، هاجم رجال شيركو القافلة عند مفرق قرية كفر جنّة، أطلقوا سراح الجنود، وصادروا أسلحتهم، اقتادوا العربات إلى قرية مريمين، وفي الليلة ذاتها وزعوا قسماً من الغنائم على فقراء المنطقة الذين يعرفونهم جيّداً، وأخفوا باقي المؤونة في كهوف قرية قيبار. كانت العمليّة تحدّياً صارخاً وكبيراً، هاجم جنود عثمانيون منزل عارف شيخ موسى، كسروا خوابي الماء، أهانوا الرجل الذي هدّدهم بأنّ قطاره سيدهسهم، الشيء المهم بالنسبة ليوسف كان عدم وصولهم إلى غرفة الديناصور.

خسرت الإمبراطوريّة العثمانيّة الحرب، توقفت الحملات، وانسحب جنود الإمبراطوريّة العثمانية من آخر القرى، واحتلّ الجنود الفرنسيّون المدن والقرى الشاغرة عام 1920، لكنّ مهمّة شيركو ورفاقه لم تتوقف، كان الخلاف يدبّ بين الفراريّة في بعض الأوقات، منهم من يريد العودة إلى منزله، لكنّه لا يجرؤ خوفاً من الاعتقال. كان شيركو يردّد دوماً أنّ رجلاً ما يجب أن يموت، وهذه المرة كان هو من مات، في شتاء 1922، وكان مصرعه على يد آغا ملثّم لحق به إلى منزل أرملة تزوّجها سرّاً كان يلتقيها بين الحين والآخر على طرف قرية جنديرس.

كان يوماً حزيناً بالنسبة لرفاقه، فكّر يوسف بأنّه لا يمكن لأحد أن يرث أسطورة، بعد مشاورة رفاقه ناقش عرض العفو عنهم مقابل تسليم أسلحتهم، وتعهّدهم بعدم حمل السلاح ضدّ الدولة الفرنسية. تابع يوسف المفاوضات من مكان إقامته في إصطبل دير زهر الرمّان، تفحّص الضمانات التي حملها الملا منان الذي رضي أن يكون وسيطاً، كان يوسف يقضي وقتاً طويلاً في القراءة والانتظار، وكلّ عدّة أيّام يطلبه حنّا، ينسلّ سرّاً إلى غرفته، يلحق به زكريّا والأب إبراهيم، يتناولون العشاء معاً، كانت أفضل أيّام حنّا الذي حثّه على قبول عرض العفو. وقبل مغادرة يوسف الإصطبل بأسبوعين، دخلت عائشة باحثة عن مهرها، رأته يعلف الأحصنة متقمّصاً دور السائس الجديد، نظرت إليه طويلاً، كانت في الخامسة عشرة من عمرها، ثدياها صغيران لكنّهما ناضجان، عرفته فوراً، اقتربت منه مبتسمة، مدّت يدها لتصافحه قائلة: أعرف أنّك لست السائس الجديد، مضيفة أنت يوسف ابن خالي عارف آغا صاحب القطار الطويل الذي يمرّ من وراء ذلك التلّ، وأشارت بيدها نحو الشمال.

تعلقت نظراته بأهدابها، كانت ترتدي فستاناً مبقعاً بورود كثيرة، فكّر يوسف بأنّها فتاة صغيرة لكنّها تطلب منه أن يعاملها كفتاة ناضجة. احمرّ خدّاها خجلاً، شعرت برعشة خفيفة تنتاب جسدها المتفتّح لتوّه، ويتحوّل يومياً ليكمل تكويراته، أعادت عليه مرّة أخرى الكلام، وطلبت منه عدم الخوف، لن تبوح بسرّه، أخبرته بأنّ الجميع يتذكّرون حكاية سطوه على القافلة، مضيفة: أنت بطل بالنسبة لهؤلاء الفلّاحين الفقراء. بقي يوسف جامداً مكانه، غادرته وعادت بعد ساعات حاملة سلّة فواكه، لم تحدّثه بأيّ كلمة، وقبل أن تغادره مسرعة منحته فرصة النظر طويلاً في عينيها. بقيت طوال أسبوعين تأتيه بطعام خاصّ، كانت مرتبكة، تنظر إليه صامتة ولا تطيل البقاء، لم يستطع وداعها، لقد تم الاتفاق وكانت الليلة طويلة قضاها الجميع في غرفة حنّا الذي ودّعه صباحاً بحرارة. بعض الفراريّة فضلوا الانضمام إلى ثورة إبراهيم هنانو، تودع الجميع في مشهد مؤثر، وسار الموكب وراء الملا منان الذي رافقهم إلى سرايا عفرين، كان حنّا ينظر إليهم من بعيد، يراهم يخبطون الأرض بأقدامهم وينظر إلى عائشة المتأثرة، ويردّد: «إنّهم رجال من الصعب نسيانهم، كان يجب أن أفعل ما فعله يوسف».

كانوا أكثر من ثلاثين رجلاً، أصابتهم الدهشة حين دخلوا إلى ساحة سرايا عفرين، انتظرتهم حشود هائلة لفلّاحين يرفعون قبضاتهم في الهواء ويهتفون بالكردية بحياة شيركو ويوسف ورفاقهما اسماً اسماً، كانت النسوة يزغردن، ورجال الدرك والجنود الفرنسيون طوّقوا المكان واحتاطوا كي يمرّ الأمر بسلام، يعرفون صعوبة السيطرة على جموع بشر هائجة تستقبل أبطالاً عاشوا في الجبال يهدّدون الآغوات الظالمين والإنكشاريين الذين نهبوا منازلهم لسنوات طويلة.

لم ينس يوسف تلك اللحظات، ولا الوجوه، قرّر في أعماقه أنّ العمل من أجل المظلومين قضيّة عظيمة، لم يضع وقته، اعتنى بأبيه عارف الذي أصبح رجلاً عجوزاً، يقتسم تبغه مع مبروك الحبشي خادمه القديم الذي فضّل قضاء آخر أيامه معه بدلاً من عودته إلى عائلته في مكان لا يعرفه في الحبشة. لم يعد الآغا يستطيع دفع أجره، يقاسمه ما يملك من طعام وتبغ، ويقضي الاثنان وقتهما يتحدّثان عن الماضي، وينتظران القطار، يقفان على التلة المشرفة على سكّة الحديد، ويلوّحان للسائق، عارف آغا يعطي تعليماته لسائق قطاره، وتتناثر كلماته في الهواء، ثمّ يعودان لإعداد طعامهما، كلّ يوم يقومان بالفعل ذاته بكلّ جدّية. لم يبق أحد من أفراد العائلة سواهما، يقضي يوسف أغلب وقته في منزل الجدّ، فاجأه الإهمال الشديد لديناصوره، علّقوا قلائد البامياء اليابسة على رقبته، وركنوا أكياس الشعير وجرار دبس العنب قرب قدميه، نظّف المكان واستعان بمعماري أغلق النوافذ والباب، وسدّ كلّ الثقوب بحجر وطين، لا يريد لأحد الاقتراب من رفيقه الكائن المنقرض.

لم ينس يوسف نظرة عائشة وشفتيها المختلجتين، يفكّر فيها كلّ لحظة، لم يجرؤ على طلب يدها، لديه الكثير ليفعله في حياته الجديدة، قرّر عدم الاستسلام لصورة البطل السابق، تباحث مع أبيه الذي لم يخف إعجابه بابنه القويّ الذي قاتل مع عدوّه اللدود وعاش في الجبال تسع سنوات حياة الخطر والتقشّف، اختبر البرد والجوع والعطش، لحظات صحو عارف شيخ موسى لا تستمرّ أكثر من ساعات قليلة، يعود بعدها إلى هذيانه. يهز برأسه موافقاً حين يقلّل يوسف من فكرة انتقالهم من طبقة الآغوات وعودتهم إلى طبقة الفلّاحين المتوسّطي الحال، رغم ذلك هم ليسوا فقراء إلى درجة كافية كي يصنفوا معدمين. ما زالت هناك بضع أراضٍ متناثرة تكفي لعيش كريم لأسرة صغيرة، ومنزل في حيّ العزيزية كان عارف شيخ موسى قد اشتراه ذات ليلة ماجنة من أجل إرضاء وداد اليهوديّة، لكنّ الخاتون أم يوسف التي كانت مريضة لم توافق، ماتت بعد عدّة أيّام من ذلك الحديث

الصاخب، وطويت صفحة زواج عارف بوداد التي فرشت على الطريقة الإيطالية الشقة التي لم يدخلها أحد منذ الطوفان.

فتح يوسف باب الشقة الغارقة في الغبار، تآكلت الكنبات، أصاب التسوّس قوائم السرير الذي تحوّلت شراشفه الحرير إلى لون أصفر تنبعث منه رائحة كريهة، قضمت الفئران كلّ شيء، حتى خشب المرايا نخره السوس، وجثث الجرذان الميتة متناثرة في كلّ مكان.

كان الخراب فظيعاً، رمي يوسف بكلّ شيء إلى المزبلة وفتح النوافذ لأيّام لتهوية الشقة، أغلق الثقوب لتصبح بعد أقلّ من شهر مكاناً قابلاً للسكن، فيها سرير صغير وطاولة مكتب صغيرة يجلس إليها يوسف ساعات طويلة يكتب مقالاته عن القضيّة الكردية مهاجماً اتفاق سايكس بيكو الذي تغاضى عن حق الأكراد في دولة.

مراسلاته مع الأمير جلادت بدرخان منحته أملاً عظيماً، ويقيناً بأنّ النضال من أجل دولة كرديّة أمر يستحق التضحية، حين يحلّ الظلام، يجلس على الشرفة الواسعة، يتأمّل النجوم ويتذكّر نظرات عائشة الطويلة، العميقة، وشفتيها المرتعشتين، يفكّر بأنّه يمكن للحظة واحدة العيش في داخلنا إلى الأبد.

كانت عائشة التي ستتقدّم لامتحان الثانويّة العامّة بعد أسابيع قليلة، تعيش متنقلة بين الدير ومنزل عمّتها سعاد التي رحّبت به في مشغلها، طلبت له قهوة ثقيلة حسب رغبته، أحبّت حكايته عن الهيكل العظمي وحكاياته التي لا تنتهي عن حياته في الجبال، انتظمت زياراته لها، أحبّت صمته وجدّيته في التعاطي مع القضايا الكبرى، تتذكّره حين كان طفلاً يرعاه حنّا في المدرسة، كانت في شهر آب عام 1926 تفكر في عرض أزيائها الأول، تقضي أوقاتاً طويلة مع صديقها عازار الذي رسم لها شكل المنصّة التي سيبنيها في أرض دارها، كانت سعاد متحمّسة، تتذكّر كلمات معلمتها حسنيّة التي كانت تقول: «نحن نصنع الأثواب للأرواح لا للأجساد». وتكمل «الجسد غبيّ بينما الروح ذكيّة».

لا تنسى عائشة تلك الأيّام، لم تفكر في يوسف لكنّ صورته بقيت في ذاكرتها كرجل قويّ وجذاب، تحاول أن تؤازر عمّتها التي أصبحت حزينة، مثقلة بهموم كثيرة، بعد عودتها من زيارة الحاجّة أمينة البيازيدي الداعية الشهيرة بتشدّدها. تطير في المدينة كلماتها المهاجمة بقسوة قرار البلديّة عدم إلغاء تنظيم مهنة الدعارة، والاستجابة لطلبات رجال الدين الأفاضل بإغلاق المكان العمومي. اشتهر دعاء كتبته بنفسها ترثي فيه السلطان عبد الحميد الثاني والإمبراطوريّة العثمانيّة وشيخ الإسلام أبو الهدى الصيّادي الذي سحله الاتحاديّون في شوارع إستنبول قبل نفيه إلى جزيرة الأمراء «رينيكبو» ليموت فيها عام 1909، بالإضافة إلى كلماتها الحماسية في وداع الجنود الحلبيّين المتّجهين للقتال مع جيش الإمبراطوريّة إلى معركة جناق قلعة عام 1915، التي انتصر فيها العثمانيون. مضى أكثر من عشر سنوات على استقبالها مع نساء كثيرات من بقي من الجنود الحلبيّين العائدين من المعركة منتصرين، زغردت النسوة وترحّمن على الشهداء، وحفظن كلماتها بأنّهم سيُحشرون مع أصحاب الرسول يوم القيامة، لرفعهم راية الإسلام عالياً.

مواقف كثيرة لم تتركها المرأة العجوز المؤيّدة للحياة العثمانيّة تمرّ دون التعليق عليها ومنها القلعة، هاجمت حنّا وأسطورة قداسته، كفّرت أخاها المتوفّى أحمد البيازيدي لأنّه ربّى طفلاً نصرانياً وسمح له بالاختلاط مع أبنائه المسلمين. كفّرت ابن أخيها زكريّا وأخته سعاد، تبرّأت منهما على الملأ، بعد ذلك الحديث العاصف بين سعاد وعمّتها التي استدعتها على وجه السرعة

قبل عرض أزيائها بأيّام، تحدّثت تلميذاتها بأنهنّ رأين سعاد تسير في الشارع سافرة للمرّة الأولى، كما تحدّثن بأنّها قضت سهرتها مع عائلة صديقها عازار اليهودي في كازينو «الشهبندر».

وصلت سعاد إلى منزل عمّتها أمينة دون حجاب، جلست أمامها، وانتظرتها أن تتكلم، صمت العمّة طال، كانت تنظر إلى قرآن كبير مفتوح أمامها، وخادمة تتفقّد الحاجّة بين الحين والآخر. رفعت رأسها وأغلقت القرآن، طلبت عصير ليمون لابنة أخيها وطلبت منها العودة عن قرار نزع حجابها لطيّ المشكلة واعتبارها لم تكن. لكنّ سعاد التي كانت تدخل الخمسين من عمرها قالت لها بهدوء: «إنّني أفعل ما هو أفحش من نزع غطاء الرأس»، لم تستفز كلمات سعاد الحاجّة أمينة التي أعادت بهدوء طلبها «أعيدي الحجاب إلى رأسك وافعلي ما تشائين»، مضيفة «ربّك يراك في غرفة نومك لكنّنا نراك في الشارع». أكملت جملتها بأنّهم لن يسمحوا للسافرات بالسير في الشوارع التي هي تحت أمرهنّ، مردّدة حديث الرسول «من رأى منكراً فليغيّره بيده»، لم تكمل الحديث النبوي وقالت: نحن سنغيّره بأيدينا ولن نكتفي بأضعف الأيمان.

شربت سعاد كأس الليمون، طلبت من الخادمة فنجان قهوة، وأخرجت علبة تبغها التي أهداها لها زوجها حسن المصابني أثناء زيارتهما لندن عام 1910 حين تعاقد على بناء معمل نسيج كبير يعمل على الطاقة الكهربائيّة، المشروع الذي دمّرته الحرب قبل إقلاعه، وكان سبباً في إفلاسه وهيامه في الشوارع ليلتقط الطاعون مع صديقه راؤول اليهودي، الذي حوّلهما إلى جثتين يجب حرقهما.

ارتشفت سعاد من قهوتها وتأمّلت عمّتها التي تحبّها، لم تصدّق ما سمعته في المدينة عن علاقاتها مع رجال دين متشدّدين، قالت لها إنّها قبل أربعين سنة تنبّأت بأنّها ستعيش طويلاً، وهي ما زالت تصدّقها، كما كانت تفعل حين كانت طفلة، لذلك تريد العيش كما تفهم الحياة التي تستحقها، ذكّرتها بإرث عائلة البيازيدي من الخوف رغم نفوذهم، ودفاترهم الثقيلة الفخورين بها وحياتهم بين أرقام الآخرين، أضافت سعاد بكلمات متودّدة أنّها ورثت منها كلّ ما هو قويّ وحقيقيّ، لذلك لا تريد العيش كرقم، ما تفعله لا يسيء إلى أحد، مجرّد فهم آخر للحياة. أضافت مذكّرة عمّتها بأنّها لم تعترض على وجود حنّا في منزلهم، ذكّرتها بواسطتها لإنهاء أمر تبنّيه. صمتت الحاجّة أمينة، تجاهلت ما قالته عن حنّا، كرّرت طلبها بلهجة أقلّ قسوة أن لا تخلع الحجاب إن كانت تريد العيش بسلام، وأردفت أنّها تكتفي من العائلة بأبناء إخوتها الآخرين الذين يستمعون إليها، نساؤهم محجّبات، يرتدين المعاطف الطويلة، ويغطّين وجوههن، ولا يقطعن فروض الصلاة، ولا يرافقن النصارى واليهود كما تفعل سعاد وأخوها زكريّا الذي وصل إلى وقاحة مشاركة رجل نصراني بناء قلعة للعاهرات، أضافت العمّة كيف ستُمحى كلّ هذه الذنوب دون أن تتدخل؟ ماذا ستقول لربّها حين تقف يوم الحساب بين يديه؟

تغيّرت لهجتها لتصبح حنونة، رجتها أن تحترم رغبتها، لأنّ مشايخها يتناقلون أخبار اختلاطها مع الفرنسيّين والأجانب، وشرب الخمر وحضور الحفلات الماجنة في المسارح، ويعتبرنها امرأة ساقطة جلبت العار لعائلة البيازيدي التي عُرفت طوال عشرات السنين بحفظها لأسرار خلافة المسلمين. ردّت سعاد طالبة من عمّتها أن تعود إلى إيمانها الحقيقي الذي يحترم الآخرين، ولطفها. ذكّرتها بآلامها حين كانت تنتابها الرؤى المبشّرة بموت الآخرين.

توقفت سعاد عن الكلام ورأت عمّتها مغمضة العينين تنفخ غاضبة، ندمت لأنّها استفزّت عمّتها التي تابعت وحذرت سعاد ممّا تتداوله المدينة عن أنّها تفكّر في عرض لأزيائها سيقام في دارها، سيحضره رجال ونساء ساقطات، تمنّت العمّة أمينة منها التفكير مليّاً، التشبّه بالأجانب إلى هذه

الدرجة خطير، ولا يمكن سوى لمسيحيّات أو يهوديّات أن يفعلنه، أو لمرتدّة. كانت كلمة مرتدّة واضحة، سمعتها سعاد وشعرت بأنّ عمّتها ذهبت إلى مكان لا يمكن العودة منه، أصبحت نسخة من أولئك المتشدّدين الذين يحملون السيوف في أيديهم، ويدخلون إلى محالّ بيع المشروبات، يهدّدون أصحابها بالذبح إن لم يتوقفوا عن بيع الخمور، كانوا يحطمون الزجاجات بينما الجنود الفرنسيّون يقفون قريباً منهم يتابعون بصمت ما يحدث. أضافت أمينة أنّ الله تقبّل توبتها ولم تعد ترى الغيب، لكنّها تعرف أنّها ستموت قريباً، رغم أنّها ما زالت قويّة ولا تعاني من أيّ مرض مزمن.

فكّرت سعاد في هذه المرأة التي تحوّلت بعد عزلتها التي عاشتها كامرأة زاهدة، رائعة، حنونة، إلى امرأة تجاهر بضرورة عودة الخلافة العثمانيّة وتطبيق الشريعة الإسلامية في الشوارع بقوّة الذراع والسلاح. تذكّرت إحدى زيارات عمتها لها حين كانت متزوّجة، قرعت العمّة أمينة الباب وكانت مفاجأة سارّة لسعاد، استقبلتها ونفّذت كلّ أوامرها، لكنّها فوجئت بحزنها الشديد على موت شيخ الإسلام أبو الهدى الصيادي في منفاه. جاملتها وطيّبت خاطرها وقدّمت لها التعازي، فوجئت أكثر ببنات حميها اللواتي توافدن إلى منزل سعاد، كنّ نساءً مختلفات عن اللواتي تعرفهنّ، قبّلن يدها، وطلبن منها الدعاء، وضعن أولادهنّ الصغار بين يديها لتبصق في فمهم وتباركهم.

لم يتركن البيت ثلاثة أيّام، تبرّعن بأساورهنّ وحليّهنّ الذهبيّة، وضعن في حقيبة جلديّة أكثر من كيلو ذهب لتوزّعه العمّة أمينة على المحتاجين من أبناء أنصارها وأنصار شيخهم الشهيد. كانت سعاد مذهولة، تحاول الاختلاء بعمتها لكنّها لم تستطع، تحوّل منزلها إلى زاوية تفتي فيها العمّة في حكم الجماع قبل الوضوء لنساء مثقلات بالتكلف والنفاق، غنيّات وغبيّات أكثر ممّا يجب، طلبن من حسن أخيهنّ المبيت خارج المنزل حتى يفرغن من الانفراد بالشيخة المقدّسة التي ليس سهلاً رؤيتها.

وقبل أن تغادر أبدت العمّة رضاها عن العائلة التي ناسبتها، وطلبت منها الالتزام بفروض الطاعة والصلاة، لكنّها همست لها إن كانت هناك أيّ شكوى من زوجها أو عائلته، تستطيع التدخل وحمايتها، لن تجرؤ امرأة أو رجل من آل المصابني على مضايقة ابنة شقيق الحاجّة أمينة البيازيدي.

بعد زيارتها المفاجئة تلك ومنحها الرضى، اختلفت معاملة أخوات زوجها، لم يعدن للتبرّم من سعاد، خفّفن من زياراتهنّ التفقديّة المفاجئة، وبعدها بوقت قصير انقطعن تماماً عن زيارتها دون موعد، كانت سعاد تقول ضاحكة لمعلمتها حسنيّة إنّ زيارة عمّتها أقوى من زيارة الوالي.

لكنّها الآن وهي قادمة إلى منزلها، ينظر الناس إليها كقادمة من كوكب آخر، كانت خائفة لأول مرّة من السير في الشوارع، أباحت عمّتها دمها. شعرت بوطأة العيش في هذه المدينة، ندمت لأنّها لم تطلب من زوجها السفر إلى روما أو باريس حتى تنتهي الحرب والمجاعة، كانت تمازحه قبل موته بيومين قائلة «سأقلي لك صباحاً أربع كرات من الكريستال البوهيمي، وأضع قرب الصحن قطعة من حرير كشمير، وغداً سنتغدّى تلك الكنبة الإستنبولية التي حفرها فنّان وطعّمها بخيوط من الفضّة الخالصة».

كانت كلمات العمّة قاسية، حازمة، تشبه فتاوى المشايخ الذين تعمل معهم، يمتدحون تقواها وتشدّدها في تطبيق الشريعة، يسمّونها أخت المؤمنين الفاضلة الحاجّة أمينة البيازيدي، نهضت سعاد وحاولت تقبيل عمّتها للمرّة الأخيرة لكنّها مانعتها، وطلبت منها التفكير في طلبها.

خرجت سعاد من منزل عمّتها أمينة حزينة ومحبطة، قدماها مثقلتان وهي تتأمّل أبواب البيوت المغلقة، تذكّرت حين كانت تمسك بيد جدّها نجيب البيازيدي الذي يعرّفها إلى أسماء حماماته التي يفاخر بأنّها تعود إليه حتى لو تركها في إستنبول. كانت الشوارع فارغة، مارّة قليلون ينظرون باستغراب إلى وجودها سافرة في هذا المكان، أكملت طريقها إلى الجميليّة، كانت النسمات منعشة، ما زال هناك وقت لحلول الظلام، كانت تريد لكلّ سكّان المدينة رؤية سفورها، لم يعترضها أحد، وصلت إلى مكتب عازار، قبّلتها سارة بحرارة، منذ أشهر عديدة لم تر سارة التي هرمت كثيراً، أخبرتها بأنّها تنظف المكتب، ولن يتأخر عازار، إنّه مع النجّارين الذين يجهّزون المنصّة لعرض أزيائها، طلبت منها سارة بطاقة لحضور العرض مع سيمون بائع النوفوتيه في السويقة الذي يتودّد لها في الأيّام الأخيرة، أكملت سارة أنّه رجل تجاوز الخامسة والستين، لكنّه لطيف وترغب في الزواج به إذا طلب يدها. كانت سارة تتحدّث دون توقف، وسعاد تهزّ برأسها مبتسمة، كتبت لعازار ورقة تطلب منه القدوم إلى مشغلها للضرورة، أضافت أنّ عرض أزيائها لن يمرّ.

كانت سعاد في أيّامها الأخيرة متحمّسة، تطير كفراشة وهي ترى الفتيات المتطوّعات يتبخترن في بروفة أولى للعرض الذي انتظرته أكثر من عشرين سنة، كانت ممتنّة لوجود صديقها عازار في حياتها رغم حزنها الشديد لظروفه الصعبة في السنوات الأخيرة.

بعد المجاعة وانتهاء الحرب العالمية الأولى تغيّر عازار كثيراً، أصبح خائفاً من كلّ شيء، يتذكّر جثث الجائعين الذين دفنهم بيديه من أبناء طائفته، ومن رفاقه المسلمين والمسيحيّين في المدينة، كرّر عشرات المرّات وصفه للحظات ديفيد الأخيرة قبل موته. قرع ديفيد باب منزله بعد منتصف الليل، صرخ في وجهه بأنّه جائع، عازار الذي كان يحمل قنديل الكاز شعر بالإحراج، وقال له إنّه أيضاً جائع وولده سامي وابنته هدى لم يتذوّقا الزاد منذ ثلاثة أيّام، كانت نظرة ديفيد تقول إنّه كاذب. ظنّ عازار للحظة أنّه سيقتحم المنزل ويفتّش عن طعام، لكنّه توقف فجأة ونظر إليه بأسى وقال له: «إن متّ هذه الليلة فدمي في رقبتك». نزل درج البناية مسرعاً، أغلق عازار الباب خائفاً، تفقد ما بقي لديه من مؤونة، لا تكفي أربعة أيّام لابنه وابنته وزوجته ميشا النهمة، فكّر بأنّه بعد أربعة أيّام سيتدبّر الأمر، كما تدبّره في الأشهر الماضية. رأى أنّه كان يجب تجاهل دعوات الطائفة للتبرّع من أجل إنقاذ جائعيها، النقود التي يمتلكها ليست قليلة لكن إذا بقيت أسعار الطحين والخبز والعدس على حالها فلن يفلت من الإفلاس، لم ينس أنّه عاش حياته وأكمل دراسته بالصدقات، وتبرّعه السخيّ هو جزء ضروري لاقتلاع الذكريات السيّئة، لم ينس وجه أمّه تفتح الباب حين يُقرع وتمدّ يدها لتلقط كيساً وتتمتم بعبارات الشكر والامتنان، تفتح الكيس لتجد كنزة صوف مستعملة، تخفيها عن عازار، تقصّرها وتغسلها في اليوم التالي، وتقنع عازار بأنّها اشترتها له من بائع جوّال، ستقيه من برد حلب القارس ممتدحة ألوانها.

لم ينس عازار صوره القديمة التي أرّقته، يتذكّر حنّا وزكريّا يفتعلان خسارتهما في الرهان، ويدسّان نقوداً في جيبه، أو يقاسمانه الدفاتر التي يشتريها لهما أحمد البيازيدي، صور ذاكرته ازدادت قتامة حين تزوّج ميشا ابنة الصائغ راؤول الذي يفاخر في كلّ مكان بأنّه دفع جزءاً من مصاريف دراسته في روما، حين يمتدح أحد ما عمله وتصاميمه الرائعة. لم تكن ميشا راؤول فتاة جميلة ولا بشعة، إنّها من نوع النساء اللواتي لا يلفتن النظر، لكنّها متكبّرة، تتحدّث ساعات طويلة عن الأشياء التي تملكها، أقنعه أبوه بأنّها فتاة مناسبة، مضيفاً أنّ خروج العائلة من حفرة الفقر بيده، لا يكفي أن تكون مهندساً بارعاً لتمدّ يدك وتنقذ عائلتك من حفرة الفقر السحيقة. لم يخف حاييم إستنبولي مخاوفه من تورّط عازار في الزواج بكوزيت التي تحدّث المصلّون في المعبد عن أنّهما

لا يخفيان علاقتهما كعادة الشباب اليهود المتحرّرين الذين لم يعودوا خائفين من المجاهرة بعلاقاتهم الغراميّة. أضاف أبوه في تلك الليلة أنّ كوزيت فتاة متحرّرة أكثر ممّا يجب، ولن تحتمل العيش لفترة طويلة دون أن تخونه مع عشّاقها السابقين.

تمّ كلّ شيء كما أراد أبوه الذي مات بعد أشهر من زفافه، لم ينتظر كي يرى خروج عائلته من حفرة الفقر السحيقة، شعر عازار في الأيّام الأولى بورطة العيش مع امرأة تذكّره دوماً بأفضال أبيها عليه، نسي الأمر وقال إنّها تصلح لتكون ماكينة تفريخ أطفال، ولن يعدم وسيلة للعيش كما يحلو له، بعد وقت قصير شعر بأنّه لا يملك وقتاً حتى لرؤية طفليه، لم تعد تفاجئه تحوّلات ميشا راؤول التي أصبحت بعد ولادة طفلها الأول امرأة متشدّدة، تفصح عن كراهيتها لرفاقه المسيحيّين والمسلمين، تسخر من سعاد البيازيدي المتكبّرة، وتسخر من حنّا وزكريّا وقلعتهما، تصفهما بالقوّادين، لا توفّر سارة وديفيد من سخريتها، معدّدة أفضالها وأفضال أبيها على جميع أبناء الطائفة، تستعرض صورها القليلة في زياراتها للميتم التي وثّقتها بالكامل، لم تترك طفلاً قدّمت له وجبة طعام إلّا التقطت صورة لها وهي تناوله رغيف الخبز.

غرق عازار في مكتبه، لا يريد العودة إلى المنزل، يتناول طعامه وحيداً أو مع عمّال ورش البناء، لقد أصبحت ميشا امرأة غريبة تقاسمه الفراش كلّ أسبوع، وفي ما بعد كلّ شهر، وبعدها تناسى الاثنان علاقتهما وأصبحا يقضيان وقتهما القليل المشترك في الحديث عن شؤون طفليهما، كان يشعر بأنّه ارتكب خطأً قاتلاً، ابتهج بعودته إلى حياته السرّية، شعر للمرّة الأولى بالانتقام من تعجرفها ورائحتها النتنة، وتشبّثها بممارسة الطقوس اليهوديّة المتشدّدة بحذافيرها، وحين رآها ترتدي غطاء الرأس وتغطّي وجهها ضحك في أعماقه، لكنّه لم يناقشها كعادته في عدم اهتمامه، اشترى الشقة المقابلة لشقة صديقه عارف شيخ موسى، وفرَشها بذوق خاصّ، كانت شقة صغيرة في بناية أغلب قاطنيها من أصدقائه، كانوا يتستّرون على غراميّاته التي لم تنته. كانت بهجته لا توصف حين تزوّج يوسف بعائشة التي كانت ترعاه بعناية. في أيّام كثيرة يتناول معهما الغداء أو تفتح عائشة باب شقته بمفتاحها الذي بقي معها وتضع على طاولته صحون طعام لا يعنيها أن تتعفّن لأنّه لم يأت، كانت تريد له دوماً أن يجد طعاماً حين يأتي إلى منزله الصغير.

بقي عازار مولعاً بتقسيم حياته إلى فترات حاسمة، قبل روما وبعد روما، قبل زواجه وبعد زواجه، والمفصل الرئيسي كان حياته قبل المجاعة وبعد المجاعة. شعر بشلل حقيقي حين جال في المدينة، ورأى الأطفال يموتون وتتفسّخ جثثهم على قارعة الطريق. كانت عظام أقفاصهم الصدريّة بارزة، وجوههم صفراء، ومنذ أشهر لم يتذوّقوا وجبة طعام. فكّر مراراً في السفر إلى أوروبا، لكنّه لم يمتلك شجاعة مغادرة مدينته.

فكّر بأنّه كان يستطيع مقاسمة ديفيد القليل الذي يملكه، لطالما كان ديفيد شهماً، كريماً مع الجميع، لكنّ خوفه من ميشا خذله، غفا متأخراً واستيقظ على قرع الباب فجراً، وجد بعض جيرانه اليهود ينكبّون على كتفه ويعزونه بوفاة ديفيد طالبين مرافقتهم إلى مشفى فريشو لتسلّم الجثّة ودفنها. في الطريق إلى المشفى، أخبره الرجال الثلاثة الذين كان يراهم في المعبد يوم السبت، بأنّ ديفيد هاجم مستودعاً مليئاً بالحبوب في سويقة علي، قتل حارساً اعترضه في طريق الخروج، فقتله رفاقه ولم يسمحوا لأحد من المارّة الذاهبين إلى صلاة الصبح بإنقاذه، تركوه ينزف حتى الموت. بعد الدفن فوجئ عازار بأهل الحارس القتيل يهاجمون منزله ومنزل ديفيد، نهبوهما، مهدّدين بالثأر لدمه من عازار الذي لم يجد طريقة للخلاص من هذا الثأر إلّا بدفع دية الحارس القتيل أكثر من ثلاثمئة ليرة ذهبيّة.

لم ينس عازار وجه ديفيد الساكن في المشفى، كان رفيق طفولته، حامي ظهره في كلّ الأوقات، لا يشبه أحداً من أبناء جيله، رغم فقره الشديد كان رقيق القلب، وشهماً، يقدّم خدماته مجّاناً للجميع.

بعد موت ديفيد تعرّض لحادثة أقسى، بدأت زوجته ميشا تلملم فتات الطعام من الموائد، وتطلب من زبائنه الألبسة القديمة متحجّجة بأنّها ستتبرّع بها للجمعيّات الخيريّة، لكنّها كانت تخزّنها في مستودع المؤونة حتى امتلأ عن آخره. حين ترافقه إلى بيت سعاد تطلب منها السماح لها ببقايا الطعام لتأخذه لأبناء سارة الأرملة التي لم تطبخ منذ يومين لإصابتها بوعكة صحّية. ساير زوجته في البداية وظنّ أنّ ندوب المجاعة ستصبح من الماضي، خفّفت سعاد من قيمة القصّة وأخبرته بأنّها فترة صعبة وستمرّ، أوصته بالصبر. لكنّ مرض ميشا بالبخل الشديد لم يتوقف، توبّخه أمام الجميع، تحاسبه على النقود التي يصرفها وتتّهمه بالتبذير، تذهب إلى الزبائن طالبة كشف حسابه، تقدّم نفسها كشريكة له، تدقق في أسعار اللحمة القليلة التي تشتريها كلّ أسبوع مرّة، كما تدقق في فواتير الكاز، وتطلب منه التقتير لأنّ الدنيا صعبة ولا تريد أن يموت ابنها أو ابنتها في مجاعة مقبلة كما حدث مع ديفيد، وأخته سارة التي لم تحتمل الجوع وشردت مع راعي غنم قابلته خارجاً من باب المنزول العمومي، راودته عن نفسها مقابل وجبتي غداء، واحدة لها والأخرى لأمّها المريضة. رافقته إلى خارج المدينة، وعرّت نصفها السفلي واضطجعت على كرسيّ العربة الخلفي، ولجها وكان كريماً معها، اشترى لها طعاماً يكفيها مع أمّها ثلاثة أيّام، وعاد لمواعدتها في المكان نفسه بعد أسبوع، انتظرته وكانت قد رتبت ملابسها لتمكّنه من نفسها دون خلعها، رافقته إلى منزل استعاره من صديقه في حيّ الجلوم، وهناك بقيت ثلاثة أيّام تأكل ما طاب لها، أرسلت إلى أمّها الطعام الذي كان يرميه الرجل البدوي لكلبه الذي يرافقه دوماً. حين اكتشف عازار الأمر، بصقت سارة في وجهه لتركها وأبنائها الأربعة وأمّه فريسة للجوع، قالت إنّه السبب الرئيسي في موت ديفيد. جلّله شعور العار، سيبقى يتذكّر طوال عمره أنّه عاش على الصدقات وبخل على أهله بالطعام في المجاعة.

كان عازار يروي لسعاد قصّة سارة وتشفّي ميشا، بمرارة، شاتماً الظروف التي جعلت من امرأة بريئة محظيّة راعي غنم، فتتدارك سعاد الأمر وتعدّد أسماء بنات عائلات عريقة عملن خادمات مقابل الطعام، حاولت سعاد مواساته، اكتفى بهز رأسه مردّداً أنّه لا يحق لمن لم يجع الحديث عن آلام الجوعى.

تحوّلت العادة إلى لذّة بالتشفّي لدى عازار وهو يراقب زوجته ميشا التي أصبحت تشكره على صدقته حين يتبرّع لها، وقبل أن يطلقها بأشهر تحوّلت إلى امرأة تخاف من كلّ شيء، تقبّل يده مقابل أن يمنحها نقوداً لمصروف البيت الذي توفّر أكثر من نصفه، تشكره كمتبرّع كريم، تمتدحه، يشعر بالزهو، غرورها قد تحطم وتهشمت روحها، بعد المجاعة لم يحتمل عازار العيش معها، حاول تخليص ولديه منها، لكنّها فاجأته ورحلت معهما إلى أميركا، بعدما باعت سرّاً كلّ أملاكها التي تركها لها أبوها.

لم يعد عازار يعتني بهندامه، أصبح كهلاً وهو لم يتجاوز الخمسين، فقد بريق عينيه، لم يعد يشاكس ويهدّد حين يبتزه أحد، أصبح مطيعاً، يسخر منه زبائنه لكنّه لا يردّ، وهم لا يتخلون عن عبقريته القادرة على إيجاد الحلّ لأصعب المشاكل التي تعترض بناء أبنية ضخمة وجميلة، كما كان يجد دوماً أفضل المعماريّين ليعملوا معه.

حين حدّثته سعاد عن مشروعها بعرض الأزياء عاد ذلك البريق إلى عينيه، فكّر ليلة بكاملها في تصميم المكان، أراده تحفة تصل أصداؤها إلى مجلّات الموضة في باريس، طلب من وليم تصوير

كلّ مراحل العمل، انهمك في تصميم منصّة متصلة بالغرفة الكبيرة التي ستخرج منها العارضات، ومن نوافذ الغرف العلويّة تهطل قصاصات ورق ملوّنة كمطر متأخر.

انتابه القلق حين أخبرته سارة أنّ سعاد ليست على ما يُرام وتنتظره في مشغلها، خرج مسرعاً من مكتبه، سار المسافة القصيرة بين الجميلية والجديدة على عجل، كانت سعاد تنتظره، وزكريّا يحاول إقناعها بإلغاء العرض، وأخذ تهديد عمّتها أمينة على محمل الجدّ. كانت سعاد تفكّر في الأمر نفسه لكنّ كلمات زكريّا المهادنة لم تعجبها، طلبت من عازار التريّث في الأمر، أشعل سيجارته وصمت الثلاثة، لم يعد عازار يشعر بأنّه فرد من العائلة، أصبح زكريّا غريباً عنه، منذ زمن لم يلتقيا ويتحادثا كصديقين، بعد زيارته المفاجئة مع حنّا في تلك الليلة تغيّر عازار كثيراً، على الأقل فقد مرحه القديم، موت ديفيد ووفاة أمّه السنة الماضية وهروب ميشا حفر في أعماقه. الشيء العميق الذي لم يحدّث أحداً عنه هو شوقه لابنته هدى وابنه سامي.

فهم زكريّا من تلميحات سعاد أنّ المعركة قادمة. سعاد لا تخاف لكنّها لم تكن يوماً حمقاء، تستطيع الحديث لساعات لتقنع أيّ شخص بفكرة تريد تنفيذها، لكنّها الآن، وهي في الخمسين من عمرها، تبحث عن معركة كبيرة تشعل المدينة، كانت في تلك اللحظة بالنسبة لزكريّا مخيفة، قويّة، وطائشة. استيقظت صباحاً وكعادتها شربت قهوتها مع مريم، طلبت من عارضاتها الأربع اللواتي انضمّت إليهنّ عائشة، التفكير للمرّة الأخيرة في الأمر. كنّ متحمّسات وخاصّة مريم التي أرادت استعراض قوامها على المنصّة. تجاوزت العشرين من عمرها، ما زال وليم يحوم حولها ويكتفي بالكلمات والنظرات المريضة. فكرت مريم أنّ هذه هي فرصتها الذهبيّة ولن تدعها تفلت من يدها، ستلتقط عريساً أجنبياً، وترحل معه عن هذه المدينة.

كانت عائشة تعمل خلف المنصّة في الغرفة الكبيرة المخصصة لتغيير العارضات أثوابهنّ العشرين، ستخرج كلّ عارضة أربع مرّات في هذه الليلة، سيستمرّ العرض ثلاث ساعات، تعزف فيه فرقة موسيقيّة أرمنيّة ألحاناً كلاسيكيّة، يرافقها تيودور على بيانو ضخم استعاره عازار من هدى شمعون التي تحوّلت إلى مدام جيوفاني المتحمّسة لهذا العرض، وعرضت شراء خمسة أثواب بالأسعار التي تحدّدها سعاد، ووعدتها بنقل العرض إلى فينيسيا ونابولي وروما.

ليلة العرض كان كلّ شيء منظماً، عازار تفحّص المنصّة والإضاءة، طلب من وليم تصوير كلّ التفاصيل، الضيوف لحظة دخولهم، الرجال بالبدلات الرسميّة مصطحبين زوجاتهم الأنيقات المتكلفات. إنّها المرة الأولى التي يشهدن فيها شيئاً شبيهاً بما شاهدنه من قبل في باريس وروما. كان الجميع متحمّسين، في الصف الأول جلس القناصل الأجانب مع زوجاتهم قرب القنصل الإيطالي الذي يلتصق بزوجته هدى شمعون، بعيداً عن رجال الأعمال الجدد الذين يتوسّطهم أورهان مدير البنك الفرنسي، الضبّاط الفرنسيّون وزوجاتهم احتلوا ركناً بعيداً في الصف الأخير. كان يوسف شيخ موسى يساعد وليم الذي لم يتوقف عن التقاط الصور، يوسف يريد رؤية عائشة تتبختر على المنصّة، فكّر في الليالي الماضية طويلاً بها، تحدّثا مرّات قليلة على انفراد، منعه خجله من مصارحتها بالحبّ، وخوفه من الزواج منعه من محادثة سعاد في الأمر. كان يوسف يعتقد بأنّ عائشة سترفض الزواج به، نظراتها القديمة كانت مجرّد إعجاب بابن خالها الشاب الخارج عن القانون الذي تحدّثت عنه المدينة حين هاجم قافلة الجنود العثمانيّين، لقد مضت سنوات على ذلك الحدث، وثلاث سنوات على لقائهما في الإصطبل، لم يفعل يوسف شيئاً يلفت النظر إليه، مقالاته القليلة التي نشرها لم تثر أيّ ضجة، كثيرون يحومون حول عائشة التي أنهت مدرستها الثانويّة قبل أيّام قليلة، نشرت الصحافة صورتها مع صديقات دفعتها، كرمز لحداثة المدينة التي

غرقت لقرون في نقاشات الحلال والحرام، التي شجّعت ولاة العثمانيين المتعاقبين عبر أربعة قرون على زيادة قوائمها.

خرجت سعاد إلى المنصّة، ترتدي ثوباً أسود طويلاً ومحتشماً، وغطاء رأس زهريّاً. تحدّثت بالفرنسية والعربية عن عرضها، وقالت إنّ مدينتها لن تموت، شعر الجميع بأنّها منهارة رغم قوتها، لم يعرفوا العلاقة بين المدينة التي لن تموت وبين عرض أزيائها. وجّهت الشكر لمدام جيوفاني وعازار، وفريقها من العارضات، تذكّرت معلمتها المدام حسنيّة، وتمنّت للجميع ليلة ممتعة، وعدت بمفاجأة فنّية في الفقرة الأولى من العرض، نزلت عن المنصّة ودخلت إلى الغرفة المخصّصة لخروج العارضات حيث تستطيع رؤية كلّ شيء.

خرجت العارضات تتقدّمهنّ مريم التي كانت ترتدي ثوب سهرة بأحزمة من الكتان، يشبه ثوب بارونة إيطاليّة من القرن السابع عشر، كانت مرتبكة، لا تعرف كيف تحتمل كلّ هذه النظرات، خاصّة نظرات أورهان الذي صعقه قوامها الضائع بين طيّات الثوب الفضفاض، أكملت العارضات جولتهنّ، أعدن الكرة، وتوقفن كما علمهنّ عازار الذي جمع معلوماته عن عروض الأزياء من أفلام سينمائيّة أصبحت هوسه في الفترة الأخيرة. تعالت أصوات الإعجاب من كلّ زاوية، كان وليم يلتقط الصور لمريم فقط، وفي الفقرة الثانية كان الوضع أفضل، مشية العارضات أكثر ثقة وأقلّ اهتزازاً وخجلاً، كان كلّ شيء رائعاً، يوحي بالأناقة التي أحبّتها سعاد طوال عمرها، كان الجميع يريدون للساعات الأربع المرور بسرعة ما عدا وليم وأورهان اللذين كانا ينظران إلى مريم من زاويتين مختلفتين. وقفت المدام هدى شمعون جيوفاني أكثر من مرّة وصفقت طويلاً مردّدة بالإيطاليّة أنّ لحلب مذاقاً مختلفاً الآن. في الفقرة الأولى بدأ تيودور يعزف على البيانو، وسمع الجميع صوتاً ساحراً يؤدّي المقطع الأول من أوبرا عايدة، لتخرج هيلين بعد نصف دقيقة وهي تغنّي بكلّ جوارحها، فكانت مفاجأة صاعقة للقناصل والضيوف الأجانب، ومثار دهشة لنساء ورجال المدينة الذين ظنّوها أول الأمر مغنّية إيطاليّة. صوت هيلين مسّهم بسحر خاصّ، عادت العارضات لتقديم الفقرة الثالثة بعد توقف التصفيق الطويل الذي أجبر تيودور وهيلين على الخروج مرّتين إلى المنصّة لتحيّة الجمهور المنفعل. فجأة أظلم المكان وانقطعت الكهرباء، دخل رجال ملتحون يحملون السيوف والسكاكين، اقتحموا المكان من كلّ الزوايا، من الأسطح المجاورة والباب والجدران، كانوا يحملون مشاعل متوهّجة، قال كبيرهم إنّهم لن يسمحوا بهذا الفسق في مدينتهم الفاضلة، أضاف الرجل الملثم أنّها رسالة الأولياء الصالحين للكفرة، رموا بكتل ملتهبة من القار على المنصّة واختفوا، خافت سعاد أن تختنق العارضات داخل الغرفة، لكن عازار كان محترساً في تصميمه لمخرج طوارئ عبر الغرفة التي فصلها أحمد البيازيدي لسكن حنّا، كان المكان مطوّقاً، أطلق الجنود الفرنسيّون الرصاص في الهواء لتفريقهم، لكنّهم لم يعتقلوا أيّاً منهم. بقيت سعاد جالسة مكانها غير آبهة بأن تحترق، فرّ الجميع وتناثروا في الشوارع القريبة، وجدت عائشة الخائفة نفسها قرب يوسف الذي قادها من يدها، دخلا في شارع فرعي، ثمّ انعطفا يساراً ليجدا نفسيهما في باب الفرج.

احترقت المنصّة بكاملها وشجرة الليمون وباقي أحواض الزرع القريبة. سادت الفوضى في الحارة، بقيت سعاد مكانها ترتب أثوابها بهدوء شديد غير مكترثة، صامتة، سارع بعض الشباب من الحضور بإطفاء بقايا النيران التي لم تستمرّ أكثر من نصف ساعة لكنّها حوّلت أرض الدار الكبيرة إلى خرابة، ترك عازار كلّ شيء وخرج من المكان، ركب سيّارة القنصل الإيطالي مع مدام هدى شمعون جيوفاني التي سمّى ابنته على اسمها تكريماً لصداقتهما الطويلة، وظلّ صامتاً،

يفكّر بتلك الفتاة التي غنّت أوبرا عايدة وبمريم التي شبّت النار في ثيابها واستطاعت سيّارة إسعاف نقلها إلى مشفى فريشو. تبعثر الجميع وطوّق الدرك المكان، دون أن يسمحوا لأحد بالاقتراب. في منتصف الطريق طلب عازار من السائق التوقف وإنزاله، فكّر بأنّه ترك سعاد وحيدة، خاف أن يمسّها أحد بأذى، فكر بأنّه يجب أن يشاركها الخراب. حين عاد إلى المكان، كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة ليلاً، وجد سعاد جالسة وحيدة لا تردّ على رجاء رقيب أول من الدرك بالإجابة عن أسئلته لفتح التحقيق في القضيّة.

بقيت جالسة صامتة على المنصّة المحروقة، جلس عازار قربها وسمعها تردّد: «يجب أن تحترق هذه المدينة عن بكرة أبيها لتنتشر روائح الزهر بدلاً من روائح ماء الزهر». كانت تهلوس وتقول جملاً غير مترابطة، ضحكت فجأة بقوّة وقالت للدركي الذي استغرب تحوّلاتها: لماذا أنتم هنا؟ لم يفهم الدركي الجواب لكنّ صدمته لم تكن أقلّ من باقي رفاقه الذين منعهم الضابط الفرنسي المرابط في الخارج من إطلاق النار على المهاجمين أو حتى اعتقالهم. قالت لعازار: «لعلك تذكر حين كنّا أطفالاً، كنّا نرسل السفن الورقيّة والآن أحرقنا المدينة»، وأضافت «يجب أن يكتمل الحريق حتى تعود قواربنا التي انتظرناها أربعين عاماً».

لم يستطع زكريّا تجاهل الهجوم على منزل العائلة، رغم أنّ عائشة لم تُصب بأيّ أذى، تنام في الغرفة المجاورة. لم يكن مطمئنّاً بأنّ الأمور انتهت. كان حنّا يفكّر في هشاشته، تخيّل سعاد المخذولة من الجميع، انسلّ من غرفته صباحاً، وطلب من سائق العربة التوجّه إلى منزل أحمد البيازيدي، لم يره أحد يغادر الدير، شعر بحرّية ابتعاده عن المكان الذي لم يفارقه منذ أكثر من عشر سنوات. وصل إلى المنزل وأصيبت سعاد بصدمة حين رأته يقف في الباب، بدا لها رجلاً غريباً، لا يشبه حنّا الذي تعرفه، سار وسط الخراب الذي أحدثه الحريق، قادته سعاد إلى غرفة الجلوس التي تستقبل فيها زبوناتها، لم يجد كلاماً يواسيها، وسعاد ارتبكت، اقترحت مشاركتها القهوة، وسألته إن كان ضعفها يعجبه، أجابها بهدوء وماذا استفدت من قوّتك؟ خطر له أن يشرح لها أنّه دوماً هناك أقوى، لكنّه صمت، لم يأت ليتشفّى بها. فكّر فيها الليلة الماضية بتعاطف كبير، أكمل حنّا وقال إنّه هنا ليطمئنّ عليها، معتذراً أنّه لم يعد يستطيع منع أحد من حرق منزلها، تحرّك في المنزل الكبير، محاولاً استعادة ذكريات طفولتهما. احترقت شجرة الليمون، وأحواض الزرع تهشّمت، كانت سعاد تراقبه من النافذة المطلة على أرض الدار، تفكّر في معنى زيارته، يئست من رؤيته، تأكّدت من أنّه تلاشى، لا يمكن استعادته، أيضاً فكرت بأنّه هنا ليشعر بتعاطفها، صارت رقيقة معه، طلبت منه أن ينسى ما حدث، وأخبرته أنّها لا تشعر بالندم، فعلت ما تريد، ابتسمت وسألته إن كان يرغب في العودة إلى غرفته القديمة، ابتسم حنّا، وقال إنّ الماضي لن ينقذه، ماذا ستفعل بحطام رجل. بقي حديثهما متقطعاً، ثمّ نهض فجأة وطلب منها زيارته، وهو يقول إنّ كلّ شيء انتهى فعلاً.

غادرها وبقيت تنظر إليه ينسلّ خفية، دون أن يودّعها. شعرت بأنّها خذلته، لكنّ المفاجأة كانت أكبر من الاحتمال. شعرت برغبتها في الانتقام، لكنّها تراجعت، ردّدت كلماته: ماذا ستفعل بحطام رجل؟ لكنّ الشيء الحقيقي الذي شعر به الاثنان هو أنّهما لا يحتاجان إلى الكلام. لم تستطع سعاد إخفاء حزنها وهزيمتها، شعرت باليأس، لا طاقة لها على خوض معركة مع عمّتها ومشايخها.

في الأيّام التالية بقي حنّا قرب عائشة، يضمّد جرحها، ويحدّثها عن طائرات زكريّا الورقيّة، كان يريد سيرة مرحة من طفولته. شعرت عائشة بأنّ حنّا وزكريّا وسعاد لا تعجبهم صورتهم الحاليّة،

لكنّهم عاجزون عن استعادة حياتهم القديمة وقوّتهم. طلبت من حنّا أن يصطحبها للسير في الحقول، كانت تريد أن تحدّثه عن شعور السير على منصّة، وفي الحقيقة تريد الحديث عن يوسف.

أسرج زكريّا حصانه وتوجّه إلى حلب. بعد موت أبيه تباعدت زياراته لمنزل عمّته أمينة، أصبحت امرأة أخرى، لا تشبه المرأة اللطيفة التي كان يحبّها، تدخل في نقاشات لا تنتهي مع بعض مشايخ الطريقة الرفاعية الذين احتجّوا على تدخل المتصوّفة في ما لا يعنيهم. تستشهد بأبي الهدى الصيادي الذي كان ذات يوم متصوّفاً ورئيساً للطريقة الرفاعية، ولم يمنعه تصوّفه من أن يقبل منصب نقيب الأشراف في حلب، ومسؤول القضاء، قبل أن يحتلّ المكانة الذي يستحقها وهي منصب شيخ مشايخ الإمبراطوريّة العثمانيّة وأقرب المقرّبين من السلطان عبد الحميد الثاني. دعت الحاجّة أمينة المتصوّفة إلى الخروج من حياتهم البليدة وعزلتهم إلى الشوارع للدفاع عن الإسلام بقوّة الذراع والسلاح إن لزم الأمر، مطالبة الجميع بنقل رفات الشيخ الشهيد لدفنها في حلب.

في زيارته الأخيرة قبل سنة، رغم ضعفها، بدت كقائدة لثكنة عسكريّة، لم تعد امرأة زاهدة تكتفي بلبن وتمر وجبات لطعامها، كانت روائح الخواريف المطبوخة تملأ المكان، ورائحة ماء الزهر الذي تنثره خادمتها دون توقف تفوح في كلّ زاوية. إنّها الرائحة التي كان يكرهها زكريّا، ويتذكّر سخرية سعاد منها.

وصل إلى حلب، ربط حصانه في خان قدري في باب جنبن، وصعد سيراً على القدمين نحو منزل عمّته في الفرافرة، كان الطريق طويلاً، وكان يريد رؤية المدينة من جديد، هنا عاش طفولته مع رفاقه، قرب مدخل سوق باب جنين، وهنا شهروا سكاكينهم في وجه إنكشاريين كانوا يوقفون المارة ويفتشونهم دون سبب، تحاشى الدخول إلى المبغى العمومي القريب من ساعة باب الفرج التي أصبحت معلماً للمدينة يذكّره بالماضي.

كثيرون ينظرون إلى زكريّا، كلّ المدينة عرفت بحريق عرض أزياء سعاد. النظرات القاسية حاصرته، الكثيرون ممّن يعرفهم أشاحوا بوجوههم عنه. وصل إلى منزل عمّته، لم يستأذن خادمتها، كانت عمّته في فراشها مريضة، جلس قربها ولم يتأخّر في الإمساك بيدها المتغضّنة، مسّد عروق يدها، سمع صوتها تقول له تأخرت، أضافت: إذا أردت السير في جنازتي مع أبناء عمومتك يجب أن تذبح سعاد من الوريد إلى الوريد، سحبت سكّيناً حادّة من تحت فراشها، وبيدها الضعيفة قدّمتها له. كانت جادّة في طلبها، وأضافت أنّه إن كنّا لا نستطيع منع الانحلال من الانتشار في المدينة فعلى الأقل أن لا يشارك أحد من أبنائنا فيه. بعد صمته الطويل سمعها تقول له مرّة أخرى: في هذا الصندوق الكثير من الذهب، تستطيع أنت وصديقك النصراني حنّا تقدير ثمن قلعة الفسق وبيعها لنا، نحن نتبرّع بها لتحويلها إلى جامع ينشر الفضيلة ودين الإحسان. سألها زكريّا بلهجة ساخرة: من أين لك كلّ هذا الذهب يا عمّتي؟ لم تسمح له يتحويل الحديث، قالت: من المحسنين، إنّه مال الله. سألها: هل أنت سعيدة لحرق منزل أخيك؟ ابتسمت متهكّمة وقالت إنّها نادمة لأنّها لم تحرقه وتُزلْه عن بكرة أبيه، لم يعد بيت البيازيدي هذا، إنّه بيت دعارة. لم يفاجأ زكريّا بلهجتها القاسية، لكنّه شعر بأنّ أيّ معركة ستكون خاسرة.

أغمضت الحاجّة أمينة عينيها للحظات، كانت رسالتها لزكريّا واضحة، طلبت منه المغادرة والتفكير في أمر غسل العار مقابل أخذ عزائها. خرج من منزل عمّته مضطرباً، سار إلى منزل سعاد التي لم تسمح لأحد بالتحدّث إليها بعد زيارة حنّا.

عادت مريم من المشفى بذراع مضمّدة، وبعض الحروق التي ستترك ندوباً صغيرة على جسدها لن يطول شفاؤها. فوجئ زكريّا بجمالها وهي ممدّدة على صوفا كبيرة في غرفة المشغل، كانت

تساعد معلمتها سعاد قبل أن تغادر إلى غرفتها التي خصّصتها الست جانيت أنطاكي للفتيات الأرمنيات الناجيات من المذبحة واللواتي يرغبن في شق طريقهنّ في أعمال المدينة. كانت مريم تتقاسم البيت مع فتيات من عمرها أو يكبرنها، يعملن في ورشات التطريز، ومعامل النسيج، ويقضين لياليهنّ في جمعيّة الشباب الأرمن يتسقطن أخبار أهاليهنّ المفقودة، مريم كانت أكثرهن حظاً حين قبلت سعاد تعليمها الخياطة وتصميم الأزياء. أخبرها وليم قبل سنتين برغبة الفتاة التي شُفيت من وباء الكوليرا ونجت للمرة الثانية من الموت المحقق في التخلص من حياة الراهبات المعدّة لها، فهمت سعاد أنّها تريد الهرب من مصير لا تحبّه، قبل أن تلتقيها وتجرّبها، لم تضع مريم الفرصة، حازت إعجاب سعاد التي رأت فيها صديقة مقبلة أكثر منها صانعة.

انتقلت ببساطة بعد موافقة حنّا على رحيلها عن الدير، وتسليمها إلى الجمعيّة التي تعتني بشؤون الفتيات الأرمنيّات اللواتي لم يستطعن لمّ شمل عائلاتهنّ، صمتت ماريانا عن الأمر، وشعرت بأنّ التخلص منها شيء جيّد، لا تريد متاعب إضافيّة مع مريم التي لم تعد طفلة، تحبّ جسدها الممشوق وتجاهر بالحديث عن رغباتها وتنام في منتصف القدّاس، وتبدي امتعاضها من المناولة.

شعرت مريم بالحرّية لأول مرّة، تستيقظ صباحاً وتتناول إفطارها مع رفيقاتها، تصل في التاسعة إلى مشغل سعاد، ترتّب الأشياء المتناثرة، تتمهّل في شرب قهوتها وتنتظر قدوم سعاد التي تتأخر كعادتها في النوم، وتتمهّل في شرب قهوتها، تفكّر كلّ يوم في طفولتها البعيدة، تشعر بأنّ مغادرة الطفولة تشبه الخروج من الجنّة، هجر الحماقة، وطعم الأشياء الأول.

لم يعد لديها ما تقوله لزكريّا الذي دخل إلى غرفتها غاضباً، شتم عمّته واتّهم سعاد باللامبالاة، ولأول مرّة شتم حنّا الذي تحوّل إلى رجل مريض بحبّ الهشاشة والضعف، كان زكريّا يتحدّث كرجل خذله الجميع، لكنّه توقف فجأة، ونظر إلى سعاد الصامتة، كانت تتحاشى الاشتباك، ولا تريد أن تخسره، يكفيها مصابها، تعاطفت مع زكريّا الذي لم يتوقف عن الكلام، كأنّه في منولولج طويل، عن كلّ ما حدث بعد الطوفان. حاولت طمأنته بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام، سينسى الناس ما حدث، تحاشى الاثنان الحديث عن خسارتهما العمّة أمينة. كانا يعرفان أنّها بهذا الفعل ترضي مشايخها الذين يمتدحونها طوال الوقت.

تركها زكريّا قبل أن يحلّ المساء، وغادر إلى الدير. شعرت سعاد بحرّية البقاء وحيدة مع مريم.

كان حنّا يعتني بصدمة عائشة، لم يفارقها طوال شهر، يتحدّثان ويسيران في الحقول، يمازحان زكريّا. مضى شهر آب، وتناسى الجميع حريق عرض أزياء سعاد، إلى أن فوجئ حنّا بعارف يطلب لقاءه وزكريّا لأمر هام جداً كما وصفه لماريانا.

ما زال عارف محافظاً على ضحكته، لكنّه لا يستطيع إخفاء حزنه وفقره وشيخوخته، شعر بالغربة الشديدة حين جلس على كرسيّ قدّمه له حنّا، لم يحتج إلى مقدّمات وقال إنّه هنا ليطلب يد عائشة لابنه يوسف. كان الأمر معدّاً من قبل، تبادل يوسف مع عائشة رسائل قليلة، كانت سعيدة في حبّها الذي ينمو كلّ يوم في قلبها، أعجبها يوسف منذ لقائهما الأول في إصطبل زكريّا قبل سنوات، وتلميحاته القليلة والخجولة كانت تصلها حين ينتهز فرصة غياب سعاد للحظات. أول مرّة دسّ في يدها أول رسالة، كان مرتبكاً، نظر حوله ليتأكد من أنّ أحداً لم يره، نهض فجأة واستأذن سعاد بالرحيل دون أن يكملا حديثهما، بقيت عائشة واقفة مكانها، هي أيضاً ترتجف، تخفي الرسالة عن عمّتها، لم تردّ على رسالته الأولى، حين رأته في المرّة الثانية قالت له أريد رؤية هيكل الديناصور العظمي، فهم يوسف إشارتها، أضافت أحبّ أن أشاركك الأسرار. ويوم الحريق أسعفها يوسف وهمس في أذنها بأنه يحبّها، كانت عائشة تنتظر منه هذه الكلمة، أمسكت بيده وضغطت

عليها بقوّة، وكانت الرسائل تصلها بانتظام مع مرسال خاصّ أثناء نقاهتها، اتفقا على الزواج أول أيلول.

ضحك زكريّا وتذكّر يوم خطبته لشاها، يتكرّر المشهد لكن يوسف لم يكن آبقاً بل كان شابّاً جدّياً، تجاوز الثالثة والثلاثين من عمره، يتحدّث باتزان. وافق حنّا وزكريّا، وعائشة حسمت الأمر مضيفة أنّها لا تريد عرساً ولا مدعوّين، كان حنّا طوال الجلسة ينظر بطرف عينه إلى عارف، كانت أعراض الهذيان واضحة عليه، يتحدّث عن قطاره الذي سيأتي لاصطحابه بعد قليل، ثمّ يهمس لحنّا بأنّهم سيسافرون في العربة الملكيّة إلى بغداد. بحث يوسف التفاصيل مع زكريّا وحنّا وعائشة، واستأذنه بالإسراع في إجراءات الزواج. استدعى زكريّا في الليلة نفسها شيخاً من قرية العنابية، أرسل في طلب سعاد التي حضرت متأخّرة مع عازار وسارة. كان حفلاً بسيطاً، فوجئ الجميع بعائشة ويوسف صباحاً يستأذنان الجميع في الرحيل، كان ينتظرهما حصانٌ أسود قطع بهما الطريق إلى قرية شران. كان عارف لا يزال نائماً، ترجّلت عائشة واحتضنت يوسف بقوّة، قبّلته من شفتيه، حمل فأسه وهدم الأحجار التي سدّت باب غرفة الديناصور لسنوات، دخلا إلى الغرفة، كان منظره بالنسبة لعائشة مدهشاً، لكن الديناصور خلال دقائق قليلة تحوّل إلى رماد، تناثر في فضاء الغرفة كقنبلة، غطاهما رماده، بقيا واقفين مكانهما متحجّرين غير مصدّقين.

لم تخف عائشة، كانت تفكر في اللحظة ذاتها بأنّها آخر شخص رأى هذا الكائن المنقرض مع يوسف، إنّهما يمتلكان سرّاً عظيماً. كانت تأويلات عائشة للأشياء تعجب يوسف، تمنحه فرصة للتحلّل من البحث عن أسباب تفتّت هيكل عظمي لديناصور عاش مئات أو آلاف السنين في باطن الأرض، وتناثر رماداً بعد عدّة سنوات من سدّ منافذ المكان.

لم ينس الأمر لكنّه لم يعد يفكّر فيه كثيراً، يتذكّر وجه عائشة المغطى بالرماد، وثيابه التي علقت فيها رائحة غريبة.

بدأت عائشة بترتيب حياتها مع زوجها، حصلت على عمل كمدرّسة في مدرسة ابتدائية قريبة من منزلها، تحدّثت عن أطفالها المقبلين دون مواربة، تزور سعاد يوميّاً، تعتني بشؤونها، ولا تسمح لأحد بالشكوى، تجد حلولاً لكلّ المشاكل على طريقتها، تعتني بأبيها وحنّا وتنتقي لهما كنزات سميكة ومن أفخر أنواع الأصواف، وجوارب. لم تنقطع عن زيارة الدير أسبوعيّاً، تمنّت لو انتظر خالها عارف قليلاً قبل موته، كانت تفكر بأنّه عانى في السنوات الأخيرة من وحدة قاتلة، بعد سنة من زواجهما، استيقظ عارف من هذيانه، تذكّر أنّه يجب أن يدعو الأغوات وأقرباءه وأصدقاءه إلى عرس ابنه الوحيد، ارتدى شرواله وصدريّته المطرّزة، وغطاء رأسه، أرسل في طلب فرقته الموسيقيّة التي كان يصطحبها معه إلى كلّ الأعراس، وصل الطبّال ومعه شابّ صغير يعزف على المزمار، كان الطبّال العجوز فرحاً بأنّ عارف آغا ما زال يتذكّره، نهض معهما يرافقهما خادمه مبروك الحبشي الذي كان مبتهجاً بمزاج سيّده الرائق، ورغبته في دعوة الآغوات والأصدقاء إلى عرس كبير يليق بتاريخ عائلته، فكّر مبروك بأنّها ضربة عارف الأخيرة لتعويض خسائره، سيقدّم الآغوات وخاصّة أخوال عارف هدايا ثمينة للعريس.

ساروا في موكب، كان الطبّال يقرع طبله متحمّساً، والشابّ الصغير يعزف على مزماره بقوّة، مرّ عارف على بيوت القرية، وزع خادمه الهدايا التي يحملها معه، كان عارف يحدّد مواعيد متضاربة للعرس، أنهى بيوت القرية القليلة، سار نحو سكّة الحديد، طلب من الطبّال أن لا يتوقف عن الشاباش لسائقي قطاره وأصدقائه الذين يعرفهم. كان أطفال القرية يلحقون بعارف آغا يرقصون، ويلتقطون حبّات السكاكر والشوكولاته التي ينثرها مبروك الحبشي، بينما عارف آغا

كان ينتظر القطار، قال لهم إنّهم سيركبون قطاره الخاصّ ليدعوا كلّ الآغوات ابتداءً من شيخ الحديد إلى العنابيّة، سيمرّون على جنديرس، وبلبل، وكفر صفرة، وجويق، وراجو، يعدّد عارف أسماء القرى التي يعرفها الطبّال جيّداً، كثيراً ما رافقه إليها لحضور أعراس تستمرّ عدّة أيّام. كان القطار قادماً من بعيد يتهادى، أمر عارف الطبّال أن يرفع من صوت الطبل، تعالت الموسيقى ورقص عارف، والأطفال شكّلوا جوقة يغنّون أغاني يعرفونها عن ظهر قلب، وقف عارف على السكّة يشير للقطار بأن يتوقف، لحظة واحدة وانتهى كلّ شيء. تناثر الآغا إلى قطع صغيرة وسط ذهول الطبّال وشريكه عازف المزمار، وخادمه مبروك الحبشي، من عدم توقف القطار.

كان موت عارف شيخ موسى مؤلماً، انتهى العزاء بسرعة، لا أحد يريد رواية قصّته، منذ تلك اللحظة التي أخبروه في شركة السكك الحديد بأنّ الأوراق التي معه مزوّرة ولا قيمة لها، وبأنّه لا يمتلك برغيّاً في كل هذه القطارات فقد توازنه ولم يصدّق أحداً، كان يلوّح للقطارات التي تمرّ مسرعة مبتهجاً ويعطي التعليمات لسائقيها الذين لا يرونه ولا يسمعونه.

تذكّرت عائشة أيّام طفولتها حين كانت تقضي أيّاماً طويلة في زيارة خالها برفقة أخيها وليم، كان يوسف شابّاً صغيراً، يقضي وقته بعيداً عن العائلة، في منزل جدّه قرب الديناصور والمكتبة، كان عارف يصطحبهما معه إلى الأراضي، ويدللهما، وفي زياراته لآغوات القرى القريبة يسمّيهما ابنَي الغالية.

عاد زكريّا من دفن عارف، أخبر حنّا بكل التفاصيل، لكن حنّا كان صامتاً يفكّر للمرّة الأولى في الخسارات التي لم تعد تتوقف، طلب منه زكريّا التوقف عن الاسترسال في عقاب ذاته، لقد مضى العمر ولا يمكن استعادة الماضي، تحدّث زكريّا في تلك الليلة عن المكان الذي يصبح أكثر ضيقاً، أضاف: «تأخر عارف في الانتحار، روحه لم تعد تطيق سجنها في الجسد الضيّق»، أكمل زكريّا أنّهم بنوا منصّة للمنتحرين في القلعة لكن أحداً لم ينتحر، كلّ شيء تأخّر. توقف زكريّا عن الكلام بعد هذه الجملة، كان يريد تمزيق دفاتر حنّا التي يسجّل فيها ملاحظاته عن النبات، وهجرة الطيور. وصلت رسائل زكريّا لحنّا، شعر بالخوف من أن يترك زكريّا الدير ويعود مرّة أخرى إلى حياة جديدة، ينتقم فيها من المحرّضين على حرق عرض أزياء سعاد، ومن كلّ الذين خرّبوا حياتهما. ما زال حنّا يخاف من تلك اللحظة، يعيد زكريّا بناء إمبراطوريّة أحصنته، ويعود إلى حلب، يقرع أبوابها بحذائه، لكنّ عينَي زكريّا وهو يتحدّث عن جنازة عارف وزيارته الأخيرة لعازار كانتا توحيان بأنّه أيضاً في طريقه إلى الاستسلام، لم يبق له إلّا الاعتناء بأحصنته القليلة، فقدت إصطبلاته سمعتها بعد المجاعة. احتفظ بمبلغ من بيع آخر دفعة من أحصنته، وزعها بين عائشة ووليم الذي اشترى استديو خاصّاً في شارع بارون، تحلل زكريّا من واجباته، ترك أمر إصطبل الدير للشمّاس بولس حلّاق صديقه، وأخبر يعقوب بأنّه يستطيع مغادرة إصطبلات العنابية بعدما سمع مراراً تشكّيه من أنّه يتلقى عروضاً للعمل في إصطبلات زعماء عشائر قويّة.

بقي وحيداً في منزله القريب من إصطبلاته، يزور حنّا يومياً، يشربان قهوتهما ويتحدّثان في شؤون تافهة، وينتظران عائشة ووليم الذي أصبحت زياراته قليلة للدير بعد انشغاله بعالمه الخاصّ، تطلب منه ماريانا أن يأتي كلّ أسبوع، يعدها لكنّه غالباً ما يغيب أسابيع عديدة، ماريانا تزوره، تمكث ساعات قليلة، تطمئنّ على حياته، وتعود سعيدة، ما زال وليم يعتبرها أمّه، لكنّه لم يعد يطيق رؤية كلّ الذين يحبّهم خاسرين، ينتظرون الموت الذي تأخر كثيراً.

بعد موت عارف آغا طلب خادمه مبروك من يوسف السماح له بالمغادرة للعيش في مضافة أحد الآغوات من أقرباء عارف آغا. بقي يوسف وعائشة وحيدين، يقضيان عطلاتهما الصيفيّة في منزل

القرية الكبير الذي أصلح يوسف سقفه، ورتّب المكتبة في غرفة المضافة، حوّلها إلى مكتب يستقبل فيه رفاقه المهتمّين بالنقاشات التي لا تنتهي حول القضيّة الكرديّة. وفي الليالي المقمرة يسيران نحو منزل الجدّ، يفتحان باب غرفة الديناصور الذي لم يبق منه إلّا بقايا.

فكّرت عائشة بأنّها تستعيد سيرة أمّها شاها، كانت تشعر بسعادة كبيرة، تتدخّل في شؤون الجميع، تقرع باب منزل وليم فجأة وتطلب منه التوقف عن مغامراته العاطفيّة والزواج، لا تريد له تكرار سيرة أبيها، يتجاهل وليم طلبها، ويغرق الاثنان في حديث طويل، تصطحبه معها إلى منزلها، لتناول العشاء مع ضيوف يوسف، كان وليم يريد الهرب ليلتحق بقبو المطبعة حيث ينتظره جنيد خليفة كلّ يوم ليكملا عملهما ونقاشاتهما التي لم تنته عن المخطوطات التي يحققانها. وآخر الليل يبحث عن صديقه سام ليشربا حتى الثمالة.

استعادت سعاد عافيتها سريعاً، أصبحت تشبه معلمتها حسنيّة، تتحدّث بطلاقة عن الحبّ، لا تخشى شيئاً، تدعو عازار وسارة وعائشة ويوسف لتناول العشاء في كازينوهات المدينة، تشتم علناً عمّتها أمينة ومشايخها، تحرّض على اعتقالهم وإعدامهم، والحدث الذي هزّها هو ولادة عائشة ابنها الأول حنّا شيخ موسى، شعرت سعاد بأنّه حدث كبير يحتاج إليه الجميع، لم تخطئ حين رأت حنّا يدخل إلى منزل يوسف وعائشة، كان مبتسماً كطفل صغير يرافقه زكريّا، قضى الجميع يوماً رائعاً للمرّة الأولى منذ الطوفان، لم ينس يوسف دعوة عازار وسارة، فوجئوا بأنّهم يجتمعون مرّة أخرى حول طفل عائشة الذي لم يتجاوز عمره ثلاثة أيّام، طبخت سعاد وساعدتها سارة، كان الجميع يتبادلون النظرات غير مصدّقين، حنّا تخلى عن حذره، اقترب من صورته القديمة إلى درجة أنّهم شعروا بأنّ السنوات العشرين الماضية التي مرّت على الطوفان كانت كابوساً وليست حقيقة، لكن في نهاية ذلك اليوم عاد كلّ شيء إلى طبيعته، لم يستطيعوا جميعاً إخفاء خساراتهم، استأذن حنّا في العودة إلى الدير، لا يمكن لسرير القدّيس أن يبقى فارغاً، كما قال عازار متهكّماً، لكنّ سعاد دافعت عن حنّا وقالت: ما زال يغصّ بغرقى الطوفان.

عادت الحياة إلى الدير، كلّ أسبوع تأتي عائشة مع طفلها، تقضي يوماً كاملاً مع حنّا وزكريّا، ويضطرّ يوسف ووليم إلى مرافقتها، يقضي الأخير وقته مع ماريانا التي اضطرّت إلى اعتبار غداء يوم الأحد العائلي مقدّساً، تستعدّ له ويجلسون جميعاً إلى مائدة الطعام في غرفة حنّا الذي يقضي وقته في تأمّل طفل عائشة.

في ذكرى الطوفان الرابع والعشرين تلقى زكريّا خبر وفاة عمّته أمينة، قرع باب منزل سعاد التي كانت تشرب قهوتها بتمهّل كعادتها، طلب منها ارتداء ملابس محتشمة بسرعة للّحاق بجنازتها، لكنّ سعاد قالت ببرود: ماتت عمّتي منذ زمن بعيد، ولن أذهب إلى أيّ مكان. وصل زكريّا إلى منزل عمّته لكنّه فوجئ بأبناء عمّه يطردونه من المنزل، لا يسمحون له بدفن عمّته، شتموه، طلبوا منه عدم تدنيس بيتها المقدّس، بينما كان خارج المنزل مئات من الشباب الملتحين يقودهم مشايخ شهيرون، أحضروا النوبة، كان المنزل في فوضى عارمة، لا تسمح لزكريّا بنقاش أبناء عمّه، نساء يبكين أمّ الفقراء ومجاهدي جناق قلعة، وتدور أفواه الجميع بمديح وتذكّر الشيخ أبو الهدى الصيّادي الذي مات قبل ربع قرن.

لم يكترث زكريّا لكنّه شعر بالرعب، لم يعد إلى منزل سعاد ولم يخبرها بما حدث، كعادته عاد إلى إصطبلاته، متناسياً كلّ ما حدث، بعد صلاة العصر توقف المطر، وصل إلى القلعة أكثر من عشرين رجلاً مسلحين بالسيوف، إنّهم الشباب الملتحون أنفسهم الذين كانوا يحملون النوبة، وينتظرون تابوت الحاجّة أمينة ليصلّوا عليها، وينفذوا وعدهم لها. لم يسمع زكريّا أصوات شمس

الصباح تستنجد أو أصوات نساء القلعة العجائز الهلعات، دخل الملتحون كاشفين عن وجوههم، دون خوف وعلى مهل أجبروا الحارس الوحيد على فتح باب القلعة، حبسوا النساء العجائز داخل القلعة، سدّوا النوافذ وأقفلوا الأبواب، سكبوا الكاز على الأثاث وفي ممرّات القلعة التي تحوّلت إلى كتلة لهب هائلة، تساقطت الأسقف الخشبية وأحدثت دويّاً هائلاً، وبعد ساعتين تأكّد الشباب الملتحون من أنّ كلّ النسوة قد احترقن، وصلت النار إلى كلّ الغرف، غادروا منتصرين بعد تأكّدهم من أنّ القلعة أصبحت رماداً. مرّوا من أمام بوّابة الدير، لم يجرؤ الحرّاس على اعتراضهم حين رموا عليه سهاماً ناريّة أحرقت غرفة بكامل أثاثها في الزاوية الشرقية من الطابق الثالث الذي لم يقطنه أحد بعد، وكان مجهّزاً لاستقبال دفعة جديدة من الراهبات المبشّرات، سيرسلهنّ دير الزعفران من ماردين بعد الوئام الذي ساد أخيراً بين الديرين.

خمدت النار بعد منتصف الليل، ولم يجرؤ أحد على دخول القلعة منذ تلك اللحظة، إلّا زكريّا الذي لم يستطع النوم، جلس على حجر أمام باب منزله، وفكّر بأنّ كلّ شيء قد انتهى، لم يبق شيء يعنيه، كان يعتبر زيارة القلعة وتفقّدها سرّاً آخر متعه، كان الرجل الوحيد المسموح له بالدخول إليها، يزور أولئك النسوة البائسات، أو حين ترسل له شمس الصباح الحارس الوحيد الذي كان زكريّا يدفع له مقابل حماية مكان ذكرياتهم الحميم.

كان يشرب القهوة ويستمع إلى شكاوى النساء الثلاث عشرة اللواتي اجتمعن في المكان، تقوم شمس الصباح بخدمتهن، وحين يصل زكريّا يبتسمن، ويروين النكات، ويضحكن. في المرّة الأخيرة طلبن منه أن يحفر لهنّ قبورهنّ، ويجهّزهنّ للدفن، مستعيدات سيرة موت أم وحيد التي رحلت قبل سنتين، ولم يعرفن كيف يدفنّها، اضطررن للبحث عن رجل كتوم، ولم يجدن أحداً، كشفن القبر الوحيد المعدّ منذ زمن بعيد لمنتحر، وارين جثتها في تلك القبّة الرائعة، لكنهنّ أسهبن وهنّ يطلبن المغفرة لأنهنّ لم يجدن شيخاً يقبل بالصلاة عليها ففعلن ذلك.

كان زكريّا يضحك من قلبه، ولا يخبر حنّا بأنّ شمس الصباح أصبحت امرأة بائسة جداً، تعاني من أمراض مزمنة رغم عدم بلوغها الخمسين، سمينة، اخشوشنت يداها من عمل الأرض التي كانت تقوم مع رفيقاتها بفلاحتها. كان زكريّا يزودهنّ بالمؤونة، ولا ينسى الأشياء التي تحبّها العاهرات، كان يأتيهنّ بقلوب لوز محمّص، وأحياناً بضعة ليترات من الويسكي الفاخر الذي يتلقاه هدايا من زبائن أغنياء مولعين بالخيول.

كانت النساء العجائز اللواتي أعلنّ توبتهنّ، لكنهنّ ما زلن يشربن الويسكي، يوصينه على أنواع أخرى تذكّرهنّ بماضيهنّ، كانت وداد التي عشقها عارف واحدة منهن، تقاعدت مبكراً بعد إصابتها بالسفلس واستحالة شفائها، كتب الطبيب المكلف بمراقبة المنزل العمومي في بحسيتا توصية بسحب رخصة عملها، ولم تجد مكاناً سوى هذه القلعة، بعد مراسلات طويلة قبلتها شمس الصباح بواسطة من أم بديع البترونة التي لم تتخلّ عن دورها، نظمت المكان كما يليق به، كمكان لنساء يعرفن الكثير عن رجال هذه المدينة. كانت أم بديع تهدّد بعض زبائنها الأتقياء بكتابة مذكّراتها وفضحهم، فيضطرّون لإرسال نقود قليلة لا تكفي شيئاً، لكنّها تساعدهنّ على شراء بعض الأدوية الضرورية لعلاج المصابات بالسفلس أو الأمراض المزمنة.

تحاشى الدرك التحقيق في الأمر، كانت حجّتهم عدم وجود مدّعٍ أو شكوى، ولم تسمح ماريانا لهم بسؤال حنّا عن الحادث، كما طلبت من المطران التوسّط لإغلاقِ التحقيق. لا تريد ربط حريق القلعة بالدير، اعتبرت ما حدث آخر شيء يربط حنّا بماضيه، ورغم احتراق غرفة في الطابق الثالث فإنّها خسارة صغيرة قياساً باندثار القلعة.

بعد ثلاثة أيّام دخل زكريّا إلى القلعة بهدوء، كان المكان صامتاً، ما زالت بقايا روائح الحريق تزكم أنفه، جال في المكان، لم يجد شيئاً، جثث النساء تحوّلت إلى رماد، لم يعرف أيّاً منهنّ، الأشياء التي لم تحترق كأباريق الفضّة، وملاعق الفضّة، وبعض الهدايا التي كان يغصّ بها مستودع القلعة قد نهبت.

سار في المكان، كان المطر الغزير الذي هطل في اليومين الماضيين قد زاد من رائحة العفونة، لقد نثرت الريح تلك القلعة، وجد فقط قبر أم وحيد في الطابق السفلي، فوجئ برجل سبعيني ملتحٍ يقترب منه، كان يسير في الأراضي الزراعيّة، ويتحاشى أغصان الرمّان والزيتون المتشابكة، حين وصل إليه عرفه فوراً رغم هرمه، أخذ سليم الخضر يقول بصوت عالٍ إنّ هذا المكان كان يجب أن يحترق لنشعر بالأمان، ويجب أن تنقلوا رفات صديقيكما من هنا، مشيراً إلى قبري وليم وعائشة، تركه الرجل ومضى قبل أن يتصاعد غضب زكريّا الذي حذره من الاقتراب من هذه الأرض، مضيفاً: «إنّها ملكيّتنا الخاصّة».

بقي زكريّا يعمل ساعات في لملمة رماد جثث النساء المحترقات، جمعهنّ في كيس خيش كبير، وحفر حفرة عميقة تحت إحدى الأشجار دون أن يعيّنها بإشارة، دفن البقايا، وغادر المكان حزيناً، شاتماً حنّا في سرّه لأنّه حوّلهما إلى رجلين يتطاول عليهما مجموعة بلطجيّة ويتشفّى بهما سليم الخضر.

لم تحزن سعاد على موت عمّتها، ورفضت الاستماع إلى قصّة الهجوم على القلعة وحرقها، انشغلت طوال الوقت باستعادة ماضيها، تستمع إلى وليم يخبرها عن قصّة حبّه لمريم، تجيبه بأنّك لن تكون أقلّ خيانة لها من باقي الرجال، أضافت: دعها لحياتها، إنّها ناجية من مجزرة ودون عائلة. كانت تعتبر مريم أمانة في عنقها، إنّها فتاة ضعيفة في أعماقها، فتاة معلقة في الفضاء، لا تصل قدماها إلى الأرض التي تطأها، لا تشبه عائشة القويّة المهيمنة.

بعد تدمير منصّة عرض أزيائها بثلاثة أشهر، أخبرتها مريم بعرض أورهان الزواج بها، صمتت. فكّرت في أعماقها بأنّها لا تريد تحريضها على تخريب حياتها، قد تكون فتاة محظوظة أن يعرض رجل بمواصفاته الزواج منها، ما هي إلا فتاة فقيرة، شجّعتها على القبول، ولم تقل رأيها في أورهان أمامها، طلبت منها التفكير قبل أيّ قرار، لكنّ مريم أخفت عن سعاد أنّها بدأت تواعده بعد العرض، تتقبّل هداياه، تسمح له بأن يمسك يدها، استمعت إليه بتأثّر وهو يشتم الأتراك، يخبرها بكلّ جدّية بأنّه تبرّأ منهم بعد مجازر الأرمن. صدّقته في أعماقها، إنّه يعيش وحيداً بعيداً عن عائلته الكبيرة التي يئست من فكرة عودته إلى إستنبول وتناسته، ولم يعد إخوته يذكرونه في أحاديثهم العائلية أو ينتظرونه في عيدي الفطر أو الأضحى.

أعجبها بأناقته وتبجّحه، عكس وليم الذي بدا لها شابّاً مريضاً، حين يلتقيان لا يتحدّث عن أيّ مستقبل، يتحدّث عن فوضى روحه، ويهمس لها بأنّه ينتظر كلّ صباح نهوضها من نومها لتحطّ روحها قريبة منه. كانت ترغب في دمج الرجلين في رجل واحد، لكنّها لا تستطيع. حين تعود من مواعيدها مع وليم تكره نفسها، تفكّر بأنّها إذا تكلمت فستبدو فتاة تستجدي الحماية والأمان، تريد التخلص من كوابيسها التي لم تتوقف عن المجزرة، ليالي بكاملها تشمّ روائح أجساد الموتى التي كانوا يحرقونها كي لا تنتشر الأوبئة، كانت تقول في أعماقها إنّهم يخفون الجريمة. طوال طريقها من أورفة إلى أعزاز كانت غير متأكّدة من نجاتها، حتى التقطها عارف شيخ موسى متكوّرة على نفسها مع رفيقاتها الستّ اللواتي لم يجدن مكاناً ينمن فيه سوى جامع أعزاز الكبير الذي فتح أبوابه لاستقبال الناجين، تبرّع محسنون ببعض قطع الثياب، والقليل من الطعام، كان الجميع جائعين في

تلك السنوات، ورغم كلّ ذلك نجت من الموت. بقيت طوال عمرها تشكر ضربة الحظ العظيمة التي رافقتها، حين انتقلت إلى منزل عارف شيخ موسى ثمّ إلى الدير، ثمّ إلى مشغل سعاد. رفيقاتها سيعشن تعيسات متأفّفات من العدس المسلوق وثياب الراهبات الثقيلة، لكنّها الآن ليست ناجية فقط بل فتاة يطلب منها الزواج رجل يعمل مديراً لبنك فرنسي كبير، لديه منزل فاخر، ويعشقها شابّ مولع بالصور. خافت في لحظة من إفلات كلّ شيء من يدها، قالت: الناجي يجب أن يتمسّك بشيء قويّ لتزيد فرصة نجاته. لم تتمهّل، أبلغت أورهان موافقتها على الزواج، رتّبت سعاد جهازها، وأخبرت وليم بكلمات قليلة بأنّها ستهجره، لا تملك وقتاً لممارسة ترف الحبّ والتحدّث عن ثقل الأرواح.

لم تكترث مريم بالكلمات اللاذعة التي سمعتها من رفيقاتها الفقيرات في منزل المدام جانيت إنطاكي، اللواتي بصقن عليها لقبولها الزواج برجل تركي ومسلم. لم تكترث برسالة ماريانا التي قالت لها إنّها تخون رسالة المسيح، لم تخبر أحداً أنّ سعاد طلبت من عازار مساعدتها في إنهاء الإجراءات، كانت سعاد لا تطيق الحديث مع أورهان، ما زال بالنسبة إليها ذلك الرجل الدبق، حافظت مريم على مسيحيّتها ولم يطلب منها أورهان التحوّل إلى الإسلام. أعجبها المنزل الكبير الفاخر، والمؤخر الكبير الذي صمّمت سعاد على تسجيله في العقد، ناقشت برفقة عازار كلّ التفاصيل الدقيقة التي تحمي امرأة وحيدة لا أهل لها، بقيت مريم ممتنّة لسعاد وعازار طوال حياتها.

أعجبها طبع أورهان الأرستقراطي، جلوسه صباحاً إلى مائدة الإفطار في الموعد نفسه، وطريقة استعماله الشوكة والسكّين للمبالغة في الاستعراض، وأعجبها حبّه لأناقتها التي استعادتها، اشترت الكثير من الثياب، لكن نظرات وليم الحالمة بقيت تربكها. شعرت في السنة الأولى وبعد حبلها بأنّها لم تختر شيئاً في حياتها المتشابكة، ظنّت أنّ زواجها من أورهان سينهي بالتأكيد قصّتها البريئة مع وليم، لكنّ ما حدث جعلها تفكّر مرّة أخرى بالخطأ الذي ارتكبته، لا يمكن العيش لسنوات طويلة مع رجل لا يعني شيئاً سوى الأمان. حين كانت ترى عائشة ويوسف تحسدهما في أعماقها، لكنّها تقنع نفسها بأنّ عائشة لم تتعرّض لمجرزة خسرت فيها كلّ عائلتها، وعاشت على الصدقات؛ بالعكس، كانت دوماً محاطة بالحبّ والرعاية، ابنة مدللة لحنا وزكريّا، وابنة مشتهاة لماريانا وسعاد والأب إبراهيم، حتى تيودور أحبّ الدور الذي تؤدّيه كابنة مدللة. اعتادت مريم قول نصف الحقيقة لتخفي قلقها، في لحظات يكون مزاجها عكراً، تشعر باستياء حقيقي من كلّ ما يحيط بها، ومن عادات أورهان التي فقدت بريقها، وبقيت من أناقة الأرستقراطي مجرّد ادّعاء متعالٍ لرجل يعتبر سيرته جديرة بالكتابة رغم أنّها لا تختلف عن سيرة أيّ موظف ترقى في مناصبه لانتهازيّته الشديدة.

في لحظات تشعر مريم بأنّها تظلم أورهان، وتبالغ في امتداح نظرات وليم الحادّة، وأفكاره المجنونة عن الحبّ، لن تنسى يوم اندسّ في فراشها في غرفة العزل، أراد مقاسمتها الموت، لا تعرف من قبل عاشقاً تقاسم الموت مع حبيبته. تذكر انتظاره الطويل أمام باب الكنيسة ينتظر خروجها بعد قدّاس الأحد ليصحبها إلى منزل جانيت أنطاكي، وزهوره البرّية التي كان يقطفها لها في الدير، ووقوفها أمام كاميرته، ليلتقط لها الصور في كلّ الحالات، يقول لها: سأكتب قصّتنا بالصور، لا تليق الكلمات بالحبّ، كانت تصدّقه وتعجبها أفكاره الغريبة عن الحبّ.

تثقلها ذكرى السنوات الماضية، ذكرى بؤسها، تشعر في أعماقها بأنّها محظوظة ككلّ الناجين من المجازر الذين يشعرون بأنّ حياة جديدة وُلدت تحت جلودهم، لكن بعد فترة من الزمن يتحوّل هذا الشعور إلى مرض وكآبة مزمنة لأنّهم نجوا وحدهم بينما منازل طفولتهم احترقت وجثث

أحبّتهم أصبحت وباءً. لا يكفي نجاتك لتكون محظوظاً بل تشعر بعطب حقيقي، لا ينجو منك أيّ شيء، رغم أنّك تتنفس وتأكل وتشرب، إنّها رحلة تيه لا يمكن تقدير ألمها كما لا يمكن تلخيصها أو الحديث عنها بخفّة.

كانت تستيقظ أحياناً مبكرة، تضع الإفطار على الطاولة، وتخرج حاملة طفلها عبد الحميد، تدخل إلى الكنيسة الفارغة، تصلّي، لا تردّ على تحرّشات الأرمن الذين يُسمعونها كلاماً غير لائق، تذهب رغم ذلك للسؤال عن أخبار أخيها هاروت الذي اعتقدت بأنّ عودته إليها ستجعلها أقلّ ألماً وشعوراً بالعار لزواجها برجل تركي. في إحدى هذه الجولات الصباحية وبعد ثلاث سنوات من زواجها وجدت نفسها أمام باب محلّ وليم في شارع بارون، جلست كأيّ زبونة تنتظر دورها، لم يكن المكان مزدحماً، تأمّلت الجدران التي عُلّقت عليها صور قليلة، تعرف واحدة منها، صورة تيودور وهيلين اللذين سافرا قبل أيّام قليلة إلى أمستردام، هناك ستغنّي هيلين بصوتها الرائع. قرأت مقالاً يتساءل الصحافي في نهايته عن خطف الأجانب لفتيات مسلمات لتحويلهنّ إلى المسيحيّة، كانت معلومات الصحافي خاطئة، لكنّ المقال أثار جملة ردود وتأييداً كبيراً ونقاشاً حول دور البعثات التبشيريّة التي يرعاها المحتلون الفرنسيّون.

فكّرت مريم بهيلين المسكينة التي جعل المقال منها فتاة جرى تهريبها لتحويلها إلى المسيحيّة، قالت في نفسها من حسن الحظ أنّ أمّها فطيم لا تقرأ ولن تعرف ماذا يقال عن ابنتها اللطيفة التي أفلتت من عريس يضمّها إلى مجموعة نسائه اللواتي يعملن في حصاد الجلبان والعدس صيفاً، وفي قطاف الزيتون وعلف الأغنام شتاءً.

مريم تعرف القصّة الحقيقيّة لسفر هيلين. كان أورهان يحدّثها بإعجاب عن صوتها وعن إعجابه بتيودور الذي اكتشف هذه الموهبة الخارقة وسط هذا الركام، وأخرج قطعة الألماس من بين أكوام الزبالة. كتب أورهان ردّاً على الصحافي موضحاً القصّة بأنّ هيلين سافرت مع زوجها الأجنبي الذي تزوّجها على سنّة الله ورسوله، بعد إشهار إسلامه، لكنّ ردّ الصحافي الجلف على أورهان جعله يذهب بنفسه إلى مكتب المفتي ويحصل على نسخة من وثيقة إشهار تيودور إسلامه، واستطاع الحصول على شهادة الزواج الموثقة في المحكمة الشرعية في حلب. لكنّ الجريدة أغلقت الملف مكتفية بالردود التي انتصرت لرأي الصحافي المحرّض على البعثات التبشيريّة التي تريد الثأر من أسلمة المسيحيّين عبر مئات السنين.

خرج وليم من الاستديو مودّعاً آخر زبون، لم يفاجأ بوجود مريم، كان ينتظرها منذ اليوم الأول لافتتاحه الاستديو، لم تنتبه إلى إغلاقه باب الاستديو الخارجي، ودخوله وهي تستعدّ للجلوس على الكرسيّ أمام الكاميرا، أمسكها من يدها وأغرقها بالقبلات، قبّل شفتيها ورقبتها، استجابت للحظات قليلة ثمّ توقفت ومانعته، أبعدته عنها وجلست على الكرسيّ مرّة أخرى قائلة: «صوّرني»، نظرت إليه وهو يتحرّك بهدوء وثقة في المكان، كان قلبها يدقّ بقوّة، يتمهّل في تحضير الإضاءة، شعرت بأنّها ستهجم عليه وتفترسه على الأرض العارية، تصاعدت شهوتها، كان بالنسبة إليها رجلاً مغرياً رغم قامته القصيرة، كان أنيقاً، تفوح منه رائحة عطر لا يمكن لمريم أن تخطئه.

نهضت مسرعة وقالت له: «السبت المقبل أريد الصورة جاهزة»، فتحت باب الاستديو، وعادت مسرعة إلى المنزل، تحوّل جسدها إلى كتلة لهب لم تعرف طعمه من قبل.

طمأنها أورهان بأنّه ما زال يبحث عن هاروت، وأرسل بياناته العائلية إلى أصدقاء في إستنبول وأوروبا، ثمّ عرّج على سيرته الجديدة عن معركته كما سمّاها في الدفاع عن صديقه تيودور وهيلين الرائعة، لم تكن مريم مهتمّة في تلك اللحظة بحماسته، كانت تبتسم مجاملة، تريده أن يكمل

السيرة كي لا يكرّرها حين يذهبان إلى السرير، كعادته في الأحاديث الطويلة التي يكملها في السرير بعد ارتدائها قميص نومها والاندساس قربه. تلك الليلة قرّرت للمرة الأولى النوم في الغرفة الثانية قرب ابنها، لم يمانع أورهان لكنّه بقي يتحدّث طوال العشاء عن يوم ذهابه مع صديقه تيودور إلى قرية العنابية مع شيخ، وصلوا عصراً ولم يكن صعباً وصولهم إلى منزل دياب وفطيم التي عادت للتوّ من عملها في الدير. لم يستوعب دياب وجود هؤلاء الناس المحترمين في منزله، كان يعرف تيودور كمدرّب للكورال الذي أحبّته ابنته المتبنّاة، لكن الشيخ شرح لدياب أنّهم هنا ليطلبوا يد كريمته الآنسة فاطمة كما كانوا يسمّونها، التي هي نفسها هيلين كما سمّاها عرّابها حنّا. تجرّأ دياب وطلب مهلة للتفكير، استشار أصدقاءه وعائلته الذين باركوا هذا الزواج ما دام الرجل يريد أن يصبح مسلماً، ويخلصها من شقاء العيش طوال عمرها خادمةً أو عاملة في حقول العدس، همسوا له بأنّها ستبقى عانساً أو تكون زوجة ثانية لرجل عجوز يبحث عن خادمة في أفضل حظوظها. في الحقيقة كانوا يريدون التخلص من ابنة متبنّاة وتصحيح خطأ الكفر الذي ارتكبته فطيم ووافق عليه دياب. لم يستمع إلى الشيخ يومها الذي قال له علناً إنّ الإسلام يمنع التبنّي، وفعلته هذه تضعه في صفّ الكفّار، لكنّ دياب وفطيم لم يكترثا، كانا يريدان الإنجاب بأيّ ثمن لكنّهما لم يستطيعا، واعتبرا هذه الطفلة هديّة من السماء.

دفع تيودور مبلغاً محترماً لدياب، وطلب من هيلين ترك كلّ ملابسها لتوزّعها أمّها على الفقراء، شبك يده في يدها، وكلّ القرية كانت تراقب هذا الرجل الجميل الذي يصطحب فتاتهم الدميمة بكلّ هذا الحب، نظرت هيلين للمرة الأخيرة إلى العنابية، وركبت في السيّارة التي كانت تنتظرهما.

كانت هيلين تحلم بعالم من الموسيقى، تغرق في أعماقه، تتنفسه كاملاً، وهذا ما منحها إيّاه تيودور الذي قدّمها بعد عدّة أيّام إلى القنصل الهولندي، الذي أقام حفلة خاصة في منزله، غنّت هيلين مقاطع من أوبرا عايدة التي حفظت كلماتها الإيطالية عن ظهر قلب، وردّدت بعض الأغاني العربية القديمة. لم يصدّق الحاضرون أنّ هذه الفتاة كانت قبل أيّام تحصد العدس، وتعلف الحيوانات مقابل فرنكات قليلة، منعها خجلها من مجاملة البشر الأنيقين الذين تحلّقوا حولها يسألونها عن حياتها، كان أورهان يتبختر ومريم تراقبه، يشرح لهم عن حياتها الصعبة التي عاشتها ككلّ العظيمات اللواتي ستكون إحداهنّ دون أيّ شك، يكمل بكلمات يعتبرها قمّة الطرافة أنّها تستحق أن يتحوّل رجل شيوعي كتيودور إلى الإسلام من أجل إنقاذ هذه الموهبة العظيمة، يعيد تذكير الجميع بأنّه تخلى عن عائلته من أجل أن يصبح سوريّاً ويتحوّل إلى أرمني من أجل الزواج بمريم الرائعة، الناجية من المذبحة، كان أورهان يردّد هذه السيرة دوماً منتظراً نظرات الإعجاب من المحيطين به.

سمعت مريم هذه السيرة أكثر من مئة مرة، كان الجميع يجاملونه بابتسامة كاذبة، ويضحكون ضحكات قصيرة، يثنون على شجاعته في الزواج بمريم التي كانت تشعر بالإهانة لكنّها في أعماقها تردّد أنّه على حق، تزوّجها من أجل أن تأكل، ولو لم يكن رجلاً شجاعاً لما تخلى عن عائلته من أجل مبادئه كما كان يردّد، في الوقت نفسه تشعر بالراحة مع مرور الزمن أنّه من أجل مبادئه تزوّجها لا من أجلها، أو من أجل حبّها الذي ألهب ضلوعه. كانت تجد كلمات غزله القليلة بائسة إلى درجة الشفقة. لم تكن تفهمه في الأشهر الأولى، لكنّها فهمت جيّداً بعد ولادة ابنها الثاني أنّ الزواج بها كان من أجل أن تنجب له أطفالاً، وكي يروي أورهان هذه الحكاية في المجتمعات الراقية التي يرتاد حفلاتها بكثرة.

بعد تلك السهرة التي غنّت فيها هيلين احتجبت، ولم ترضَ الغناء مرّة أخرى في سهرات خاصّة لرجال مخمورين، كانت المرّة الثالثة التي تغنّي فيها بعيداً عن الكورال، مرّة قبل ثلاث سنوات في عرض أزياء سعاد، ومرّة في حفلة اقامها أورهان في منزله بعد ولادة ابنه عبد الحميد، وهذه المرّة الأخيرة في منزل القنصل الهولندي الذي سحره صوتها وتباحث مع تيودور طويلاً في ترتيب أمر عودتهما إلى أمستردام، كتب رسالة توصية لحكومته لمنحها الجنسيّة الهولنديّة وتحمّل تكاليف سفرها.

أقامت مريم علاقة طيّبة مع هيلين، تصطحبها معها إلى زيارة سعاد، وتنتقي لها ثياباً جديدة، وأحياناً تطلب من أورهان إرسال السيّارة لتصطحب أمّها فطيم لزيارتها كلّ يوم جمعة، تأتي محمّلة بما توفّره من أجبان وبرغل وبيض، كانت فطيم فقيرة وترضى بالقليل، لا تصدّق أنّ ابنتها الدميمة تعيش في هذا المنزل الجميل، وترتدي هذه الملابس الغالية، كانت هيلين في المقابل تحمّل أمّها الثياب وكنزات صوف لأبيها دياب، وتضع في يدها نقوداً قليلة لكنّها كانت كافية لتعيش فطيم حياة مختلفة. لم تصدّق فطيم حين رأت جواز سفر هيلين الأجنبي، طلبت منها اصطحاب دياب معها في المرّة المقبلة، لكنّها لم تخبرهما بسفرها إلّا قبل اقتراب موعد عودتهما إلى العنابيّة. كانت فتاة مختلفة، تتحدّث بثقة عن عالمها الجديد، تطلب منهما مسامحتها على أخطاء لم ترتكبها، كانت حنونة مع هذين الكائنين الفقيرين اللذين كانا يبكيان حين كانت طفلة إذا أصيبت بنزلة برد. وعدتهما بأنّها سترسل لهما الرسائل والنقود، ستعود لزيارتهما كلّ سنة، مضيفة أنها قد تعود مع طفلها القادم لتعيش بشكل دائم إذا انتسب تيودور إلى السلك الدبلوماسي وعُيّن قنصلاً في حلب.

لم تكن فطيم تصدّق أن ابنتها ستصبح زوجة القنصل الهولندي، في حياتها رأت مرّة واحدة هدى شمعون جيوفاني التي زارت دير زهر الرمّان قبل سنوات، لم تصدّق حين رأت رجلاً ينحني ويقبّل يدها بكلّ تبجيل، لكنّها لم تتوقف عن البكاء لأشهر، رغم الرسائل التي لم تتوقف والحوّالات التي تأتي بانتظام إلى حساب أورهان الذي يتحمّل مشقة السفر في سيّارته وشرب الشاي مع دياب وفطيم وإيصال النقود والرسائل إليهما، كان يقرأ لهما الرسائل التي تكتب فيها هيلين عن سعادتها في بلادها الجديدة، كما كتبت بحرقة عن طفلها الذي أجهضته.

كانت مريم تفكّر بأورهان وهو يشرح لها بانفعال وجه فطيم التي لا تتوقف عن البكاء طوال وقت سماعها رسائل هيلين، تعرف مريم جيّداً سرّ صديقتها، لم تكن حاملاً، حتى إنّ تيودور لم يقترب منها، ما زالت عذراء، وبعد وصولهما إلى أمستردام طلّقها، وعاشت في غرفة صغيرة في منزل أهله الذين لم يفهموا نزوة ابنهم الجديدة إلّا حين استمعوا إلى صوتها، أصابهم ارتباك كبير، لكنّهم لم يطمئنّوا حتى وصلتهم ورقة الطلاق مصدّقة من قنصل هولندا في حلب، كانت عودة ابنهم عن إسلامه الشكلي تعنيهم كثيراً وشرطاً رئيسياً لعودته إلى منزل العائلة.

لم يعد تيودور ذلك الشاب المتمرّد، اشترى محلّاً كبيراً في مركز مدينة أمستردام، افتتح استوديو خاصّاً به سمّاه «بلشفي» تيمّناً بأيّامه القديمة. بدأ رحلة بحث لإيجاد فرصة عمل لهيلين مع إحدى الفرق المرموقة، لكنّه فوجئ بصعوبة الأمر. لم يكن سهلاً على الفرق والمسارح تقبّل حكايتها الغريبة أول الأمر، أعجبهم صوتها لكنّ جهلها كان مشكلة حقيقيّة، يجب إعادة تأهيلها، وتعليمها اللغات الهولنديّة والإنكليزيّة والإيطاليّة، وتربيتها من جديد لتصبح مغنّية أوبرا مرموقة. ازدادت حماسة تيودور، بدأ تعليمها اللغة الهولندية، ودفع رسوم تسجيلها في مدرسة موسيقى قريبة من منزل أهله، لم يبخل عليها بالنقود التي ترسلها لعائلتها كلّ شهر، وبمصروفها القليل لفتاة شعرت بعد وصولها بورطة حياتها الجديدة، خاصّة حين تبقى في غرفتها الصغيرة وحيدة في

الليالي الباردة، تسمع أصوات العائلة في الطابق العلوي، وترى أخت تيودور وأخاه وأمّه وأباه يتحاشون الحديث معها، يكتفون بهزّ رؤوسهم كلما صادفوها في الطريق.

كتبت هيلين لمريم في المرّة الأخيرة أنّها تريد العودة، لكنّها لا تعرف السبيل إلى ذلك، وقّعت سندات ماليّة تلزمها بإعادة كلّ المبالغ من عقودها القادمة، لكن العقود لم تأت، فرصتها الوحيدة كانت حين غنّت مقطعاً صغيراً في مسرحيّة لفرقة هواة كانوا يبحثون عن فتاة دميمة وصوتها رائع، لكنّها لم تحصد النجاح الذي توقعه تيودور حين صعدت إلى المسرح، كان صوتها مختلفاً، لم يكن قويّاً كما كان، أخبرته مدرّسة الموسيقى بأن فتاته تعاني من إحباط شديد، وغربة كبيرة، لن تستطيع الوصول إلى المستوى المقبول لتصعد إلى مسرح صغير في قرية بعيدة، ويجب أن ينسى أمر انضمامها إلى الفرقة الملكيّة، هناك عشرات الأصوات الأقوى تنتظر الفرصة.

طوال سنة 1933 كانت مريم تتلقى رسائل شبه أسبوعيّة من هيلين، وفي رسالة خاصّة طلبت منها أن تخبر عائلتها ألّا تنتظر النقود والرسائل، مضيفة يجب أن ينسوها للأبد. لم تفهم مريم معنى كلماتها إلّا بعد سنتين حين تلقت منها رسالة مفاجئة كتبت لها فيها: حين تصلك رسالتي هذه أكون قد أصبحت مشرّدة. وفي جملتها الأخيرة بكت مريم لأيّام حين كتبت لها: أنا نجوت من المجزرة، لكنّ هذا وهم، نحن لا ننجو من ماضينا، أنا تلك اللفافة القذرة المرميّة أمام باب دير بعيد، وبعد ساعات سيلقون بي خارج المنزل وحياتهم، لا يمكن التخلص من عبء الحياة إلّا بالانتحار، لكن من يملك شجاعته؟ أبلغتها العائلة بضرورة مغادرة الغرفة. شعر تيودور بعبء انزاح عن كاهله، لكنّه في لحظة شعر بخسارة فادحة، واحتقر نفسه. كانت هيلين شاردة في الشوارع، تسير طوال اليوم، وتعود إلى جمعيّة خيريّة تقدّم طعاماً مجّانياً للمشرّدين. انهارت على الرصيف، وفي المشفى قال لها الطبيب بصراحة إنّها تعاني من مرض ذات الرئة، لن تعيش طويلاً، تدبّرت أمر بطاقة سفر في قطار إلى مرسيليا ومن هناك أقلّتها باخرة إلى بيروت، وحين وصلت إلى العنابية كانت فتاة مختلفة، في الرمق الأخير، لم تستطع الصمود رغم عناية فطيم ودياب، ماتت بعد ثلاثة شهور ودُفنت في مقبرة العنابيّة.

لم يستطع تيودور احتمال ما حدث، لكنّه بقي يروي الحكاية بطريقة مختلفة، يبرّئ نفسه من مأساتها. حين بدأت الحرب العالميّة الثانية لم يجد وسيلة ليتخلّص من عبء حكاية هيلين التي تركها للصقيع ينخر عظامها في غرفة حقيرة وصغيرة معدّة لنوم كلاب العائلة، قبل أن تصبح متشرّدة في الشوارع، لتصاب بمرض ذات الرئة وتعود لتموت كما أخبره صديقه أورهان في رسالة طويلة وصف فيها وجهها النحيل وجسدها المتهالك حين وصلت إلى العنابية. تطوّع تيودور كمصوّر حربي لإحدى المجلات الروسية التي أرسلته إلى الجبهة، كان يرسل الصور من هناك، كان مجنوناً يريد الموت، لم يكن يريد النجاة لكنّه يبحث عن الخلود الذي حلم به مراراً، قُتل تيودور في يوم ربيعي عام 1942، وما زال اسمه محفوراً على نصب تذكاري صغير في أحد شوارع أمستردام الضيّقة، بينما صوره تُطبع في كلّ مكان من العالم ويُكتب تحت صور هلين: فتاة من الشرق.

تذكر مريم تلك اللحظة التي مدّ فيها وليم يده بألبوم صور تيودور المطبوع في بريطانيا حيث جامعة أوكسفورد التي اشترت حقوق طباعته من أخته التي ساومت الجامعة على منح ابنها البكر منحة لدراسة الطبّ مقابل الصور، طبعت الجامعة الصور النادرة وصدرت طبعة الألبوم الأولى عام 1947.

حين فتحت الألبوم وقرأت تحت اسم هيلين «فتاة من الشرق»، غضبت وفكّرت في الكتابة للجامعة لكنّها أقلعت عن الفكرة. رأت أنّها يجب أن تذهب إلى النسيان. كانت مريم تفكّر بأنّها المرّة الأخيرة التي سترى فيها وليم، ويجب أن يذهب كلّ ماضيهما إلى النسيان. تريد ولادة جديدة لحياتها، لم تعد ناجية من المجزرة بل امرأة تنتمي إلى عالم كامل، متجذّر في العائلة، قرّرت أن تصبح جدّة محترمة، لطالما أعجبتها صورة الجدّات، لكنّها لم تخف انزعاجها من عدم اكتراث سعاد بألبوم صور تيودور، التي كانت فيها صورة هيلين تغنّي على منصّة عرض أزيائها رائعة وفريدة، أزاحت سعاد الألبوم بعدما قلّبته بسرعة، وقالت لمريم: من شروط الجدّة نسيان الماضي المؤلم، وتذكّر مناسبات الأحفاد ولحظاتهم السعيدة فقط. لم تضف سوى كلمات قليلة، ترحّمت على هيلين، وعلى أمّها ودياب. كانت سعاد مشغولة بمنع تحويل منزلها إلى مقبرة أشياء كلّ من تعرفهم، نصحتها بأن تنسى ماضيها، المجزرة، هاروت، وليم، هيلين، الدير وماريانا، لكنّ مريم لم تستطع نسيان أيّ شيء، ظنّت أنّها نفّذت نصيحة سعاد، لكنّ قدميها قادتاها مرّة أخرى إلى استديو وليم، أعجبتها الصورة الأولى، كانت تبدو فيها امرأة متحرّرة من ماضيها، طيف ابتسامة على شفتيها. حاولت مغادرة الاستديو لكنّها لم تستطع، انتظرت نهوض وليم من وراء مكتبه واحتضانها لكنّه لم يفعل، بقي مكانه يتشاغل عنها بترتيب صور زبائن آخرين، لم يغلق الباب كما فعل في المرّة الماضية. حين غادرت صافحها ببرود، فكّرت في الطريق بأنّه أيضاً يريد نسيانها، كان دمها مشتعلاً، يغلي في عروقها. في الليلة ذاتها، غادرت السرير تاركة أورهان إلى نومه المنتظم، كانت مشتاقة إلى وليم، استعارته، تمدّدت على الطراحة قرب سرير ابنها، يدها على حلمتها، تمنحه إيّاها، غرقت في عادتها السرّية التي ستلازمها سنوات طويلة مستعيدة مشهد احتضانه لها بقوة وإغراقها بالقبلات.

عادت إليه بعد أيّام قليلة، كانت تفكّر فيه طوال الوقت، تبقى قلقة في السرير قرب أورهان الذي لم تعد تغريه روائح عطرها، ولا قمصان نومها الشفافة التي تشتريها من أفضل محالّ حلب التي انفتحت أسواقها على ماركات عالميّة، وتجارب جديدة في التصميم وفي السلوك، إذ لم يعد مثلاً خروج امرأة دون حجاب أمراً مستهجناً، الكثيرات كنّ يذهبن إلى دور السينما ويحضرن الأفلام بكامل أناقتهنّ.

تغيّرت المدينة كثيراً لكنّ مريم بقيت تتذكّر نصيحة سعاد عن النسيان، لكنّها لا تستطيع فعل ذلك، كان الماضي ثقيلاً، ولا يمكن إزاحته.

دخلت إلى الاستديو مصمّمة على طرده من حياتها، فوجئت ببروده وهو يعمل متجاهلاً وجودها، لم تمكث طويلاً لكنّها شعرت بهزيمتها، وفي الطريق قرّرت أنّها لن تعود مرّة أخرى إلى فخاخه. وليم غير مكترث، يقضي وقتاً مرحاً في المدينة، كلّ ليلة يدخل إلى بار فندق بارون، يتحاشى الزبائن ويجلس وحيداً في الزاوية.

في تلك الليلة حضر في موعده إلى البار، طلب مشروبه جن تونيك، فكّر بأنّه كان قاسياً مع مريم، لكنّه لم يعرف لماذا تجاهلها في المرّة الثانية، كان يريد الانتقام منها، لم ينس زواجها بهذه الطريقة الغريبة، لم ينس تجاهلها له حين التقته أكثر من مرّة في مشغل عمّته سعاد، لم تلاحظ زوغان عينيه، ولم تكترث لرسالته التي دسّها في يدها. كان قاسياً ويجب أن يؤنّب نفسه، كانت ترغب في الحديث لأول مرّة منذ ثلاث سنوات. فكّر بأنّه لن يُشفى منها، ويجب أن يتعايش مع مرضه هذا، في أعماقه كان مبتهجاً لأنّه استطاع تجاهلها، أعجبته نصيحة الشاب الذي التقاه الأسبوع الماضي في هذا البار للمرّة الأولى، حين كان يجلس في الزاوية المهملة من البار وحيداً،

اقترب منه ومدّ يده مصافحاً، قال: أنا سام وأنت المصوّر العظيم وليم البيازيدي، أريد أن نصبح صديقين كما كنّا قريبين ذات يوم قبل مئتي سنة.

صافحه وليم بخجل كعادته، وضع الكرسون الأرمني أمامه كأس ويسكي، جلس سام على الكرسي بجانبه، قال له: «يجب أن تنسى يا صاحبي، لا تقترب من امرأة لا تستطيع نسيانها». كان سام يتحدّث بجمل تبدو مقتطعة من كتاب حكمة قديم، سأله وليم عن ادّعاء قرابته، ضحك سام وقال بلهجة واثقة: الشيء الذي أتقنه جيّداً هو معرفتي أنساب كلّ عائلات حلب، لم يكترث وليم، شعر بأنّ الموضوع لا يخصّه، أكمل سام معدّداً نسب وليم للجدّ الرابع، لم يثر فضوله معرفته بأسماء أفراد عائلته، الجميع يعرفون هذه المعلومات التي أراد سام إيصالها له، أكمل سام سرد الحكاية التي يعرف وليم القليل عنها، لكن طريقة سرد سام لها أعجبته، أخبره بهدوء بأنّ جدّه الثاني هو الأخ الشقيق للجدّ الثالث حنّا كريكورس صديق أبيه زكريّا. صمت وليم، شعر بأنّ سام يريد استعراض معلومات خياليّة أمامه. حاول وليم الهرب من سام لكنّه لم يستطع، شعر بأنّ حكاياته تساعده على تجاوز هذه الليلة القاسية وتحميه من ارتكاب حماقة، طلب من سام قبول ضيافته، تقبّلها سام بسرور، عرض عليه الانتقال إلى بار جديد قريب، قال له: هناك سنجد نساءً جميلات، لم يتحمّس وليم لكنّه وعده بالسهر هناك في الأيّام القليلة المقبلة.

أكمل وليم طريقه إلى المطبعة، كان مخموراً، وجد جنيد خليفة يعاني من نوبات ربو، يبتسم كعادته، أنّبه على تأخّره في تحقيق كتاب رحّالة إنكليزي اتفقا على طباعته، قال وليم لجنيد خليفة إنّه سيكتفي بالتصوير. ثمّ صمت الاثنان. كانت خسارة جنيد خليفة كبيرة، الذي وجد في حماسة وليم فرصة للهرب من تنضيد أحرف الرصاص، لقد تعب وشاخ، ولم يعد متحمّساً للمشاركة في سجالات سياسيّة، قرّر التفرغ في قبو هذه المطبعة التي اشتراها من صديقه أمين كحّالة الذي قرّر الهجرة إلى النمسا.

لم تنقطع زيارات وليم لصديقه جنيد خليفة، لكنّها تباعدت، وفي زيارته الأخيرة لاحظ أنّ المطبعة متوقفة، وجنيد خليفة قد لملم كلّ أشيائه، وترك حقيبة مليئة بالأوراق. قال لوليم إنّه قرّر بيع المطبعة والعودة إلى قريته العنابيّة، سيشتري أرضاً كبيرة ويعيش من فلاحتها، وسيمضي عمره في قراءة الكتب التي يحبّها، خانته المدينة، ولم تقدّره.

شعر وليم بأنّه أتى في وقت غير مناسب، لبّى رغبة صديقه بتصوير المكان قبل تسليمه لمالكه الجديد، التقط وليم عدداً كبيراً من الصور للمطبعة ولجنيد خليفة، ودّعه ووعده بزيارته في العنابيّة أثناء زياراته للدير.

افتتح وليم الاستديو الخاصّ به، كي لا يعود إلى الدير ويغرق من جديد في عالم ماريانا التي أصبحت تتشكّى من هجره، وعالم حنّا وزكريّا الذي انهار وتداعى بعد حرق القلعة. محو الماضي ليس سهلاً، سمع حديث زكريّا القاسي مع حنّا، وهو يخبره أنّ رخاوته جعلتهما سخرية كلّ البشر، كان يطلب من رفيقه استعادة قوّته، ذكّره بأحلامهما القديمة. شعر زكريّا بأنّ شرفه قد مُرّغ، كان ينتظر موت النساء العجائز ليحوّل المكان إلى منزل لهما، أو التبرّع به لأيّ شخص يحتاج إليه، لكن اقتحامه وحرقه وتبديده وسرقة آل الخضر لأحجاره أشياء لم يحتملها زكريّا. بقي حنّا يبتسم وهو يستمع إلى كلمات صديقه الغاضبة التي لم تتوقف حتى قاطعه حنّا قائلاً: لم يقبل أحد توبتهنّ. حديث حنّا عن التوبة كان أكثر ما يكرهه زكريّا، لكنّ حزنه الصادق أشعره بالذنب مرّة أخرى. غادر غرفة حنّا، ركب حصانه، حمل بندقيّته، خرج من الدير مصمّماً على قتل سليم الخضر، وجد نفسه تائهاً في الحقول، ترجّل عن حصانه، وقف على حافة الجبل، كان القمر يتلألأ على صفحة

نهر عفرين البعيد، لم ينتبه إلى نفسه يبكي بحرقة، فكّر بقتل نفسه، كان ممتلئاً بالآثام أيضاً، لم ينس تلك الليلة التي أغوى فيها إيفون، لاحقها لأيّام في ممرّات الدير، لم يفاجأ بدخولها إلى الإصطبل، كانت تعرف أنّ الشمّاس بولس حلّاق مسافر مع ماريانا إلى حلب، أغلق الباب بهدوء، جلست قرب موقد الحطب، وسألته ماذا تريد منّي؟ نهض زكريّا من مكانه، احتضنها بذراعيه، قبّلها عدّة قبلات، ولم يجب عن سؤالها، قادها إلى سرير بولس وعرّاها من ثيابها، ولم تمانعه، كانت تشتهيه، رتّب أمر لقائهما طوال شتاء 1909، كان الدير وقتها يعيش فوضى كبيرة، لم تهيمن ماريانا على المكان، كان صوت حنّا لا يزال قويّاً، بعد عدّة أيّام عرفت إيفون الطريق إلى منزل زكريّا الملحق بإصطبلاته، تقطع حقول الدير وتتسلّل كلّ ليلة إليه، صدّقت كلمات حبّه، شعرت بأنّها خُلقت لتلتقي هذا الرجل، تهرّب منها بعد حملها، لم يستطع تصحيح خطئه. الشيء الوحيد الذي قدّمه لها مقابل صمتها غرفة مستأجرة في أحد المنازل المشتركة، أو الرحيل إلى بيروت حتى تلد وتتصرّف في المولود، كان زكريّا قاسياً، لا يعرف لماذا تخلى عن إيفون بهذه البساطة. كانت فتاة لطيفة، وأشعرته خلال الأشهر التي عاشا فيها بالأمل مرّة أخرى. لقد خذلها.

بعد الطوفان لم يبق لها مكان تلجأ إليه، طلبت مساعدة صديقة طفولتها ماريانا التي اشترطت عليها الانضمام إلى سلك الرهبنة، لم تكتف ماريانا بموافقة المطران كريكورس على وجود إيفون في الدير ولا حماية حنّا لها، كانت تريد إرسال رسالة إلى الجميع بأنّ كلّ أمور الدير في يدها، ويجب أن توافق على أيّ شيء ليتحقق. لم تجد إيفون أمامها خياراً سوى الموافقة على شروط ماريانا والخضوع لها، انتهت أحلامها بتكوين أسرة رائعة، والعيش في المدينة.

شعرت في بداية أيّامها بأنّها في المكان الخطأ، كرهت ماريانا، وأشفقت على حنّا، ليالي كثيرة كان يلازمها صداع رهيب، تخرج من غرفتها وتجلس وحيدة، تتنفس بعمق، لا تعرف ماذا تريد، ضيق يحاصرها، يلتهب جسدها شوقاً إلى رجل، تفكّر طوال الوقت بأنّها يجب أن ترحل عن هذا المكان، عائلة عمّتها الفقيرة لم ترحّب كثيراً بمشاركتهم المنزل الصغير، وأعمامها تجاهلوا ما حدث. منذ زمن بعيد كان يعجبها زكريّا، كانت الفتيات في قرية حوش حنّا يتأوّهن حين يقود أحصنته إلى المراعي، أو حين يعود من سفر، يحسدن شاها في أعماقهنّ. لا تعرف حتى الآن كيف قادتها قدماها إلى الإصطبل، كانت تريد التحدّث إلى زكريّا، لم تستطع مقاومة الاندساس في صدره، كانت في تلك اللحظة تحتاج إليه، وحين حبلت شعرت بورطتها الخطرة. بعد اعترافها لماريانا بما حدث طالبة مساعدتها كصديقة قديمة، حبستها ماريانا في غرفة المؤونة، شعرت إيفون بالراحة للمرّة الأولى بعد الطوفان، تجول في القبو المظلم، لا تعرف لماذا لا تموت الآن وتنتهي مأساتها، استعادت شجاعتها في الليالي السبع التي قضتها وحيدة، طلبت لقاء ماريانا وأخبرتها بأنّها ستعترف أمام الجميع بما حدث، ولا تهمّها الفضيحة، سيقتلها أبناء عمّها الباقون وينتهي الأمر، ثمّ أردفت: وقبل أن يقتلوني سأنتحر. كانت لهجتها الجادّة تخيف ماريانا التي لا تريد لديرها حكاية مثل هذه، عقدت اتفاقاً معها على مغادرة الدير، وهجر الرهبنة، والاختفاء تماماً عن المدينة، قبلت العرض بأريحيّة وكانت تنظر بتشفٍّ إلى ماريانا التي عاملتها كخادمة لا كصديقة طفولة، بطنها المنتفخ بدأ يفضحها. طلبت الحديث مع الأب إبراهيم، اعترفت له بكلّ شيء، طلبت مساعدته، لقد تدنّست، كانت تشعر بالضعف الشديد أمام الأب إبراهيم الذي رتّب أمور خروجها من الدير، نصحها بقبول عرض زكريّا إلّا أنّها لم توافق، عرفت أنّها في النهاية مسيحيّة خاطئة، لا تريد تصحيح الخطأ بخطأ أكبر، كانت لحظة ضعف رهيبة وانتهت الآن.

استأجرت إيفون غرفة في منزل عجوز يهوديّة في حيّ الجميليّة قرب مكتب عازار، دفع زكريّا إيجارها، ولدت طفلتها التي حملتها في يومها الرابع، غير مكترثة بأن يراها أحد، وضعتها أمام باب الدير، لملمت أغراضها القليلة، وغادرت إلى طرابلس، وجدت عملاً كمعلّمة في مدرسة ابتدائيّة في طرابلس، بواسطة من الأب إبراهيم، عاشت وحيدة في غرفة مستأجرة مع رفيقاتها القادمات من القرى القريبة، سعادتها الوحيدة كانت في الرسائل التي تتلقاها من الأب إبراهيم، تكتب له طويلاً عن الخطيئة، والدنس، والندم. كان يشدّ من أزرها، يمتدح شجاعتها الفائقة في مواجهة مصيرها. زارها ثلاث مرّات خلال السنوات السبع التي تراسلا فيها بانتظام، في المرّة الثالثة كانت قد انتقلت إلى منزل مؤلف من غرفة نوم وصالون في بناء متهالك قريب من الميناء، قضى الأب إبراهيم أسبوعاً في ضيافة مكتبة الكنيسة الكاثوليكيّة في طرابلس، ينهي عمله في الرابعة مساءً، يذهب إلى منزل إيفون التي تنتظره على الغداء، احتفت فيه بطريقتها، كانت تبدو مرتاحة، وحكايتها مع الطفلة التي كانت دميمة ومع زكريّا والطوفان قد انتهت. تتحدّث بثقة كبيرة، تخطّط لمستقبلها، تربطها علاقة جيّدة مع مجموعة عائلات لطيفة، تشاركهم مناسباتهم، لم تعد تشعر بالغربة. حين تتحدّث عن أهلها تتوقف عند سيرة الطوفان، كأنّ حياتها في الدير وعلاقتها مع ماريانا شيء لم يكن، ولم يحدث أصلاً، إنّه حلم يقظة ثقيل الوطأة، كرهت زكريّا وحنّا وماريانا، ولم تصدّق شيئاً، عاشت في الشك، تقرأ كتباً وتشارك في فعاليّات المدينة الثقافيّة، تكتب لإبراهيم بشغف وترسل له الكتب الجديدة حين تزور بيروت.

في زيارته الأخيرة تحدّث الأب إبراهيم لأول مرّة عن حياته، عن أمّه التي ماتت في الطريق إلى الحجّ، وجدّه الذي ربّاه وعلّمه رسم خرائط الأديرة، والتنقيب في تاريخها. كان يصطحبه معه في رحلاته الطويلة، كتب كتاباً رائعاً عن طريق الحجّ المسيحي من حلب إلى بيت لحم، سرد فيه كلّ التفاصيل وجمع الحكايات وخاصّة الطريفة التي حدثت خلال عشر سنوات من ترؤسه لقافلة الحجّ.

قال إبراهيم الذي كان يقترب من الستين من عمره متعباً، إنّه قد انتابه الملل من حياة الأديرة، وصراعات رجال الدين التي لا تتوقف، يريد المغادرة ليعيش حياة مختلفة لكنّه لا يعرف شكلها، سهراته التي قضاها مع إيفون منحته أملاً كبيراً، تواطأ معها في نسيان أمر هيلين. بعد عودته تلقت رسالة طويلة منه يعترف لها خجولاً بحبّه لها، يعرض عليها مشاركته حياته المقبلة، كانت تشعر بأنّه رجلها المناسب، لم يعنها أنّه يكبرها بخمس وعشرين سنة، لكنّه كان رجلاً طيّباً، حنوناً، متسامحاً، يثير البهجة في كلّ مكان. أرسل رسالة طويلة للكاردينال أنطون الديري القريب من البابا في روما، لم يكن سهلاً انتزاع موافقة الزواج والاستقالة من السلك، شعر باسترداده حرّيته حين وصله قرار البابا بإعفائه قبل وقوعه في الخطيئة. وصل إلى طرابلس حرّاً من كلّ التزام، تزوّج إيفون في عام 1929 ورحلا إلى بيروت. وجد الأب إبراهيم عملاً يحبّه، أميناً لمكتبة الجامعة اليسوعيّة، استأجرا منزلاً صغيراً في الأشرفيّة، وأنجبا فتاة كان يريد الأب إبراهيم تسميتها عائشة من فرط حبّه لها، لكنّ إيفون اعترضت ولم يناقشها، تفهّم حساسيّة امرأة رمت منذ زمن بعيد أحمالها الثقيلة وراء ظهرها وسارت على طريق الآلام للتكفير عن خطأ وكان ندمها صادقاً. اتفقا على تسمية الفتاة الأولى أنتوسا أو رفقة الشهيدة تيمّناً بأمّ القدّيس يوحنّا ذي الفم الذهبي.

لم تنقطع علاقة الأب إبراهيم مع سكّان الدير، بقيت عائشة ترسل له المؤونة من حلب إلى بيروت، ولم تنقطع عن زيارته، تحجز غرفة في فندق في ساحة البرج، تقضي أسبوعاً برفقة الأب إبراهيم يزوران فيها المطاعم ويقضيان وقتهما يتحدّثان ويضحكان، تتفهّم عائشة حساسيّة إيفون

لعلاقتها مع سكّان الدير، لكنّها في السنوات الأخيرة استطاعت إقناعها بارتباط مصائرهم جميعاً، أحبّت إيفون عائشة ولم تعد تمانع استضافتها في منزلها الصغير مع أبنائها الثلاثة، لكنّها لم تلبّ دعوتها لزيارة حلب.

عرفت عائشة متأخّرة تفاصيل قصّة هيلين وزكريّا وإيفون، غضبت من زكريّا، بكت وهي تشدّه من صدره وتؤنّبه على تخلّيه عن إيفون وأختهما هيلين، لكن كان كلّ شيء قد انتهى. ماتت هيلين، ورحلت إيفون، وزكريّا هرم كأحصنته. لم يعد الأب إبراهيم إلى الدير المتهالك، بدا سعيداً في حياته الجديدة، كلّ يوم يعود من عمله في المكتبة لتناول الغداء، كانت إيفون سيّدة منزل من طراز نادر، لا تترك شيئاً للصدفة، تعتني بشؤون زوجها، تكوي قمصانه، وتلمّع أحذيته، تطبخ، وتهتمّ بشؤون تلاميذها الذين ما زالوا يتذكّرونها بكلّ احترام، يذكرون نظراتها الحزينة، وقوّة العاطفة في قلبها.

كان رحيل الأب إبراهيم واستقالته من الرهبنة والكنيسة مفاجأة كبيرة للجميع، لكنّها كانت بالنسبة لوليم كارثة حقيقية، لقد فقد معلمه الروحي الذي أرشده في اللحظات الصعبة إلى طريق النور الخفيّ الذي كان يراه وحده. لم يستطع جنيد خليفة ملء الفراغ الكبير في قلبه، كان كئيباً وجدّياً أكثر ممّا يجب، ومهووساً بسيرته كمعلم تحوّل إلى مريد لأحد تلاميذه، واحتفاظه بأسرار إمام العاشقين. وحين التقى في تلك الليلة بصديقه الجديد سام شعر بسعادة خاصّة، كان سام يروي له ببساطة تاريخ كلّ شخص في المدينة، تاريخ العائلات، قراباتهم، وتاريخ انهياراتهم الاقتصادية وسرّ الزيجات الكبرى، ذاكرته القويّة جعلت وليم يشعر بحاجته إليه دوماً، فقد كان وليم كثير النسيان، يضيّع أشيائه، يسهو عن مواعيده المهمّة، لم يحبّ يوماً عالم الأضواء، أحبّ الظلال التي يجدها في عالم التصوير. صدّق حكاية جدّه الثاني المسيحي الذي تحوّل إلى الإسلام لعدم استطاعته دفع الجزية المفروضة على المسيحيّين للحفاظ على دينهم، لكنّه لم يفهم سرّ تحوّله إلى رجل مسلم متشدّد كما تروي المدينة عنه. فسّر سام له الأمر ببساطة بأنّ المسيحيّين المتحوّلين إلى الإسلام كانوا موضع شكّ دائم من المسلمين، لا يثقون بهم، وهم لا يصدّقون أيضاً أنّهم لن يضطرّوا للنزول عن الرصيف ليفسحوا الطريق للمسلمين، ولن يرتدوا الملابس التي تميّزهم، إنّه شعور الانتماء إلى القوّة. صمت وليم طويلاً وفكّر في علاقة جدّه أحمد البيازيدي مع كابرييل كريكورس. في النهاية لم يكن مكترثاً، أراد فقط أن يحدّث سام عن مريم. غرق في وحدته وعزلته، لكنّه منذ تلك الليلة أصبح شريك سام في مغامراته المجنونة. أحبّ سام حياة الكسل واكتفى بالنقود التي يجنيها من إيجار محله في خان الحرير، وحصّته من أرباح محلّ أبيه الصائغ الشهير الذي يديره إخوته الأربعة، لم يكن مولعاً بالرضى الذي يبحث عنه الجميع، يبدو لمن يلتقيه للمرّة الأولى أميراً دون إمارة، تكفيه النقود ولا يطمح لتأسيس عائلة، يقضي لياليه بين البارات والمطاعم ويحبّ المبيت في الفنادق تاركاً منزله لأخته الكبيرة العانس التي اختارت العيش معه بدل الموت وحيدة كما كانت تردّد خائفة.

أعجبه وليم رغم أنّه يكبره بعشر سنوات، وطباعهما مختلفة، لكنّهما بعد فترة وجيزة أصبحا صديقين لا يفترقان، يتكتم وليم بأمور علاقاته التي بدأت تنتشر حولها إشاعات كثيرة. لم يرغب في العمل مصوّراً تجاريّاً، أسّس الاستديو على الطريقة الأوروبيّة التي يبدو فيها كغاليري يجتذب النخبة.

هذا الغموض جعله جذاباً في أعين سيّدات المجتمع اللواتي يطمحن للخلود، كان يتأمّل الزبونات بعيني ذئب، أصبحت مريم بعيدة جداً، حين رآها تدخل إلى الاستديو قرّر في لحظة أنّه سيطردها

من حياته، أمسكها بقوّة من خصرها وقبّلها بعنف مبالغ فيه، كانت رسالته واضحة، لم يعد ذلك العاشق الرومانسي الذي كان يحمل إليها الزهور البرّية كلّ صباح، ولم تتوقف الفتيات شريكاتها في غرفة الدير عن التعليق ضاحكات على مراهقته، ومجاهرته بحبّها رغم أنّه لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره.

كنّ يرينه مراهقاً لطيفاً، لا يتمتّع بالجاذبيّة التي تحتاج إليها فتاة لتنجذب إلى فراشه، لكنّ النسوة اللواتي وقفن أمام كاميرته شعرن للحظات بأنهنّ ملكات حقيقيّات، لا يخالفن أوامره، حين يطلب منهنّ النظر إلى زاوية معيّنة، أو الاضطجاع على الصوفا الحمراء، كان يعرف ما يدور في أعماقهنّ، لا يشارك في دسائسهنّ ولا ينحاز لواحدة ضدّ أخرى، كان صارماً في رأيه، لا حديث عن أخريات، بل عن الذات، عرف عقد نقصهنّ وتسلل إليهنّ، فوجئن بقوّته وأفكاره المجنونة عن الجنس حين يلتقط نظراتهنّ المتواطئة التي يعرفها جيّداً، يسمّيهنّ فرائس الظلال. يحدّث سام عنهنّ دون أن يتلفّظ بأسمائهنّ، كان مولعاً بالحفاظ على سرّية علاقاته، يؤشر صورهنّ بعلامات سرّية لا يعرفها أحد سواه، في البداية اصطاد امرأة فرنسيّة زوجة أحد الضبّاط المقيمين في حامية جبل الزاوية، كانت تحبّ التفاخر أمام سيّدات مجتمع حلب الغنيّات اللواتي يدعونها إلى ولائمهنّ التي لا تتوقف، يشتمن فيها إبراهيم هنانو والشيخ صالح علي وسلطان باشا الأطرش الذين لا يريدون للفرنسيّين تمدين البلد. دخلت المدام شوفالييه إلى الاستديو قبل الغروب، نظرت إلى الحائط المكتظ بصور غامضة لنساء تحيط بهنّ الظلال، ارتعشت وهي تبرز مفاتنها أمام الكاميرا، قالت له: «افترضني زنوبيا ملكة تدمر وصوّرني».

أغلق باب الاستديو، وصبّ لها كأساً من النبيذ الفاخر، رتّب الإضاءة متمهّلاً، كان يراقبها بطرف عينه، حين جلست أمامه على الكرسيّ طلب منها أن تبرز نهديها الكبيرين، فوجئت بيدها تمتدّ وتلبّي كلّ طلباته، وعيناها معلّقتان بطقّة الكاميرا، لم يتمهّل حتى، اصطحبها إلى منزله الذي يربط الاستديو بممرّ يعرفه وحده.

أدهشتها رجولته، وطريقته في ممارسة الجنس الفاحش، كان يهينها بطريقة سوقيّة جدّاً، وهي تشعر بلذة لا متناهية، حدّثت صديقاتها عنه من دون أن تروي كلّ التفاصيل لكنهنّ فهمن أنّه ليس ذلك الشابّ الصغير الخجول الذي يتحاشى النظر إلى صدورهنّ التي يدفعنها لتظهر أنوثتهنّ في الصورة.

لم يكترث وليم بالإشاعات المحيطة به والتي ينقلها له سام، يبتسم ويقول إنّ ما حدث أفظع بكثير، أسهم سام في الترويج لسحر صديقه، وأسطورته التي لم تحتملها مريم، شعرت بالغيرة وهي تسمع النساء يتحدّثن عن صوره الساحرة، وطريقته في تدليل زبوناته وفهمه لهنّ ولقلقهنّ من تقدّم العمر أو عدم الخلود.

بعد عودتها إلى منزلها إثر لقائهما الأول شعرت بالارتباك الشديد، لم يكن عاشقها الذي تعرفه، من الواضح أنّه نام مع نساء كثيرات حتى أتقن طريقة التقبيل التي جعلتها ترتجف لأيّام، تفكّر فيه وفي كلماته الإباحيّة التي همس بها في أذنها، لم تحتمل هجره، عادت إليه مرّة أخرى، تجاهلها وتعاطى معها ببرود شديد كأنّه لا يعرفها، لم يعد يرغب في صورته القديمة كعاشق بائس تهجره من أجل رجل تصفه سعاد بالرجل النيء، التافه، الذي لا طعم له.. تذكّر أنّها لم تودّعه. لم تفهم رسائله التي بقي يرسلها لها في لقاءاتهما المتكرّرة كلّ يوم سبت، تحدّثا مرّة واحدة وكان قاسياً في ردّه حين سألته إن كان يحبّها، قال لها: «لا ينسى رجل امرأة أهدى لها كلّ ورود العالم»، لكنّها لم تستوعب حين قال لها: أنت أصبحت ظلّ النساء الأخريات، كانت تعجبها تعبيراته، وتحاشيه

لمسها، يصوّرها بطقوس خاصّة، لا تنتهي فخاخه، يفاجئها كلّ شهر بصورة جديدة يقرأ فيها شبقها وشوقها وتعفّفها، وفي الوقت نفسه يصطاد كلّ النسوة اللواتي حولها، وخاصّة اللواتي يستطعن إخبارها عن غراميّاتهنّ معه، كان يعتني بهنّ خصوصاً، كان يعرف أنّ مريم ستشمّ رائحته في ابتساماتهنّ المتواطئة.

فكّرت مريم في أوقات كثيرة بأنّها أخطأت في اختيار حياتها، كانت لديها فرصة لحياة مجنونة، كلّ مرّة تأتي فيها إلى الاستديو تقرّر أنّها الأخيرة، لكنّها تعود مرّة أخرى دون أن تفهم سرّ جاذبيّة رجل يتركها على الكرسيّ الذي لم يسمح لامرأة أخرى بالجلوس عليه، وفي الوقت نفسه يتحاشى لمسة يدها.

بعد سنة جلست مريم وتأمّلت مليّاً الصور الاثنتي عشرة التي التقطها لها، كانت امرأة مختلفة، عاشقة، نزقة، تعيش حياتين دون أن تستطيع اختيار إحداهما، تريد المحافظة على عائلتها وفي الوقت نفسه أن تكون كلّ النساء اللواتي يتهتّك معهنّ، لم تحتمل ذات يوم حديث صديقتها ناريمان عن لحظاتها التي لا تُنسى مع وليم، تصف بأدق التفاصيل أفكاره المجنونة، تثني على صورها القليلة، وتسهب في شرح فكرة الظلال، تفهم مريم أنّها رسائل وليم لها، تكتم غيظها من أنّه لا يقول لها الكلام نفسه، فقط يجلس في العاشرة صباحاً ويحتسي قهوته مع طيفها، حوّلها إلى طيف بينما هي تريد أن تكون كياناً محسوساً في ظلاله.

ذات ليلة شربا فيها حتى الثمالة، تحدّث وليم لسام عن مريم، قال إنّها النهر الذي يحبّه، والمدينة التي تزيد قلقه ولا يتوقف عن تخيّلها، تعيش تحت جلده. لم يكن سام يتخيّل عذابات صديقه، سأله ببرود: «لماذا لا تلجها كباقي النساء؟» لم يستطع الإجابة عن السؤال الذي اعتبره غبيّاً، أضاف أنّ هجرانها يعني الموت.

لم يفهم سام العلاقة بين هجرانها وإيلاجها كالعشرات اللواتي صنعن أسطورة صديقه كزير نساء صامت، في الليالي اللاحقة أخبر وليم صديقه سام تفاصيل كثيرة من قصّتهما البريئة، قرّر أن يترك لأحد غير سعاد حكايتهما. لا يمكن لرجل واحد أن يعشق مريم، هذه امرأةٌ تحتاج إلى جموع حاشدة من العشاق. تركه سام يهذي، وأمسك بيد إليزابيث الفتاة الإنكليزيّة التي وصلت أمس إلى حلب، وبحثت عن سام بناءً على توصية من صديقتها عالمة الآثار التي شاركته فراشه وعبثه خمسة أشهر كاملة. كانت الفتاة لطيفة ومهذبة، تستخدم ضمير الجمع حين تحدّثهما. كانت مفاجأة لوليم، تشبه مريم لكنّ شفتيها أكثر جمالاً كأنّها ورثتهما من جدّة أفريقيّة، لم يعجب سام كلام إليزابيث الرسمي، كأنّها تضع بينهما الحواجز. وصلت إليزابيث في مهمّة لتصوير خانات المدينة لجامعة أوكسفورد، كانت مصوّرة هاوية، معلوماتها عن التصوير تكفي لالتقاط صور غير فريدة لكنّ زواياها وإضاءتها صحيحة، ضجر سام من حديث وليم وإليزابيث عن التصوير. كانت حكاية وليم مع معلّمه تيودور وعلاقته مع الكاميرات القديمة مفاجأة كبيرة لإليزابيث.

كان وليم مهذباً، وفي الليالي اللاحقة أكمل الاثنان حديثهما عن الحبّ، لم يعرف وليم لماذا يحدّثها عن مريم بكلّ هذا الشغف، كما لم تعرف إليزابيث لماذا تحدّثه عن جون حبيبها الذي اختفى بعد إبحاره إلى مصر على متن سفينة عسكريّة كجندي مشاة. يشعر سام بالملل من حديثهما المتواصل، يذهب إلى طاولة أخرى في البار، ويجامل امرأة يريد اصطيادها، أو يتركهما ويذهب إلى المنزول العمومي في بحسيتا ليصطحب فتاته التي تنتظره دوماً، قضى وليم وإليزابيث ليالي طويلة يتحدّثان بشغف عن حبّهما الخائب، حتى وجدا نفسيهما في الفراش، كانت فكرة وليم أن يتبادل الاثنان الأسماء، أصبحت إليزابيث مريم وأصبح وليم جون، سمحا لنفسيهما بالملامسة أول

الأمر، ثمّ لحظات عتاب عميقة ألقت فيها إليزابيث مونولولجاً طويلاً عن عذابها لفقدانه، وسعادتها لعودته إليها، تحدّث وليم عن ألمه الذي لم يتوقف وهو يتخيّلها كلّ النساء اللواتي كان يقودهنّ إلى سريره، أعجبتهما اللعبة، تماهيا مع أدوارهما الجديدة، رافقها وليم إلى الأسواق، ساعدها على التقاط صور مدهشة، كان سام يراقب بمرح ما يحدث أمامه من تماهي صديقه وضيفته، لم يعجبه تمديد إقامتها في المدينة، كما لم تعجب مريم الحكاية التي رواها وليم ببرود عن بديلتها الإنكليزيّة، قرّرت في لحظة أن تبتعد إلى الأبد عنه. غابت أكثر من ستّة أشهر، لكنّها عادت إليه مرّة أخرى. كان يحوم حولها كلّ صباح بقوّة أكبر من ذي قبل، وجدته محبطاً لسفر إليزابيث التي منحته لحظات لم يستطع وصفها في ما بعد. لم تفهم مريم اختلاطات ذاكرته، شعرت بورطتها الحقيقية، هي امرأة متزوّجة وتعشق طيفاً، يحوم حولها وتفكّر فيه كلّ الأوقات، يحيطها كسوار في معصمها، لا تفهم لذّتها حين تروي صديقاتها أخبار فضائحه التي لم تحدث. حسب رأي سام لا يمكن اختراع أسطورة دون فضائح، يوافقه وليم ويغرق في صمته، ينتظر حضورها كلّ سبت كقدّيسة، وحين تدخل إلى الاستديو يعاملها كخادمة وزبونة غير مرغوب فيها، ويقرأ في صورتها شغفها فيه.

يوزّع وليم وقته بين منزل عائشة، والمطبعة حيث يلتقي جنيد خليفة، وعشيقات الظلال، والتهتّك مع سام، لم يعد يعنيه الدير، يزوره صباح كلّ أحد كواجب مملّ، يطمئن ماريانا أنّه على قيد الحياة. تصله تفاصيل قليلة عن حياة حنّا وأبيه زكريّا، الذي كان يلحّ عليه أن يتزوّج، ثمّ يطلب منه أن يصف له عشيقاته. كانا يبدوان كصديقين أكثر منهما كأب وابن لم يعيشا معاً حياة متواصلة، بل قادتهما الظروف إلى العيش ضمن حواجز لا تنتهي.

في عامه الأربعين شعر وليم بوهم العيش مع نساء الظلال، حافظ على علاقات قليلة مع بضع نسوة يأتين في مواعيدهنّ المتباعدة، يحتسين الويسكي الفاخر، ويتحدّثن عن العمر الذي يمضي، يحتملن صمته، وملله من أجل الوصول إلى لحظات قليلة يكنّ فيها مريم، لكنّ هذه اللحظات بدأت تتباعد كما زياراته للدير.

في زيارتها الأخيرة كانت عائشة تتمهّل في الخروج من الدير، ممسكة بيد طفلها الصغير حسكو الذي سيبلغ العاشرة من عمره غداً، أتت به كعادتها ليباركه حنّا. كانت كلمات ماريانا قاسية إلى درجة لا تستطيع احتمالها، فكّرت عائشة بأنّ ماريانا استطاعت فرض سطوتها أخيراً على الدير، وأخذت تنتقم من جثث الموتى قبل أن يموتوا، حنّا لم يره أحد منذ عدّة شهور سوى زكريّا، أصبح ظهوره وحديثه مع الناس نادراً. تتمهّل عائشة في السير، لم يستمع زكريّا إلى اقتراحها بالذهاب معه، تشيّعها نظرات الشمّاس بولس بتعاطف، لم يعد لديه ما يقوله لأحد، اكتفى برعاية الحصانين الهرمين الباقيين في إصطبل الدير، يقضي وقته كاملاً في تنظيف معلفيهما، ويردّد أبيات قصيدة زهير بن أبي سلمى «سئمت تكاليف الحياة» كلّما مرّت ماريانا المبجّلة من أمامه. لا شيء يغري أحداً بالبقاء، لا تفهم ماريانا ولع عائشة بدير زهر الرمّان، وعدم يأسها من زيارة حنّا كلّ أسبوع رغم وضعه البائس، تمنّت في أعماقها لو أنّ وليم يمتلك هذا الإخلاص.

بعد طردها لعائشة شعرت ماريانا براحة كبيرة، انتهت علاقتهما الشائكة، فكّرت بأنّها قضت عمرها تحارب الجميع من أجل تطويب حنّا قدّيساً بعد موته، كانت تخاف في أعماقها أن تموت قبله، ويتهدّم كلّ شيء، إنّها جزء رئيسي من حكاية تريد لها الخلود.

كانت تخاف من اندثار الحكايات التي نشرتها في أصقاع البلاد، صمت حنّا حَوَّل الدير إلى خرائب، تحثّه على الكلام، التجوال في القرى المحيطة، مباركة رعاياه الكثر، تدعوه للظهور في

قدّاس الأحد، لكنّه يزداد احتجاباً، شعرت في أعماقها وهي ترى عائشة مطرودة وذليلة، بأنّها انتقمت من آخر شخص يمكن أن يدمّر روايتها عن الدير وتاريخه وسيرة حنّا.

هي الوحيدة التي كانت لا تكترث بتعليمات ماريانا التي تصدرها كلّ فترة، كانت ماريانا تظنّ أنّها انتصرت عليها لكن صمت حنّا دمّرها وانتصر عليها رغم جلوسه في زاويته المهملة من غرفته التي منعها من دخولها في السنوات الأخيرة. صمت عن أفكارها حول تحويل المكان إلى حجّ لأبناء الطائفة السريانيّة الذين لن يتركوه يستجدي صدقات المحسنين ليستمرّ في تقديم شوربة العدس لمن اختار البقاء للموت هنا، وهنّ مجموعة راهبات عشن كلّ حياتهنّ في هذا المكان ولا يرغبن في شرح حياتهنّ لأحد، ومجموعة رجال دين لم يعد لديهم ما يفعلونه سوى التثاؤب.

لم تحتمل عائشة قسوة ماريانا، بكت بحرقة في المقعد الخلفي للسيّارة التي كانت تنتظرها كالعادة في كلّ زيارة للدير. شعرت بنفسها يتيمة للمرّة الأولى، حرمانها من رؤية حنّا شيء لا تستطيع احتماله، في لقائهما الأخير قبل ثلاثة شهور قال لها إنّ ماريانا تريد دفنه حيّاً، كان متعباً، تحدّث كرجل عجوز، جرجر خطواته بصعوبة، حدّثها عن وحشته في غياب كلّ الذين أحبّهم.

نظرت إليه عائشة طويلاً، عرضت اصطحابه مع زكريّا إلى منزلها، هناك سيشعر بحرّيته، ويستعيد عافيته، لا يمكن لرجلين تحاوزا السبعين أن يعيشا دون رعاية أسرتهما، وهي ويوسف وأخوها وليم وعمّتها سعاد كلّ أسرتهما. كان يردّد منذ زمن بعيد «الجميع ينتظر موتي». فكّر في عرض عائشة المفاجئ، لماذا لا يغادر هذا المكان فعلاً؟ لكنّه كان يعود ويقنع نفسه بأنّه هنا من أجل أن يُدفن مع زكريّا في قبرين متجاورين حفرهما منذ سنوات بعيدة.

منذ خمس سنوات، لم يغادر غرفته إلّا في أوقات نادرة، يمنع مرافقوه اقتراب أيّ شخص منه. لم يجرؤ أحد على ملامسته رغم أنّ جاذبيّته في السنوات الخمس الأخيرة شكلت إغراءً حقيقيّاً لرعاياه البائسين الذين ينتظرون مباركته، يتناقلون كلماته ويروون سيرته بنسخها المختلفة بتبجيل كبير. يذكرون موعظته قبل خمس سنوات في قدّاس الأحد التي تحدّث فيها طويلاً عن النباتات والطيور والحيوانات، وبمرح عن الهيكل العظمي للديناصور في منزل صديقه عارف، وفي منتصف الموعظة شكّك في وجود الله، وخرافة قيامة يسوع.

فهمت ماريانا أنّه يريد هدم كلّ شيء وإعادة الدير إلى أملاكه الخاصّة أو حرقه، تحدّث بكلمات واضحة عن وهم الله، مضيفاً أنّ يسوع أكبر من مجرّد نبيّ، إنّه فكرة عظيمة مُسخت إلى مجموعة أكاذيب، لم تمهله ماريانا، قادته من يده عنوة، وقالت إنّه يعاني من حمّى خطرة منذ عدّة أيّام، وهذيانه لم يتوقف منذ شهر، والأطبّاء لم يعرفوا سبباً لمرضه. للمرة الأولى في حياتها تطاولت ماريانا على حنّا، منعت التحدّث معه. لم يعد حنّا يقوى على القتال، تراءت له وجوه أحبّته، لم يعد يعرف طريق الخروج من هذه الورطة، لم تعد ماريانا تلك الفتاة المسكينة، أصبحت الأخت المبجّلة، المشغولة بصراعات المطران والخوارنة والبطرك، كانت تبتهج برسائلها القليلة مع البابا، وترحّب بأيّ دعوة إلى الفاتيكان الذي يريد لها أن تكمل مهمّتها المقدّسة في إدارة الدير.

أحكمت قبضتها الحديديّة على الدير، كانت آخر مرّة تستمع فيها لحنّا يوم قرّر حفر قبره وقبر زكريّا بيديه في مقبرة الدير، مردّداً أمام الجميع وصيّته، ولم يكتف بهذا بل كتبها وأرسلها للمطران باسيلوس، كان لا يزال محاطاً ببعض أصدقائه وتلاميذه، لكنّه الآن وحيد، شبه مسجون، معزول عن البشر الذين يتداولون الحكايات التي تروّجها ماريانا، ويعيدون الحكاية الأخيرة التي شكّك فيها في وجود الله وتحدّث عن يسوع كفكرة، ثمّ النور الذي غمر قلبه ليلاً، واستيقاظه فجراً وزحفه على ركبتيه إلى مكان تمثال العذراء قرب المذبح، هناك كان يبكي بحرقة من شدّة الإيمان. نجحت

ماريانا في اختلاق هذه الحكاية كتتمّة لفكرة أنّ يسوع فكرة نورانيّة لكلّ البشريّة. فكّرت في تلك الأيام التي تلت اعتكاف حنّا أنّ خطوات قليلة بقيت لتطويبه قدّيساً، ولا يمكن لتاريخ كامل أن تمحوه لحظة عبث، كانت تفكّر بذلك وهي تبعد كلّ أصدقائه عنه. الأب إبراهيم غادر الدير منذ سنوات بعيدة، ومنعت عائشة من زيارته، وأمرت كلّ الراهبات بالصلاة لشفائه في صلاة كبيرة، استدعت أمهر الأطبّاء لاستشارتهم في أمر مريض منعت عنهم رؤيته وفحصه لأنّه يعاني من اختلاط نوراني نادراً ما يحدث لبشر عاديّين لا ينتمون إلى مرتبة القداسة. تخبرهم عن أعراض غير موجودة وهم يقدّمون نصائح ثمينة للمحافظة على حياة المقدّس.

وصلت عائشة إلى منزل عمّتها سعاد، تهالكت على الكنبة، تابعت بكاءها. لم تصدّق سعاد اعتزال حنّا وتعبه، أخبرتها عائشة عن آخر لقاء لهما أخبرها فيه بأنّ أبعد مسافة يستطيع الوصول إليها بمشقة هي منزل زكريّا، ويستطيع الجلوس أمام النافذة ومراقبة زهور الرمّان تتحوّل إلى ثمرات صغيرة على هواه، قال لعائشة إنّه لم يعد لديه سوى الثرثرة مع زكريّا والكتابة عن ثمرات التين التي تقطر عسلاً، والكرز حين يتفجّر زهراً، تشكّى من أنّ ماريانا تعرف كلّ ما يكتبه وتمزق كلّ ما يخدش صورة القدّيس، كما أنّ يسوع أكبر من فكرة، أيضاً القدّيس أكبر من رجل يهذي على هواه، أكمل حنّا وقال لعائشة إنّ ماريانا أخبرته بأن لا حرّية لقدّيس.

شعرت سعاد بتعاطف قويّ مع ابنة أخيها، منذ زمن بعيد لم تعد مكترثة بحكايات حنّا، نسيت ترديد قصّة حبّها له، وانشغلت بأشياء أخرى أكثر دنيويّة، لكنّها في ذلك اليوم استمعت باهتمام إلى عائشة تشكو وحدتها، وفقدها جميع من تحبّهم، تذكّرت عائشة تيودور وصوره، وكانت متأثرة لأنّه لم يردّ على رسائلها في السنوات الخمس الماضية قبل موته، والأب إبراهيم الذي يقضي أغلب وقته في مكتبة الجامعة اليسوعية ينهي كتابه الضخم عن تاريخ المسيحيّة في الشرق.

قدّمت سعاد القهوة لعائشة التي بقيت تردّد أنّها لا تريد التحوّل إلى شرنقة، وتكره الفراشات، وطلبت من يوسف التوقف عن التغزّل فيها بقوله أنت فراشتي. ضحكت سعاد من تداعيات عائشة وخلطها الأشياء التي لا يمكن خلطها. طمأنتها أنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام، وقالت إنّ حنّا في أضعف حالاته لا يزال أقوى من ماريانا التي تتصرّف كامرأة تابعة لماضيها المثقل بالإهانات.

في الليلة ذاتها طلبت من يوسف التفكير بطريقة لتحرير حنّا من عزلته. نظر يوسف إليها طويلاً كأنّها امرأة أخرى، عاجزة، وحيدة، وجهها أصفر، خائفة، تستجدي الموت ليبتعد عنها. قالت له إنّه محق، فهي ترى أطياف الموت تحوم حولها منذ الفجر حين نهضت فزعة من سريرها. أمسك يوسف بيدها وجلس قربها على السرير، همس في أذنها بالكلمات التي تحبّها، قال لها: «في عطلة نهاية الأسبوع سنذهب إلى شران، ونفتح باب غرفة الديناصور الذي لم يبق منه سوى سلاميات صغيرة، لا بدّ من أنّ بقاياه اشتاقت إليك»، ابتسمت. قالت له وهي تهز رأسها سأتحوّل إلى رماد كالديناصور تماماً، ثمّ صمتت وبقيت ساكنة حتى هدأت تماماً. نامت ممسكة بيد يوسف الذي غطاها، نهض وسار ليطمئنّ على نوم ابنته دلشان، ندم لسماحه لابنهما حنّا شيخ موسى بالسفر إلى بريطانيا لدراسة هندسة النسيج، كان يحتاج إليه قريباً منه، بالإضافة إلى تفكيره في الأيّام الأخيرة بطريقة مناسبة ليخبره بأنّه لم يعد قادراً على إرسال أيّة أموال، لقد باع آخر قطعة أرض ورثها عن أبيه، ودخله من الترجمة والمقالات التي يكتبها عن القضيّة الكرديّة لا يكفيه لتأمين مصاريف إخوته، لكنّه أجّل التفكير في الأمر. عادت عائشة في اليومين الأخيرين إلى نوباتها القديمة، حين كانت تدسّ جسدها في صدره وتخبره بأنّها ترى الموت جالساً على طرف الكنبة في غرفة نومها،

أو تراه يغادر من نافذة الحمّام الضيّقة عبر منور البناية الفخمة. شقتهما آخر ما بقي لديه من أملاك، يفكّر بأنّها المكان الذي عاش فيه كلّ ذكرياته مع عائشة ولن يفرّط فيها لأيّ سبب.

شعر بالرعب من فقدان عائشة، كيف سيعيش من دونها، لا يستطيع تخيّل ذلك. فتح باب غرفة النوم، كانت عائشة تغط في نوم عميق، صدرها يعلو ويهبط في تنفس منتظم، شعر بسعادة لأنّ ملاك الموت لا بدّ خرج من ثقب الباب، اندس بين ابنته دلشان وابنه حسكو، احتضنهما بين ذراعيه، وغفا حتى الصباح، أيقظته ابنته وطلبت منه أن يعدّ لهما إفطارهما، أكملت أنّ أمّها لا بدّ عادت إلى الدير لرؤية الجدّ حنّا قبل أن يستيقظوا. كانت عائشة قد استيقظت فجراً وخرجت من المنزل، قطعت الطريق إلى شارع بارون بتمهّل، لم تستيقظ المدينة بعد، كان مجموعة من عمّال التنظيفات وموزعي الصحف يرتشفون الشاي على ناصية مبنى البريد المركزي في الجميلية، قرعت باب منزل أخيها وليم الذي فوجئ بها في هذا الوقت المبكر، كان معتاداً على مزاجها وجملها المفاجئة التي ورثتها عن عمّتها سعاد، طلبت منه النهوض، تريد التحدّث معه في أمر صور تيودور المحفوظة في محلّه، والتي أهداها لها تيودور تقديراً لتعليمه اللغة العربية، قالت: «أريد رؤيتها، اشتقت إلى طفولتي».

لم يكن الفجر وقتاً مناسباً لاستيقاظ وليم، إنّه يستيقظ عادة في العاشرة صباحاً، حيث موعده مع مريم التي تجلس وحيدة إلى طاولة السفرة وتصبّ قهوتها، وهو يفعل الشيء ذاته في تقليد لم ينقطعا عنه منذ عشرين سنة، شعرت عائشة بارتباكه، نظر إليها بحبّ شديد، طلب منها تحضير القهوة، طلبت منه النزول إلى الاستديو، قالت: لا وقت لديّ للقهوة، أعطاها المفتاح، بقي في سريره، يفكر في موعده المسائي مع المدام ميرفت التي وعدته هذه المرّة بمحاولة قضاء الليل بأكمله بين ذراعيه، طمأنته أمس إلى سفر زوجها إلى بيروت، وأنّها لن تتركه وحيداً، عاد إلى أحلام يقظته التي يخلط فيها بين وجهي مريم وصديقتها الحميمة ميرفت. في العادة، لا شيء يجبره على النهوض مبكراً، ينتظر اكتمال إشارات مريم السرّية، فكّر بهواجس أخته – التي لا بدّ لازمتها منذ سنتين – عن جلوس ملاك الموت في كفّها. عاد بغلّاية قهوته وسجائره إلى السرير، كانت الساعة تشير إلى الثامنة، فكّر بأنّ مريم الآن تجلس على كرسيّ الحمّام الحجري، تتمطّى تحت الماء الساخن، تفرك إبطها، تغمض عينيها، وترسل له إشارات رغبتها التي يلتقطها ممدّداً في سريره، يتضخّم عضوه، وتعود إليه تلك اللذة المفترضة، في التاسعة سيغادر الجميع المنزل وتبقى مريم وحدها، تغلي قهوتها وتجلس على كرسيّها قرب النافذة المفتوحة التي ترى منها أشجار صنوبر وسرو دير الفرنسيسكان، ترتشف قهوتها بتمهّل لذيذ، كأنّها تقبّل شفتيه. إنّها ساعتهما السرّية، التي عاشاها آلاف المرّات. لا شي بالنسبة إليهما يعادل هذا الحبّ، يفكّران بأشواقهما، والخيط غير المرئيّ الذي يعلقان عليه قبلاتهما الحارّة الافتراضية، وهواجسهما، ورغبتهما الدفينة، ذلك الحبّ غير المرئيّ الذي يلاحظه في عينيها، وبين ثدييها البارزين من فتحة الفساتين التي ترتديها قبل جلوسها على كرسيّها الخاصّ ليلتقط لها الصورة صباح كلّ يوم سبت من أول كلّ شهر. بعدها تكون قهوتهما الجاهزة تنتظرهما، في لحظات تشعر بأنّها ستلتهمه، لكنّها تكتفي بتحريضه، تخبره ما تعرف من النساء اللواتي تعترضهنّ أحياناً، ليخبرنها بالتفصيل عن تجربة الجنس معه.

كان يعرف النساء اللواتي سيخبرنها عن تفاصيل شبقه، يرسل لها الرسائل عبر أجسادهنّ، تختلط العوالم، تنتشي النساء بتلك التجربة المثيرة مع رجل أعزب، يقضي صباحه في أحلام يقظة، ويقضي ليله في صحبة صديقه المتهتّك سام الذي يستمع إلى حكاياته عن النسوة المجهولات

الأسماء يعبرن حياته وسريره، يشربان في صحّة الفخذ والنهد، يدخل وليم كعادته أيضاً في نوبة خرس يستمع خلالها إلى صديقه الذي سيبدأ بعد وقت قصير نسج شباكه كصيّاد ماهر حول امرأة أجنبيّة ترتاد بار فندق بارون لتكتمل تجربة عشقها للشرق.

كان وليم يسمع أصوات حركة عائشة تصل إليه من الاستديو، تخرج صور تيودور، وتعيد تأمّلها كعادتها حين ينتابها الحنين لأيّام طفولتهما البعيدة، وكعادتها تتأمّل لوقت طويل صورتهما حين كانا في الثانية عشرة من عمرهما مع حنّا وزكريّا، حنّا يبتسم ويحتضنها، وهي تميل برأسها بدلع كبير، ووجه زكريّا يشعّ بالرضى والحزن العميق، لم تعلّق الصورة في صالون منزلها، تعتقد بأنّها جزء من سرّهما الشخصيّ الذي لا يحق للآخرين رؤيته أو معرفته. رغم اصفرار وجهها وقلقها الذي لم تخفه قدّر وليم أنّ وجوده سيفسد عليها لحظات المراجعة والبكاء بصمت كعادتها في ندب ماضيهما. تردّد دوماً كم كنّا أحمقين حين غادرنا الطفولة، تركنا وراءنا حنّا وزكريّا لتحطّمهما ماريانا بهدوء.

لم تكن عائشة تعرف لماذا أتت إلى الاستديو في هذا الوقت المبكر من الصباح، قضت ليلة سيّئة، ولم تحتمل فكرة حرمانها من رؤية حنّا، لا تريد زيارة قبر شاها بمفردها، تريد إعادة الفعل نفسه الذي أصبح مقدّساً، تصل صباحاً قبل شروق الشمس إلى الدير، تصطحب حنّا من يده، ويسيران متمهّلين، صامتين، يقطعان المسافة القريبة، يصلان إلى قبر شاها، يزيلان الأعشاب اليابسة، ويضعان أغصاناً من أشجار الزيتون والرمّان والزهور البرّية التي قطفاها في طريقهما.

يغمض حنّا عينيه لدقائق، وتفعل عائشة الشيء ذاته، ويعود الاثنان إلى غرفة حنّا، يتناولان الإفطار، ويتحدّثان في أمور حياتهما، تشجّعه عائشة على السفر، ورؤية رعاياه الذين يتحدّثون عن بركاته، تعرف أنّه يحب السير في الحقول، تعرض عليه أن يسكن في منزلها، يبتسم كعادته، ويرى الصور التي أخرجتها من حقيبتها، صور عائلتها التي اعتنى وليم كثيراً بزوايا التقاطها وإضاءتها، وتبدو فيها عائشة سيّدة غاضبة، قويّة، حنونة، يقف قربها زوجها يوسف الذي أحبّته، وما زالت تحبّه، وابنها حنّا شيخ موسى وابنتها دلشان اللذان لم يفارقا الصورة المكرّرة عبر سنوات عديدة، أضيف إليهم في السنوات الأخيرة حسكو أصغر أبنائها الذي تعلّق حنّا به وكان جدّه زكريّا يقول ممازحاً حنّا إنّه يشبهه وجيناته هزمت جينات صديقهما عارف شيخ موسى. تقول عائشة لحنّا: يا أبتِ، الأبناء يكبرون في الصور. وأحياناً تدسّ ضمن مجموعة الصور بلؤم يحبّه حنّا صورة لعمّتها سعاد التي ما زالت تحتفظ بتلك النظرة المتكبّرة، رغم مرور كلّ هذه السنوات ما زالت امرأة مثيرة، شهيّة، تبتعد كلّ يوم عن صورتها كطفلة لاهية.

أخرجت عائشة الصور المعتنى بتغليفها وترتيبها في المصنّف الكبير، ارتمت على الكنبة الطويلة التي غالباً ما يستخدمها وليم في مغامراته الجنسيّة العابرة، اضطجعت على الكنبة ومصنّف صور تيودور مرميّ قربها على الطاولة الصغيرة، فكّرت بأنّ ملاك الموت لم يكتف هذه المرّة بتحسّس خطوط كفّها، شعرت به يتسلّل عبر مسامّها إلى دمها، يصعد عبر الشرايين إلى القلب، تشعر به في نسغها. لقد انتهى الأمر مبكراً، لم تبدأ عامها الأربعين، مالت برأسها واستسلمت دون ضجّة. في العاشرة صباحاً نهض وليم من غرفته، قطع الممرّ الخفيّ إلى الاستديو، ظنّها نائمة، اقترب منها، أمسك بيدها، شعر ببرودتها تنسلّ إلى قلبه، كانت عائشة ميتة، بينما وليم يفكّر بأنّ توأمه قد خانته للمرّة الأولى في حياته، حين لم ترسل له الإشارة الأخيرة.

حملها بين ذراعيه، ومدّدها على سريره، فكّر في الاحتفاظ بها قربه، لكنّ ضجة دخول الزبائن إلى الاستديو منعته من الاسترسال في التفكير. قرع خليل باب شقته، كان الباب مفتوحاً، صمت

عميق، شعر بخوف شديد، لم يكن هذا الجناح يوماً في مثل هذا الوقت صامتاً، أكمل دخوله إلى شقة وليم الصغيرة، رأى معلمه مرتدياً ملابسه الأنيقة، يقبّل يد عائشة الميتة، وجسده يختلج في بكاء صامت.

الفصل التاسع
طيف العاشق

حلب – 1951

كانت مريم ترى وليم أينما كان من مكان جلوسها قرب نافذة غرفتها المطلة على دير الفرنسيسكان في حيّ المحافظة الراقي، تراه حين يهيم في الشوارع والبارات مع صديقه سام، حين يدخل منزل عمّته سعاد، وحين يجلس في قبو المطبعة يتحدّث لساعات طويلة مع جنيد خليفة عن المخطوطات التي يجب تحقيقها ونشرها، وحين يبكي شوقاً كانت تراه، وحين ينتابه القلق القاتل تراه، ككيان مادّي، ككتلة أحاسيس تطير في الفضاء، تأتيها صورته غامضة، يتغلغل في مسامّها، تنهشها شهوته حين تراه يستعير نساءً أخريات ليكمل صورتها في أحلام يقظته.

كان وليم وجه مريم الآخر، تشعر بارتباط مصيرها به، ومع توأمه الحقيقي عائشة وعمّته سعاد. أصبح لتاريخهم الشخصي معنى واحد، أربعة أشخاص يخاتلون الموت، يصحّحون حكايات من حولهم، يخطّطون لحياتهم ويحلمون بأنّهم سيعيشون عشرة قرون، بعدها فقط سيذبلون، تصغر رؤوسهم وتتفكّك أجسادهم، ثمّ يتلاشون، يقرّرون أنّ الموتى يخطئون عندما يسلّمون أجسادهم لديدان الأرض، يتحدّثون بشغف عن كلّ شيء، لكنّهم لا يتحدّثون عن الموت مطلقاً، كأنّه غير موجود.

في البداية شعرت مريم برعب ملازمة رجل طوال عمرها، لا تعرف كيف التصقت به، لم يطلب منها الكثير، تشعر بلذة ورطتها، تسمع كيف تتناقل المدينة قصصه الغرامية الفاضحة، كان يضيق ذرعاً بالأسئلة التي تحاصره، عاش من أجل مريم، ولم ينقطع التواصل بينهما لحظة، في النهاية استسلم الاثنان لمصيرهما.

لم تترك مريم خيط الحبّ السرّي الذي يربطها بوليم ينقطع، تشعر بعبء التعاطف، والإحساس بمسؤوليّتها عن حياته التي تمسك بخيوطها، لقاؤهما كل أول سبت من الشهر يخفف من غيرتها، تريده لها فقط، عاشقها، يغمرها طوال الوقت ذلك الإحساس العميق بأنّه ترك كلّ شيء وسخّر حياته لحبّها.

اليوم استيقظت مريم فجراً، كانت غارقة في سوائلها، جسدها يرتجف شهوة، مشتاقة إلى وليم. تعرف هذه اللحظات الكئيبة، تخاف أن تفتح الباب وتخرج إلى الشوارع كمجنونة باحثة عنه. كعادتها دخلت إلى الحمّام، جلست في البانيو الحجري، وغرقت في الماء البارد لتنطفئ. أغمضت عينيها، صمّمت أن تكمل يومها كما خطّطت له منذ أسابيع، سترى وليم، تريد رؤية صورته الجديدة، وتخبره أن لا ينتظرها، لقد اكتفت، ستكمل طريقها إلى الكنيسة، سيحتفل الأرمن اليوم بذكرى المجزرة، ستطلب من المطران استعادة هويّتها الأرمنيّة المسيحيّة، لا تعرف إن كان سيساعدها هذا في تصحيح تاريخها الشخصي، تعرف ما يقوله عنها الأرمن، لكنّها لم تكترث، تريد إشعال شمعة لذكرى أمّها وجدّها وعمّتها، ستعاود البحث عن هاروت مرّة أخرى، لم تأتها أيّ إشارة لموته، ما زال على قيد الحياة في أرض بعيدة. فكّرت في الأسبوعين الماضيين بأنّه يكفيها ما عاشت، لم تعد تهمّها صورتها التي حرص عليها أورهان، كزوجة مسلمة، صالحة، بعد سنوات قليلة ستكون جدّة فاضلة. حاصرتها طفولتها، لم تترك لها فرصة للنسيان، لم تعد تلك الخرقة البالية، مات أورهان السنة الماضية وانتهى العزاء، صمّمت على تنفيذ وصيّته، ودفنه في مقبرة عائلته قرب قبر أمّه، انتهت صباحاتها المثقلة بالواجبات. سافرت مع جثمانه إلى إستنبول وأوصلت الأمانة لأصحابها، صمتت عن إهانات عائلته التي لم تتوقف يوماً، احتملت ثقل الحضور بين مجموعة نساء ورجال لا تعرف أغلبهم، ونامت في غرفة تمتلئ جدرانها بنياشين وصور ضبّاط عثمانيّين، قد يكون واحد منهم قتل عائلتها وأحرق منازل أهلها.

بعد سنة كاملة من غيابها، وقفت مريم أمام وليم صامتة، تركت له وقتاً كافياً لتأمّلها كما يحبّ، بهدوء أشار إليها بالدخول إلى غرفة التصوير والجلوس على الكرسيّ، لم يبحث عنها في السنة الأخيرة لكنّه انتظرها كعادته في الموعد نفسه الذي لم يتغيّر منذ عشرين سنة، خلعت معطفها وعلقته على المشجب، تركت كرسيّها الخاص فارغاً، وجلست على كرسيّ الزبائن كما فعلت في المرّة الأخيرة، الرسائل المتبادلة بينهما تصل بسهولة، نظرت إلى فتحة الكاميرا وحاولت الضحك، تراجعت وزمّت شفتيها، فكّرت بأنّه لم يعد يستحق خفّتها، وليم الآن بالنسبة إليها مجرّد مصوّر يجب أن يكون ممتنّاً لأنّ مدام أورهان الدين أورفلي على قائمة زبائنه. أربكه صمتها، كانت تتقن تعذيبه، شعرت في أعماقها برضى خفيّ بأنّه ما زال ينتظرها، كلّ شيء معدّ كما كان منذ عشرين سنة، كرسيّها المنقوش على مسنده الأيمن تاريخ أول لقاء بينهما في هذا المكان في 17 كانون الثاني 1931. أول مرّة تفحّصته جيّداً في حياتها كانت في ممرّات غرفة العزل في دير زهر الرمّان الذي أصبح ذكرى بعيدة، نقش تاريخ لقائهما بخط متداخل لا يمكن لأحد فك طلاسمه، وعلى مسنده الثاني حفر بنفس التشكيل المتداخل تاريخ 13 شباط 1933، يوم رآها في ظلام قبو منزل عمّته سعاد، كانت تنتظره بحرقة، فتحت أزرار البالطو الفرو، كانت عارية تماماً، ضمّته إلى صدرها وبصوت فاحش همست في أذنه: خذني، أضافت برجاء أن يحملها إلى السرير، ليحطّم أضلاعها ويمزق جسدها، كانت ركبتاها تتقصّفان، انتظرت سنوات هذه اللحظة، وحين مدّدها على السرير بذراعيه القويّتين شعرت بالفزع، تبخّرت صور أحلام يقظتها لسنوات، شعرت بأنّ السقف واطئ ولا يصلح لطيرانهما في السماء الصافية، حاولت الشرح إلّا أنّه إكتفى بتمرير أصابعه على جسدها، كما وعدها، يريد أن يتشمّمها فقط، تفحّص بأصابعه وكفّه كلّ المسامّ، بهدوء أمسك بالحلمة، ونزل إلى حافة النهد، وأكمل إلى بطنها، تشمّمها بقوّة، يريد لرائحتها التغلغل في أعماق روحه. نهضت بعد ساعة، شعرت بأنّها استرخت وغفت، قبّلها قبلتهما الثانية، كانت قبلة طويلة، لا يريد ترك شفتيها، ولسانها، كانت تتحسّس عضوه بركبتها، وهذا كان يزيد من خوفها. بعد قبلته،

انتظرته أن يلجها، لكنّه رمى غطاء السرير على جسمها العاري، وجلس يدخن محدّقاً بالضوء الخفيف المنسرب من النافذة الواطئة. تركته في القبو وخرجت مذعورة، وبقي في السرير بمفرده ينظر إلى نقطة الضوء. نهض منتعشاً، خرج من منزل عمّته، سار في شوارع حيّ الجديدة الفارغة، خرج من سوق الصوف وأكمل طريقه إلى فندق بارون، في زاوية بار الفندق أجهش بالبكاء الصامت كطفل صغير، بينما كان سام يقنع سائحة فرنسيّة بأنّه رأى تمساحاً كبيراً في نهر الفرات. كان يسمع حديثه الذي يبدو جادّاً وضحكات الزبونة المستهترة التي لا تحتاج إلى قصص خياليّة لتذهب معه إلى الفراش.

وصلت مريم إلى منزلها، كانت ترتجف حوفاً، دخلت إلى غرفتها، لم تحتمل وجودها في مكان مغلق، ولا نظرات زوجها وأبنائها الصغار القلقة ونظرات الخادمة المتعاطفة، كانت تظنّهم يعرفون ما حدث، فكّرت بالخروج إلى أيّ مكان، اقترحت على أورهان الذهاب إلى مطعم الأولد تاون لتناول العشاء. بعد جلوسها في السيّارة قرب أورهان، شعرت بالكارثة، لا تريد لقاء أيّ كائن، لكنّها ذهبت بقدميها إلى الزحام، لم يأت وليم يومها إلى المطعم، كانت مشوّشة الذهن، تغزوها الصور، فكّرت بأنّها أتت إلى هنا لتراه، كانت مشتاقة إليه، تريد رؤية أضلاعه تئنّ. استرخت وطلبت من الكرسون طاولة بعيدة عن الزحام، لا تريد مجاملة الزبائن الذين تعرف أغلبهم، في الزاوية المظلمة كانت يد أورهان تتحسّس فخذها لكنّها لم تكن تشعر بأيّ شيء، لا يمكن تبديل الصور، تناولت بهدوء طبق سلطة أرمنيّة، وقطعة لحم خنزير، كانت فقط تريد إزعاج أورهان، لكنّه كان ودوداً ولم يناقشها كعادته في ضرورة التقيّد بالعادات الإسلاميّة، فكّرت بأنّه حين يتأخر اللقاء لا تعود الصور نفسها صالحة للاستعمال، تبهت وتمّحي خطوطها، في تلك اللحظة لم تعد تشبه تلك المرأة التي كانت تبكي من فرط الحبّ، ووليم لم يكن ذلك العاشق المتهوّر الذي تسلل ذات يوم شتائي قبل سنة إلى غرفة نومها، ووقف إلى جانب سريرها، تسلق سياج منزل مدير البنك، خطأ قد يكلفه حياته، لكنّه كان مستعدّاً لدفعها مقابل اندساسه قربها في الفراش حتى الصباح، ذعرت حين وجدته يتلمّس ذراعها برقة، وصل إلى تكويرة نهدها بأصابعه، كانت النافذة مفتوحة وكان يبتسم، أشار إليها بالصمت، شعرت بلذة مرعبة، لكنّها تذكّرت أنّه في منزل زوجها، فلتت من بين ذراعيه غاضبة، وأمرته بالخروج فوراً، لم يكترث بما قد يحدث ليلتها، لكنّه كما أخبرها بعدها، كان يتوق لرؤية بطنها واحتضان وركها بذراعيه. تلمّس نهدها الأيمن العاري، وتشمّم رائحة جسدها المفعم بالنوم، كلّ هذا كان بالنسبة له ثمناً عادلاً مقابل حياته، كان يقول لها فقط أريد تشمّم رائحة نومك، لم تصدّق حين رأته يقفز بخفّة عن السياج كأيّ أزعر، يمسك بذراع سام الذي كان يلوّح بمسدّسه، يتابع الاثنان طريقهما كأنّهما لم يفعلا شيئاً، وينعطفان في الشارع، لم تصدّق أنّه فعل هذا، كان سام يتأبّط ذراعه ضاحكاً. لكنّ الليلة لم تنته على خير، لم يتركه سام، اصطحبه إلى بار شو نايت القريب من محطة القطار، كانت فرقة موسيقيّة تركيّة تعزف أغاني يحبّها سام، بعد كأسهما الثالثة أيقن وليم أنّ كلّ شيء مرّ بسلام وأنّه لم يمت، استرخى، تذكّر دفء النوم قرب مريم، فكّر أنّه فقد عقله ليتجرّأ ويقتحم غرفة نومها، لكنّه شعر بسعادة خارقة، كان لملامسة نهدها طعم غريب. نهض سام فجأة وسار نحو الفرقة الموسيقيّة، دسّ في يد قائدها خمس ليرات كاملة، وقف في منتصف ساحة الرقص، طلب عزف أيّ أغنية تتحدّث عن الحبّ المستحيل، قال وهو يشير إليه بأنّ وليم أهمّ مصوّري العالم كما أنّه صديقه الذي يهدي له هذه المقطوعة، ثمّ أضاف أنّ وليم ذبح قبل ساعتين حبيبته ورمى جسدها في نهر قويق، أضاف: من شدّة الحبّ يجب أن نقتل

حبيباتنا، لا قيمة للحبّ دون القتل، أضاف بكلمات واضحة أنّ حبيبة وليم تطفو في ثياب بيضاء على صفحة النهر تحت ضوء قمر هذه الليلة الرائع.

لم تكن الليلة مقمرة لكن بالنسبة لسام كلّ الليالي مقمرة، أغلب الزبائن يعرفون قصصه المخترعة، لكنّ صمتاً مخيفاً ساد المكان، عدم اكتراث سام بالنظرات التي تبادلها الزبائن، أشعر وليم بالخطر، لكنّ الفرقة عزفت والمغنّي غنّى بكلّ جوارحه ثلاث أغنيات من تراث الأناضول تتحدّث عن الحبّ المستحيل، وأعادها مردّداً أنّه لا قيمة للحبّ إن لم نغامر بالموت من أجله. أعجب سام ببداهة المغنّي، وطلب من الفرقة عزف لحن أغنية رابعة تقديراً للموقف التراجيدي.

سمعت مريم تفاصيل القصّة التي انتشرت في كلّ المدينة، شعرت فعلاً بأنّها قُتلت في تلك الليلة، وبجسدها يطفو على صفحة النهر. حين بدأت الفرقة الموسيقيّة تعزف، أغمض وليم عينيه مستمتعاً حتى الثمالة بإعادة عزف موسيقى الأغنية التي أهدت له مريم أسطوانتها مراراً، كانت عيون الزبائن تخترق وليم بحسد، كما كانت تفعل عيون رجال المدينة دوماً حين يتأمّلون صور النساء المعلقة على حائط الاستديو، ويفكّرون أنّه لا بدّ ضاجع كلّ هؤلاء النساء الفاتنات، حتى أورهان كان يردّد بين الفينة والأخرى أسطورته التي روّجها سام، عن الرجل الذي عشقته كلّ جميلات حلب مقابل تخليدهنّ في لقطات ساحرة. لم يكتف سام باختراع أسطورة الرجل الدونجوان بل اخترع له حياة مختلفة كما اخترع حياته كاملة من قبل.

قبل أن تنتهي الليلة، وجد وليم سيّارة الشرطة تنتظره أمام باب منزله، وضع رقيب الشرطة القيود في يديه، وطلب منه الصمت، اصطحبوه إلى المخفر، رماه شرطي غليظ في زنزانة باردة، بصق عليه شرطي آخر واصفاً إيّاه بالآبق والقاتل، لم يستطع سام سيراً للوصول إلى منزله من شدّة السكر، استأجر غرفة في فندق بارون، ولم يستيقظ إلّا قبل أذان العصر بقليل، كانت المدينة كلها تتحدث عن المصوّر الذي قتل عشيقته ورمى جثتها في نهر قويق، كانت الشرطة تبحث عن سام في كلّ مكان، لأخذ إفادته، لكنّها لم تجده.

صباحاً رافقت دورية شرطة وليم إلى الطبّ الشرعي، وكشفت عن وجه امرأة ثلاثينيّة، طلبوا منه التعرّف إليها وتمثيل جريمته. شعر وليم بورطة حقيقيّة، التزم الصمت التام، بناءً على تعليمات المحامي الذي كلفته عمّته سعاد بتخليصه من هذه الورطة، ردّد وليم كلمات قليلة بأنّه لا يعرف القتيلة، وبأنّ القصّة من اختراع صديقة سام، وريث البارون ميخائيل الموسى صائغ الذهب الشهير، وهي واحدة من ألف قصّة يرويها سام كلّ ليلة.

كان الضابط المناوب معجباً بأسطورة وليم، لا يصدّق أنّ تثير امرأة فقيرة ترتدي ثياب الفلّاحات انتباه شخص مثل وليم، لم يكن لديه أيّ شك في أنّها جريمة شرف، خاصّة أنّ المرأة، كما دوّن الطبيب الشرعي، تعرّضت لعنف مفرط وضرب متوالٍ لأيّام قبل موتها، ولم تكن مذبوحة بالسكّين كما ورد في تقرير المخبر.

عاشت مريم أيّاماً عصيبة، لكنّ الصورة أعجبتها، أن يقتل عاشق حبيبته من فرط الهيام. والصورة الأكثر براعة موت العاشقين معاً، في لحظة واحدة، في سرير واحد وكلّ منهما يتشمّم رائحة نوم الآخر.

كلّ صباح كان أورهان يشتم وليم ويترحّم على معلمه، جدّه أحمد البيازيدي، ويطلب من مريم عدم الذهاب إلى الاستديو مرّة أخرى، وجدها فرصة للانتقام من إعجاب نساء الطبقة الأرستقراطيّة بزوايا لقطات كاميرته التي تشبه لقطات السينما، كما وجدها فرصة لقطع حبل السرّة بينها وبين الدير، بين طفولتها وحياتها الحاليّة. اكتفت بالصمت، لكنّ أورهان بقي يثرثر لأيّام بالقصّة ذاتها،

ولم يعجبه أن تتّضح الحقيقة. كانت مريم في لحظات غضبها من أورهان تريد القول إنّها الحبيبة التي قصدها سام. بعد أيّام قليلة، تعرّف أحد الفلّاحين إلى صورة المرأة القتيلة المنشورة في صحيفة محلية، وأغلق المحضر بقدوم عائلة القتيلة وتسلّم جثتها، والاكتفاء بالقول إنّ قدمها انزلقت إلى النهر وغرقت.

عاد وليم بعد ثلاثة أيّام من السجن، أغلق الاستديو، نام في منزل عمّته سعاد التي أخبرت مريم بضرورة زيارته، كتبت لها في رسالة مقتضبة أنّه قد يتلاشى خلال أيّام قليلة، ويتلاشى هو المصطلح المقابل للموت الذي يستخدمه الثلاثة. ذهبت مريم في اليوم نفسه إلى منزل سعاد، جلست قربه على السرير، تركت له يدها، أمسكها وقبّلها وردّد ما كان يقوله دوماً أنّه لم يعد قادراً على احتمال العذاب. في الطريق، فكّرت مريم أنّها ستكون قاسية، ستؤنّبه، ستكسر أنفه، كانت غاضبة منه، وغير متعاطفة معه، لكنّها حين رأته ممدّداً يتحدّث عن التفكّك والتلاشي بهذه الطريقة الحزينة، تذكّرت أزهار السوسن التي كان يقطفها لها، ويضعها قرب نافذتها في غرفة عزل المرضى في الدير. كانت مجرّد فتاة فقيرة ناجية من مجزرة، لا تستحق كلّ ذلك العطف.

وجدت نفسها فجأة في لحظة عاطفيّة فريدة، تلمّست رجليه، كانتا باردتين، وأظافره غير معتنى بها، أنّبت نفسها على إهماله، لتركه لوحدته، فقط لو أنّها سمحت له بقضاء الليلة في سريرها. كان يريد تشمّم رائحة نومها، ما أقسى أن يقضي رجل نصف حياته دون أن يتشمّم رائحة نوم امرأة يحبّها. قبّلت رجليه، واندسّت في السرير قربه، أغلقت الباب، تعرّت، ونقرت بلسانها أرنبة أنفه، غرقت في صدره وتمنّت النوم، في تلك اللحظة تمنّت تحقيق كلّ أمنياته، كان يهذي تحت وطأة الحمّى، يتعرّق جسده، وتزوغ عيناه، فكّرت طوال الليل بأنّه إذا مات هذه الليلة، فستلقي بنفسها في النهر ليجرف جثتها بعيداً عن هذه المدينة. فراغ في جسدها، روحها مثقلة بتفاهة لا مثيل لها، فكّرت ماذا تفعل في منزل أورهان؟ ومن هؤلاء الأولاد الذين يجولون بكلّ هذه الثقة في المنزل الكبير، يرطنون صباحاً باللغة الفرنسيّة، ومساءً يشاركون والدهم سماع أغانٍ تركيّة، ويتحدّثون عن أمجاد أمّتهم؟

تتذكّر مريم وهي تسير في شارع بارون وقفتها الأولى أمام كاميرته، كانت في السادسة عشرة من عمرها، مندهشة، وما زالت تذكر عينيه اللامعتين، وتيودور يراقبه من بعيد برضى كامل. لم يعد يصحّح له فتحة الكاميرا، أو طريقة النظر إلى الضوء. مسّها السحر في تلك اللحظة، صورتها الأخيرة الملتقطة قبل دقائق قليلة فقط لم تجفّ نيجاتيفها بعد، وهي في الأربعين من عمرها، انتابها شعور غريب بعدم الاكتراث، أصبحت أرملة في التاسعة والثلاثين، دون التزامات، وبدل التفكير في ترتيب العيش مع وليم، ذهبت في الاتّجاه المعاكس.

لقد عاشت مع وليم حياة كاملة لعاشقين ذابلين، لم يتحدّثا عن الحبّ، كانا يعيشانه بثبات، كأنّ حديث طفولتهما البريء ما زال مستمرّاً، شعورها بأنّها مجرّد ألبومات صور متراكمة في زاوية محله الكبير، يجعلها غاضبة من فكرة الثبات، ماذا يعني أن تتناسل حياتك في الصور، صورة وراء صورة، فتصنع ألبوماً، ثمّ ألبوماً وراء ألبوم يملأ حيّزاً كبيراً في الفراغ، كانت تصدّق وليم حين يقول إنّها ليست مجرّد صور بل توثيق لتاريخ حبّهما الصامت.

بعد موت زوجها فكّرت بهجر كلّ شيء والسفر إلى أيّ مكان، رتّبت في ذاكرتها الأمكنة التي تستطيع الهرب إليها، عادت إليها ذكرى الأمكنة الكئيبة التي عاشت فيها، شعرت بضيقها رغم مساحاتها الكبيرة، خنقتها روائح الدير، غرف المؤونة والمطبخ البارد، حركة الراهبات البطيئة وغرفة تعليم اللغة السريانيّة، قبر أمّها بين عرائش العنب في حقل على حافة طريق مجهول، منزل

جدّها كريكور المطلّ على ساحة بلدتها أورفة، شوارع حلب وساحاتها، ضيق جثم على أنفاسها وهي تستعرض الأمكنة، فكّرت بأنّ قبو منزل سعاد هو مكانها الأثير الذي لم تدخله منذ عدّة سنوات، لا شيء يعنيها في هذه المدينة سوى هذا المكان، الذي اكتشفت فيه للمرّة الأولى أنوثتها، وهي تقوم ببروفة ارتداء الثوب الأسود الطويل الذي تبخترت به على منصّة العرض، والتقت عيناها بعينَيْ أورهان الذي لم يضيّع وقته، فاتحها بموضوع الزواج بعد عدّة أيّام، ووجدت نفسها غارقة في كوابيس مستمرّة بعد زواجها.

بعد موت أورهان بشهرين، خرجت للمرّة الأولى مع سعاد التي زارتها وسخرت من تصميمها على إكمال عدّتها لإرضاء أبنائها، تركتها وحيدة لكنّها قالت إنّها تنتظرها غداً، فكّرت مريم بأنّ سعاد تنقذها دوماً في اللحظات الصعبة، خلعت الفستان الأسود وأخبرت أبناءها بأنّها لن تكمل عدّتها، مضيفة أنّها ليست مسلمة، نهضت وخرجت من المنزل، دون أن تستمع إلى احتجاج ابنها الكبير عبد الحميد، وجدت نفسها تفتح باب منزل سعاد بمفتاحها وتدخل بعد قرعها السقاطة ثلاث مرّات كما هي عادتها، لمحت من النافذة المطلة على أرض الدار ظلال سعاد في غرفتها ترتب أثواب زبوناتها كما هي عادتها ليلة كلّ خميس، لمحتها تقطع ساحة الدار مسرعة، تتجه نحو القبو، كأنّ مريم رأتها تضحك في سرّها، لم تفاجأ بعودتها، كانت تنتظرها منذ زمن بعيد، إلّا أنّها تأخّرت كثيراً كما هي عادتها.

لم تطل المكوث في القبو، شعرت بسخافة البحث عن ذكرى عابرة في مكان مليء بالمانيكانات وصناديق أثواب قديمة، بدا مستودعاً مهملاً لخيّاطة لم يعد يعنيها الاحتفاظ بالأشياء كي تفاخر بها أمام نساء المدينة، شعرت مريم بخيبة أمل كبيرة، تبدّد وهمها، تمنّت لو أنّها ماتت في جائحة الكوليرا قبل ثلاثين سنة، في تلك اللحظة حين كانت تتأمّل عيني وليم تحرسانها وهي ممدّدة على فراش قطني قذر في غرفة حجر مرضى الأمراض السارية في الدير.

قطعت شارع بارون، كأنّها ترى حلب للمرّة الأولى، وصلت إلى الكنيسة، كانت جموع غفيرة من الأرمن متناثرين، يتبادلون الأخبار، وينتظرون القدّاس، سارت بخطى ثابتة إلى الكراسي الأولى من الكنيسة، جلست بمفردها، شعرت بنظرات من يعرفها تخترقها، لا بدّ من أنّهم يسألون ماذا تفعل هنا امرأة مسلمة ومتزوّجة برجل تركي؟ لكنّها كانت أرمنيّة ومسيحيّة على أيّ حال. بدأ القدّاس، وسط نحيب العجائز، كانت دموعها تنحدر على خدّيها، تتذكّر أخاها هاروت، وبزقه المقطّع الأوتار دائماً، لم تنتظر نهاية القدّاس، نهضت من مقعدها وتركت المكان، شعرت بأنّ الوقت غير مناسب للحديث في أمر خطير، كانت دموع ذكرى المجزرة تغرقها، تتحدّث كمخبولة، وتفكّر بأنّ النسيان لا يصيب الناجين من مجزرة، المرارة ورغبة الانتقام تحفر في أضلاعهم.

وصلت إلى المنزل الساعة الثامنة والنصف ليلاً مثقلة بالكآبة، تابعت طريقها إلى غرفة نومها، استرخت على السرير، حاولت طرد صور النساء الأرمنيّات المحترقات، وجه أمّها في دقيقتها الأخيرة قبل أن تلفظ أنفاسها جوعاً، وصورة تلك الطفلة التي حاولوا إنقاذها، صورة البيوت المحترقة، لا يمكن اختصار المجزرة، خاصّة لامرأة مثلها حاولت طوال حياتها تعلم النسيان، يجب الاعتراف بأنّها لم تفلح، بل عادت كلّ الصور الغائبة، لقد مضى وقت طويل، لكنّه لا يكفي ليجفّ الدم.

فكرت أنّه إذا مات وليم هذه الليلة فسيفسد كلّ شيء، سيعيدها مرّة أخرى إلى نقطة الصفر، القلق لم يتركها بعد موت أورهان، كانت تظنّ أنّها ستصبح امرأة حرّة لكنّها الآن ليست كذلك، أيقنت أنّ كلّ شيء لن ينتهي إلّا بموت الرجلين، في أعماقها تمنّت موتهما في يوم واحد، ستعيش ملهاتها،

وتبحث عن هاروت، ستحرق ألبومات وليم وتنثر رمادها على صفحة نهر قويق، ستحرق كلّ مناديلها التي تركت منها المئات ليشمّ وليم عطرها ويعيد تركيب رائحة عنقها والوادي الرائع بين ثدييها كما كان يخبرها وهو يستعيد ذكرى ملامستهما، فكّرت بأنّها قد تنضمّ للعيش مع سعاد والبحث مرّة أخرى عن تعريف السعادة، مستعيدة ذكرى استعراض قوامها على خشبة عرض الأزياء.

قالت لنفسها «ليست كلّ الصور قاتلة»، خرجت من غرفتها، لا تريد البقاء وحيدة، أعدّت العشاء في موعده، بهدوء قلت شرائح اللحم، وضعت المخللات في صحون صغيرة وقطّعت شرائح البندورة، كانت تتخيّل أنّها تقطع جسد أورهان، وتقلي عيني عمّه الكريه الذي منع الأرمنيّة من دخول منزل العائلة، في المرّة الوحيدة التي خطر فيها لأورهان العودة للعيش مع عائلته.

مضى كلّ شيء الآن، الشيء الوحيد الذي تعرفه هو أنّها لم تشعر يوماً تجاه أورهان بأيّ عاطفة، الرجل الوحيد الذي أحبّته كان وليم، رغم إنكارها، وصورة وليم كرجل هائم في الصمت، إنّه رجل لا يريد العيش، يريد تحويل هذا الثقل إلى بالونات ملوّنة، شفافة، خفيفة، تطير في الفضاء، تنقرها مناقير الطيور بمرح، لتنفجر وترتمي قطعاً متناثرة على الأرض.

تعيدها الصور القاتلة إلى الثقب الأسود في داخلها. حين تسمع شباب الأرمن يتحدّثون بحماسة عن الانتقام من الأتراك تشعر بالرعب، وبثقل في قدميها، تفكّر أنّ العائلة تنتج كائنات جبانة، تماماً كما يفعل التعلق بالأشياء. كلما غرقت في الصور القاتلة تفكّر بأنّ التفاصيل العائليّة ليست بهذا السوء، نجاحات الأبناء تقدّم لها سبباً إضافياً للغرق في النسيان، ابنها الكبير عبد الحميد سيذهب بعد شهرين للالتحاق بكليّة الطبّ في جامعة هارفارد، سيصبح بعد سنوات قليلة مواطناً أميركيّاً مرموقاً، إنّه يحبّ هذه الصورة، ابنها الأصغر عثمان سيذهب في العام المقبل إلى إستنبول للدراسة في الكليّة الحربيّة، نسّق الأمر مع عائلة أبيه، استعاد جنسيّته التركيّة، وبدأ منذ سنوات يقضي العطل في منزل أجداده، يتحدّث لكنة تشبه لكنة عائلة أبيه الإستنبوليّة المتعالية، ابنتها جلنار ستكمل تعليمها العالي، هي الوحيدة التي أتقنت اللغة الأرمنية، ولم تغب عن اجتماعات ونوادي الشباب الأرمن، لن تجد صعوبة في اختيار عريس مناسب يليق بها، فكّرت بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام حين تصبح جدّة، تقضي وقتها بين بيتها وبيت ابنتها التي أورثتها العنق الطويل والصدر الناهد، إلى درجة أنّ من يراهما يعرف أنّها نسخة طبق الأصل من مريم.

قبل موت أورهان بسنة، قالت لوليم: «لن تراني بعد اليوم، أريد أن أصبح جدّة». ذهبت بعيداً في الرضى، عادت للنوم في سرير أورهان، لكنّها لم تحتمل سعاله آخر الليل، رائحة جلده لم تمنحها النشوة المفتقدة في الاندساس قرب رجل، واللحظات القليلة التي انتصب فيها قضيبه بعد مداعبات طويلة لم تكفها للوصول إلى النشوة، لم يمنحها أورهان السعادة التي تخيّلتها حين وافقت على الزواج به، الجنس بالنسبة إليه فعل ثقيل الوطأة، محاولتها الاندساس في خاصرته ليلاً وإثارته تجعله يتشكّى من ضيق السرير وفقدانه السكينة، أيضاً كانت تشعر في لحظات كثيرة بأنّه تزوّجها لإرضاء شعوره بالذنب، كان يشعر بأنّه من ارتكب المجزرة، وإنقاذ فتاة مثلها فعل إحسان سيمنحه السكينة، لكنّ وجوده في حياتها بهذه الصفة زاد من شعوره بالذنب، بقي ينظر إليها كأنّها ضحيّته، لم يكن يفكّر في الحبّ، بل بفتاة يربّيها على يديه، يورثها ذائقته، ويعلمها أصول حياة العائلات الإستنبوليّة التي تقضي عمرها تتحدّث عن الفخر بالأجداد.

بعد سنة من زواجهما وحبلها بابنها عبد الحميد استأذنته في النوم في غرفة مستقلة، تحمّس للفكرة، وبنى لغرفة نومها حمّاماً خاصاً، وأعادا فرشها بسرير عريض، وستائر سميكة. كانت

الغرفة بعيدة عن غرفة نوم أورهان، شعرت بحرّية فيها، كأنّها شبه منفصلة عن المنزل، لا يسمع أحد صوتها حين تعرّي نفسها وتضطجع على السرير مستعيدة ليالي غرفة الحجر الصحّي في دير زهر الرمّان، لم تنس رائحة الشراشف الغامقة الملوّثة بعرق وليم، حين كان يتسلّل إلى الغرفة ويضطجع قربها، يريد مشاركتها الوباء.

في أحلامها كانت تشتهي كلّ الرجال، لا تستطيع نسيان طعم لمستها لعضو وليم، ولا حكايات صديقاتها اللواتي كنّ ينمن معه، لكنّها اكتفت بلمسات حنونة من رجل عجوز، أنيق بما يكفي لإغراء النوم بعمق وطمأنينة في حضنه، كان الأمر مزعجاً لكليهما، توقفت عن هذه اللعبة كما فعلا في محاولات قديمة، لا يمكن لمداعبات خفيفة إطفاء نار جسدها، يجب قتل ما بقي من حواسّها كي تستطيع العيش بهدوء واستسلام يليق بالجدّات اللاتي ستكون إحداهنّ بعد سنوات قليلة.

أخبرتها سعاد صباح اليوم التالي، بأنّ وليم قضى ليلته يتحدّث عن الفقدان والتفكّك، لم يصدّق فراغ عينيها في الصورة الأخيرة، نعم فقدت البريق القديم، أصبحت كيساً من البطاطا العفنة. رغم بالطو الفرو، كانت في أعماقها امرأة مختلفة، انتهت رغباتها مبكراً، لم ترغب في شرح فكرتها المفزعة التي كانت تفكر فيها طوال وقت سفرها إلى إستنبول لدفن أورهان.

بعد دفن أورهان وانتهاء مراسم العزاء في منزل العائلة الكبير في الشيشلي، لم تنتظر السماح لها بالمغادرة كما هو مفروض. صباح اليوم التالي، حملت حقيبتها وغادرت المنزل مصطحبة ابنتها جلنار وابنيها عبد الحميد وعثمان عائدين إلى حلب. في الطريق كانت مضطربة، لأول مرّة تمتلك مصيرها، لا أحد سيفرض عليها أيّ شيء، وجدت في صندوق بريدها ثلاث رسائل من وليم، لأول مرّة يرسل لها رسالة في البريد، كان يترك لها الرسائل في منزل سعاد، لكنّه الآن يفكّر بأنّها أصبحت له، ويحقّ له مخاطبتها دون خوف.

بعد دخولها إلى المنزل، شعرت بفراغ رهيب، قالت في نفسها: لقد تلاشى وليم أيضاً، كان الاثنان مترابطين بالنسبة لها، غياب أحدهما يعني غياب الآخر، لم تستوعب أول لحظة هذا المعنى، لكنّه في النهاية، كان حقيقيّاً بالنسبة لها، أصبح وليم جزءاً من الماضي بعد موت أورهان، لم تكترث كثيراً لما يقوله الناس عنها، أفرغت خزائنها من روائح أورهان، ولم تكترث ببدلات الجوخ الإنكليزي المولع بها، لم تحبّها يوماً، جدّدت المنزل، وغيّرت مواقع الأشياء. أصبح منزلاً مختلفاً، لكنّ ذكرى أورهان في كلّ الزوايا تحاصرها، قتل الماضي ليس سهلاً كما ظنّت. صمّمت على طرد كلّ الأشياء التي تذكّرها به، كتبت لوليم رسالة وأرسلتها عبر البريد، أخبرته فيها أن لا ينتظرها، كانت تظنّ أنّ كلمات قليلة وصارمة في رسالة عبر البريد كافية لطرد وليم أيضاً، لكنّها بقيت محاصرة بالرجلين، شعرت للحظات بأنّ موت وليم قد يعني نهاية حياتها. حدّثتها سعاد بأنّه في الأيّام القليلة الماضية لمغادرته المدينة كان جادّاً أكثر من اللازم، تجاهل نظراتها المتفحّصة الطويلة، وأسئلتها، كان يتحدّث عن الموت لكنّها تجاهلت الأمر، الموت المبكر في عائلتهما يمنحهما شعوراً قويّاً بالاكتئاب، وسعاد تخاف البقاء وحيدة.

أخبر وليم عمّته سعاد بأنّه سيرمّم القبو، أضاف: لا خوف على الصور وأرشيف المخطوطات من العفن، سيعيد ترتيب كلّ شيء، لم تصدّقه، ولأول مرّة أخبرته أنّ أشياءها لم تعد تعنيها ويستطيع التصرّف بها بالطريقة التي يراها مناسبة، تريد التخفّف من أحمال الماضي، تجاهلت هذه الفقرة من حديثهما، لا يريد أن يرثها، في أعماقه كان يريد ترتيب موته، وترك أشيائه وديعة أبديّة لديها، هي الشخص الوحيد الذي سيحسن التصرّف في آلاف الصور، وأشيائه الكثيرة. المخطوطات التي حملها في ثلاث حقائب تنكيّة كبيرة من الدير حين هجره للمرّة الأخيرة تُعدّ العبء الأكبر،

خرائط ومجموعة ملفّات محرّرة بلغات قديمة قضى عشر سنوات يساعد الأب إبراهيم الحوراني في نسخها وإعادة رسم صورها مرّة أخرى، ومجموعة صحف قديمة وكتب جمعها مع جنيد خليفة الذي أقنع وليم نفسه بأنّه قد يعوّض النقص الكبير الذي خلفه رحيل الأب إبراهيم عن حياته.

لأول مرّة بعد عودتهما من دفن عائشة، يتبادل وليم مع عمّته سعاد هذا الحديث المليء بالألغاز والدلالات، كلّ واحد يريد للآخر أن يرثه، كلاهما يريدان تقديراً كبيراً لماضيهما، يفكران في الخلود عبر بقاياهما، حزنت سعاد في أعماقها، كأنّ كلّ شيء داهمها في اللحظة الخطأ، لم تكن مستعدة للموت، كما لم تكن مستعدّة لدفنه، قالت لمريم في لحظة مرح إنّهما يجب أن يموتا في اللحظة نفسها، مضيفة أنّه لا قيمة لوجودهما بعد موت عائشة، أولاد البيازيدي سيرمون بكلّ هذه الصناديق البالية لبائعي الخردة، ماذا تفيدهما بقايا رجل وامرأة غريبَي الأطوار، لم تشر لمريم في حديثها إلى البقايا، لكنّها فهمت أنّها جزء منها.

فكّرت مريم بأنّها نهاية حزينة جداً لامرأة ورجل يبحثان عن الخلود في مدينة كحلب كلّ جماداتها خالدة، الأسواق القديمة، القلعة الشهيرة، المنازل التي بُنيت قبل أكثر من ألف عام، من المحبط بقاء الأشياء خالدة بينما القصص العظيمة يتواطأ الجميع على محوها، والاستهتار بألم وفرادة أبطالها، وما الروايات المتعدّدة لقصّة واحدة إلّا محاولة لتشويه أبطال هذه القصص.

لم تتحوّل مريم إلى طيف أثيري كما ظنّ وليم ذات يوم، بل أصبحت امرأة مثقلة بهموم عائلتها، تتحرّك ببطء في المنزل الكبير، تسهب في تزوير ماضيها حين تروي قصّة وصولها إلى حلب، تناست بزق هاروت الذي بقي محتفظاً به رغم أوتاره المقطوعة، حاولت إقناع نفسها بأنّ كلّ ما روته هو عبارة عن حكايات ألّفتها أمّ لأطفالها كي يحتفظوا في ذاكرتهم بقصص عن طفولتهم السعيدة. كانت تردّد دوماً أن السعادة هي أطفال نظيفون ومنزل دافئ قبوه مليء بالمؤن وزوج محترم يذهب في مواعيد محدّدة وثابتة إلى مكتبه في البنك الذي يغصّ بالمراجعين، ويتلقى الثناء أينما ذهب. تسهب مريم في شرح السعادة على أنّها حسد الآخرين لامتلاكك أشياء كثيرة. تتحوّل إلى صورة ماريانا التي تكرهها، لكنّ دفاع وليم عنها غيّبها عن أحاديثهما. تتساءل في قرارة نفسها ماذا تفعل الكومودينة المزخرفة هنا؟ وماذا يمنحك طقم صحون الفضّة من مشاعر؟ لا شيء، كلّ الأشياء ميتة في النهاية مهما حاولنا نفخ الروح فيها.

لم تعد مريم تعتبر وليم من أسباب سعادتها، انتهى شغفها، الاسترخاء المحموم على الأريكة، الفستان المصمّم خصيصاً من أجل الصورة الشهريّة، المشاعر المحمومة التي تنتابها حين تكون أنفاسه قريبة منها. اليوم شعرت بأنّ كلّ شيء قد انتهى، لقد هرمت بما فيه الكفاية، لم يعد وجودها ضرورياً في حياته، والأصحّ لم يعد ضروريّاً في حياتها، أيضاً وليم لم يعد نفسه، بعد عودته من دفن عائشة، أصبح كثير الشرود، لم يصدّق أنّه لم يمت، يطلب تاكسي فجأة، يصل إلى الدير، يبحث عن حنّا ليخبره عن هواجسه بضرورة موته مع أخته كما يجدر بتوأم، ثمّ يقضي وقتاً طويلاً مع ماريانا، يتصرّف كابن عاق يريد تعويض أمّه عن غيابه الطويل، لكنّه يغيب مرّة أخرى، لم تفهم ماريانا تحوّلاته، لكنّها كانت سعيدة لتعلقه بها، إلّا أنّ حنّا حسم الأمر قائلاً إنّ وليم فقد نصف قلبه بموت عائشة.

لم تعد مريم تنتظر وليم ليحوّلها إلى امرأة تحلّق في الأثير، تدخل من شقوق النوافذ، تمسح بيدها الإلهية على رؤوس العشّاق المعذبين، وتهبهم الأمل الذي يحتاجون إليه كأيّ بشر ممزقين وقلقين، كما كان وليم يردّد. اقتربت مريم من اللحظة التي كرهتها بتكرار كلّ شيء في سنوات حياتها الزوجية، والحصول على النتائج نفسها. النهوض في السابعة صباحاً، تحضير الإفطار والجلوس

مع أفراد العائلة بالترتيب نفسه، كرسيّ أورهان على رأس الطاولة فارغاً، ومريم على كرسيّها في الطرف المقابل، الأولاد الثلاثة يتوزعون على باقي كراسي الطاولة، ظهراً يعود الأشخاص أنفسهم إلى أماكنهم، يتناولون غداءهم، والأمر نفسه يتكرّر على العشاء، يشغلون غرفهم بصمت، يراقب بعضهم بعضاً ولا ينتبه أحد فيهم إلى أنّهم كبروا، لم يعد أورهان يستطيع القراءة لساعات طويلة، والبريد لم يعد يحمل لها مجلّات الموضة والكتب الأرمنيّة المفضّلة، لم يعد أورهان للتحدّث عن حلمهما بالعودة إلى إستنبول وقضاء ما بقي من العمر في منزل أسرته في الشيشلي، حماسة جلنار لقضيّة أخوالها وقوّتها في الحديث عن المجزرة، صنعت شرخاً قويّاً في العائلة، لم يعد أورهان يفكّر بالعودة إلى إستنبول، يتخيّل نظرات الغضب التي ستطوّقه، ماذا سيقول لهم عن زواجه بمريم؟ وعن جلنار التي تريد قتل الأتراك في كلّ مكان انتقاماً لأخوالها؟ لا شيء. انقطعت صلاته مع العائلة يوم اختياره البقاء في حلب التي عشقها، وعدم الرحيل مع باقي الأتراك الذين هربوا من حلب مع انسحاب آخر جندي تركي منها.

أصبح الماضي بعيداً، بدأت مريم تصدّق حقيقة الاقتراب من الشيخوخة، كما صدّقت تحقق سعادتها، انتهت فترات اضطرابها التي كانت تحوّلها إلى امرأة مجنونة، تفكر في هجر كلّ شيء والذهاب مع وليم إلى مكان بعيد، أو عيش ما بقي لهما من سنوات في قبو منزل سعاد بعيداً عن المتلصّصين، لكنّ سكونها في الأشهر الأخيرة منحها سلاماً عميقاً، وطمأنينة لم تعرفها من قبل.

في زيارتها الأخيرة لاستديو وليم كانت أطرافها باردة، لم ترتجف حين جلست على كرسيّ الزبائن مقابل الكاميرا بحياديّة، سخرت من مشاعرها الحارّة خلال سنواتها الماضية، أخيراً شعرت بالرضى، وانتصرت على قلقها، لم تعد تأتيها الصور الفاجرة المزعجة، لن تترك سريرها ليلاً كمجنونة وتقف لدقائق تحت دش الماء البارد، غير مكترثة لثيابها المبللة ونظرات أفراد عائلتها المتسائلة خاصّة وهي ترتجف برداً في الشتاء، لا تستطيع شرح ما يحدث لها، تتحاشى الكلام وتعود إلى غرفتها، تحاول نسيان ما حدث رغم تكراره بين وقت وآخر، حمّى موسميّة تصيبها، تخاف من فقدان رشدها وحرق كلّ شيء، أقنعت نفسها بأنّه ليس وقت الجنون، كانت تخاف من عودتها مشرّدة، تتلقى معونات المحسنين في الجوامع والجمعيّات الخيرية، تفكّر بأنّه كان يجب أن تهرب من المنزل الدافئ والبحث عن بزق هاروت المقطوع الأوتار، لكن الوقت قد فات وانتهى كلّ شيء، أخيراً وهي تقترب من الأربعين من عمرها ستتركها الصور القاتلة تعيش في سلام.

خرجت من الاستديو مصمّمة على زيارة الكنيسة والتحدّث مع المطران في أمر مسيحيّتها التي لم تتركها كما يشيع الأرمن، لكنّها حين رأت الزحام شعرت بالضيق، عادت إلى منزلها عن طريق محطة بغداد، فكّرت بأنّه يجب الحفاظ على أشيائها التي يحسدها الكثيرون على امتلاكها. أخيراً أصبح وليم مجرد مصوّر بارع، يغري شغفها بالتقاط الصور وتكديسها في ألبومات، وهي مجرّد أمّ ستحتفل بأعراس أبنائها، وتعتني بذكرى زوجها الميت الذي قضى سنواته الأخيرة دون أحلام، فكر في الكثير من المشاريع لكنّه في الحقيقة كان ينتظر الموت، لم يؤسّس ركناً لعائلته في مقبرة المدينة، ولم يكمل الاستماع مرّة واحدة لمقطوعة موسيقيّة واحدة، ولم يكتب مذكّراته عن العصر الصاخب الذي عاشه، كما لم يكتب كتاباً عن مشاهداته للأرمن الناجين من المجزرة، بل أصبح في أيّامه الأخيرة ينكر المذبحة، ويشتم الأرمن ممتدحاً الحياة العثمانيّة. لقد رحل في الوقت المناسب، قبل أن تخرج مريم أمعاءه وتنثرها لكلاب الطريق.

في السنة الماضية خلال لقاءاتهما الأخيرة أخبرها وليم حين كانت جالسة على كرسيّها المخصّص لالتقاط صورها، أنّه لم يعد يطيق الانتظار، الأماكن لم تعد تعنيه، وحكاياته الخياليّة عن

حياتهما المشتركة التي ألفها عبر السنوات العشرين الماضية توقفت فجأة، كانت مريم السبب في أنّه لم يعد يستيقظ ضاحكاً، يدخل إلى المطبخ بهدوء كي لا يوقظها، كان يفترض دوماً أنّها نائمة قربه، يتشمّم رائحة نومها، يصنع القهوة لشخصين، يضع فنجانها على الطاولة الصغيرة المركونة قرب النافذة المطلّة على شارع بارون، يقرّب الفنجان من السرير، ويطلب منها التمهّل في تذوّق قهوته، يضيف أنّ الوقت ما زال مبكراً للتلاشي. حين كانت تغضبه، أو تؤنّبه على فضائحه كان يتمنّى العيش مرّة أخرى في الدير، يلبّي طلبات ماريانا دون ضجيج، يقطف لها من أراضي الدير وبساتينه الباذنجان الأسود ويفرز حبّاته السوداء اللامعة الصالحة للتقديد، ثمّ يحملها إلى القبو الكبير المعدّ لحفظ وتخليل ما يحتاج إليه الدير من مؤونة طوال الشتاء، وكلّ صباح يعتني بقبر عائشة.

لم تكن مريم تشاركه رغبة العودة إلى الدير، كانت تفكّر بصورتها كجدّة مبجّلة لمجموعة أحفاد، لم تعد تتلقى رسائله اليوميّة التي تطوف في الفضاء، لم تعد ترغب في البكاء حين تنتابها حمّى الرغبة، وتقضي الليل تقطع الطريق بعصبيّة بين غرفة نومها والمطبخ عشرات المرات، مصابة بصداع لا شفاء منه قبل موعد دورتها الشهريّة المنتظمة بثلاثة أيّام.

في زيارتها الأخيرة للاستديو خشي وليم من الحديث مع مريم، كان يعرف أنّها ستخبره برغبتها القوية في أن يعتبر هذه الصورة أخيرة في الألبوم، وإيقاف ترتيب الصور كمعنى وحيد للتواصل الذي لم ينقطع بينهما، خشي من طلبها الذي كرّرته باصطحابها في زيارة للدير للمرّة الأخيرة، وفي تلك اللحظة التي كان يقبع فيها في غرفة التحميض تاركاً إيّاها وحيدة على الكرسيّ، كانت تعرف أنّه كان يفكّر بأخته عائشة التي تلاشت فجأة، يشتاقها كثيراً، خاف أن يذهبا معاً إلى الدير بعد كلّ هذه السنوات ويسمع أخباراً سيّئة لم يعد يحتملها قلبه. ما بقي من عمره خطّط له بعناية، لكنّ كلّ شيء تلاشى الآن، لم يبق إلّا الموت الذي لم يكن يراه سيّئاً، ندم لأنه لم يرافق الأب إبراهيم إلى بيروت، هناك في تلك الأرض البعيدة كان يستطيع قضاء حياته بين مخطوطات كتبها مجهولون عن الحياة التي مضت، يستطيع المشاركة في تأليف الحكايات عن بشر اندثروا وتاهوا في الصحراء. كانت تعرف صعوبة أن ينهض صباحاً من سريره وألّا يُحضِر القهوة إلّا لشخص واحد، أخبرته عمّته سعاد بأنّ مريم أخبرتها قرارها الأخير بهجره، انتظر سخريتها إلّا أنّها صمتت، تركته وحيداً وانسحبت الى فراشها في الغرفة العلويّة، جسمها المتثاقل يقطع أرض الدار بخطوات بطيئة ويدها المتشبّثة بالسلالم زادت من بؤسه، لقد شاخت الأميرة التي من أجلها ضاعت هيبة الكثير من رجال المدينة.

في اليوم التالي لزيارة مريم الأخيرة لاستديو وليم، وللمرّة الأولى منذ سنوات، لم تجلس إلى طاولتها بعد خروجها من الحمّام، لتشرب قهوتها في العاشرة صباحاً، وتتلقى رسائل وليم السابحة في الفضاء. شعرت بدوار خفيف ورضى عميق، وهي تستمع إلى موسيقى قادمة من الشارع القريب لفرقة نحاسيّات تعزف ألحان أغانٍ وطنيّة ومارشات عسكريّة، تخترق جموع البشر الزاحفين إلى محطة القطار لاستقبال شكري القوتلي ووفد الكتلة الوطنيّة المرافق له، قدّرت أنّ وليم الآن يبحث عن موقع يستطيع منه تصوير أبي الاستقلال لحظة وصوله، لن تفوته اللحظة التاريخية، لكنّ وليم في اللحظة ذاتها كان يعيد ترتيب كلّ شيء في صناديق كبيرة، رمى بمئات المجلّات المصوّرة والجرائد التي نشرت بعض صور التقطها في مناسبات اجتماعيّة متعدّدة، ومنها صورة طفل يمسك بجنديّ فرنسي ويهزه من صدره، الطفل يبكي أباه القتيل، لم يفصح وليم عن كلمات الطفل التي طلب الصحافي منه تذكّرها بإلحاح، ترك بين يدي الصحافي الصورة وخرج دون أن ينبس ببنت شفة، في صباح اليوم التالي نُشرت الصورة وتحتها مانشيت عريض: طفل

سوري بطل: الموت للمستعمر الغاشم. ما زالت مريم تذكر حزن وليم الشديد لتلاعب محرّر صحافي يبحث عن الإثارة بعواطف طفل حزين فقد والده، وسخف البحث عن كلمات طفل دموعه تفصح عن هول مصابه.

لم تكن تعنيه البطولة، ولم يكن معجباً بالمصوّرين الذين يعتقدون بأنّ صورهم تصنع الأبطال، لذلك كانوا يفاخرون بعلاقتهم مع رجال السياسة ونجوم المجتمع، كان يسخر طوال الوقت من صعوبة العيش أمام الكاميرا.

بعد زيارة مريم الأخيرة أصبح العالم بالنسبة إليه مجرّد مكان ضيّق، وصورتها آخر الصور. من أجلها أصبح مصوّراً، لكن في الصورة الأخيرة لم يشعر باشتياقها لأصابعه التي تمهّلت في المرور على فخذها، كانت عيناها حياديّتين، أصبح بالنسبة إليها مصوّراً يخلّدها في تلك اللحظة كجدّة مقبلة جليلة في ألبوم عائلة سيرثه أحفاد فخورون بعد مئات السنين، ولم تكن تلك العاشقة، كان كلّ شيء في الصورة الأخيرة يشي بأنّه انتهى من حياتها، ثوبها الذي ارتدته فيه من وقار الأم أكثر من حماقة العاشقة، لم تترك زرّ الثوب مفتوحاً لتلفحه ظلال نهديها الغامضة في غرفة التحميض. في الصورة الأخيرة حين تتّضح خطوط رقبتها وتفاصيل وجهها في الحمض كانت تريد أن تبدو بالنسبة له زبونة تشبه كلّ زبوناته زوجات الموظفين الكبار والأطبّاء والمحامين، اللواتي يشرحن له أنّهنّ يردن للصور أن تظهر سعادتهنّ للأحفاد، يؤكّدن أنّ الحشمة هي دليل انتماء عائلي يردنه عريقاً دوماً رغم منبت بعضهنّ البسيط كبنات موظفين صغار وفلّاحين مهاجرين إلى المدينة استطعن عبر علاقات الزواج نسج سيرة جديدة في أحسن الأحوال ماضيها مزوّر.

أخبر خليل مريم بعد أشهر بأنّه في ذلك اليوم، سار وسط الحشود التي تحاول مصافحة شكري القوتلي ورفاقه أعضاء الكتلة الوطنية، وقف في مكان بعيد يبحث عن صانعه خليل الذي وجده كما توقع معلقاً على شجرة كبيرة مشغولاً بالتقاط الصور، منفعلاً بالحدث التاريخي كما هي عادته، حاول لفت انتباه صانعه لكن دون جدوى، اقترب من المنصّة، وقف تحت الشجرة الكبيرة، وبصوت عالٍ نبّه خليل إلى وجوده، خليل لم يفوّت فرصة تصوير معلمه في لحظة اقتراب شكري القوتلي والوفد منه، ست صور التقطها خليل بخفّة، في إحداها كان وجه وليم قريباً من شكري القوتلي إلى درجة كأنّه يبدو من ضمن الوفد الذي سار وسط صخب وهتافات الجماهير المرحّبة بأبي الاستقلال.

تفاهم وليم على عجل مع خليل وحاول الخروج من هذا الزحام، كان يخاف دوماً الوقوع في المصيدة، انتظر كي يعبر الوفد، انحسرت الجماهير وتركته واقفاً وحده يراقب من بعيد ظهور آلاف البشر يلحقون بالموكب، لم يفوّت خليل هذه الصورة أيضاً وكانت الأكثر تعبيراً عن حالة وليم في تلك اللحظة، رجل وحيد تتركه الحشود، وخليل بذكائه الفطري قدّر أنّ هذه الصورة ستثير اهتمام صحافي فرنسي كان مقيماً بشكل دائم في فندق بارون، لم يحتج خليل إلى جهود كبيرة لبيع هذه الصورة للصحافي الفرنسي الذي حاول مرّات عديدة التودّد إلى وليم عبر خليل، لكن وليم ترك بينهما مسافة كبيرة، مردّداً أنّه مصوّر الظلال ولا يحبّ ما يقوله الأجانب ويبحثون عنه في مدينته.

في الليلة نفسها التقى وليم مع خليل وسام في مقهى باب الفرج، طلب وليم من خليل التفرّغ له لمدّة ثلاثة أيّام، قضاها الاثنان في ترتيب شؤون المحل، سجّل وليم عقد إيجار المحلّ والمنزل باسم خليل، ووقعا عقد شراكة يشرف فيه يوسف زوج عائشة على أموره المالية، أورثه كلّ مسوّدات الاستديو التي تُعدّ ثروة يعرف خليل قيمتها، بعدما قضى سنوات يؤرشفها في علب خاصّة. أغلب سكّان المدينة مرّوا من هذا الاستديو، كثيرون منهم يعودون بعد عشرين عاماً مصابين بمرض

الحنين، يطلبون صور طفولتهم أو أول صورة لهم وهم مستعدّون لدفع مبالغ كبيرة للحصول عليها، انشغل بمفرده في اليوم الأخير بترتيب صور مريم التي يحفظها في صندوق مقفل، وبنسخة مطبوعة من صورها في صندوق آخر كانت مريم تعرف أنّه مركون في قبو منزل سعاد، وفيه أيضاً مناديلها وكفوفها المخرّمة التي ما زالت تحتفظ بعطرها والتي ساعدته على ترتيبها بعناية حسب تاريخ لقاءاتهما.

فكّر بترك صناديقه في قبو منزل عمّته سعاد، لكنّه لم يطق البعد عنها، ما بقي منها بالنسبة إليه هو صور مريم وأشياؤها. كانت تعرف أنّه لا يمكن وضع الذكريات في صناديق مقفلة، يريد لها عناوين مجهولة كطائرات أبيه زكريّا الورقيّة، تخيّل الصناديق تبحر في نهر الفرات، كان يعجبه مشهد إبحار ذكرياته في النهر العظيم. أكمل خليل أنّه ساعده في نقل الصناديق من منزل عمّته إلى منزله، وفي اليوم الثالث حسم أمره، ذهب إلى محلّ توابيت، اشترى تابوتاً فاخراً، لم يجب عن أسئلة النجّار الذي يعرف كلّ زبائنه المسيحيّين، اكتفى بالقول إنّه يحتاج إلى ترتيب موته، وضع كلّ الصناديق في التابوت، واشترى عربة قويّة وحصانين انتقاهما بعناية ابن خبير خيول.

تسلّل من المنزل فجراً، كانت مريم تتخيّل منظره حين بدأت العربة تقطع شوارع المدينة، كانت متأكدة من شعوره بالخواء، في قلبه وحشة غريبة. كان منظره مدهشاً لسكّان القرى التي يمرّ بها، رجل أنيق ووحيد يقود عربة جميلة وجديدة تحمل تابوتاً. سكّان القرى أحاطوا به وسألوه إن كان يحتاج إلى أرض لدفن تابوته، شكرهم وليم بهزة من رأسه وتابع طريقه بعد استراحة قصيرة، كان يحتاج إلى الصمت، دوماً كان يعتبر أنّ الكلام لا يليق بالعشّاق المهجورين، من الصعب إعادة تأليف الحبّ وروايته على الغرباء.

في الأسبوع التالي بقيت مريم مهتمّة بالتفتيش في كلّ الصحافة العربيّة والفرنسيّة عن صور استقبال الوفد للبحث عن صور وليم، وجدت صورته التي ينظر فيها كرجل وحيد إلى الموكب الذي يمضي، شعرت بحزن شديد لصورة ملاكها الذي يبدو فيها رجلاً مهزوماً يبحث عن الموت.

قصّت الصورتين وخبّأتهما بين صفحات كتاب عمر الخيّام باللغة الأرمنيّة الذي وجدته في إحدى مكتبات بيروت قبل عشرين سنة، وضعت الكتاب بعناية بين أثوابها الداخلية، فكّرت بأنّه لا يهمّ أحداً غيرها، ولداها لم يتعلّما الأرمنيّة واكتفيا باللغتين الفرنسيّة والانكليزيّة في ما بعد، لم تعنهما أشعار عمر الخيّام، وابنتها جلنار مهتمّة بالكتب والبحوث التي تؤرّخ للمذبحة أكثر من عنايتها بكتب الشعر والأدب.

لم تشعر مريم بالطمأنينة كما توقعت بعد رحيل وليم، تنهض آخر الليل من سريرها، بعصبيّة تفتح الكتاب، تحدّق مليّاً في صورته، ترى في عينيه تلك الوحشة التي حدّثها عنها مرّة حين وضع أمامها صورتها، وطلب منها عدم التحقيق مع نسائه، فكّرت بأنّه لن يموت دون أن يخبرها، كما لن يموت فجأة كأيّ شخص. الوحشة في صورته وهو يراقب الوفد والجماهير المنسحبة من حوله، تستطيع فهمها بأنّه لم يكن مولعاً في أيّ يوم بالتظاهرات والأبطال، أنّبت نفسها، لأنّها في جلوسها الأخير أمامه لم تكن تريده سوى أن يكون مصوّراً بالنسبة إليها، لم تخلع معطفها كما تفعل كلّ مرّة، ولم تنتقِ الزاوية التي ستنظر إليها وتغويه، غيابها عنه لمدّة سنة كاملة دون أيّ سبب كان قاسياً، في هذه اللحظة شعرت بأنّها تحبّه إلى درجة العبادة، لكنّها أفسدت كلّ شيء، لا تريد له أن يموت قبلها، لن تستطيع احتمال فقدانه.

في الأيّام التالية لمغادرته المدينة، لم تنم جيّداً، ولم تعدّ الفطور لأبنائها كعادتها، لم تقدّم أيّ سبب، فكّرت أنّها لن تستطيع الكذب وإخفاء سرّها الكبير في هذه اللحظة، شعرت باستعدادها لفعل

أحمق قد يدمّر صورة العائلة.

خرجت مبكّرة من المنزل قبل أن يستيقظ أحد، رأت من بعيد المحلّ المفتوح، فتحت الباب ونظرت إلى جدران الاستديو، لم تحتج خليل لأن يخبرها عن رحيله، كانت الصور الجديدة المعلقة على الجدران تقول إنّه لم يعد له أيّ علاقة بهذا المكان، استبدل خليل بورتريهات النساء الغامضات اللواتي يتشاركن معرفة أنفسهنّ مع وليم فقط بصور حشود متظاهرين، وقصاصة الجريدة الفرنسيّة التي نشرت صورة وليم يشيّع بنظراته الجماهير والوفد مؤطّرة ببرواز ذهبي، محتفظاً بصورة وحيدة التقطها لمعلمه وليم جالساً إلى طاولة في مقهى مع جنيد خليفة الذي بدا رجلاً عجوزاً يبتسم طوال الوقت ولا تفارق السيجارة يده وهو يكمل حديثاً مع صديقه الذي اعتبره ابناً له.

الآن فهمت مريم معنى قول وليم إنّ الجدران تمثّل هويّتنا، لم ينتظر خليل خروجه من المدينة حتى بدأ يعلن عن هويّته على الجدران ويخفي رموز هويّة معلمه. لبّت دعوة خليل إلى القهوة، كانت تريد المكوث في هذا المكان، فهمت أنّه غادر المدينة وأورثه كلّ شيء، لن يعود إليها، شعرت بتعاطف أنّه وجد وريثاً يحفظ إرثه، لم تسأله عن صورها لكنّه أخبرها عن كلّ شيء، شعرت بخوف أن تكون من ضمن الكنبات القليلة والسرير العريض وصناديق الثياب الأنيقة التي ورثها خليل، فكّرت بأنّ الأمر ليس مهمّاً، تابعت طريقها إلى منزل سعاد، فكّرت أنّ هذا المنزل من ضمن الأمكنة التي يجب هجرها، هجر أمكنة وألوان وروائح ورموز من نحبّ دليل على أنّنا نريد التخلص من كلّ ما يؤلمنا. انتظرت أن تنهي سعاد أعمالها مع زبونات الصباح، مدّت يدها إلى درج الملاعق في المطبخ وأخرجت مفتاح القبو، سارت في أرض الدار، فتحت باب القبو، كان مرتّباً على غير العادة في السنوات العشر الأخيرة، السرير القديم الذي تمدّدت عليه عارية، ومانيكانات سعاد تنظر إليها كأنّها ستتحرّك من مكانها، قادتها من يدها إلى الجلوس على الكنبة الطويلة، شعرت براحة كبيرة حين لم تجد الصناديق في مكانها المعتاد، جلست على السرير، تمدّدت ونهضت كملسوعة، حين أغمضت عينيها للحظة فشعرت بأصابعه تتسلل إلى فخذها الأيمن الذي كان يثيرها مجرّد لمسه بطرف إصبعه. اشتاقت إليه. بكت أمام سعاد التي نظرت إليها بتعاطف كبير، أخبرتها ببرود: لقد عاد إلى الدير، ذهب ليموت هناك، بعد موت عائشة لم يعد يصدّق أنّه ما زال على قيد الحياة، أضافت: شاهده الناس يغادر حلب ومعه تابوته، ثمّ صمتتا، وقبل أن تغادر مريم طلبت منها سعاد أخذ مفتاح القبو، هي أيضاً تريد التحلّل من إرثها وأشيائها الكثيرة، تريد قضاء ما بقي من سنوات عمرها القليلة بخفّة فراشة تشبّهت بها طوال سنوات عمرها وقد تجاوزت السبعين.

الفصل العاشر
سرير القدّيس اللين

دير زهر الرمّان – حوش حنّا – 1951

عاد وليم في الوقت غير المناسب، فقد أصبح الدير شبه خرابة. اكتشف أنّ ماريانا على حافة العمى، لم يغب عنها وقتاً طويلاً، لكنّه لم يكن يتفحّصها بدقة، وحنّا يقضي وقته في منزل زكريّا الذي لم يسمح لأحد ما عدا بولس بالاقتراب منه.

أخبره الشمّاس بولس أنّ الصلوات ووجبات العشاء ظلت على مواعيدها، وكل ما عدا ذلك تغيّر، مضيفاً أنّ أحداً لم ير الأخت المبجّلة منذ عدّة أشهر، أوصت بولس أن لا يمنحه الأمل في لقائها، أمسك بذراعه وهزّه بقوة وقال له إنّه لن يستطيع العيش هنا مرّة أخرى. كان يعرف أنّ الدير لم يعد مكاناً للحياة بل أصبح مكاناً للدسائس وتصفية الحسابات ومنتظري الموت.

في انتظار لقائه مع ماريانا، قضى وليم وقته في منزل زكريّا الذي لم يرحّب ببقائه، لا يريد أن يراه مهزوماً إلى هذه الدرجة، يعود وليم محبطاً ليجلس قرب التابوت في غرفة الشمّاس بولس حلّاق الذي استعاد ذكرياته الطويلة مع زكريّا كأنّه يرثيه قبل موته. تراه ماريانا من نافذة غرفتها، كان بولس ينقل إليه كلماتها وينسبها إلى نفسه، في الأسبوع الأول أخبره بأنّ الجميع توقعوا عودته منذ زمن بعيد، مضيفاً أنّه تأخّر إن كان يريد العيش، وأتى مبكراً جداً إن كان يريد الموت هنا. أجابه وليم بكلّ جدّية بأنّه إن مات فلن يطلب دفنه في الدير، أوصى الجميع بأن يُحرق جسده، ويُنثر رماده في الحقول، لكن يجب دفن أشيائه بتبجيل، مشيراً إلى التابوت، مضيفاً أن ما يبقى من الإنسان ليس أشياء تافهة كما يعتقد البشر. صمت بولس ولم ينقل ما قاله لماريانا، أعجبته قوّته، وتبجيله للذكريات وبقايا الإنسان.

لم تسأل ماريانا عن أسباب عودته، ولم تخف سعادتها، لكنّ عودة شخص نحبّه في الوقت غير المناسب تشبه عودته ميتاً، أرسلت له قطرميز مربّى مشمش، أمرت بولس بإحضار وجبات عشائه من المطبخ كي لا يضطرّ للتحدّث مع أحد، طلبت إخباره بكلّ ما حدث خلال السنوات الماضية، تريده أن يصبح جزءاً من حياة الدير مرّة أخرى. أثناء زياراته الماضية عبر سنوات لم يكترث لقصص الدير، كان يكتفي بالاطمئنان على ماريانا وحنّا وزكريّا، يتعامل معهم كمغترب يزور

عائلته في إجازاته، لم يرغب في ربط حياته بالدير، ولكن، بعد موت عائشة، فكّر طويلاً بأنّه لا يستطيع العيش بعيداً عنها.

كانت ماريانا تريد التأكّد من أنّه سيقيم في الدير ولن يغادره، لكنّه لم يكن مكترثاً، كان يعرف كلّ شيء، لم ينقطع عن الدير أصلاً. بقي غارقاً في أحلام يقظته ونقاشه الداخلي مع نفسه، كان يبحث عن سلام داخلي افتقده طوال سنوات طويلة. نظرة واحدة إلى الدير جعلته يفهم أنّ كلّ شيء تغيّر، الممرّات التي كانت تفوح منها روائح النظافة العطرة أصبحت عطنة، والأبواب الهائلة لغرف الرهبان والراهبات تخلعت أقفالها، اختفت أصوات السجال من غرفة النسخ التي قضى عشر سنوات فيها يساعد الأب إبراهيم في نسخ مؤلفات رهبان دير نجران. غطى الغبار المصنّفات والمخطوطات. من الواضح أنّ كلّ شيء قد تغيّر.

يتذكّر وليم سعادته في تلك السنوات، حين التقت عيناه بعيني مريم، شعر بتلك الرجفة الغريبة التي حوّلت حياتهما إلى قصّة غريبة، فكّر أنّه يمتلك وقتاً طويلاً يكفيه لترتيب ذكرياته، في الأسبوع الأول شعر بأنّ الزمن يمرّ بطيئاً، وفكّر بالفأل السيئ الذي يمنحه بطء الزمن، لكن الفضاء المفتوح وقربه من قبر عائشة، وذكرياته في مكان طفولته، كلّ ذلك منحه شعوراً بالأمان.

فكّرت ماريانا بأنّ وليم لم يعد إلى هنا مع تابوت أشيائه ليستمع إلى ثرثرة بولس، لكنّها في الوقت نفسه لا تعرف لماذا عاد إلى هذا المكان الكئيب، الذي لم يبق من إرثه ما يغري عابري سبيل بالمبيت، شوربة العدس وحبّات البطاطا المسلوقة تشي بفقره.

حين كانت تزوره ظنّت أنّ لديه حياة مختلفة وسعيدة، لكنّها لم تقدّر مدى تشابك حياة التوأمين. كان دفن عائشة في الدير قراراً صائباً، قبرها هو الخيط الذي أعاده إليها مرّة أخرى.

يسرج حصانه كلّ صباح ويخرج من بوابة الدير الواسعة، يجول في المناطق القريبة، يصل إلى أطراف أعزاز وعفرين، ويعود مرّة أخرى من الطريق نفسه مستعيداً ذكريات رائعة مع معلمه الأب إبراهيم الحوراني.

لم تعد ماريانا تعرف ماذا تريد منه، لا تعرف إن كانت تريد بقاءه، في الوقت نفسه شعرت بفرح خفيّ لم تشعر بمثله منذ سنوات طويلة، أرادت له البقاء قربها آخر أيّامها، يرعاها كابن، أرادت امتحان صبره بانتظاره مقابلتها. أخبرها بولس بأنّ وليم يفكّر بإعادة زراعة الأرض الكبيرة التي أُهملت في السنوات الأخيرة، شجّعه بولس على القيام بأيّ عمل، وألّا ينتظر مرّة أخرى إعادة إحياء إصطبل خيول الدير الذي لم يبق فيه إلّا حصانان هرمان لم يعودا قادرين على الإنجاب، لم يعد المتبرّعون يتذكّرون سكّان هذا المكان.

كانت تتعمّد النظر إليه من نافذة غرفتها البعيدة عن الأنظار، لا تراه لكنّها تحسَب أنّها ترى شبحه في غبش الفجر، يشمّر عن ساعديه، يربط حصانه إلى محراث ويفلح الأرض بهمّة كبيرة، لمحها تراقبه من فتحة صغيرة لكنّها لم تلوّح له، لم يكن يعرف أنّها لم تعد ترى جيّداً، أرسلت مع بولس أنّها تنتظر منه العودة مرّة أخرى إلى حلب، ولا تريد رؤيته، لم يعد لديها وقت كافٍ للعناية به، لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لها، أصبحت تسير متثاقلة في جناحها، لكن في الحقيقة لن تسامح نفسها إن عاد مرّة أخرى إلى حلب رغم تشكّيها الدائم من هجره وخذلانها الدائم له. قالت له مرّة أثناء زيارته لها في عيد الميلاد قبل سنوات عديدة إنّها نادمة على سماحها له بالرحيل، في أعماقها كانت تعرف أنّها لن تستطيع منع عاشق من اللحاق بحبيبته، انتظرت عودته لكنّها فوجئت حين رأت عربته محمّلة بتابوت، قالت لبولس أن يخبره بأنّ الوقت ما زال مبكراً على الموت، كاد بولس

يخبرها عن وصيّته بحرق جسده والاكتفاء بدفن الأشياء والذكريات، لكنّه صمت، لن يمنحها سبباً إضافيّاً للفزع.

تتذكّر ماريانا زكريّا، حين كان في عمره. لا يشبه أباه، إنّه أكثر وسامة وأقلّ قوّة، لكن في دمائهما تجري تلك الدماء الغريبة. في الأيّام التالية، لم تحترس في مراقبته، وسماع أخباره. حين بدأت شتلات اللوبيا والبندورة تزهر أرسلت في طلبه، قرّرت أنّه لن يرى وجهها إلّا إذا أيقنت أنّه يريد البقاء نهائياً هنا، لا تريد له رؤية تجاعيد وجهها، وجسدها الضئيل، وزوغان عينيها، ستحدّثه من خلال الحاجز الذي تستخدمه في السنوات الأخيرة للتواصل الضروري مع الغرباء، لم يبق سوى ثلاثة أشخاص يحق لهم محادثتها مباشرة وتفحّص وجهها المتغضّن، حنّا الذي لم يعد مهتمّاً منذ عشر سنوات بمحادثتها، وخادمتها التي تشغل الغرفة القريبة منها في الطابق العلوي، وبولس الذي تجاوز الثمانين لكنّه ما زال نضراً، يحلم بالعيش طويلاً وإعادة إحياء أمجاد هذا الدير العظيم. الثلاثة يتجاهلون أيّ سؤال عنها. لولا حركتها في الطابق العلوي من الدير وأحياناً جلوسها في الشرفة الصغيرة في ليالي الصيف القائظ لظنّ الجميع أنّها ماتت منذ زمن بعيد، لقد اختلطت أزمنة الدير وانتصرت روايتها كما أرادت، الشيء المادّي الوحيد الملموس كان المكان المخصّص لقبر حنّا الذي دفن عائشة فيه، وحفرت ماريانا قبراً جديداً له قرب قبرها، كانت تنتظر موته للسعي لدى البابا لتطويبه قدّيساً، اختارت مكان دفنهما متجاورين تحت شجرة تين وحيدة تلوح في الأفق من بعيد، كانت تشعر بأنها تشبهها وحنّا في سيرتهما، في وحدتهما، ما زالت وجوه إخوتها وأبيها وأمّها وابنَي زكريّا وحنّا طافية على صفحة نهر الفرات تؤرّقها، لم تستطع نسيان تفاصيل الطوفان رغم مرور أكثر من أربعين سنة، بقي كندبة في ذاكرتها لا يمكن محوها.

قاده بولس إلى الطابق العلوي، أجلسه على كرسيّ، تركه وحيداً يستمع إلى أنفاسها الثقيلة القادمة من وراء الحاجز الخشبي العريض، تذكّر أيّام طفولته حين كان يجري صاخباً في الممرّات الصامتة، يدخل إلى كلّ الغرف بما فيها غرفتها، ويعبث بكلّ شيء، قضى طفولته في حضنها، تشمّم في جسدها رائحة الأمّ المفقودة، ما زال يتذكّر كلّ لحظات طفولته السعيدة، لكنّه الآن غريب يتحدّث من وراء حاجز، لم يطل الوقت، سألته عن أحواله وقدّمت له العزاء بوفاة عائشة، منكرة أنّها لم تسمح لها بمقابلة حنّا، تجاهلت السؤال عن عمّته سعاد، أخبرها باقتضاب أنّ عائشة مضت كما كانت ترغب منذ زمن طويل، شعر بأنّه يكذب لكن لا وقت لديه لفتح سيرة شائكة عمرها أكثر من أربعين سنة. حدّثها بتفاصيل قليلة عن زوج عائشة وأبنائها، كان يريد الحديث عن مريم، عن حلب، عن رغبته في كتابة تاريخ الدير وترميم إصطبل الخيول،عن القيام بأيّ فعل يقتل الوقت البطيء، كلماتها القليلة وجملها المتباعدة والحاجز جعلته يفقد الرغبة والاكتفاء بطلب السماح له بدفن تابوت أشيائه في مكان يختاره ضمن أسوار الدير، طلبت منه أن يختار مكاناً لقبره لا لتابوت أشيائه. أخبرها بوصيّته إن مات هنا يجب أن تسمح بحرق جثمانه وتنثره بيدها في حقول الرمّان حين يزهر، أخبرته بأنّها لا تستطيع احتمال فكرة حرق جثمان رجل، هذه معصية لن ترتكبها، لم تسأله عن محتوى التابوت، صمتت حين سمعته يتحدّث عن حرق جثمانه، خافت من إكمال الحديث معه على هذا المنوال، تعرفه جيّداً حين تستبدّ به فكرة غريبة. تجاهلت أمر الدفن والموت، وأرادت الحديث عن حياته، شعرت من لهجته المرتبكة بأنّها تعيد حديثاً مكرّراً مع أبيه حين غضب لأنّها لم تسمح له بدفن حصانه الأسود الذي مات مسموماً. كان وليم مختلفاً عن أبيه، لكنّها فكّرت بأنّ صور الماضي تبقى داخلنا، لم ترغب في كسر قلبه، كانت ترغب في احتضانه، لكنّها منعت نفسها، نصحته بترك تابوت أشيائه قريباً منه، قالت له بضع كلمات أخيرة إنه ما زال مبكراً الحديث عن

القبور حين تتفتّح زهور الباميا واللوبيا، ونباتاته يجب أن تمنحه الأمل، رجته أن يفهم رسالتها بأنّ حديثها عن أزهار نباتاته ترحيب منها بحياته لا بموته. وقبل أن تختتم اللقاء سألته مباشرة إن كان يعاني من مرض خطير يستدعي موته، اطمأنّ قلبها حين أخبرها بأنّ صحّته جيدة لكنّ روحه متعبة، مضيفاً أنّه يعاني من الوحشة والفقد. صمتت ماريانا وقرّرت في لحظة أنّها لن تدخل في نقاش طويل قد يجعلها حزينة أو قاسية، شعرت في تلك اللحظة بأنّه ابنها فعلاً وتريد له أن يعيش.

أمرت بتخصيص غرفة واسعة كان يشغلها معلمه الأب إبراهيم المبجّل قرب المكتبة، كي لا يترك الدير إلى منزل زكريّا القريب، منحته الإذن بطلب لقائها مرّة أخرى بعد عدّة أيّام، أخبرته عن طريق بولس برغبتها في عدم رؤية تجّار خيول في الدير، أرادت لمن بقي هنا الموت بسلام بمن فيهم زكريّا الذي زارته ماريانا عدّة مرات، كانت رقيقة معه، تمنّت له الشفاء، لم يعد يعنيها ما ستفعله الكنيسة بهذا المكان بعد وفاتها ووفاة حنّا.

لم تنم ماريانا ليلتها، ماذا سيفعل مع هؤلاء العجائز الباقين الذين لا يملأون صفّاً واحداً في الكنيسة الصغيرة؟ نبّهه بولس أنّه حظي بشرف كبير، لديه إذن إقامة مع المصطفّين من رهبان وراهبات رفاق الأخت الكبرى المبجّلة ماريانا، ويحق له التجوال بحرّية في الدير ومحيطه، اقترح عليه تحويل جزء من الإصطبل إلى مكان للرسم، وأضاف بولس أنّه في العنابيّة القريبة يعيش رجل مسلم، من أفضل رسّامي الأيقونات، وأنّه يستطيع دعوته لمشاركته المرسم، لكنّ وليم كان يفكّر بأنّ الرسم جزء من ماضيه الذي يريد له الاندثار.

طلبت ماريانا من بولس العناية به، ونقل تفاصيل حركته في الدير، وإخبارها عن ردود فعله، أوصل له بولس رسالة بأنّ ماريانا ما زالت تعتبره طفلها المدلل الذي تربّى في هذا المكان، إنّه ابنها، وهذه حقيقة تريد للجميع أن يعرفها.

عدم السماح له بالنظر في عينيها، وصوتها الضعيف من وراء الحاجز جعلاه يشك في أنّها تعيش أيّامها الأخيرة، ولا تريد إفساد ترتيب موتها، سئمت الحياة. في لقائهما الثاني، كان حزيناً وعاطفياً تجاه أمّه ماريانا، حدّثها عن عمّته سعاد وقال إنّها تتمتّع بصحّة جيّدة وستعيش طويلاً، تجاهلا الحديث عن مرض زكريّا، أسهب في الحديث بأنّه لو بقي هناك قرب رائحة مريم والقبو لتفسّخ، سئم الحياة أيضاً، هذا المكان مناسب لعيش رجل غير طموح يريد الابتعاد عن الصور القاتلة، وما بقي له من أشياء جمعها في تابوت يرافقه أينما ذهب.

استيقظت ماريانا صباحاً أكثر نشاطاً، طلبت من بولس إعطاء تعليماتها للخادمة بأن تشمل غرفته برعايتها، سمحت له بالطبخ في غرفته الملحقة بالإصطبل. رحّب بولس بفكرتها التي لم يجرؤ على تنفيذها بمفرده، هو أيضاً لم يعد يطيق تناول طعامه مع مجموعة أشخاص يكرهون البهارات ويقضون وقتهم في الصلوات.

بعد انتقاله إلى غرفته الجديدة، استعاد وليم مع الشمّاس بولس ذكرياته مع الأب إبراهيم المبجّل. في هذه الغرفة التي ينام فيها الآن قضى أجمل سنوات عمره، كانت ماريانا تعرف أنّها مكانه المفضّل. على بابها وقفت مريم لأول مرّة، قدّمت الزهور للأب إبراهيم ومضت دون أيّ كلمة، لم يستطع وقتها النهوض، كأنّه فقد أثر طيف ملاك، خذلته ركبتاه، لم ينتبه إلى الأب إبراهيم الذي بحث عن مزهريّة أو وعاء ليضع زهور مريم، مردّداً أنّ الفتاة الأرمنيّة قد شُفيت من الحمّى، بمساعدة أدوية الطبيب، وعناية الأب إبراهيم مع الراهبة اللذين سهرا قرب سريرها سبعة أيّام، الراهبة تساعدها على أكل البطاطا المسلوقة، والأب إبراهيم يغنّي لها أغاني سريانيّة لا تفهمها، تنظر بمودّة إليه، لم تعتقد بإمكانيّة شفائها والعناية بأزهارها التي زرعتها تحت نافذتها.

بقي وليم يفكّر بطيفها، بحث عنها في كلّ مكان، تسلّل إلى غرف الخادمات لكنّه لم يجد أثراً لها، لم يجرؤ على سؤال أيّ أحد عن طيف فتاة وقفت للحظات ومدّت يدها بباقة زهور مبتسمة، ثوبها النظيف لم يخف بؤسها، لكن في تلك اللحظة لم ير سوى وجه ملائكيّ يوزّع الزهور على مجموعة أناس وحيدين في مكان مثقل بالخطايا.

حركته الغريبة أثارت ريبتها، ظنّته ماريانا مصاباً بالحمّى، حين اقتربت من سريره، أغمض عينيه، بعد خروجها من غرفته، رأته يدخل إلى مطبخ الدير دون استئذان، فوجئ بنظرات الخادمة التي تعدّ شوربة العدس، سمعته يطلب منها بصوت مرتجف القليل من الملح لمداواة حصان جريح، وفي مرّات أخرى رأته يتجسّس على غرفة البنات، أخبرتها عائشة ساخرة بأنّه يبحث عن ملاك، ماريانا تعرف كلّ وجوه سكّان الدير، لذلك قدّرت أنّ ما حصل هو التباس ذهني، لا حقيقة لوجود ملاك. أخبرتها عائشة القصّة، لكنّها كانت تتحدّث بطريقة عابثة لا تستدعي القلق، والزهور التي ذبلت في غرفة النسخ قدّمتها فتاة من تلميذات الأب إبراهيم الأرمنيّات اللواتي صمّم على تدريسهنّ قواعد اللغة العربيّة ولم يتركهنّ حتى تعلّمن الكتابة والقراءة.

لم تترك ماريانا أحداً يعبث بروحه، راقبته عن بعد، اعترف لها بأنّه يبحث عن طيف فتاة قدّمت الزهور للأب إبراهيم، بعد ثلاثة أسابيع حين كان يسرج حصاناً ليغادر المبجّل في زيارة لجسر الشغور، ومن الشرفة في الفجر القائظ من أحد أيّام صيف 1922 رأى طيفها مرّة أخرى يعبر شرفة غرفة فتيات الدير اللواتي يجلسن صامتات، ينسجن كنزات وجوارب الصوف. إنهنّ البنات الأرمنيّات الفقيرات، اللواتي قرّرن أن يصبحن راهبات، كانت ملاك وليم جالسة معهنّ تدقق في كتلة الصوف وأصابعها تعمل ببطء شديد، ترتدي فستانها الأزرق المبقع بزهور صفراء، لحظات كانت كافية ليتأكّد من حقيقة وجودها. نهضت مريم وغادرت، انتظر عودتها لمشاركة رفيقاتها بقيّة السهرة على الشرفة المفتوحة على الحقول الواسعة، لم تعد، لكنّ وليم حمل سلة عنب كبيرة وصعد إلى الطابق الثاني، قرع باب غرفة البنات، فتحت له الكبرى الباب، فوجئت بوجوده في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، قدّم لها سلة العنب، تلصّص من الباب المفتوح للحظات، غادرها دون أيّ كلام، وفي الليلة ذاتها قرّر التسلل إلى غرفة الفتيات وقت ذهابهنّ إلى درس اللغة العربيّة.

من زجاج النافذة رأى معلمه الأب إبراهيم يقرأ في كتاب، والفتيات الجالسات على المقاعد يتثاءبن. إنهنّ ست فتيات ولسن سبعاً، لم يشك في أنّ الملاك تسكن إحدى غرف الدير، لكنّه لم يستطع سؤال أيّ أحد عنها، لم يعد يخبر عائشة أيّ شيء بعدما سخرت منه وأفشت سرّه لحنّا. لفتت حركته المريبة في الأسابيع الماضية النظر، ضحكت ماريانا في سرّها وقالت إنّها أوهام مراهق صغير ستنتهي. ساءت حالته كثيراً، ظهرت عليه علامات العشق، حذره الأب إبراهيم من فيضان رغبته في مكان لا يحتفي بالرغبة، عرض أبوه عليه الرحيل إلى حلب، وهجر حياة الدير. أغمض وليم عينيه وأخبر الأب إبراهيم عن ملاك يوزع الزهور في أرجاء الدير، تحدّث لساعات عن ملاك لا يراه البشر. لكنّه، هو، رآها، توزع الزهور وتنثر البهجة.

انقطع وليم عن العمل مع الأب إبراهيم، اكتفى بمساعدة والده في تلبية طلبات زبائن كثيرين على سروج الخيل المصنوعة بإتقان، أحب ترويض المهور الصغيرة، كان يقودها كقطيع إلى حقول القمح المحصود، ويقضي وقتاً طويلاً في مراقبتها، لم يرغب والده في أن يتحوّل إلى راعي أحصنة وصانع سروج، وحنّا لم يرغب أيضاً لكنّه قال إنّ الحركة مع الأحصنة تساعده على الشفاء. أرعبتهم حركته البطيئة وزوغان عينيه في الأسابيع الأخيرة. تخوّفت ماريانا من إصابته بمرض السلّ، شعر زكريّا بقلق فظيع، لن يحتمل خسائر أخرى، فكّر بهجر الدير نهائيّاً، لكنّه لن

يستطيع العودة مرّة أخرى إلى تأسيس حياة مختلفة في حلب، الحقيقة التي يعرفها جيّداً أنّه لا يستطيع هجر صديقه حنّا، وإصطبلات خيوله في العنابية.

أخذ الجميع يراقبون نحول وليم، يقود قطيع الأحصنة إلى الحقول كلّ صباح صامتاً، ازداد القطيع كثيراً، وإصطبل الدير اكتسب سمعة كبيرة وصلت إلى كلّ أصقاع البلاد، بالإضافة إلى إصطبلات زكريّا، يأتي التجّار كلّ يوم ثلاثاء من كلّ أنحاء البلاد ليفاوضوا على شراء أحصنة معروضة للبيع، أحصنة أصيلة قام زكريّا بتربيتها والعناية بها، مستخدماً مهارات لم يكن أحد يتخيّل أنّه يمتلكها ذات يوم.

لا يكترث وليم للمهور الصغيرة حين تشرد بعيداً عن القطيع، يعود مساءً إلى الدير والكثير من الأحصنة لم تشبع بعد، أو القطيع ناقصاً، يُضطرّ زكريّا للذهاب مع بولس والبحث عن الأحصنة المفقودة.

يجلس وليم في الغرفة الكبيرة التي يشغلها الأب إبراهيم، تقدّم له الخادمة صحن شوربة وقطعة خبز، يكتفي بلقيمات قليلة، لم يعد يصعد إلى غرفة ماريانا كعادته يوميّاً، حتى إنّه لم يعد يحبّ المكوث ساعات طويلة، ينقل بأناقة صور الأديرة المندثرة في الجزيرة العربيّة، التي خطّها رهبان ماتوا قبل ألف عام، تركوا وراءهم مخططات تلك الأديرة التي ضاعت بين الغزوات ورمال الصحراء.

كان ضائعاً وسط متاهة لا يستطيع الخروج منها، الشيء الوحيد الذي تتذكّره ماريانا أنّه قال لها إنّه لم يعد يطيق هذا المكان، أصبح موحشاً. قضى وليم شهر آب يبحث عن ملاكه دون يأس، ذات ليلة رأى عربة الطبيب تتوقف أمام الدير وينزل منها حاملاً حقيبته، ووراءه عربة البلديّة المخصّصة لنقل موتى وباء الكوليرا، سار الطبيب مباشرة إلى غرفة النسخ، وضع حقيبة كبيرة على طاولة النسخ، رآه وليم من خلال الزجاج يتحدّث مع الأب إبراهيم وماريانا، كأنّه يشرح لهما أمراً. فكّر وليم بأنّ الأمر خطير، وإلّا لما أتى في هذا الوقت من الليل. خرج الطبيب مع الأب إبراهيم إلى غرفة الحجر البعيدة عن المبنى الرئيسي للدير، وماريانا ذهبت إلى غرفة حنّا بعدما استدعت زكريّا وبولس. سار وليم وراء الطبيب، وحين خرج مع الأب إبراهيم من المبنى الرئيسي عرف أنّهما يسيران إلى غرفة الحجر، وصل وليم مع ممرّضي البلدية الحاملين ثلاث نقالات، نظر من النافذة الكبيرة المطلة على الممرّ المؤدّي إلى الطريق العامّ، فوجئ بملاكه ممدّدة على فراش قطني، في غرفة عارية، قربها جرّة فخار مليئة بالماء، يفحصها الطبيب ويسكب لها في ملعقة دواء تساعدها راهبة في بلعه، كانت الراهبة ترتدي ثياباً كتيمة، وكفوفاً بلاستيكيّة، يتركها الطبيب ويشرف على نقل ثلاثة جثامين، واحد منها يعود لصديقة الملاك التي تناولت منه سلة العنب قبل أيّام قليلة. وضع الممرّضون الجثث الثلاث في الأكياس الكتيمة وأغلقوها جيّداً، إنّهم يقومون بعملهم بسرعة كبيرة، لقد دفنوا الكثير من الجثث خلال الأسبوعين الماضيين.

تابع الطبيب جولته في العنبر الكبير. شعر وليم بهبوط قلبه، ملاكه تذوي وتموت ببطء، عاد إلى غرفته يجرجر قدميه، كانت عائشة تنظر إليه خائفة، كان يبكي بصمت، وحين احتضنته وضمّته إلى صدرها، انفجر في بكاء قويّ بصوت عالٍ، أفلت نفسه من عائشة، سار في الممرّات على غير هدى، رأته ماريانا يشرد في حقول الدير ويغادر الأسوار، يركض بعيداً في حقول الرمّان والزيتون والكرز، ينظر الجميع إليه من النوافذ بتعاطف كبير، إلّا الأب المبجّل إبراهيم، أستاذه، عاد إلى غرفته مع أخته عائشة التي كانت تبكي بصمت، وتعتقد بأنّ توأمها ضاع منها إلى الأبد.

في الأسابيع الأخيرة، وبعد عودة وليم إلى الدير، لاحظ أنّ حركة حنّا أصبحت بطيئة، يقطع الطريق بين غرفته ومنزل زكريّا كلّ يوم بتؤدة، يستند إلى عكّازه، ولا يسمح لأحد بمرافقته، يدخل إلى منزل زكريّا، ويقضي الاثنان الوقت في الحديث المتقطّع، يساعدهما الشمّاس بولس في إعداد المرهم الذي وصفه له الطبيب، يدهن حنّا جسد زكريّا، لكنّ البثور لا تتوقف ولا تتراجع، يكزّ زكريّا على أسنانه متألماً، يحضر له حنّا المسكّنات، ويقضي ليلته أحياناً قرب فراشه، يساعده الشمّاس بولس على الوصول إلى الدكّة أمام باب المنزل، يجلس زكريّا مسترخياً تحت ضوء الشمس، يعرف أنّ الموت ليس قريباً، يغمض عينيه، لا يريد أن يرى أيّ شيء، كلّ ركن في هذا المكان يذكّره بهزيمته، لكنّه لا يريد أن يثقل على حنّا الذي شعر بأنّه تفكّك بعد موت عائشة، يجلس حنّا قريباً منه، يبدو المشهد غريباً لمن لا يعرفهما، رجلان عجوزان ينتظران الموت. بعد عودة وليم إلى الدير انضمّ إليهما لكنّ حنّا لم يسمح له بأن يساعده في دهن بثور زكريّا، طمأنه حنّا بأنّه مرض طارئ وسيُشفى منه، يوم دفنوا عائشة كان زكريّا هزيلاً بسبب فقدان شهيّته للطعام، وهو شيء مألوف لرجال عجائز، وقبل ثلاثة أشهر أصيب بالجدري، البثور فتكت بجلده، ويريد لها التغلغل إلى قلبه لتوقفه.

كلّ لحظة، كان حنّا يفكّر بسعاد التي لم يبق لها إلّا أشياء الموتى، تتساءل كلّ صباح ماذا تفعل الكائنات في ماضيها؟ لم تعد تصدّق الحياة، ولا الموت، تشعر بأنّ الزمن الذي لم يتوقف كان أكذوبة عظيمة، أغلقت الباب في وجه زبوناتها، لم تعد تستقبل إلّا عدداً قليلاً من نسوة يشبهنها، رغم مرور خمس وعشرين سنة على احتراق عرض أزيائها الأول لم تستطع النسيان، بقيت أسيرة تلك اللحظة المدمّرة، تتساءل في أعماقها: لماذا تبختر فتيات شابات فخورات بأجسادهنّ على منصّة خشبيّة صمّمها مهندس يعاني من الوحدة يسبّب الأذى لامرأة ستموت بعد سنوات قليلة، ولمجموعة رجال يعتقدون بأنّ حرق المكان بهذه القسوة سيعبّد طريقهم إلى الجنّة. ما زالت تتذكّر لحظات الذعر على وجه مريم التي نجت من المجزرة الرهيبة، ولا تريد الموت وسط كلّ هذه الفخامة. يومها خرجت عائشة من الغرفة باكية، يبحث يوسف عنها وسط الحريق ليحميها، هي لحظة نادرة ليقول لها كم أحبّها منذ لحظة لقائهما التي تحوّلت فيها عائشة من طفلة إلى امرأة صغيرة. ولد حبّهما وسط ذلك الرماد، أخبرتها عائشة بأنّ يوسف حين احتضنها ليقيها من النار كان يطوّق حياتها للأبد، شعرت بقلبه يدق بقوّة، ورغم قوّته كمقاتل سابق في الجبال كان يبكي كالنساء الضعيفات.

تفكّر سعاد بأنّ قبو منزلها أصبح مقبرة للأشياء، وما هي إلّا حارسة هذه المقبرة، صور وليم، وكاميراته القديمة، لوحاته، وما بقي من ذكرياته مع ملابس نسائه الكثيرات، مانيكانات قديمة، ما بقي من أثواب ذلك العرض اليتيم. لم تعد سعاد متحمّسة لسماع مريم، حين تأتي كعادتها لتتحدّث بدون توقف عن الفراغ الذي تشعر به، عن رغبتها في إعادة علاقتها مع الكنيسة، عن وليم الذي لم تعد تشتاق إليه.

كانت سعاد في الأيام الأخيرة حزينة بما فيه الكفاية كي لا تهتمّ بتفاصيل الآخرين، لقد مات صديقها الأثير عازار قبل شهرين، لم تصدّق أنّه مات مهزوماً إلى هذه الدرجة. اتصلت بها سارة، طلبت منها الحضور فوراً إلى منزله، أضافت قد لا تلحقينه. خرجت سعاد مسرعة من منزلها، وحين وصلت كان عازار قد مات. لم تلحق به. في الأسابيع الأخيرة من حياته لم يعد عازار يستطيع السير إلى الحمّام، بعد إصابته بقصور كلوي مفاجئ خرج من المشفى مشلولاً، فكّرت بأنّه أراد الموت بعد رؤيته صورة ابنه وابنته منشورة في جريدة إسرائيليّة، هزّته هذه الصورة التي

تداولها يهود حلب سرّاً، كانت زوجته ميشا راؤول من أوائل المهاجرين إلى إسرائيل بعد إعلانها دولة في 15 أيّار 1948. اتّصلت بالوكالة اليهوديّة في نيويورك وطلبت بحماسة تسهيل سفرها مع ولدها وابنتها إلى إسرائيل، كانت الصورة واضحة، امرأة يهوديّة فخورة بجنسيّتها الجديدة، يقف قربها ابنها يحمل سلاحاً ويرتدي ملابس عسكريّة ويرفع أصابعه بإشارة النصر.

لم يستطع عازار احتمال الصدمة، كان يخطط للقاء ابنه وابنته في نيويورك الصيف المقبل، ليعرض عليهما العودة إلى حلب. لقد أصبح رجلاً عجوزاً، يريد قضاء آخر أيّامه معهما، كان يعتقد بأنّ ابنته هدى ستعود معه إلى حلب، تكتب في رسائلها عن ضيقها من بخل أمّها، ومزاجها الصعب، تبقى ميشا مستيقظة لتطفئ لمبات الكهرباء وراءهما، تريد لهما الاكتفاء بلمبة واحدة، ولا تريدهما أن يتحدّثا سوى مع اليهود. ضاع كلّ شيء، توقفت رسائلهما قبل عدّة أشهر ولم يجيبا على تلغرافاته العاجلة، تفهّمت سعاد قلقه، خوفه، حاولت مساعدته على أن يفكّر في ما بقي من حياته بعيداً عنهما، كان يردّد أنّهما ذهبا إلى المكان الذي لا يمكن استعادتهما منه.

لم يكن عازار يهوديّاً متعصّباً، كان يعتقد أنّ حلب مدينة ساحرة لا يمكن لأيّ شخص وُلد وعاش فيها استبدالها بأيّ مدينة. يوم إعلان دولة إسرائيل قال لسعاد سيعيش اليهود تيهاً آخر وأبديّاً، لن تجدي يهودياً واحداً هنا بعد سنوات قليلة، سينتزعونهم من أمكنة طفولتهم حتى لو اضطرّوا لاستخدام القوّة، لن يعدموا الوسيلة، ليرث أبناؤهم عار دم الفلسطينيّين إلى الأبد.

أصبح عازار يلازم منزله، لا يخرج إلّا للضرورة، لا يشارك في نقاشات اليهود الذين كانوا يجتمعون ويختلفون حول إسرائيل، يتبادلون بسرّية تامّة عروض الوكالة اليهوديّة لمساعدتهم على الهجرة. انتهى حلم شيخوخته بافتتاح مدرسة مسائيّة لتعليم العمارة، كان يردّد: كلّ الناس لديهم فائض خيال يجب استثماره في صناعة الجمال.

جسده الممدّد على سريره يشي بوضعه البائس، لم يحلق لحيته منذ أشهر، تفوح من قميصه رائحة كريهة، فكّرت سعاد بأنّه لم يرتد القمصان الجديدة التي أتت بها في زيارتها الأخيرة بعد خروجه من المشفى مشلولاً.

أمسكت بيده وضغطت عليها، تسللت البرودة إلى أصابعها، توافد إلى المنزل مجموعات كبيرة من الناس، تركتهم سعاد وخرجت من الغرفة، جلست في الصالون تنتظر إتمام خروج جثمانه لتسير وراءه، شعرت بغربة وسط المشيّعين، كان أبناء ديفيد وسارة يتحرّكون بسرعة، رتّبوا مراسم الدفن. شعرت بأنّها كائن زائد في المكان، خرجت من المنزل، انتظرت الجنازة في شرفة منزل سارة القريب، كانت مصمّمة على أن تلوّح لتابوته حين يخرج، لقد فقدت قطعة من روحها، بالنسبة إليها لا يمكن تعويض عازار. خرج النعش وكانت سعاد تنظر إليه صامتة، وسط عويل النساء كانت تلوّح له كأنّه ذاهب في مشوار صغير لن يلبث أن يعود بعد ساعات قليلة، بقيت تنظر إليه نظرة ثابتة حتى انعطفت الجنازة نحو مبنى البريد. عادت إلى منزلها، أغلقت الباب وكتبت رسالة طويلة لحنّا، لا تعرف لماذا جلست تلك الليلة لتكتب لحنّا بعد ستين سنة من تلك اللحظة التي بصقت فيها عليه حين رأت أحمر شفاه النساء والخمر يلوّثان قميصه الحرير.

لم تقرأ الرسالة كي لا تمزّقها كعادتها، سارت نحو مبنى البريد، فكّرت بأنّ الرسالة قد تقع بيد ماريانا، طلبت من سائق سيّارة أجرة تعرفه جيّداً أن يوصل هذه الرسالة، أعطته أجرة مضاعفة مع توصية أن لا يسلّمها إلّا باليد لحنّا.

بقيت الرسالة على طاولة حنّا، لا يجرؤ على فتح المظروف، يفكّر في غفرانها الأكيد، تحوّلت الرسالة إلى كابوس ثقيل، بعد شهر من وصولها استيقظ حنّا فجراً، وجلس على كرسيّه، فتح

المظروف وقرأ رسالة سعاد:

حبيبي حنّا

لن أثقل عليك، لقد مات عازار مهزوماً، متقرّحاً، كان في الأيّام الأخيرة يعاقب نفسه على أشياء لم يرتكبها، وبعد موته أصبحت امرأة وحيدة، تنتظر الموت. مات عازار، وقبله مات وليم عيسى، وماتت عائشة حبيبة القلوب. إذن ماذا بقي لنا؟

لا شيء.

أكتب لك هذه الرسالة وليس لديّ ثقة بأنّني سأكملها، من الصعب كما تعرف أن تكتب رسالة فكّرت فيها ستين سنة، وأنا فكّرت في كتابة هذه الرسالة قرابة ستين سنة. منذ ذلك اليوم الذي فتحت لك فيه الباب حين كنت عائداً من البندقيّة مع زكريّا. كان وجهك هو الملاك الذي أبحث عنه.

لم أحتمل تغيّر الصورة والصفات، لم يكن بمقدوري الغشّ، انقسمت حياتي إلى لحظتين لم أخترهما، قبل عودتك من البندقيّة حيث طفولتنا التي لم أفكّر فيها إلّا في وقت متأخّر، كم كانت سعيدة، مبهجة – كما كنت أظنّ – لكنّني اكتشفت أنّها طفولة مخادعة. كنّا إخوة، وكنت أشعر بهذا حقاً، أقسم حبّي بينك وبين زكريّا الذي أعتقد بأنّ حياته انتهت منذ تلك اللحظة التي دخلت فيها منزلنا وجرحتما إصبعيكما وشهدت على أخوّتكما الأبديّة. لقد تحوّلتما إلى شخص واحد بجسدين، نعم كانت أخوّة أبدية بينكما لكنّي أنا التي دفعت ثمن ذلك.

سأشرح لك باختصار كيف عانينا جميعاً من تغيّر الصفات التي تبادلناها نحن الثلاثة، سأختصرها بعدّة صور ما زالت ماثلة في ذهني: نحن جميعاً، عازار وسارة ووليم عيسى وزكريّا وأنت وأنا، نعبر الجسر للوصول إلى جبل الجوشن الذي كان موحشاً، لنطيّر طائرات زكريّا الورقيّة. وقبلها نرسل، نحن الأصدقاء الستة، زوارقنا الورقيّة في النهر. صورة أخرى، أنت وأنا وسط باحة الدار الكبيرة التي أراها الآن من مكان جلوسي وأنا أكتب لك، كنت واقفاً على تلك البلاطة السادسة من الشمال إلى الجنوب، والثالثة من الشرق إلى الغرب، وأنا كنت أقف أمامك، لم تكن أخي الذي سافر قبل سنتين، كنت شخصاً آخر، لم أعرفه، في الليلة ذاتها لم أنم، تجسّست على أنفاسك، وجلست على الدرج وبكيت.

الآن أعرف أنّني في تلك اللحظة كنت أوقّع قرار إعدام حياتي. لا يمكن لفتاة مثلي أن تعيش حياتين، لكنّني كما ترى، بعد كلّ هذه السنوات، أكتشف ما هو متأخّر جداً. لقد عشت حياتين بينهما ممرّ مظلم أعبره كلّ لحظة. تخيّل الحياة في نفق مظلم... أنا عشت في ذلك النفق. أعيش حبّي المحرّم وحيدة، أتلقى كلمة تشجيع من هنا وأخرى من هناك، كلّ النساء اللواتي عرفتهنّ كنّ يرينك مرسوماً على جلدي، مختبئاً في كفّي، نظرات الشفقة تأكلني، لا يمكنك إلّا أن تشفق على امرأة تعيش حبّاً محرّماً في نفق.

شعرت في تلك اللحظة بأنّك تسرّبت إلى داخلي، انزلقت، وحين شعرت بمتاهتك بعد أيّام حاولت الخلاص لكنّي لم أستطع، كلّ يوم كنت أحاول إخراجك من رحمي لكنّي أعجز، عشت في ذلك المكان الدافئ منذ تلك اللحظة. مئات الليالي، آلاف الليالي، لا أملك وسيلة للدفاع عن نفسي سوى البكاء، حتى حين كان زوجي حسن المصابني يتمدّد قربي على السرير كان يشعر بأنّ كائناً غريباً غير مرئيّ يتمدّد بيننا، كان يخاف من الذهاب إلى المشايخ ليسألهم طرد الروح الشرّيرة التي تفصلني عنه، كان يخاف أن تقطع حبل السرّة، وتتدفق من داخلي وتغرق العالم.

حتى المرّات القليلة التي ذهبت فيها إلى الفراش مع رجال كنت أتوقع أنّهم سيشبعون نهمي إلى اللذة، كنتَ تنهض في اللحظة المناسبة من رحمي، وتتمدّد بيننا. صحيح أنّها لم تكن مرّات كثيرة لكنّها كانت أشدّ ألماً من أيّ شيء يمكن حدوثه لامرأة. كنت أحدّث عازار عن أولئك العشّاق القلائل، وكان كأيّ صديق عظيم يشجّعني على الارتباط والحب، لكنّه كان يشعر بيأس شديد حين أخبره بأنّني أتحوّل في السرير إلى حبّات رمل تتسرّب بين الشقوق الناعمة. كنت حزينة لكنّي في الوقت نفسه أشعر بأنّه لا يمكن لمن تحمل في رحمها ثقل طيفك أن تتعاطى مع جسدها باسترخاء.

أحاول الآن ترتيب الصور لكنّي أشعر بالهزال، بالضعف، إنّها صور قليلة على أيّ حال، لكنّي لا أنسى بعضها: كنت أطبخ الفاصولياء في منزل أهلي، وأضع صحنك على الطاولة، لا يعرف أبي لماذا أضع صحناً فائضاً على الطاولة. كنت أردّد في سرّي أنّني أحبّك وأنا أطبخ الفاصولياء، وأريدك أن تتذوّقها من يدي، أدخل غرفتك وأرتّب ثيابك، بقيت كلّ يوم أقوم بالفعل ذاته، وأنت فهمت أنّه يجب أن تترك لي شيئاً من أثرك، استسلمت لقدري، وحين كانت جوزفين تضع يدها في ذراعك والمطران يعلنكما زوجاً وزوجة، كنت أرى صورتك الأخرى. كانت سعادتي لا توصف لزواج أخي الذي كنتَه في تلك اللحظة بتلك المرأة اللطيفة، وحين عدت إلى غرفتي في تلك الليلة نويت للمرّة الأولى أن أطفئ شهوتي وشوقي إلى رجلي الذي كان أنت. لكن بعد تمدّدي عارية في السرير أبت الصور أن تأتي وشعرت بقرف حقيقي، ولم أعرف سرّ ذلك العصيان الذي أعلنه جسدي.

لم أحاول مرّة أخرى فعل ذلك، وحين كنت أفعله كنت أستحضر رجالاً آخرين أشتهيهم عن بعد، لم تكن صورتك تقبل التسلّل إلى سريري. فكّرت مرّة بأنّني حين صفعتك بقيت نادمة لوقت طويل، لأنّك بالنسبة لي لم تكن رجلاً من دم وأعصاب، بل طيف رجل يحوم حولي ويرفض الخروج من رحمي.

كلّ لحظة كنت معي، لم تغادرني، وأفكّر الآن بأنّ كلّ ما حدث كان يجب أن يحدث كما حدث. ويجب أن أشكرك لأنّك فعلت كلّ ما فعلته من أجلي. حين كنت أراك تنزل من عربتك أمام باب المنزل كان الهواء القادم من ناحيتك يكفيني، وأفكّر بشفقة بتلك النساء اللواتي عشت معهنّ كلّ ملذاتك السريعة، القصيرة، أشكرهنّ لأنهنّ تركن لي طيفك الذي أريد، وأخذن عظامك التي تشبه عظام الديناصور الذي رأيت بقاياه، والذي حدّثني عنه يوسف مراراً. لا يمكن للعظام والهياكل العظمية أن تتسلّل إلى رحم.

لو كنت قريباً منّي لطلبت منك أن تبتعد، لا أريد أن أفقد تلك الروعة التي أشعر فيها بتحوّلي إلى كائن يفتح رحمه متى أراد، يتذوّق عسل الحبّ، ثمّ يغلق الرحم كما كنّا نفعل حين كنّا صغاراً وننهب قطرميزات العسل في قبو المؤونة.

لن تخرج من رحمي حتى بعد موتي، ستبقى تنعم بتلك الرطوبة الرائعة، تسبح في تلك المياه النقيّة، تغفو على سرير القدّيس الليّن كما فعلت لخمس وخمسين سنة لا ستين سنة كما ظننت أول الرسالة. نم يا حبيبي. لن يراك أحد. لن يرى طيفك أحد سواي.

سعاد.

16 شباط 1951 – حلب

لم يحتمل حنّا كلمات سعاد الرقيقة، بكى بحرقة. في الليالي التالية صار ينهض قلقاً بعد نوم قصير ومتقطع، يخرج من غرفته، يسير إلى منزل زكريّا، ينام على الطرّاحة الممدودة قرب

فراشه، يسمع أنين صديقه، يحدّق في السقف، يشعر بعجزه، لم يستطع احتمال فكرة موت زكريّا، لأسابيع انتابته الحالة نفسها، الإحساس بالخسارة والعبث، شعر بأنّه معلق في فضاء الغرفة التي يكفي أن تسدّ منافذها لتصبح قبراً كبيراً، تشمّ الديدان رائحة جثته وجثة زكريّا، تنبع من الأرض، وتبدأ بالتهامهما ليتلاشيا. كان يفكّر في صورته متلاشياً طوال الوقت. أصبح الدير مكاناً بائساً، فقيراً، تقشّر كلس جدرانه، والرطوبة بقعت أقبيته، نوافذه مخلوعة، ولم تتركه صورة عيشه في رحم سعاد الدافئ.

لم ينتظر حنّا طويلاً، مضى الشتاء ولم يُشفَ زكريّا رغم تحسّن حالته كما أخبرهما الطبيب الذي بقي يحذره من انتقال العدوى إليه. مع بداية الربيع تحدّث مع زكريّا ليلة كاملة. بعد ثلاثة أيّام أرسل في طلب وليم، شعرت ماريانا في أعماقها بأنّ حنّا يخطّط لشيء، فكّرت بأنّه قريباً سيموت أحدهما، على الأغلب ستكون هي. ففي الشتاء الماضي تدهورت صحّتها، وكثرت زيارات الطبيب للدير، فكّرت أنّ الجميع أصبحوا عجائز. قدّرت أنّ حنّا كان محقاً حين رفض عروض الكنيسة بتجديد الدير وإحيائه، طلب من المطران باسيلوس الذي أصبح صديقه تركه يموت بهدوء وسط هؤلاء العجائز، استمع المطران لحنّا بهدوء وتعاطف كبيرين، فكّر بعلاقتهما التي تغيّرت كثيراً بعد المجاعة، أعجب حنّا يومها بفتح المطران خزائن الكنيسة، وبيعه الممتلكات الثمينة ليقدّم الطعام على قارعة الطريق للمحتاجين، لم يعد يحلم بمنصب البطرك، نقاشاته مع حنّا والأب إبراهيم غيّرته، بعد المجاعة رأى الموت يحصد الجميع، فكّر بتحوّلات حنّا التي ذكّرته بسير قدّيسين اختبروا الألم.

دخل وليم إلى غرفة حنّا، كان يبدو كرجل مريض، فقد بريق عينيه، وجهه أصفر كمصاب باليرقان، يتكلم ببطء، كأنّه ينتزع الكلمات من حنجرته، سأله حنّا بلهجة ودودة أين سيدفن تابوته الذي رافقه؟ قال لحنّا ببرود: «لا أريد لأحد أن يرى ماضيّ، وأشيائي، أريد دفنها قربي». كان زكريّا حاضراً بينهما. إنّه لا يشبه أباه، لكنّ سيرته الآبقة تذكّره بماضيه، غير أنّه أكثر كتماناً. في اللقاء الأول، شعر وليم بأنّه يريد المغادرة. ارتبك حين رأى دمامل زكريّا ووضع حنّا المزري، كان ثوبه غير نظيف، وجهه متغضّناً، شفتاه ترتجفان، والغبار في كلّ مكان. من الواضح أنّه لم ير أحداً غير زكريّا وبولس منذ وقت طويل، الصمت يحوّل الكائن إلى قطعة إسفنج قذرة. قال وليم إنّه يفتقد الأب إبراهيم كثيراً. عاد حنّا إلى صمته، شعر بارتباكه، تركه يمضي. في زياراته التالية كان وليم في وضع أفضل، لقد قرأ المصنّفات التي كتبها حنّا طوال أربعين سنة، وشهد على تسليمها لجنيد خليفة مع حقيبته التي أوصلها وليم إليه قبل سنوات، كان جنيد ممتنّاً لذهاب وليم إلى الدير رغم أنّه لم يلتقِه سوى مرّات قليلة، هو أيضاً يريد دفن هذه المصنّفات في مقبرة الأشياء مع روايته عن إمام العاشقين. نظر جنيد بأسى إلى الدفاتر القديمة، أعجبته رسوم النباتات، تركها قربه على الكومودينة، في غرفته المفتوحة على حقول العنابية، فكّر بإعادة كتابتها وتحريرها ونشرها. خطر له عنوان «الهيكل العظمي لديناصور» فكّر بأنّه عنوان يليق باعترافات مثيرة لرجل صاحب سيرة غريبة، أعجبه ما كتبه حنّا عن الديناصور ويوسف. ارتبك جنيد، لم يعد لديه وقت يسمح له بفعل شيء، ولا يريد لهذه المصنّفات الاندثار، قرّر في أعماقه أنّ حنّا كتبها لينشرها أحد ما، لا يريد أن يصبح قدّيساً بحكايات مخترعة، يريد أن يروي حكايته الحقيقيّة التي لن تعجب ماريانا، نهض وفتح حقيبته الكبيرة، رمى المصنّفات فيها، واختار لها مكاناً ثابتاً في مكتبته...

شعر حنّا بتخلصه من عبء ثقيل، شعر بنفسه خفيفاً، لن يكترث جنيد بمصنّفاته، سيرميها للنار، انبثقت في أعماقه قوّة عظيمة، وقرّر الرحيل مع زكريّا، طلب من وليم مرافقتهما في مشوارهما

الأخير وتركهما بعد الوصول إلى هدفهما، لن يموت هنا، سيموت في المكان الذي حلم به، غرفته في حوش حنّا، على ضفاف النهر. لن يخذله وليم، رتّبوا كلّ شيء، طلب حنّا من وليم انتظاره في منزل زكريّا الذي كان ممدّداً على محفّة، ساعده حنّا ووليم على الصعود إلى العربة، غطّاه وليم ببطانية، ورتّب له المخدّة. وصلت العربة وسط الحقول إلى قبر وليم ميشيل عيسى وعائشة المفتي.

وقف حنّا بكلّ خشوع أمام القبرين، كان زكريّا من مكانه يراقب ويتمتم بكلمات لا يسمعها أحد. كان الفجر بارداً، حنّا يرتدي ثوبه فقط، يحمل عصاه ويهشّ بها نباتات الطريق، يبدو قويّاً، يسير قرب العربة التي تحمل زكريّا، سار في الطرقات التي تؤدّي إلى القلعة، كان حافياً، وقربه وليم الذي يقود العربة، ينظر إليه غير مصدّق أنّ هذا الرجل الذي يهذي الآن سيسير أكثر من مئة كيلومتر ليصل مع صديق عمره المحمول على محفّة إلى غرفته في حوش حنّا.

وصلوا إلى منزل سعاد التي فوجئت بحنّا حافياً، بقي وليم خارج المنزل قرب العربة التي ركنها في شارع فرعي، تناول حنّا إفطاره معها ومع يوسف وحسكو، لم يمهل سعاد للشفقة عليه أو عرض أيّ شيء سيؤذيه، نهض واتّكأ على عصاه وخرج بمفرده، احتضن سعاد ويوسف وحسكو مودّعاً. خرج من باب المنزل الذي دخله قبل سبعين سنة طفلاً ناجياً من المجرزة، أغلقت سعاد الباب وراءه، لا تريد استقبال أحد هذا اليوم. على الطاولة لاحظت مظروفاً مغلقاً كُتب عليه «رسالة حنّا الأخيرة إلى سعاد» ارتجفت أصابعها، لم تلحظه حين ترك المظروف، حاولت تحاشي النظر وتركه مكانه، فكّرت بإعادته، لكن إلى أين؟ لن يعود حنّا إلى الدير، كانت تعرف جيّداً أنّه الآن يسير هائماً في الأرض كما يليق به. وضعت المظروف على الكومودينة، وبعد يومين، وجدت نفسها تجلس في سريرها تفتح الظرف وتقرأ الرسالة:

حبيبتي سعاد،

بعد قراءتك هذه الكلمات سأكون في طريقي إلى التلاشي، أعترف لك بأنّ لحظة سعادتي العظيمة ستكون حين أعود إليك بعد قليل ذرّة غبار عالقة في ثيابك، تجد طريقها إلى دمك، حيث مكاني الذي لن أبرحه، كما كنت دوماً في دمي طوال سبعين سنة. يجب أن أخبرك بأنّ جسد زكريّا المتقرّح ينتظر الموت. نحن الاثنين اتفقنا دون أن نتحدّث على أن نبقى معاً حتى اللحظة الأخيرة، لم نعد مهتمّين بالقبور، لا أحد يعرف أنّ الدمامل غزت جسد زكريّا منذ ثلاثة أشهر، كعادته في معالجة الأمور الصعبة، لم يسمح لأحد بأن يدهن بثوره سواي. هل تستطيعين تخيّل ذلك؟ زكريّا سندنا، جدارنا، حامينا، سيّدنا، قائدنا، يستجدي الموت الأصمّ، اتفقنا على أن لا نخبر أحداً بكارثتنا، لم أتركه وحيداً، لم أخف من العدوى، ولم يسمح لي بالمغادرة وحدي، قال لي: «دعني أتفكّك قرب النهر»، لم تعد الطعوم تعني أيّ شيء. بعد موت عائشة، بقي القوس مفتوحاً، انتظرنا موتي أو موت زكريّا، أو موتك، لنغلق قوس الدائرة، لكن كما ترين لم يحدث هذا. حين أتيتم بجثّة عائشة، أنت ويوسف ووليم، لم نستوعب الأمر، لم أصدّق، كلّ يوم أسأل زكريّا متى ستأتي عائشة؟ يخبرني بأنّها ماتت ودفنّاها في قبرك، لم أتوقف عن السؤال نفسه، وبتكرار مقيت يجيبني زكريّا بأنّها ماتت. أريد أن أسألك للمرّة الأخيرة إن كانت عائشة ماتت فعلاً، أم هي واحدة من ألاعيب طفولتها التي أسرتنا؟ أنت لا تذكرين لأنّك كنت بعيدة عنّا، كنت أستيقظ فجراً لأجدها تنظر إليّ مبتسمة، تأمرني أن أنهض، تقول إنّ الشمس سألت عنّي، ثمّ تضيف أنّ الريح كانت حزينة لأنّها لم تجدني، نقطع الممرّ إلى طاولة الإفطار، ونبدأ يومنا. كنت أفكّر بالهديّة السماويّة التي منحتنا إيّاها شاها قبل موتها، كنت أفكّر بأنّني أستيقظ من أجل تلك الابتسامة البريئة.

لقد دفنّا أحبابنا كما قلت، مات وليم عيسى وحبيبته عائشة المفتي، مات عازار صديقنا، مات ديفيد، مات عارف شيخ موسى، مات أبونا أحمد البيازيدي وقبله ماتت رضيّة أمّنا، وقبلهم جميعاً ماتت أمّي وأبي وأختي وإخوتي الأربعة، كثيرون من أحبابنا ماتوا، ظننّا أنّنا نجونا من الطوفان، عقدنا صلحاً مع الموت لكنّه غدرنا بموت عائشة، لم أصدّق ببرودة جسدها، وابتسامتها الثابتة، لم أصدّق وجهك الأصفر ودموع يوسف وابنتها دلشان وابنها حسكو، مضى كلّ شيء ككابوس، كنّا نظنّ أنّها لعبة اخترعتموها لاستعادتنا أنا وزكريّا، حين مدّدناها في قبري بعد تعديله ليناسبها، لم يعد لديّ شيء أمنحها إيّاه سوى قبري، وبعد مغادرتكم شعرت بفراغ هائل داخلي، بقينا أنا وزكريّا نلتقي فجراً عند قبرها، لم يعد لدينا شيء نقوله، يسير زكريّا ببطء، يساعده بولس الذي أصبح عجوزاً أيضاً، منذ تلك اللحظة فكّرت للمرّة الأولى بأنّني كنت سبب خساراتنا جميعاً، دخلت باب منزلك قبل سبعين سنة وخرّبت حياتكم، وها أنا سأخرج للمرّة الأخيرة من الباب نفسه، تاركاً ورائي الجميع حطاماً. حتى أنت محطمة، لم يبق منك شيء سوى الذكريات.

بعد الطوفان، في ليلتي الأولى وأنا أتأمّل مشهد القرية المندثرة شعرت بأنّه لم يبق منّي شيء، حاولت السير، العودة مرّة أخرى إلى حلب، لكنّي لم أستطع، كنت مذهولاً من سرعة تحوّلي، كأنّني مددت يدي ونزعت قناعي، ليتبدّى وجهي الجديد، حياتي الجديدة، نزعت جلدي، كلّ شيء غاب خلال لحظات لكنّها تشبه الأبديّة، قدماي لم تعودا تحملانني للسير، وعيناي لا تريدان رؤية شيء، تمنّيت في تلك اللحظة لو أنّني أعمى، معتوه، لكن من حسن حظي لم أكن مضطرّاً للإجابة عن أسئلة البشر، لا تهمّني، صورتي الجديدة، قلبي، روحي، أتلمّسها أنا فقط، لحظات بطول الأبديّة، كأنّه مرّ قرن بأكمله، سمعت تقصّف جلدي القديم، وانسرابه إلى النهر، كنت أراه لكنّي لا أستيطع إيقاف شيء، لا تحوّلي، ولا الروح الجديدة التي حلّت في بدني.

انبثقت داخلي بذرة الشك، تزاحمت الأسئلة، لم أجد جواباً واحداً، ما زالت تلك الأسئلة تعيش داخلي دون أجوبة، لماذا خُلقنا إن كان الشقاء ينتظرنا؟ ما هي السعادة التي يتحدّث عنها البشر؟ أستطيع تعداد مئات الأسئلة. اعتقدت بعد الطوفان، ذات لحظة، وأنا أنظر من نافذتي إلى المكان المندثر، بأنّني وجدت أجوبة لأسئلتي عن السعادة، الملكيّة، الموت، الطبيعة، لكن كلّ فترة كانت تعود الأسئلة مرّة أخرى كقطيع أغنام شارد في البراري، أو كعاصفة قويّة تحطّم نوافذي، لا يمكننا رؤية الله، إذن يجب أن نعتاد غياب من نحبّ، كدت أصدّق في لحظات كثيرة ادّعاءات ماريانا أنّني من الممكن أن أكون قدّيساً، يستطيع الوصول إلى روح الله والمسيح، عقد صلة بيني وبينه، كنت أتمدّد وأرى من نافذتي النجوم ولون الليل يتغيّر، أغفو وأعتقد بأنّ الأحلام هي المكان المناسب لأوهامي، لكنّي لم أر في حياتي سوى الكوابيس، كلما رميت أثقالاً من ذاتي الآثمة كانت تنبت آثام جديدة. كلّ ما فكرت فيه بعد الطوفان واعتقدته حقائق تناثر مع الريح، كنت أرى صورة الله والقدّيسين تتناثر على صفحة النهر، في حقول الرمّان، في انسرابك إلى دمي، في مبيتي الدائم بدمك، لا شيء يجدي، الموت حقيقتنا الوحيدة، وانبعاث الحياة في أزهار الرمّان كلّ سنة، وموتها حقيقة الأزل.

توقفت عن قراءة الكتب التي أحضرها لي الأب إبراهيم، اعتقدت للحظة بأنّ من العبث فهم حقيقة الله، وتنوّع الأديان. شعرت بأنّني فعلت أشياء كثيرة تكفيراً عن ذنوبي، لكنّ ما فعلته بك يحتاج التكفير عنه إلى أعمار كثيرة. كنتِ سعادتي التي أضعتُها، كنتِ يقيني الذي أحتاج إليه في كلّ لحظة، لكنّي كنت مبعثراً طوال هذه السنين، وتأمّلاتي كانت تزيدني حيرة، لماذا لم أكن زهرة رمّان على غصنك، أنت الشجرة التي أحبّ؟

كم كان سيكون رائعاً بكائي حين يقطفونني، حين أغادرك لأعود في العام المقبل مشتاقاً، أحتضنك، ألتصق بك كما يليق بزهرة رائعة تتحوّل ببطء إلى ثمرة. لا أحد يرانا وأنا أدخل نسغك، وأحتجب عن كلّ ما هو مرئيّ. لو كنت تلك الثمرة لأصبحت حياتنا التي عشناها أكثر براءة.

فكّرت كثيراً بك كصورة عن الله الذي أحبّ، فكّرت بك كصورة عن اليقين الذي أبحث عنه، أنت لست امرأة بل نهرٌ أستريح في قاعه من حرقة الأسئلة. نعم، قد يكون الحبّ هو السعادة الوحيدة القريبة من أصابعنا التي لم تستطع التقاطها.

لن أطيل عليك، تركت دفاتري لجنيد خليفة، لم أرغب في أن أثقل عليك، أردت التخفف ولا أريد أن تثقل أشيائي من بعدي عليك، بماذا تفيدك بضع صفحات من الاعترافات المثقلة بالندم. الندم لا يفيد في شيء. في السنتين الأخيرتين لم أستطع احتمال فقدانك، وفقدان عائشة، وبثور زكريّا أنا المسؤول عنها، لقد أضعفت هذا الجبّار، تجرّع الذلّ من أجلي، كنت أراه يكتم غضبه، لكنّي كنت عاجزاً لا أستطيع خلع ثوب الزاهد، والعودة مرّة أخرى إلى صورتنا القديمة حين كنّا أطفالاً نشهر سكاكيننا باحثين عن ضحيّة، لو بقيت ممتلئاً بالجشع، وحبّ الملكيّة وروائح العاهرات لمنحتك مبرّراً لصفعي مرّة أخرى، لكن حتى هذا المبرّر سلبته منك.

آلاف الصور في ذاكرتي التي لم تعانِ يوماً من النسيان، صورنا ونحن أطفال، صورنا ونحن ننظر إلى العالم من فوق جبل الجوشن، وطائرات زكريّا الورقيّة تعبر المدينة، صورنا التي لم تتوقف عن التناسل في ذاكرتي، وأسئلتي ستبقى مئات السنين دون أجوبة، البشريّة تراكم الأسئلة ولا تحاول إيجاد أجوبة لمعضلات تتكاثر كلّ لحظة، واهم من يعتقد بأنّه سيرى وجه الله، أو ينتظر قيامة يسوع، كلّ لحظة يسوع ينهض ويبحث عمّن يحتاج إليه، لكنّ حائطاً قاسياً يرتفع بينه وبين محتاجيه المعذبين.

أنا واحد من هؤلاء المعذبين، أتحسّس الجدار بيني وبينه كلّ لحظة، لا أقوى على هدمه وأسمع أنفاسه تطوّقني من بعيد، يكفيني ذلك. أنت أيضاً كانت أنفاسك تطوّقني من بعيد.

في طريقي إلى التلاشي أترك لك خطواتي الممحوّة، وأنفاسي، وندمي الذي لن يفيد، سامحيني كنت أضعف من الكائن الذي رسمتِ صورته في ذهنك، طوال عمري كنتِ الطيف الذي غمرني بالحبّ، لم تتوقفي عن منحه لي بكرم الأخت والأم التي فقدت، والصديقة التي ضاعت بين الصفات الأخرى والحبيبة التي لم أعرف سوى التسلل إلى دمها والاختباء. أنا وزكريّا سنتلاشى، عشنا معاً ونموت قريبين.

أحتضنك،

أحبّك،

وما بقي منّي لا يكفي للندم...

حنّا

22 آذار 1951

بهدوء أعادت سعاد الأوراق إلى المظروف، استيقظت صباحاً، وضعت قطع ثياب قليلة في حقيبة صغيرة، أرسلت في طلب السيّارة التي لم تتأخّر في الوصول، أغلقت أبواب الغرف بالمفاتيح، وأغلقت الباب دون أن تلتفت إليه، صعدت إلى السيّارة التي انطلقت. وصلت إلى حوش حنّا قبل الظهر، تابعت طريقها إلى غرفة حنّا التي تستطيع رؤيتها من كلّ مكان، دخلت إلى الغرفة، كان زكريّا ممدّداً على اللوح الخشبي، ينظر إلى نقطة في سقف الغرفة، لم يسألها عن

سبب مجيئها، كان ينتظرها، كان حنّا جالساً مكانه، تحسّست يد زكريّا، بكت بحرقة، سمعت صوت ضحكته خافتة، وكلماته: «لقد انتهى كلّ شيء، الموت الذي اعتبرته صديقاً خانني»، وتوقف عن الحديث فجأة. كشفت سعاد عن جسده المتقرّح. نهضت وتحدّثت مع حنّا الذي دخل حاملاً قطع أقمشة مغليّة، كانت أصوات فلّاحين بعيدين في طريقهم إلى الحقول تصل إلى مسامعهم، قرّرت البقاء رغم عدم رغبتهما، رتّبت الغرفة لتتّسع لثلاثتهم، كان زكريّا يتقلّب ببطء، وتشمّ رائحة جلده الذي بدأ بالتفسّخ.

كان حنّا طوال الطريق إلى حوش حنّا يتحدّث بمرح، يخبر وليم قصصاً كثيرة عن طفولتهم. كان يتحاشى البشر، يسير في الطرقات الفرعيّة، محتملاً آلام الطريق، ناما ليلة في أحد كروم الزيتون، كان برد آذار قارساً، اكتفى بغطاء خفيف، غفا لساعتين، نهض بعدها ليكمل طريقه بنشاط محاذياً ضفة النهر، وصلا إلى حوش حنّا مساء اليوم الثاني، كانت الغرفة معدّة كما هي، مسح وليم الغبار، جلب ماءً من البئر القريب، وكانت حوش حنّا كما هي بعد الطوفان، مهجورة، لم تنجح محاولات عودة بعض العائلات للعيش فيها، أصبحت الأراضي تابعة للكنيسة التي أجّرتها لمستثمر زرعها قطناً، واحتفظت بمكان حنّا نظيفاً كما كان، كان أبناء الخادم نفسه ينظّفون الغرفة كما فعل أبوهم منذ أكثر من ستين سنة. اطمأنّ إلى فراشه وأشيائه القليلة، كانت كما تركها منذ رحلته الأخيرة مع زكريّا. طلب حنّا من وليم المغادرة. لم يسمح له بالمبيت، وحمّله رسالة شفهيّة إلى ماريانا أن لا ترسل أحداً إليهما، مضيفاً: لن تمتلك أصلاً الوقت الكافي لذلك. احتضن وليم الذي انحنى وقبّل زكريّا الممدّد على لوح خشبي، همس له أنّ مريم ما زالت تنتظره وأنّ الوقت ما زال مبكراً لموته، وكان وليم يحتاج إلى هذه الكلمات ليعود إلى حلب، ويرسل إلى مريم رسالة قصيرة لتحضر إلى الاستديو الذي كان خليل قد حوّله إلى مكان بشع، لكنّ كرسيّ مريم بقي كما هو. غضب من خليل الذي عمل بجدّ خلال أيّام لإعادة المكان إلى سابق عهده.

تلقّت مريم رسالة وليم لكنّها لم تأت، انتظرها عدّة أيّام ولم تأت، ذهب لمقابلة سام، وجده يردّد الحكايات نفسها، مضيفاً سيرة وليم ونسائه إلى حكاياته، شعر بملل شديد، عاد إلى منزله، كانت الجدران باردة، لأول مرّة يشعر بطعامه البائت عفناً. جال في الاستديو، فكّر بأنّ المكان تهدّم، لا يمكن إعادة ترميمه مرّة أخرى، انسربت من ذاكرته اللحظات التي كان يعتقد بأنّها ستبقى للأبد، تأمّل صور النساء التي أعادها خليل كما كانت من قبل، لم يبق من هؤلاء النسوة إلّا الظلال المؤلمة، وهم الشباب، وإيقاف الزمن في لحظة جمال تبدّدت. فكّر بأنّ غرفة حنّا في حوش حنّا مكان مناسب للعيش، خرج فجراً من الاستديو، وجد بوسطة تقلّه إلى مفرق حوش حنّا، انحشر مع الركّاب، لم يكن يستمع إلى ضجيجهم، وصل إلى حوش حنّا ليلاً، صعد درج الغرفة، كان حنّا يقعي في الزاوية وقربه زكريّا وسعاد تعتني بالرجلين، قال له حنّا كنت أعرف أنّك ستعود، لكنّك لم تتأخر، لم يجبه وليم، نام بعمق قرب الطرّاحة التي ينام عليها أبوه زكريّا الذي لم يقبل ببقائه وطلب منه تركهم وحدهم. عاد وليم إلى الدير، وبعد يومين استقرّت حياتهم هم الثلاثة.

جلست سعاد على الكرسيّ تتأمّل الليل. سألتهما إن كانا يتذكّران رسائل النهر، استرسلوا في الحديث، ضحك ثلاثتهم ثمّ امتدّ صمتهم. غفت سعاد للحظات، وعندما استيقظت كان الفجر رائعاً، نباتات أزهرت، ألوان جديدة، كلّ شيء جديد، لم تجد حنّا، زحف زكريّا إلى الكرسيّ، وقفت سعاد قربه، زكريّا يئنّ متألماً، سألته عن حنّا فقال إنّه رآه يسير على ضفّة النهر، كان حنّا يسير ببطء، وزكريّا من مكانه يراقبه، يبكي بحرقة، ثمّ يتوقف عن البكاء، وصل حنّا إلى النهر الذي بدأت مياهه تفيض أوائل الربيع، سار حنّا، وغاص في النهر، رأى زكريّا التيّار القويّ يجرفه.

لم تصدّق وتفهم حتى رأت عشرات الشباب يتشاورون ثمّ يغوصون خلفه في النهر، كانت الألوان تبدو لسعاد جديدة، تتغيّر كلّ لحظة، وحوش حنّا التي لم يتوقف زكريّا وحنّا وماريانا عن الحديث عنها كفردوس مفقود لم يبق منها سوى هذه الغرفة المتربّعة على التلّ.

قبل أن ينتصف النهار، كان زكريّا جالساً مكانه على الكرسيّ يراقب كلّ شيء، قطع من جسده تتساقط منه وهو غير مبالٍ، رأت سعاد آلاف البشر ينزلون من الباصات والسيّارات التي ملأت المكان، ويتّجهون نحو ضفّة النهر، كأنّ مدينة ما انبثقت من جديد، عشرات الشباب يغوصون في المياه الباردة يبحثون عن حنّا الذي اختفى في الأعماق التي سار إليها قبل الفجر بقليل، كان القمر مكتملاً يسطع على صفحة النهر الهادئ، لم يتمهّل طويلاً، غاص في أعماق النهر، هناك كان ابنه كابرييل وجوزفين وابن زكريّا والخوري وخطيب إيفون وأبوه صاحب المطحنة وباقي الغرقى ينهضون من موتهم مرحين، اصطحبوه من يده إلى ملكوتهم حيث الحياة هناك طريّة والأسماك لا تموت.

دمشق – كامبريج – بوسطن

صيف 2015 – ربيع 2019

عرفان بالجميل

أشعر بالعرفان والتقدير لأصدقائي الذين كانوا معي كرماء كما هي عادتهم دوماً، قرأوا مسوّدات هذه الرواية في مراحلها المختلفة، وكان لملاحظاتهم الدقيقة أبلغ الأثر في نفسي، وفي تخليص النصّ من شوائب كثيرة، وإن كان لا يزال هناك الكثير منها، فهي مسؤوليّتي الشخصيّة.

بداية أشعر بالعرفان الدائم لصديقتي الرائعة، ووكيلتي الأدبيّة، الدكتورة ياسمينا جريصاتي التي لا يتوقف كرمها معي على هذه الرواية، بل يمتدّ إلى كلّ حياتي، وكلّ كتبي. في هذه الرواية كانت معي منذ اللحظات الأولى لبداية فكرتها قبل أكثر من عشر سنوات، واستمعت طوال سنوات الكتابة إلى هواجسي، احتملت قلقي، وقرأت المسوّدات الأولى الفوضويّة والنهائيّة أكثر من خمس مرّات، رافقت العمل في مراحله وأشكاله المختلفة، وكتبت تقارير طويلة وعميقة عن كلّ تفاصيل العمل، ومنحتني من وقتها الثمين ساعات طويلة للتحدّث مباشرة حين نلتقي أو عبر السكايب، وكان لعملها محرّرةً وقارئة أثر بالغ عليّ.

كذلك أتوجّه بالشكر لصديقي المحامي جان مصري عاشق الكتب، ورفيق مقاعد الدراسة في كليّة الحقوق في جامعة حلب، الذي ما زال يحتفظ حتى هذه اللحظة بأناقة روحه الكريمة، وشغفه بتاريخ مدينتنا حلب، الذي قرأ المسوّدة المبكرة، وسجّل جملة ملاحظات مهمّة، وأجاب عن أسئلتي في جلسة استجواب طويلة، وزوّدني بكرم بالغ ببعض المراجع التي لا بدّ منها.

والشكر لصديقي الناقد والكاتب صبحي حديدي الذي رغم ضيق وقته، قام بقراءة متأنّية للمسوّدة ما قبل الأخيرة وسجّل جملة ملاحظات مهمّة لمتن السرد واللغة والمعمار الروائي.

والشكر لصديق العمر الشاعر والقاصّ عائد أبو حسّون الذي قرأ النصّ بإمعان ودقة كبيرة، ونبّهني إلى أخطاء المسوّدة المبكرة، كما قام بجدولة الشخصيّات ورسم خريطة علاقاتها بدقته المعهودة، وكان لملاحظاته وتواصلنا أثر كبير على هذه الرواية وفي نفسي أيضاً.

والشكر لصديقي البروفيسور وائل فاروق الناقد والكاتب والمترجم وأستاذ الأدب العربي في الجامعة الكاثوليكيّة في ميلانو الذي سجّل جملة ملاحظات نبيهة، كانت في غاية الأهمّية، والنقاش معه لم يتوقف منذ ثلاث سنوات حول هذه الرواية.

والشكر لصديقي الكاتب والطبيب حسين جاويش الذي علّمني الكثير حين كنت شابّاً صغيراً، وما زال يعلّمني، ولم يبخل عليّ بوقته، درس كلّ شخصيّات الرواية على ضوء علم النفس،

وأضاء بملاحظاته القيّمة على البناء الروائي، وتاريخ الشخصيّات ودلالاتها، وكان لأحاديثنا الطويلة في برلين ربيع عام 2018 ولما كتبه لي عبر الإيميل أبلغ الأثر.

والشكر لصديقي المخرج الكبير هيثم حقي وملاحظاته، وكرمه الذي اعتدت عليه طوال علاقتنا التي امتدّت عبر عشرين سنة.

والشكر لصديق العمر الصحافي والكاتب سيّد محمود الذي تكرّم علي بقراءة دقيقة، وسجّل جملة ملاحظات، ومنحني وقته لنقاش طويل ومفصّل.

والشكر لصديقتي رنا حايك المحرّرة في دار نشري هاشيت أنطوان – نوفل، التي تراعيني أثناء العمل، وتحتمل مزاجي الفوضوي، ولا تشعر باليأس في سعيها بعمل دؤوب للوصول بالنصّ إلى أفضل صيغة ممكنة.

والشكر للصديقة أريج جمال الكاتبة ومحرّرة كتب دار العين التي كان لملاحظاتها الدقيقة، وأحاديثنا ونقاشاتنا، أبلغ الأثر في تخليص النصّ من شوائب كثيرة.

والشكر للدكتورة سارية مرزوق التي قدّمت لي معلومات قيّمة عن الأحصنة، ومنحتني بكرم وقتها الثمين حين أجابت عن أسئلتي.

والشكر لصديق العمر علي أبو حسّون والصديقة المترجمة إبتهال محمود والصديقة لمى محمّد والصديقة فاطمة جديبا لاهتمامهم بالنصّ، ولعب دور القارئ في مراحل مختلفة من كتابة النصّ خلال السنوات الأربع الماضية، والسماح لي بتوجيه أسئلة في جلسات استجواب طويلة عن الرواية وشخصيّاتها، كان لأجوبتهم بالغ الأثر في تفكيك النصّ ومحاولتي فهمه.

كذلك لا بدّ من توجيه الشكر إلى الصديقة الكاتبة الأميركيّة Jane Unrue مديرة Harvard Scholars at Risk Program وكل العاملين في هذا البرنامج الذي استضافني لكتابة جزء من هذه الرواية، كانت جين صديقة رائعة أحاطتني بمودّتها في أصعب ظروف حياتي عام 2015.

والشكر لكلّ العاملين في (Institute of International Education (IIE الذين قدّموا لي منحة كتابة بالتعاون مع جامعة هارفارد، لأتفرّغ لكتابة جزء من هذه الرواية.

والشكر أيضاً لأصدقائي وصديقاتي في برنامج Passa Porta للكتابة في بروكسل الذي استضافني ربيع عام 2016 لمدّة خمسة أسابيع، لمراجعة الفصول الأولى.

والشكر لبرنامج Santa Maddalena في فلورنسا الإيطالية وكلّ العاملين فيه، الذي استضافني لمدّة شهر ونصف للعمل على النسخة ما قبل النهائيّة ربيع عام 2018.

والشكر لأصدقائي الذين احتملوني في السنوات الأربع الماضية، ونحن نقطع شوارع دمشق المظلمة. استمعوا إلى هذياني عن الرواية وشخصيّاتها، كما احتملوا هذياني في رواياتي السابقة، احتملوا كلّ ذلك بحبّ شديد. أخصّ منهم بالشكر صديقي الرائع المخرج المسرحي أسامة غنم وصديقي الرائع بولس حلاق وصديقتي الرائعة لنا أنطاكي وصديقة العمر النحاتة صفاء الست.

العرفان بالجميل والشكر الجزيل لكل هؤلاء الصديقات والأصدقاء، الذين غمروني بالحبّ، ومنحوني وقتهم الثمين بكلّ كرم وأريحية.